تاريخ العالم الغربي

ل.ج. شيني

- المؤلف: ل.ج. شيني
- العنوان: تاريخ العالم الغربي
- المترجم: مجد الدين حفني ناصف
- الطبعة: الأولى 2019
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
٢٢٥٦٢ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 203 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ل.ج. شيني

تاريخ العالم الغربي

ترجمة
مجد الدين حفني ناصف

مراجعة
علي أدهم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

شيني، ل. ج.

تاريخ العالم الغربي – ل. ج. شيني

ترجمة: مجد الدين حفني ناصف

ط1القاهرة –آفاق للنشر والتوزيع – 2019

416 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 22562 / 2018

الترقيم الدولي 2 – 203 – 765 – 977 – 978

1 – تاريخ

أ – العنوان

مقدمة

ورد في إحدى القصص الشرقية القديمة أن ملكًا شابًّا تملكته، فجأة، الرغبة الملحة في استقصاء أخبار الماضي. فأرسل في طلب علمائه وأمرهم أن يكتبوا تاريخ الماضي جميعًا. وبعد سنوات عدة تذكر أمره وأرسل في طلب العلماء وسألهم عن مدى تقدمهم في العمل. فأخبروه – مسرورين– بأنهم قد أنجزوه، منذ فترة وجيزة، في ستين مجلدًا. فشكرهم على كدهم وأشار إلى لمته الشيباء ورجاهم أن يضغطوه في ثلاثة مجلدات؛ وفي هذا سلخوا عشر سنوات أخرى. ولم يكن لدى الملك وقت ولا قوة تعينانه على قراءتها، فأمرهم بأن يضغطوها جميعًا في مجلد واحد. فأكبوا على هذا العمل في جهد لا يُصدق وأتوا بالكتاب، في الوقت الملائم، إلى الحضرة الملكية. ولكن الملك عندئذ كان قد أمسى شيخًا واهنًا وكاد بصره يعشى. فقال لكبير العلماء: «قل لي – أنت يا من قضيت عمرك طرًّا في هذا العمل المضني– لخِّص لي في جملة واحدة كل ما وعيت من أخبار الماضي». فكان جواب الشيخ للملك الشيخ: «عشتَ سرمدًا أيها الملك، أسألك الرحمة، فليس عمل هذا في مقدوري». غير أن الملك أصر. فقال العالم وقد قوَّست ظهره السنون: «تعلمت أن أجيالًا كثيرة من الناس ولدوا وكبروا وأحبوا وتألموا وماتوا». وهنا غضب الملك، وكان محقًّا في ذلك، إذ كان في وسعه أن يقول ذلك دون عناء. وأسلم العالم إلى الجلاد العام، ثم رثي لقِصَر حياة الإنسان وطول التاريخ.

وكلنا، في شبابنا، في مركز يشبه هذا الملك. ولكن من حسن حظنا أن مئات من العلماء قد كدوا طوال القرون لنتعلم ونسعد. وبذا يتسنى لنا، ونحن لا نزال في شبابنا، أن نُشبع منا حب الاستطلاع. وإنما في شبابنا يجب أن نعرف كيف «يتسق» الماضي جميعًا، وأن نعرفه على أنه قصة واحدة طويلة تفضي إلى الحياة الخاصة لكل منا.

وهكذا الكتاب حكاية عن أناس وأزمنة وأمكنة، حكاية ما أتاه الناس ومتى وأين. ومن الجائز بطبيعة الحال (بعد كدٍّ مُضْنٍ) كتابتُه في ستين مجلدًا، إذ إنه لا يعدو أن يكون قطعة من حكاية كاملة. ولو فرضنا إمكان قولِ كلّ ما يمكن قوله، فإن الجزء الأكبر الذي لا نعرفه ولم نعرفه سيظل مع ذلك مجهولًا.

وإذا شاءت الصدفة أن تكون أميرًا (وهذا أمر بعيد الاحتمال) فقد تجد سجلًّا ما لأسلافك يوصلك إلى بعض مَن تقدّم منهم. ولكن إذا شاءت الصدفة أن تكون شخصية عادية، فلن تجد مثل ذلك السجل. ومع هذا فإن أسلافك قد عاشوا كلَّ الأزمنة الماضية.

وإذا قدّرت خمسة وعشرين عامًا لكلّ جيل فإن سلسلة طويلة من أسلافك تقودك إلى الإمبراطورية الرومانية. ولقد حوّر هؤلاء الأسلاف، على صورة ما لغتهم من الأنجلوسكسونية أو الرومانية السلتية[١] أو الدنماركية إلى اللغة الإنجليزية التي تتكلمها اليوم. وهم غيروا عاداتهم ودينهم وأساليب معيشتهم كما غيروا لغتهم. ولقد أسهمتْ أسرتك في صنع الحاضر من الماضي، كما تسهم أنت الآن في تشكيل المستقبل بما تصنعه في الحاضر.

ولننتقل الآن إلى حكايتنا التي لا تحوي بطلًا واحدًا وحسْب، بل تغصّ بالأبطال، حكايتك التي لا أول لها بسبب ضياع السجلات، والتي لا آخر لها؛ لأننا لا نزال جزءًا منها، وهي تخص كلَّ الرجال والنساء والبنين والبنات.

---

(١) **Celtie** نسبة إلى السلتيين سكان غرب أوروبا الأقدمين.

محتويات الكتاب

مقدمة	٥
محتويات الكتاب	٩
تمهيد: تاريخ أربعين قرنًا	١٣
البَاب الأول: حول البحر الكبير أو شعوب العصور الخالية	١٥
قبل الميلاد وبعد الميلاد	١٥
قبل استعمال الحديد	١٧
العصر البرونزي	٢٠
علم العاديات (الآثار القديمة)	٢٤
أين بدأت المدنية؟	٢٦
مصر الفرعونية	٣٠
الإمبراطوريات البائدة، في الشرق القديم	٣٣
قوة كريت البحرية وقوة آشور البرية	٣٨
الفرس	٤٣
الإغريق	٤٥

مجد المدن الإغريقية وانحلالها ٥٠
الإسكندر ٥٤
جوابو البحار ومدن غرب البحر الأبيض المتوسط ٥٦
قيصر ٦٥
أهالي «مدينة غير دنيئة» ٦٩
الدينات القديمة واليهود ٧٦
المسيحية ٧٩
سقوط بيت المقدس ٨٢
الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية ٨٣
الباب الثاني: نهاية الإمبراطورية الرومانية وضياع العلوم القديمة ٨٩
الإغارة على الغرب ٨٩
البربر والأساقفة ٩٥
الإمبراطور جستينيان ٩٨
البَاب الثالث: رايات الصليب أو مملكة وحصن وكنيسة ١٠٣
المسيحية: البابا جريجوري الكبير ١٠٣
رجل من الصحراء ١٠٦
الهلال في أولى مدافعاته ١٠٩
شارلمان ١٠٩
رجال من الشمال ١١٢
ألفرد وسكس ١١٦

مدنية عربية ١١٩
النورمنديون والحروب الصليبية الكبرى ١٢١
شؤون الحرب والعبادة: الحصن والكنيسة ١٢٨
حجاج من كانتر بيري ١٤٠
الفرسان والشهامة ١٤٣
أرباب الحِرَف بالمدن ١٤٤
رجال القانون ورجال الدين ١٤٧
المزارعون ١٥٠
الكنيسة ١٥٤
البحارة والرحالة ١٥٧
حروب الصليب ١٦١
نهاية القسطنطينية ١٦٢
سقوط غرناطة في إسبانيا ١٦٥
الاتجاه صوب الجنوب ١٦٦
وراء رأس الرجاء الصالح ١٦٨
جزائر غروب الشمس (سَنْسِت) وإمبراطوريات عجيبة ١٧١
توسع المعمورة ١٧٥
المسالك البحرية ١٧٧
البَاب الرابع: إعادة استكشاف العلوم القديمة ١٨١
ثلاث مدنيات ١٨١

بدء التنقيب	١٨٦
عصر النهضة العلمية	١٨٨
الطباعة	١٩١
البَاب الخامس: ممالك الغرب الكبرى والدنيا الأمريكية الجديدة	١٩٥
الإمارات والدول	١٩٥
مذاهب كنسية متعددة بدلًا من مذهب واحد	١٩٧
الملك هال المخادع	٢٠٢
كتب مقدسة للفلاحين	٢٠٦
مائة السنة الإسبانية	٢٠٨
ماري ملكة الإسكتلنديين	٢٠٩
الهولنديون	٢١٣
رواد البحر الإنجليز –و– دريك	٢١٤
الأرمادا الإسبانية	٢١٦
إنجلترا في عصر إليزابيث	٢١٨
قرن جديد	٢٢٢
المقارنة: بريطانيا	٢٢٤
المقارنة: فرنسا	٢٣٠
الاتجاه صوب الغرب	٢٣٣
السلطان والقيصر	٢٣٨
بريطانيا تعادي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر	٢٤٢

حرب السنوات السبع ٢٤٨
الإنسان والكون ٢٥٣
الثورة الأمريكية ٢٥٩
ثروة الأمم ٢٦٥
البَاب السَادس: الثورة الفرنسية ٢٧٧
الثورة ٢٧٧
نابليون والبحرية البريطانية ٢٨٢
نابليون وإسبانيا وروسيا ٢٨٨
البَاب السَابع: اختراعات عديدة ومعارف جديدة ٢٩٣
أحداث السياسة: ممالك وجمهوريات ٢٩٤
السياسة: الحرية ٢٩٧
السياسة: أم البرلمانات ٣٠٢
الاختراع: المهندسون ٣٠٥
الاختراع: الطرق والقنوات ٣٠٧
الاختراع: الفحم، والحديد، وقوة البخار ٣١٠
الاختراعات: الأرباح والخسائر ٣١٨
السياسة: عام ١٨٤٨ في أوروبا ٣٢٦
السياسة: إيطاليا وألمانيا ٣٣٠
السياسة: روسيا والثورة ٣٣٥
التوسع ٣٤١

التوسع: قصة الإمبراطورية والسلم البريطاني ٣٤٢
التوسع: المستعمرات البريطانيا المستقلة ٣٤٥
التوسع: الولايات المتحدة الأمريكية ٣٤٩
التوسع: الهند ٣٥٤
التوسع: الشرق الأقصى ٣٥٧
التوسع: أفريقيا ٣٦٠
الأمم في جهادها من ١٩١٣ إلى ١٩١٨ ٣٦٥
الإمبراطوريات التي تهاوت ٣٧٢
إحدى وعشرون سنة بين حربي ١٩١٨ و ١٩٣٩ ٣٧٦
الأمم في جهادها من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ ٣٨١
اختراعات لا حدّ لها وأناس كرمال البحار ٣٨٧
دخول الحاضر في المستقبل ٣٩١
الباب الثامن: خاتمة: أخبار العالم ٣٩٧
أخبار من لا مكان ٣٩٨
الماضي الحي ٤٠٠

مصورات جغرافية

١ - الشرق القديم.

٢ - إمبراطورية الإسكندر الإغريقية.

٣ - الإمبراطورية الرومانية.

٤ - غزوات البربر للغرب.

٥ - متاعب أوروبا الغربية - القرن التاسع.

٦ - الدول اللاتينية التي شاركت في الحملة الصليبية.

٧ - مخارج جنوبية من الأطلنطي.

٨ - محاولة إسبانية لغزو إنجلترا في سنة ١٥٨٨.

٩ - إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة ١٧٥٥ - ١٧٦٣.

١٠ - إمبراطورية نابليون الحربية ١٨١٠.

١١ - توحيد إيطاليا.

١٢ - توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب.

١٣ - احتلال أوروبا لأفريقيا.

١٤ - إمبراطورية آل هابسبورج ١٩١٤.

١٥ - تفتيت شرق أوروبا.

تمهيد

تاريخ أربعين قرنًا

إليك بيانًا واضحًا جليًّا عن تاريخ أربعين قرنًا. إنه سجلٌّ – لمغامرات واختراعات وتوسعات إقليمية –يأخذ بالألباب.

وإنّ ل. ج. شِني ليُشارفُ جميعَ ميادين المدنية الغربية: في السياسة والفن وأساليب الحكم والعلوم والفلسفة والدين. وهو يتقصّى مسببات الحروب ونتائجها ويحلل طبائع الأمم والرجال الذين شكلوا المدنية الغربية والبواعث التي حفزتهم إلى ذلك، أولئك الذين نقلوا تلك المدنية إلى قارّات أخرى وإلى جزرٍ نائية في البحار.

على أن هذا السرد الأخَّاذ البهيج، الحقيقي مع ذلك، يظهرنا على تفاصيل دقيقة، لمشاهد الماضي وأصواته التي قرّبتْها إلينا عدسات العلم والبحث الحديثة.

الباب الأول

حول البحر الكبير أو شعوب العصور الخالية

قبل الميلاد وبعد الميلاد:

تبدأ قصة مدينتنا في البقاع التي تحيط بـ«البحر الكبير». ونحن نطلق عليه اسم «البحر الأبيض المتوسط» ومعناه: البحر الذي يتوسط الدنيا، إذ هكذا لاح في وقت ما للرجال والنساء الذين عاشوا حوله. ولقد كانوا يخضعون جميعًا لسلطان حاكم موحد هو القيصر الروماني أو الإمبراطور الذي فتحت كتائب جنده أمصارهم والذي كان يجبي خراجهم.

كانت تلك هي الإمبراطورية العظيمة الذائعة الصيت التي فيها عاش عيسى وحواريوه، والتي كان بولس الرسول أحد مواطنيها. وقد امتدت شرقًا إلى نهر الفرات وغربًا إلى المحيط الأطلنطي وشمالًا إلى نهر الراين والدانوب وجنوبًا إلى الصحراء الكبرى.

ولقد كان التاجر في تلك الأيام، في حل من أن يقطع الطريق كلها من بابل إلى يورك، تحت سلطان حاكم واحد، متنقلًا من (خانٍ) إلى خان ومن مدينةٍ إلى مدينة على الطرق العامة المستقيمة المديدة الممهدة التي شقها مهندسو الرومان. ولربما كان الحارس، الذي أطل من مرقبه فوق الرمال على الصحراء الكبرى، من مواليد قرية من قرى الدانوب، وربما كان الرجل الذي خفر معسكرًا على الفرات ربيب

إسبانيا، وقد احترف يهود من فلسطين التجارة في أرض الراين، كما أن تجارًا من بلاد الإغريق قد أقاموا متاجرهم إلى جوار نهر التاين.

ولا عجب إذا كان الرومان قد أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم «ماري نوسترام» أي «بحرنا». ذلك أن سفنهم كانت تمخر مياهه الهادئة وعليها البضائع، التي أغنت حياة المئات من مدنهم، كالنحاس الأحمر من إسبانيا وزيت الزيتون والحبوب من شمال أفريقيا، والعاج والبردي والغلال من مصر، والخمور والخزف من اليونان، والجلود والأخشاب من فرنسا، والرقيق من كل مكان.

ولقد وردت في إنجيل لوقا العبارة الآتية[١] «وفي تلك الأيام صدر أمر أوغسطس قيصر بأن يُكتتَب[٢] كلُّ المسكونة. وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية فذهب الجميع ليكتتبوا، كل واحد إلى مدينته».

ويستطرد لوقا فيقص كيف أن (يوسف النجار) ومريم جاءا إلى بيت لحم في اليهودية بناء على هذا الأمر (العالي) وكيف ولد يسوع المسيح في بيت لحم بزريبة (خان).

وفي زريبة ذلك الخان في ذاك اليوم يبدأ تأريخنا.

تبدأ تواريخنا وتجري في اتجاهين: عكسي وطردي. فالعكسي أو ق. م. (أي قبل ميلاد المسيح) يتراجع إلى الماضي المظلم الغامض حتى بدء الخليقة. والطردي أو م. (أي ميلادية، يعني سنة كذا من الميلاد) تمتد إلى يومنا هذا.

ولقد حكم أوغسطس قيصر -أول أباطرة الرومان- من سنة ٢٨ ق. م. إلى ١٤ م. وهذا ما لم يعرفه هو لأنه كان يؤرخ لأعوامه من سنة ٧٥٣ ق. م. التي شيدت فيها روما. وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن أوغسطس كان يؤرخ لأولى سني حكمه بـ ٧٢٦ ولآخر سنة في حكمه بـ ٧٦٧. وبعملية حسابية بسيطة أخرى تكون سنة ١٩٥٨ م.

(١) الإصحاح الثاني.
(٢) يكتتب هنا معناها: يدفع ضريبة.

-في تأريخنا هي، حسب طريقة تأريخه هو: سنة ٢٧١١ من تشييد مدينة روما.

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية بداية قصتنا عن أوروبا الغربية، كما كانت أيضًا نهاية لقصة تزيد كثيرًا في الطول -على عديد من قدامى الشعوب- كالمصريين والبابليين والآشوريين والفرس والقرطاجنيين واليونانيين. والفترة التي خلت، منذ عهد أوغسطس قيصر وولادة المسيح إلى اليوم، ليست سوى عشرين قرنًا! وفي وسعنا بالمقابلة، أن نتلمس في غسق ما قبل الميلاد وظلمته الموغلين - تاريخ ما لا يقل عن أربعين قرنًا من الأجيال المتمدنة، ونعني بهم أولئك الذين وسعهم أن يستخدموا المعادن ويشيدوا المباني ويسكنوا المدن ويخلفوا وراءهم سجل حياتهم على صورة ما.

وسنعود في السباق إلى الرومانيين الذين التقت في إمبراطوريتهم نواحي المعرفة والفن التي نشأت مع المدنيات الخالية. غير أن هدفنا المباشر هو تلك المدنيات وما يعرف بأنه الأربعون قرنًا من التاريخ التي حوته. وسوف نعرض لعلماء العاديات (الآثار القديمة) الذين كشفوا في مهارة بحفائرهم بين خرائب المدن العتيقة -عن كثير من نواحي التاريخ القديم المهمل.

قبل استعمال الحديد:

ترجع أقدم سجلات الناس إلى آلاف مؤلفة من السنين إلا أنها سجلات غير مكتوبة. وإنا لنجد الأسلحة والأدوات الحجرية مبعثرة في أنحاء العالم كافة. ونجد البلط البدائية والمكاشط والمثاقب وسنان السهام التي صنعها الإنسان قبل أن يتوصل إلى صهر النحاس الأحمر والصفيح والحديد بعد فصلها عن الصخور وإلى صنع أدوات منها. ونجد شقفًا من الخزف ومن عظام الإنسان والحيوان. أما ما استخدمه الأولون -إلى هذا- من الأخشاب والألياف والقش والبوص والجلود والقصب فقد أصابه البلى والعفاء كما أتى على ملابسهم المصنوعة من الصوف المغزول. وتجد

«قشاشة مطابخهم» من عِظام الحيوان والأصداف والرماد الباقية إلى جوار مغاورهم وأكواخهم المقامة من الطين وحفرهم السكنية التي احتفروها في الأرض. ومن أولئك المجهولين الأولين، من قناصي الحيوان وصيادي السمك، الفنانون المهرة. ففي الكهوف العميقة بجبال البرانس نقوش على الجدران رائعة تمثل القنص صنعها -بوري المشاعل- أناس من تلك العصور الحجرية السحيقة البائدة.

ولقد تعلمنا الكثير وخمَّنَّا الكثير عن حياتهم مما نعرفه عن الهنود الحمر وعن زنوج أفريقيا وسكان أستراليا الأصليين والماوري بزيلندا الجديدة (وهم سكانها الأصائل) وكانوا جميعًا لا يزالون يعيشون في العصر الحجري عندما جاءهم البيض أول ما جاءوا. ولدينا، عنهم، كتب كثيرة ألّفها رحالة ومبشرون دينيون عاشوا بينهم وتعلموا لغاتهم وكتبوها.

وقد توسع في القيام بهذا النشاط، حقًّا، العلماء المسيحيون التابعون لجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية.

ولم يكن رجال العصر الحجري ونساؤه يتصفون بالغباء أو عدم الإتقان بل على العكس، رأينا كثيرًا منهم يتعلمون أشياء جديدة غريبة في سرعة بالغة. وقد استطاع هنود أمريكا الحمر في أقصر وقت أن يركبوا ويسوسوا الخيل التي أتى بها البيض إلى الدنيا الجديدة. وقد أصبح بعض زنوج الزولو -الذين كان آباؤهم من محاربي العصر الحجري- دكاترة في الطب والقانون والعلوم، وأعطى الملاحون الإنجليز -الذين هبطوا زيلندا الجديدة في السنوات الباكرة من القرن الماضي ليقطعوا شجر الكاوري[(١)] كي يصنعوا منه ساريات الشراع والقوائم -أعطى هؤلاء الملاحون الإنجليز بلطهم الحديدية إلى الماوري لقاء الطازج من الطعام. ثم رأوا الماوري يشتغلون ويستخدمون، في ارتياح تام، تلك البلط الحديدية بدلًا من بلطهم العتيقة

(١) الكاوري: شجر من الفصيلة الصنوبرية.

المصنوعة من الحجر الأخضر(١) وإن كثيرًا من صناعات العصر الحجري لتمتاز بجمال الصقل.

تصور نفسك في مكان امرئ العصر الحجري! لا ملابس لائقة ولا أدوات حديدية ولا بيوت بالمعنى المألوف ولا طرق ولا كتب ولا مصابيح بالمعنى المفهوم ولا شيء من وسائل الراحة: لا شيء غير كوخ أو حفرة في الأرض أو كهف وبعض الأعواد والحجارة والعظام والجلود والصلصال. لا معلومات حقة وإنما فيض من الخوف والفزع من الأرواح الشريرة. لقد بدأ الإنسان وكان عليه أن يكشف كل شيء ثم يلقن بنيه كل ما يعرف. وإننا - عندما نفكر في كل ما كشفه الإنسان في العصر الحجري- لينبغي لنا أن نسلّم بأنهم كانوا بارعين وواسعي الحيلة إلى أبعد الحدود. ومهما يكن فإن بعضهم كانوا أسلافنا!

لقد استبانوا فوائد أنواع النبات والحيوان والمعدن وبدأوا حرفة الزراعة وألفوا بعض الحيوان والطير، وصنعوا أواني الفخار البدائية، واخترعوا السلالة والنسج والضفر والعقد (الحبك) وتسقيف المساكن بالقش أو الغاب، وصنعوا فحم الخشب (الفحم البلدي)، كما صنعوا السفن الأولى، وجدلوا الألياف حبالًا، ولبسوا الجلد المدبوغ، وخاطوا جلود الحيوان بعضها إلى بعض بإبر من العظام، واحتفروا المناجم بحثًا عن الحجر الصواني وعرفوا كيف يصنعون منه الأدوات بالدق والشحذ. ولا مشاحة في أن بعض مصنوعاتهم كانت دقيقة بشكل مذهل، ومن ذلك البوميرانج(٢) الذي يستعمله سكان أستراليا السُّود، وقارب الإسكيمو الجلدي الخفيف الذي يتسع لحمل عدد كبير من الركاب والذي يقوى على الإبحار في المحيط الهائج، وكالقوارب ذوات الأجنحة الخارجية التي كان يستخدمها سكان جزائر بحر الجنوب. وإن المهارة الفائقة لتبدو لنا بوجه أخص في الحائط

(١) الحجر الأخضر من الصخور النارية.

(٢) البوميرانج: قطعة معقوفة من الخشب إذا رميت رسمت دائرة في الهواء وارتدت إلي حيث رُميت، يتخذها سكان أستراليا الأصلاء أداة لصيد الطير.

الحجري الجبار والطرق العظيمة التي شيدها الأنكاس في بيرو من دون استعمال الأدوات الحديدية.

ونحن في حل من الجزم بأنه كان من بين هؤلاء، أناس برعوا في قص أقاصيص عن الصيد أو الحرب، أناس رووا حكايات قديمة عن زعماء أقوياء ومحاربين شجعان، وعن أرواح الأشجار والأنهار، وعن الأصوات التي كانت تعوي بين الرياح.

ولقد تعلمت القبائل التي كانت تصغي إلى أولئك القصاصين، كيف ترقص وتبتهج بالغناء والترتيل على أنغام موسيقية غريبة عن آذاننا ولكنها غنية بالإيقاع، إنها أصوات طبل من الجلد وقصب من الغاب وألواح مصلة.

ولقد وضعوا - هم أنفسهم- نهاية العصر الحجري وذلك بعد أن تقدموا الخطوات الأولى - والأكثر صعوبة بناء على ذلك- صوب المدنية. لقد كشفوا عن المعادن.

أولئك البارعون من الذين سكنوا الغاب وانتجعوا الأنهار، في فجر التاريخ، هم الرواد الشجعان المجهولون لكل ما لدينا من معرفة وقوة.

العصر البرونزي:

«المدنية» كلمة مشتقة من «المدينة». والمدنية حياة الناس في المدن والبلدان. ولكي يعيش الناس في المدن ينبغي أن يكون لهم قواعد أو قوانين تنظمهم وشخص ما يحكمهم، شخص يطمئن إلى أنهم يتضامنون ويساعد بعضهم البعض أو شخص يحفزهم على التضامن في العمل. ينبغي لهم أن يتبادلوا السلع أو يشاركوا في التجارة، إذ لا يسعهم أن يعيشوا في صعيد واحد من دون تجارة، وهذا ما لا يقدر عليه غير الفلاحين الذين يعيشون مع ذلك عيشة الكفاف. وعلى هذا فالمدنية لا تعني فقط المعيشة في المدن ولكنها تعني كذلك: التجارة والقوانين والحكومة.

ولقد بدأ الناس ينشؤون المدن في الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد، وهذا

تعبير موجز لقولنا: بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق. م. وبدأوا كذلك يسجلون أحداثهم كتابةً، بطريقة غير طريقتنا.

وفي الوقت نفسه حول سنة ٣٠٠٠ ق. م –عرفوا كيف يصنعون البرونز وذلك بصهر النحاس الأحمر ومزجه بقليل من الصفيح المصهور ليزيده صلابة، كما عرفوا كيف يستنبطون الذهب والفضة من باطن الأرض ويشكلونهما حلًى براقًا. لقد كان البرونز مادتهم الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة ولكن الكثيرين استمروا –زمنًا طويلًا بعد ذلك بطبيعة الحال– يستخدمون أدوات وأسلحة من الحجر. وكانت الأدوات البرونزية الجديدة بين أيدي الصناع المهرة، يعول عليها أكثر مما يعول على سابقاتها كما كانت أطول منها عمرًا وسهلة الشحذ بل قابلة لأن تعاد صنعًا، هذا عن أن العمل يتم بها في وقت يقصر كثيرًا ويؤدي على وجه أدق. وعلينا أن نتذكر أن البرونز أقل صلابة من الحديد، وهذا يوضح السبب في أن السيوف البرونزية كانت أقصر وأغلظ من السيوف الحديدية. ولقد كان من دواعي الارتباك حقًّا أن تلتوي في غضون المعركة.

وحول ذلك الوقت نفسه اخترع العجلة عبقريٌّ مجهول، وساعد هذا على رفع الأثقال بها في جهد يقل كثيرًا عن رفعه بالمرْكبات الجليدية العتيقة. ثم بدأ استخدام المركبات ذوات العجلتين أو الأربع. وعندما دعت الحاجة إلى دروب معبدة أنشئت الطرق العامة البدائية الأولى. ولم تلبث العجلة أن استخدمت في مرافق أخرى. فلقد استخدمها صانع الفخار في تشكيل صلصاله وذلك برمي كومة منه على قرص يدور بينما يمسه هو بيديه في اتجاه مضاد. وكذلك استخدم النجار العجلة في صنع المخرطة غير المصقولة: أداة تستقر في عجلة. وبإدارة تلك العجلة تدور الأداة. وكل ما على النجار عمله بعد ذلك هو أن يسند قطعة الخشب إلى الأداة فتشقها أو تقصها وتشذّبها، فأما المرء الذي كشف الشيء الأول أو اخترعه والمرء الذي كشف الشيء الثاني فسوف يظل شخصاهما، بلا مراء، خافيين أبد الآبدين.

والخلاصة أن العصر البرونزي بدأ في آخر الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد، واستمر قرابة ثمانية عشر قرنًا حتى كشف شخص ما طريقة استنباط الحديد من خامه، وصنع السيوف الحديدية الطويلة التي هي أطول بكثير من السيوف البرونزية.

وكل هذه التواريخ تخمينات تقريبية («تقديرات» هي الكلمة المحترمة التي يستعملها العلماء) إذ إن معلوماتنا عن تلك الأحداث السحيقة وصلت إلينا بعد البحث في أطلال الدنيا القديمة المشتتة في مصر والشرق الأوسط.

ومع العصر البرونزي تدخل التاريخ شخصية هامة جدًّا وهي شخصية الحداد، طارق المعدن المتقد والصانع الماهر الذي يشتغل بالنار والمصهر. وهو -من بداية أمره- امرؤ غامض. فحرفته تظل في طي الكتمان سرًّا يعتز به ويغار عليه، سرًّا يكاد يدخل في دائرة السحر. إنه يتيح للناس القوة بسيوفه الرقيقة ودروعه الصلبة. إنه يدق معدنه ويصيره إلى أشكال عديدة. إنه يحذي الخيل وقد يحذي كذلك الثيران التي يلزم لكل منها ثماني حدوات، ويوازيه في المهارة الفنية زملاؤه الذين يحترفون صياغة الذهب والفضة.

ولقد وجدوا في إحدى المدائن الإغريقية القديمة زهرة من الذهب ترتكز على ساق من الفضة.

وكان أعظم تجار المعادن فينيقيو صور وصيدا (من مدن سوريا الآن) وإنا لنقرأ في الكتاب المقدس كيف استخدم سليمان -ملك اليهود- حيرام، وهو صانع برونز ماهر من مدينة صور، ليحلي معبد بيت المقدس بحلًى برونزية: عمد ضخمة تزينها السلاسل الفنية، زنبق ورمان وطاسات وطسوت وسباع وعجل مركبات، سُكَّت كلها من برونز.

ولقد وجد في حفائر بفرنسا، منذ وقت غير طويل، زهرية كبيرة من البرونز يزينها تمثال لمركبة تجرها خيل يسوقها راكب. ويقدر كاشفوها أنها صنعت حول سنة ٢٥٠٠ ق. م.

وكان الإغريق يستعملون البرونز في تزيين قصورهم: وفي أقدم قصيدة من شعرهم -وموضوعها جولات يوليسيز- وصف شائق لقصر ملك اسمه ألسيوناس. وكان لهذا القصر حوائط مغطاة بلوحات من البرونز تعلوها تربيعات زرقاء مطلية بالميناء وأبواب كاملة التذهيب ومعلقة بسواكف[1] مفضضة مثبتة على عتبات برونزية! وهذا الوصف كأنه من قصص الجن. وإلى ذلك فقد وجدنا في خرائب قصر إغريقي آخر، بقايا برونزية من هذا النوع. وما من شك في أنها -وقت جدتها وجلائها- كانت تعكس ومضات نيران الموقد الذي اعتاد الملك ورفاقه، بعد العودة من الصيد، أن يحيطوا به ليستمتعوا بالولائم وليصيخوا لأغاني العازفين على القيثار من أمثال هومر العازف الأعمى الذي نظم تلك الملحمة عن يوليسيز كما نظم ملحمة أخرى طويلة عن حصار ملوك الإغريق لطروادة الذي دام عشر سنوات.

ومجمل ما فات: أولًا: العصر الحجري الذي يرجع إلى عهد لا يعرف أحد مبتدأه. ثم العصر البرونزي الذي بدأ في مكان ما حول ٣٠٠٠ ق. م. أما متى عاش هومر فلا علم لأحد به على وجه التحقيق، إلا أن حصار طروادة الذي تغنى به حدث حول ١٢٠٠ ق. م.

ولقد كان هذا الحصار أسطورة غير واضحة المعالم في نظر الإغريق وقت بداية مسجلاتهم المكتوبة حول سنة ٨٠٠ ق. م. وعاش الملك سليمان وحكم اليهود حول سنة ٩٥٠ ق. م. وقد وسع الناس أن يكتبوا في أيامه، وقبلها بقرون، بطبيعة الحال. غير أن مسجلات العصور الخالية - باستثناء الكتاب المقدس وكتابات الإغريق (التي باد معظمها) لم تعرف إلا منذ خمسين سنة.

وتلك السجلات المكتوبة: لفائف من البردي وجدت في المقابر الملكية المصرية، ولوحات من الصلصال وجدت في حفائر مدن ما بين النهرين (العراق). ومن هذه وتلك تعلمنا كثيرًا عن شعوب وإمبراطوريات عتيقة.

---

(١) الساكف أعلى الباب المقابل للخشبة التي يوطأ عليها.

علم العاديات (الآثار القديمة):

تعلم أسلافنا تاريخهم من الكتاب المقدس ومن كتابات هيرودوت المؤرخ الإغريقي القديم. ولم يعرفوا أي شيء مما تقدم على قصص العهد القديم، من أمثال قصص إبراهيم ويوسف وموسى ويشوع[(١)] وشمشون، ولا أي شيء أقدم من أساطير الإغريق كحكايات جيسون وأرجونوتس وتسيوس والمينوثور[(٢)] وحصار طروادة.

ولقد كانت مصر في نظر قدماء الإغريق أرض العجائب (كأبي الهول والأهرام) وأرض الآلهة الغامضين (كإيزيس وأوزيريس). ولم يعرف الإغريق القدامى شيئًا عن تاريخها الطويل الذي امتد قرونًا قبل أن يفد أسلافهم الأشداء متدافعين صوب الجنوب عبر الجبال إلى شواطئ بلاد اليونان الدافئة وإلى جزرها. وقد تحدثت أساطيرهم عن الحروب والآلهة وأبطال الملوك على نحو ما كان هومر يتغنى به في أشعاره. وكان كل ما دون هذا ظلامًا. فهم لم يعرفوا شيئًا عن قصر كريت البديع المندثر، وكذلك لم نعلم نحن عنه شيئًا حتى سنة ١٩٠٠. وهم لم يقفوا، من أمجاد منطقتي بابل وسومر الشرقية، إلا على النزر اليسير. وعندما دلف رمّاحو الإسكندر الأكبر عبر وادي الفرات في سنة ٣٣٠ ق. م. مروا بجبال منطقة بابل العالية التي تضم مدائن مخربة دفنتها الرمال التي ظلت تهب عليها قرونًا عديدة.

وتبدد الجهل الطويل عندما أبحر نابليون إلى مصر في سنة ١٧٩٩ وغزاها. فلقد استصحب طائفة من أهل العلم والبحث ليدرسوا خرائب آثارها. وكانت إحدى نتائج ذلك أن فرنسيًّا اسمه شامبليون بدأ، في سنة ١٨٢٢، يفك رموز الهيروغليفية التي كان يكتبها الكهان. وهكذا وجد مفتاح اللغة المصرية القديمة.

ولقي العلماء تشجيعًا ليدرسوا خرائب أخرى أثرية في الشرق الأوسط. ففي ١٨٤٥ بدأ هنرى رولنسون يحل رموز الكتابات التي حفرت في صخور آشور

---

(١) يشوع صاحب سفر التوراة.

(٢) المينوثور حيوان خرافي برأس ثور وجسم بشر.

بأشكال تشبه الأوتاد. واستكشف ليارد في سنة ١٨٤٦ خرائب نينوَى الهائلة الحجم. وكان فتى ألماني اسمه شليمان يعتقد صحة قصة طروادة فجمع ثروة كبيرة من الأعمال الاقتصادية وصرفها على خرائب طروادة في سنة ١٨٧٠. فلم يعثر على خرائب مدينة واحدة فحسب بل عثر على خرائب سبع مدائن يتراكب بعضها فوق البعض! وفي آخر القرن التاسع عشر استكشف سير آرثر إفانس مدينة مفقودة وذلك عندما بدأ يحفر في كنوسوس بكريت. وقد عثر على قصر ملكي. ولقد كانت كريت –في مدى أجيال طويلة– مهدًا لمدنية زاهرة، ومع هذا نسيها العالم طرًّا كل النسيان. وقد ظلت الآلاف من لوحاتها غير مقروءة حتى الآن. أكان ذلك هو القصر الذي ذهب إليه زيوس ليذبح المينوثور؟ أم كان حقًّا أن أشيل ربط جسد هكتور في عجلة مركبته وجرّره حول حوائط طروادة؟ قد لا تظفر أسئلة كهذين بجواب، غير أن استكشافاتنا تجزم بأن وراء الأساطير القديمة بعض الحقائق. ولقد أشار قدامى الإغريق إلى إحدى المدائن على أنها «ميسينيا الذهبية». وأغلب الظن أن شليمان – عندما حفر هنالك عثر على كنوز عظيمة من الذهب، وقد وجد في مقابرها، منذ فترة جد قصيرة، مزيد من الذهب الكثير. وقد كشفت، منذ فترة قصيرة كذلك، مجموعة من اللوحات التي تحمل مدونات وذلك في بيلوس (ببلاد اليونان) وهي موطن نسطور، أحد أمراء أجاممنون، فيما يزن. وفوق ما تقدم فإن إنجليزيًّا – هو المرحوم ميخائيل فنتريس– عرف كيف يقرأ هذه المدونات.

ويجري الحفر –في مثابرة– في أماكن عديدة. فالأمريكيون مشغولون به في أثينا، والفرنسيون في سوريا، والأتراك في آسيا الصغرى، والمصريون يتابعون كشف ما في خرائبهم ومقابرهم. وقد كشف سير ليونارد وولي كشوفًا مثيرة في مدينة أور بالعراق. وقد كشفت، منذ فترة قصيرة، كشوف لا تقل عنها استثارة في مدينة إريش التي تجاورها. وما من شك في أن استكشاف الماضي المدفون يتتابع في كل بقعة، غير أن النشاط الأكبر يجري في البقاع التي تقع حول شرق البحر الأبيض المتوسط.

وإنا لنعرف الآن تاريخ إمبراطوريات وشعوب عظيمة في بقاع الشرق الأوسط كافة. فلديها آلاف من لوحات الصلصال المحروق تحمل مسجلات بلغات أهل بابل وآشور والأقطار المجاورة. ولدينا مقادير كبيرة من البردي تحمل مسجلات عن فراعنة مصر الأقدمين. وقد كشفت الحفائر أيضًا عن مدنيات بتمامها كمدنيات السومريين والحيثيين والكريتيين. ونحن نطلق على من يشرفون على الحفر عبارة «علماء العاديات» ومعناها: الرجل الذين يدرسون الآثار العتيقة. ويبلغ مدى القصة التي كشفوا عنها أربعة آلاف من السنين، ويمدنا كل موسم من مواسم الحفائر بمعلومات جديدة. غير أننا لا نخلص إلى ذلك النوع السهل المتدفق من القصص الذي يشبه التاريخ العادي. فهنالك ثغرات ومجادلات كثيرة في شأن التواريخ وشتى أنواع الأسئلة التي يوجهها الناس دون طائل. وستبقى الحال كذلك إلى أن يتصادف العثور على كشف يجيبنا عن تلك الأسئلة. على أن حذق علماء الآثار وصبرهم لمما يذهل حقًّا. فهم يغربلون كل قَدر من التراب يرفعه الجاروف، وهم يقيسون كل بوصة تحت السطح، وهم يلجأون إلى استعمال الفرش المصنوعة من شعر الإبل ليزيلوا التراب عن الأشياء المدفونة حتى لا يصيبها تلف. ولا مشاحة في أن القدر الأكبر من الآثار لا يزال مطمورًا في باطن الأرض وأنه سيكشف عنه في حينه.

أين بدأت المدنية؟

بدأت المدنيات الباكرة على ضفاف الأنهار الكبرى في البلاد الدافئة حيث الأرض قوية عنيفة يغمرها في الغالب طمي النهر ويغطيها بطبقة تكسبها أكبر الخصوبة. وتلك الأنهار هي: النيل في مصر، ودجلة والفرات في العراق، والأنداس في الهند[(١)].

على أن مدينتي موهنجودارو وهارابا -الواقعتين في وادي الأنداس - لم تُعرفا وتُستكشفا إلا منذ فترة قصيرة، وما يزال الشيء الكثير عن الشعوب التي بنتهما

(١) انظر شكل رقم -١- (الشرق القديم: خريطة تبين أودية الأنهار، في المساحة التي تقع بين البحار والجبال والصحاري).

وعاشت فيهما تفتقر إلى معرفة. ومع ذلك فقد كنا نعرف أنهما كانتا تتعاملان مع تجار أودية الأنهار الكبرى في العراق، وذلك لأنا وجدنا في خرائبهم أشياء لم يكن ليستطيع صنعها غير أهل أودية دجلة والفرات.

ومصر تشبه حية طويلة ملتوية ذات رأس جبار. إنها أرض طولها ٦٠٠ ميل وعرضها ١٥ تنتهي لدى البحر بدلتا بالغة الكبر، وعرضها ١٠٠ ميل، كونتها مصبات النيل العديدة. وهذه البلاد النهرية المستطيلة يفيض عليها، في كل عام، ذوب ثلوج جبال أثيوبيا بعمق يبلغ عشرين قدمًا في بعض الأحيان. وأرضها خصيبة إلى حد أنه يمكن جني ثلاثة محاصيل متعاقبة في العام الواحد. فلا عجب إذن إذا كانت مصر قد أصبحت بلادًا عزيزة الجانب تغص بالسكان، وإنها لتشبه جزيرة خضراء وسط بحر من رمل الصحراء المتقد.

وبالمثل يتدفق، في كل عام، فيض من مياه ثلوج أرمينيا على دجلة والفرات ويهبط بفتات التربة ويبسطها على وجه الوادي ثم يدفعها، في شكل دلتا كبيرة، إلى الخليج الفارسي. وهنا أيضًا، كما في مصر، تعلم الناس كيف يتعاونون في العمل وكيف يحجزون مياه الفيضان ويتحكمون فيها بحفر قنوات وأخاديد وبتشييد سدود لتصريف المياه. وقد وضعوا لرقع الأرض حدودًا وقاسوها. وقد كانت محاصيلهم تبلغ في بعض الأحيان ثمانين مثلًا من مقدار التقاوي المبذورة.

ولقد أتاحت وفرة الطعام في مصر والعراق لأهلهما فراغًا يمكنهم من مدارسة الأشياء الأرضية والأجرام السماوية، فرصدوا نظام الفصول الأربعة وهيئات النجوم المتبدلة. وتعلموا كيف يدونون المسجلات ويدخرون معلوماتهم لينقلوها إلى بنيهم. والناس لم يتحولوا يومًا عن تقصي الأمور بذلك النوع من حب الاستطلاع الذي ما فتئ يدفعنا إلى تفقد الأركان والأبواب المفتوحة وإلى تعرف كيف تجري الأمور ثم تحسب ما سوف يحدث إذا فعلنا كذا أو كيت. وهذا بداية دراسة العلوم كما قد يكون الفحص عن قطعة من الخشب أو العظم أو الصلصال بداية الفن.

والمعرفة تنمو مع الحذق كما قد ينمو الحذق مع المعرفة. ولقد كانت للناس، أبدًا، أيد ماهرة –أصابع تفكر. وكان بعضهم يصنع الأواني الفخارية خيرًا مما يصنعه الآخرون، فأصبحوا خزافين لا عمل لهم في غير الفخار، وعلا شأن هذه الصناعة. وكان هذا شأن صناعات الخشب والقرميد والجلد وسائر الحرف. وبزيادة عدد الحرف زادت التجارة. وحذق أناس ضبط مياه فيضانات النيل، وكانوا من بين ولاة الأراضين. وكان أقوى الناس حكامهم. غير أن أصحاب التفوق في القوة أولئك، كانوا يعتمدون على آراء أصحاب التفوق في الحذق. فكان الملوك والقواد يظفرون بالفخار ولكن الحكماء والكهان كانوا هم المشيرين الذين يوجهونهم.

وكان المتقدمون الأولون يتساءلون كيف صنعت الدنيا وكيف خلقوا هم. لقد عجبوا للرعد والبرق وللأمراض الخطيرة المفاجئة التي تقضي عليهم وللمذنبات التي تلتهب في السماء وللظلمة التي تدهم في الظهيرة كلما كسفت الشمس. لقد أخذوا يعتقدون في «قوى غير مرئية»: في آلهة للحبوب والحصاد والنور والأنهار. وحاولوا أن يصوروا أولئك بالطريقة الوحيدة التي يحسنونها وهي الأصنام. وحاولوا أن يدخلوا عليها السرور بالطريقة الوحيدة التي عرفوها وهي أن يقدموا لهم خير ما لديهم كالحنطة والحيوان بل الإنسان. وعبدت الشمس على أنها إله فهي التي تهيئ للأرض إمدادنا بالحصاد وإن كانت تصيب الناس نهارًا بضربات قيظ لا ترحم. وفي كل مكان، على وجه التقريب، كان الموتى يدفنون ومعهم الطعام والأثاث يستخدمونه في العالم الآخر. وكان العظماء كالملوك والنبلاء –كما قد نتوقع– تجهز لهم مقابر فاخرة تغص بالأثاث وعظائم الكنوز لحياتهم الأخرى. وإنا لنجد الأولين من الملوك والكهان في السجلات التي نستخرجها، وبتفحص أثاث مقابرهم نعرف مبلغ حذق الصناع الذين عاشوا في تلك الأزمان السحيقة.

وفي مصر كانوا يستعملون الكتابة المصورة التي نسميها «الهيروغليفية» وهذه كلمة يونانية معناها «كتابة الكهان». وكانوا يكتبون على صحف من البردي

ويلصقون أطرافها بعضها بالبعض ويبرمونها ويودعونها قراطيس ملفوفة. وقد حفظ رمل بلادهم الجاف وجوها الصحو كسفًا من كومات من هذه السجلات البردية، حفظها من الانحلال التام. ونحن نستخرجها من خرائب المدائن القديمة، وفي بعض الأحيان من قشاشات الأكوام العتيقة لبعض المدائن.

وكان أهل العراق يكتبون على صلصال ناعم بالخط الآشوري الذي تشبه حروفه الأوتاد. وقد سميت كذلك لأن كل سمة كانت تثبت بضغط طرف عصي مثلث الشكل. والمجموعات المختلفة من الأوتاد تكون الحروف المختلفة. وهذه الكتابة لا يصيبها العطب لأنها معمقة على لوحات الصلصال، ولقد كشفت آلاف من اللوحات وتيسرت قراءتها. وإذا استخف اليوم امرؤ، دون إعمال رويته، بأولئك النساء والرجال الذين تاهوا في زمان النسيان بعد أن طال عليه الأمد بتعاقب الدهور السحيقة عليه فليعلم بأننا -إذا كنا نقسم أيامنا إلى ساعات تحوي كل ساعة منها ستين دقيقة في كل منها ستون ثانية -فإنما نتبع ما سنّه قدامى فلكيي البابليين.

وتلك وشيجة متينة تربطنا ببابل. وإذا حدثتنا أنفسنا يومًا بالاستعلاء على أولئك الأقوام الغريبة فلنذكّر أنفسنا أيضًا أن العلماء وجدوا، على هذه اللوحات الصلصالية المحروقة الفذة، نماذج من الجذر التربيعي بل من اللوغاريتمات، وهذه أمور قد تحير شباب اليوم لدى تعلمهم الرياضيات.

مصر الفرعونية:

حكم مصر طوال ثلاثة آلاف من السنين -أسر من الفراعنة. و«فرعون» كلمة معناها «البيت العظيم» كان الحاكم يلقب بها لأن اسمه الخاص كان يقدس إلى درجة يمنع معها تداوله على ألسنة الآدميين. ومن دواعي الأسف أن الكتاب المقدس لا يذكر اسم الفرعون الذي استخدم يوسف أو الذي جعل اليهود يبنون ويكدون من أجله، وذلك لأن المؤرخين لا يزالون في ريبة من الأمر. إنهم يعرفون أسماء

الفراعنة، أما تاريخا يوسف وموسى فيخمنونهما تخمينًا.

وحول سنة ٣٥٠٠ ق. م. انضمت مصر العليا (الوادي) ومصر السفلى (الدلتا) تحت حكم موحد لفرعون اسمه مينا. وحول سنة ٣٠٠٠ ق. م بدأ الفراعنة يشيدون أهرامًا ضخمة من كتل من الحجر الكلسي (أو الجيري) ليتخذوها مقابر لهم. ويشغل الهرم الأكبر -للفرعون خوفو- مساحة تناهز الاثني عشر فدانًا ويرتفع إلى ٨٠٠ قدم، وهو جبل من صنع الإنسان كدسه عمل جسيم، وروعي فيه مع هذا أن يكون دقيق المقاييس. وعلى مقربة منه قُدَّ، في الصخر، أبو الهول على شكل أسد مهول رابض يحمل رأس خوفو. وقد شيد الفراعنة الأولون، في ذاك العهد الباكر، صفًّا طويلًا من أهرام أصغر حجمًا.

ومن حوالي ٢٥٠٠ ق. م. بدأ سلطان الفراعنة في الضعف وسطوة الأمراء في الازدياد بحيث أصبح كل منهم يحكم منطقته وفق مرامه. ومن ذاك الوقت أخذ الفراعنة والكبراء من موظفي قصورهم ومن كهانهم ومواليهم (أي أشرافهم) يدفنون، في أبهة، في مقابر قدت في الصخور القائمة على جنبي الوادي. ومعرفتنا الغزيرة بمصر الفرعونية مصدرها تلك المقابر: من النقوش الملونة الحية التي تكسو جدران حجرات الدفن ومن لفائف البردي التي أخفيت هناك. ونحن نعرف مهارة الصناع في صنع الزجاج وفي قطع الأحجار الكريمة وفي تطعيم العاج وتلبيسه وفي صياغة الذهب والفضة والفخار. ونجد أجساد الموتى المحنطة (المومياوات) ملفوفة في تيل مغزول يعدل الحرير في رقته. ونرى نمط السفن التي كانوا يستقلونها في النيل أو يبحرون عليها في البحر الأحمر أو في البحر الكبير إلى الشاطئ السوري لينقلوا خشب أشجار الأرز الذي يستخدمونه في بيوتهم وأثاثهم. ونقرأ في لفائفهم معلوماتهم في الجراحة والعلوم الرياضية. ونقرأ عن تدابيرهم المحكمة للتحكم في مياه فيضان النهر وعن تشريعاتهم وضرائبهم. ونقرأ عن معتقداتهم عن الآلهة الذين يعبدونهم: عن رع الإله الشمس وعن أوزيريس الذي يموت في كل عام (كحبوب

الحصاد) والذي يولد من جديد في كل عام (كالتقاوي التي تؤخذ من الحبوب) ونعلم كيف وصلوا إلى الاعتقاد بأن أوزيريس سيحاكم أرواح الناس بعد وفاتهم ويزنُ حسناتهم وسيئاتهم.

وبينما يتاح لنا في يسرٍ أن نحْيي صورة رفاهية عيشتهم ومسراتها التي كانوا يمارسونها في مساكن بهيجة وحدائق مشرقة تظلها سماء زرقاء صافية يجب ألا تغيب عن أذهاننا الجماهير التي لم تخلد ذكراها والتي وسعها، مع ذلك، أن تتيح العيش الهنيء للفراعنة السُّواة. لقد كانت حشود من الأهلين تسكن قرى تغص بالأكواخ المقامة من الحجر والطين. وكان السواد الأعظم، من الفلاحين الفقراء الذين كان يهيئ كدهم، في كل عام، الحصاد الوافر ما أكب الحكماء والمشرفون على عمل التقويم والتنبؤ بالفيضانات وقياس الحقول وتخطيط مجاري الماء.

ثم عكر هذا السلام الطويل غزو آسيوي غريب الأطوار قامت به قبائل تسمى بالهكسوس أو الملوك الرعاة. وهذا الأمر يكتنفه شيء من الغموض وإن عُلم أنه حدث حول سنة ١٨٠٠ ق. م. ويبدو أن الغزاة جلبوا معهم الخيل. ولا علم لنا بوقائع الجهاد الذي بدأ بعد ذلك، غير أنه بعد طرد الغزاة ظهر صف من الفراعنة البواسل يحكمون من طيبة إلى أعالي الوادي. وكان لدى أولئك الخيل والمركبات الحربية، وقد اقتادوا الجحافل عبر حدود مصر. وأحد هؤلاء: تحتمس الثالث الذي غزا سوريا وترك فيها الحاميات المصرية. فكانت لمصر إمبراطورية. وقد شيدوا معابد فسيحة وقصورًا في طيبة وفي مشارفها.

وقد أقيمت في معبد الكرنك عمَد مفرطة في الضخامة نقشت عليها جميعًا صورٌ وكتابات، وفي وادي المقابر الذي يقوم على مقربةٍ من حواشي الصحراء قبور لأولئك الفراعنة المتأخرين وكبرائهم الذين لحدوا في سناء الذهب والسدر (الأرز) والعاج، غير أن معظم تلك القبور عرفهُ وجرده عن كنوزه، من زمن بعيد، لصوص مجهولون.

ومن بين أولئك الفراعنة الأباطرة خُلد ذكر إخناتون لأنه حاول أن يبدل دين مصر من عبادة قدامى الآلهة، وهم الشمس وأمون وأوزيريس، إلى عبادة إلهٍ واحد للجميع، إله يحرس كل الخلائق بعنايته. وثمة ترنيمة تمجيدٍ لهذا الإله تشبه ما ورد في المزمور ١٠٤ [1] الذي نصه: «ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمةٍ صُنعتْ». ولكن لم يكد إخناتونُ يتوفى (وقد توفي شابًّا) حتى استرد قدامى الآلهة سيطرتهم على عقول الناس. وخليفته توت عنخ آمون مشهور في الوقت الحاضر لا بمقتضى ما صنع ولكن لأنه مقبرته بقيت دون أن يعكر صفوها اللصوص. وعندما استكشفها وفتحها هووارد كارتر في سنة ١٩٢٢ ألفَى الناس سناء قبر الفرعون ورواؤه على جمالهما تمامًا عندما خُتم بعد الدفن.

وظل من تلوا من الفراعنة يقودون الجحافل مصعّدين في سوريا. ولكنهم لقوا هنالك المركبات والفرسان الذين حشدتهم قوة جديدة، قوة الحيثيين.

وظل الفراعنة وملوك الحيثيين، فترة، يتناوبون السيادة على أصقاع الشرق الأوسط.

الإمبراطوريات البائدة، في الشرق القديم:

لم يكن اسم يوريا الحيثي - قائد حرس الملك داوود- ليعنينا في كثيرٍ أو قليل حتى بدأ علماء العاديات يكشفون خرائب المدن الحيثية في آسيا الصغرى. وكان الحيثيون شعبًا ذا بأس وسعه أن يقاتل مصر وبابل. ونحن نعرف -من لوحات الصلصال التي وجدت في خرائب الحيثيين -أنهم كانوا يحلون القانون والعدالة أكبر محل من الاعتبار، كما أنهم يتصفون بالعدل والرحمة. وكانوا، إلى ذلك، يبتهجون بقص الحكايات من أجل الفن ذاته، أو كما نقول نحن بـ «الأدب». وإن اهتمامنا بهم ليزداد فلقد بدأنا نظن أن الإغريق -الذين ندين لهم بمدنيتنا لهم،

(١) عدد ٢٤.

مدينون لهم بدورهم، بالشيء الكثير. وهم -كالإغريق- هنود أوروبيون.

وتدفعنا عبارة «هنود أوروبيون» إلى الاستفهام: من أين وفدَ، في البداية، أسلاف الناس كافة؟

وليس هناك جواب يقيني. ولكن في وسعنا أن نقتفي أسلاف الشعوب والقبائل مصعدين إلى العصور الموغلة في القدم ثم نحاول أن نردّهم إلى مكان يبدأون منه. ومن هذه الأماكن: الجزيرة العربية، فمنها جاءت الشعوب «الكثيرة» -كالبابليين واليهود والأموريين والفينيقيين والأراميين- الذين كانوا يتكلمون لغةً سامية الطراز. وهؤلاء لم يفدوا دفعة واحدة بل على دفعات تفصل بينها فترات طويلة من الزمان. ويبدو كأن قبائل البوادي وأشباه البوادي تتكاثر حتى تضيق بهم الأرض ويقصر عن كفايتهم الطعام. فإذا برز من بينهم زعيم شديد المراس أغاروا على أرض جيرانهم.

ومن أماكن البداية الأخرى الأراضي الخضراء في أقاصي آسيا شمالي بحر قزوين وشرقيه. ومن هنا جاء أسلافنا نحن، من هنا جاء كل الأقوام التي تتكلم لغات هندية أوروبية. وذهب بعضهم إلى الهند. وانثنى آخرون إلى بلاد الفرس. وهبط آخرون -الحيثيون والميتانيون- أكثر أصقاع آسيا قربًا. وقصد غيرهم -وهم من يسمون بالفيرجيين والإغريق- إلى آسيا الصغرى واليونان. ورحل آخرون -وهم الغال- إلى آسيا الصغرى وشمال إيطاليا واستقروا آخر الأمر في فرنسا (التي كانت تسمى يومًا بلاد الغال). وتوجه من يسمونهم بالجرمان إلى أوروبا الوسطى. ثم اتجه مَن يطلقون عليهم اسم السلاف، إلى السهل الأوروبي الكبير. ويتضح من هذه القائمة نفسها كيف كان رحيلهم: رويدًا صوب الغرب في مدى آلاف من السنين. تحركت الأوليات من الأسر والعشائر والقبائل جنوبًا صوب أكثر الأصقاع دفئًا وفي اتجاه البحر الأبيض المتوسط. وظهر الحيثيون في أقرب مناطق الشرق الأوسط عام ٢٠٠٠ ق. م. ودخل الغال إيطاليا بعد ذلك بأكثر من ألف سنة. والناس، عندما يتحركون جملةً، يتحركون على مهل.

وموضوع حكايتنا، في الوقت الحاضر، مقصورٌ على الشرق الأوسط: توجد – بين الجزيرة العربية والأراضي الخضراء بآسيا في عهودها البالغة القدم وراء بحر قزوين – توجد منطقة تحوي مجموعةً من السلاسل الجبلية ينساب منها نهرا دجلة والفرات هابطين سهولَ العراق إلى الخليج الفارسي. وهذا الصقع الذي يضمّ الجبالَ الخضراء وأهدابَ الصحاري والسهلَ الباسم كان كله مسرحًا لامتزاج تطاحن هاتين المجموعتين من الشعوب وهما السامية والهندية الأوروبية. لقد كانت تعْمُرُ بالمدائن والناس، والمعابد والتجارة، والصناع والكهان، وبجماهير من الفلاحين الكادحين والرعاة، وبالغزاة وجحافلهم الزاحفة وبالمحاصرات الحربية وجلبتها وبحشودٍ من الأسرى والعبيد. وكان ذلك منذ نيف وألفين من السنين! أما الآن فهي مقبرةٌ لإمبراطوريات بائدة، كالجبّانة، تحوي نصبًا تذكارية صامتة واستحكامات ضخمة كلًّا منها طائفة من الخرائب المتداعية لإحدى المدائن. وكلما تهدمت أو هدمت البيوتُ القديمة والأسوار التي أقيمت من الحجر أو من لبنات الطين كانت أماكنها تمهد وتقام عليها بيوت جديدة، وبهذا تزايد الارتفاعُ. فإذا حدث التدمير النهائيّ وأصبحت المدنيةُ فلاةً موحشة تعاقبت عليها الرياح والأمطار وحولتها إلى رابية عالية تصون مخلفاتِها المنسية من الآثار البالغة القدم كالأواني الفخارية والخرز والمصنوعات العاجية والحلي الذهبية والفضية وغيرها من المصوغات ومن اللوحات المكتوبة والحجارة المحفورة، وما يزال الكشف عنها يجري إلى اليوم.

ولدينا معلومات عن مدائن في سهلِ الجزء الأسفل من دجلة والفرات يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ٣٠٠٠ ق. م.، مدائن استخدم أهلوها الأدوات النحاسية وحرثوا حقولهم بمحاريث تجرها الثيران كما استخدموا مركبات ذوات عجلات بدائية. وكانوا يكتبون حروفًا تشبه الأوتاد أو كتابات آشورية على لوحات من الفخار. ولقد شقوا قنوات، كقنوات مصر، جلبت مياه الفيضانات إلى داخل أراضيهم. وكان

لكل مدينة إلهها المختص بها وملكها الذي شغل في الوقت نفسه وظيفة كاهن الإله. ولقد بُني المعبدُ –الذي ارتفع عاليًا فوق المدينة– من قوالب من الطين مربعةٍ جسيمة مع ميلِ جوانب جدرانه قليلًا نحو الداخل وذلك من جزئها الأعلى الذي يرتكز عليه المكانُ المقدس المخصص للإله.

وفي الخارج كانت ترتفع مجموعات من الدرَج، من الأرض حتى القمة. وقد احتاج بناء تلك المعابد –كما احتاجت أهرامُ مصر– إلى تخطيط دقيق وإلى استخدام آلاف من الرجال، ربما كانوا من العبيد.

ويتسنى لنا أن نرى – من الخطوط التي صورت الرمّاحة العابسين، المنقوشة على الأحجار– أن مدائن السهل السومرية تلك، كان يوقد نيران الحروب بعضها ضد البعض «عندما ينطلق الملوك ليحاربوا» في ربيع السنة. وربما كانت الحدودُ سبب النزاع المتكرر. وتسجل اللوحاتُ أسماء ملوكهم الغريبة. ولنا أن نستنبط الكثيرَ عما كانوا يعتقدون وعما كانوا يعرفون. وقد أُميط اللثام في إحدى حفائر مدينة (أور) –موطن إبراهيم– عن سمات لطوفان ربما يكون قد أغرق السهلَ جميعًا، كما كشف عن مقبرة أميرة ضُحِّي –لدى دفنها الباهظ النفقات– ببلاط بأسره من الأتباع والحراس ووصيفات الشرف ليصحبوا مولاتهم إلى العالم الآخر. ولقد كان الأثاثُ والمصنوعات المعدنية الثمينة، التي ووريت في ذاك القبر المذهل، من أنواع لا يُعلى عليها رسمًا وصنعة. ومن الأمور التي تسترعي النظر في تلك المدنيات الباكرة أن الصناع ما يكادون يفقهون كيف يشتغلون على الخشب أو النحاس أو الذهب أو الحجر حتى يبلغوا مِن فورهم مستوى ممتازًا من البراعة. وهكذا نرى أن المدنيات تصنعها الأيدي.

ولسنا ندري مِن أين أتى أولئك السومريون. والذي نعلمه علم اليقين أن رجلًا مِن ذوي النفوذ اسمه سارجون، وهو من زعماء الساميين، قادر رماحيه ذوي اللحَى –حول سنة ٢٥٠٠ ق. م.– جنوبًا إلى السهل ونصب نفسه سيدًا على جميع الأراضي

الواقعة شرقًا وغربًا بين جبال فارس والبحر الأبيض المتوسط، وقد صاحبت الشهرة اسمه قرونًا. وتصور الأكوامُ الضخمة من اللوحات التي كتبت في زمانه، دنيا كان فيها الناس يمسكون دفاتر حسابات مضبوطة، والعلماء يدْرسون الرياضيات، والصبية يمارسون الرياضة البدنية. وإنّا لنقرأ الرقى والتعاويذ التي كانت تتخذ لإرضاء الآلهة أو لتخويف الكثير من الشياطين والأرواح الشريرة وطردها. وهنالك حكايات عن أبطال قدامى وعن خلق الدنيا.

وحول سنة ٢٠٠٠ ق. م. دخلت سلالةٌ جديدة من الساميين نسميها الآموريين وأصبحت سيدةَ الوادي وحكمت من بابل. ولدينا مسجلاتٌ عن أكبر ملوكهم، واسمه حامورابي. ولدينا رسائلهُ التي فيها كان يرسل الأوامر إلى ضباطه وولاته، وكلها كتبت على الفخار وأودِعت أغلفةً من الفخار. ولدينا كذلك حجرٌ نقش عليه الدُّستورُ الكبيرُ لشرائعه، التي يذكرنا الكثيرُ منها بشرائع اليهود، مثل تلك التي تنص على أخذ «العين بالعين والسن بالسن». وتنبئنا هذه الشرائع كذلك بأسس المعاملات في بيع العروض والبيوت وشرائها وبالمتبع في دفع أجور الصناع وفي اقتراض المال وتأدية الديون. فكانت تلك إذن إمبراطورية غنية عزيزة فيها الكثير من المدائن والمعابد والكهان والمسجلين ومن خُدام الملك والأشراف والعمال والفلاحين والتجار، يسري عليهم جميعًا قانونٌ واحد ويخضعون لسلطانِ ملك واحد. لقد كانت إمبراطوريةً مترامية الأطراف. وكانت تعتمد في مواصلاتها على الحمير، تمامًا كما كان شأن بقاعٍ عديدة من الشرق الأدنى إلى ما قبل العصر الحديث. ولنا أن نسميها مدنية الحميرٍ كما يكون لنا أن نسميها مدنية الفخار. فلقد كانت البيوت ولوحات الكتابة من الطين والفخار. بل كانت رِزَمُ بضائع التجار تمهر بصرّارات من الفخار مختومة كلها، على ما ينبغي من الضبط، بخاتم صاحب البضاعة.

وحول ١٨٠٠ ق. م. دب في إمبراطورية بابل الضَّعفُ والانحلال وتعرّضت لغزواتٍ من الشمال والجنوب. ودخل الحيثيون أراضي آسيا الصغرى وشمال

سوريا حيث بدأوا يؤسسون دولةً عظيمة، وأقامت أمة هندية أوروبية أخرى تستخدم الأفراس، اسمها الميتاني، مُلكَها على الفرات. وجلب أولئك الناسُ الحصانَ إلى الشرق القديم حيث عُرف، أول ما عرف، على أنه «حمار آسيا». ولم يستطل كثيرًا ملك الميتاني وإن يكن قد استطال مدة كفت لعقد محالفة مع مصر ولإسقاط إمبراطورية بابل. وعلينا أن نتذكر دومًا أن زهور شعب جديد لم يكن ليعني فناء الأهلين السابقين. نعم كانت هناك مصادمات مستمرة ولكن الأمر كان ينتهي غالبًا بحدوث امتزاج تدريجي.

ومن الجنوب تجمعت شعوبٌ تسمى الآراميون مصعدةً من الأطراف الصحراوية للجزيرة العربية وأسست ممالك في مدن عديدة أشهرها دمشق. ونحن نقرأ عن تلك المملكة في التوراة التي تصورِها حليفةً لمملكة اليهود الشمالية. ولقد نشر أولئك الآراميون لغتهم، في الشرق الأدنى كافة، نشرًا بلغ مِن القوة أن اليهود ظلوا يستعملونها في زمن عيسى عليه السلام. وأسست شعوبٌ سامية أخرى مدائن تجارية كبيرة في صور وصيدًا على الشاطئ السوري، ونحن نعرفهم باسم الفينيقيين وهم البحارة والتجار الذين كانت سفائنهم تحمل سلعهم إلى إسبانيا وربما إلى بريطانيا. وأكثر من عُرف من الشعوب السامية اليهود. وموعد دخولهم الأرض المقدسة لم يعرف بعدُ على وجه التحقيق، فالكتاب المقدس والحفائر لم تتفق على تاريخ. وقد لا نبعد كثيرًا إذا حسبنا أنه ١٥٠٠ ق. م. فلقد عاش الملك داوود حول سنة ١٠٠٠ ق. م. وفي عهده كانت قوة الحيثيين قد اضمحلت، غير أن قوة بابل لم تتعرض له بأذى.

واضمحلت إمبراطورية بابل، واختفى ذكر الميتاني من السجلات. وظل الحيثيون والمصريون يصطرعون حتى توقفوا، وبعد ذلك قهر الحيثيين الفريجيون وهمُ مِن سلالة هندية أوروبية دخلت آسيا الصغرى. وكان هؤلاء الوافدون الجدد جزءًا من شعوب كثيرة نزحت إلى الأصقاع الشرقية من البحر الأبيض المتوسط.

وحول سنة ١٤٠٠ ق. م. عكر صفوَ المنطقة كلها رجال مسلحون تحت إمرة زعماء، وكان الحرب والدمار. وأبحر بعضهم بإزاء شاطئ مصر وقد سجل فرعونها: «لقد تعكر صفوُ الجزُر ولم يتصدّ أحدٌ لمقاومتهم». وكان الوافدون الجدد من الشمال وقد طلعوا بالهلاك على أولئك الذين وجدوهم أحياء حول شرق البحر الأبيض المتوسط.

غير أن قوة جديدة كانت تنهض في بابل وهي قوة ملوك آشور. ولقد كانوا هناك دائمًا. وبعد اضمحلال كثير من الدول الكبيرة عقدت لهم الزعامة وخلقوا إمبراطورية آشور الحربية.

قوة كريت البحرية وقوة آشور البرية:

والشعوب التي عكرت صفو الجزر وطردت حاميات فراعنة مصر هي أسلاف الإغريق. وأغلب الظن أنهم بدأوا يتحركون منذ حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. عبر آسيا وإلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان. ولقد أخلدت هذه الشعوب إلى البحر ودمّرت مدنيةً ظللنا نجهلها تمامًا إلى ما قبل ستين عامًا؛ وتلك هي مدنية مينون الكريتية.

ولقد كان مينوس ملك كريت أول من سادوا البحر. هكذا قالت الأسطورة الإغريقية. ونحن لم يتسنَّ لنا فهمها حتى كشف السير آرثر إيفانس -في سنة ١٩٠٠- خبايا أكمة كنوسّوس في كريت ووجد أطلال قصر، بهاؤه يفوق المعقول. وكانت مئات اللوحات التي يحويها تحمل كتابات غير معروفة ولكن كان واضحًا أن مدنية مينوس هذه قامت قبل قرون عديدة. ولقد أبرزت نقوش الحوائط -التي نقشت في مقدرة فنية عظيمة- نساء يرتدين أرفالًا ذوات أهداب، ورجالًا يلبسون مناطق على الخصرين وأحذية عالية! وهناك صور بالغة الوضوح لاصطياد الثيران والزخارف البهية تتخذ من الأزهار. وهندسة البناء قوية التأثير جميلتُه: أبهاء فسيحة، وطرائق للسلالم فخمة، وتيهٌ حقيقيّ مِن الحجرات لخزن المؤن. ولقد لفت هذا الاستكشافُ

أنظارَنا إلى معاقل ميسِنِيا وتِيرينز الهائلة على برّ بلاد اليونان الأصلي الذي وجد فيه شليمان كنوزًا من المصنوعات الذهبية والفخارية الجميلة التي اتضح الآن أنها من طراز مينوس.

هنا قامت إمبراطورية نسيت كل النسيان. ولقد طابقت أسطورة مينوس الإغريقية. ولكن بقي أمامنا لغز.

لقد كانت ميسينيا معقلَ المدنية الشهير لأجاممنون الذي قاد الملوك الإغريقيين ضدّ طروادة. وهذه هي الحكاية التي رواها (هومر) ولكن ليس في مقدورنا أن نطابق الأزمنة بعضها على البعض: ويبدو أن شخصًا ما عاش في ميسينيا وحكم قبل أجاممنون. ولقد صدق قدماء الإغريق الذين قالوا إنه كان هناك رجال عظماء قبل أجاممنون. ولغزنا هو: مَن كان هؤلاء؟ ربما نستطيع – يومًا– أن نعرف ذلك من كتابات اللوحات –الموجودة في كريت وميسينيا، التي بدأنا في قراءتها.

ويبدو أن الصورة –بصفة عامة– كما يلي: غزا كنسوس –في كريت، حول سنة ١٤٠٠ ق. م.– أعداء مجهولون وانتهت سيطرةُ ساداتها على جزر البحر. وهجر القصر والتهمتْه النيران. ومن آثار الحريق نستطيع معرفة اتجاه الريح إذ ذاك. وحول تلك الحقبة طارد الفرعون رمسيس بعض «الملاحين» المغامرين المتهورين وردّهم عن شاطئه. وألقاب أولئك الرجال مألوفة لنا: السردينيون والصقليون والفلسطينيون. ويقال إن أولئك الآخيرين –الذين نراهم جنودًا يلبسون خوذات واسعة يُزينها الريش–وفدوا من كريت. وهبطوا الشاطئَ السوري وبنوا خمس مدائن، لساداتهم سادات الفلسطينيين الذين حاربَهم شاؤول وصادقهم داوود. ولقبوا البلاد جميعًا بلقبهم: فلسطين أو أراضي الفلسطينيين.

ومدى استمرار هذه الاضطرابات لا علم لنا به ولكنه، على أي حال، امتد زمانًا كفى لمحو كلّ ذكرٍ لكريت من أذهان الناس، وأجمل ثلمة في تسلسل المدنية. وكانت تلك هي العصور المظلمة التي اختفت فيها السجلات. ولم يزد الإغريق

التاريخيون -الذين صنع أسلافهم تلك الأشياء- وهم «الآخييون الشقر» والدوريون الذين نهبوا المدن وحرقوها -على أن حكوا حكاية طروادة. وليتنا نعلم حقيقة ما حدث وسببَ نسيان كل شيء عن ذلك.

وعلى هذا صار فلسطينيو القصة اليهودية القديمة إلى قومٍ يجانسون الإغريق. والتقت أساطير أذكى شعبين في التاريخ القديم -وهما اليهودُ والإغريق- في تلك الحقب المبهمة.

والتقت القصة اليهودية التاريخية مع قصة الإمبراطورية الآشورية.

وفي أعالي نهر الدجلة على حافة منطقة التل الحجري تقع مدينة آشور التي ألفى أهلها -وهم من الساميين- أنفسهم، قرونًا، يعيشون على الحدود الدائمة المقاتلة لشعوب كبيرة: البابليين والميتاني والآراميين والحيثيين. ولقد تعلموا الشيء الكثير من كل أولئك وأصبحوا -ككثير من الشعوب التي تقع على الحدود- يحذقون الحرب. وقويت شوكتهم بعدما أخذ البابليون في الضعف بوقت قصير غير أن نهوضهم كان بطيئًا أول الأمر. ولقد وجدناهم يتاجرون في أنحاء الشرق وقد بدوا أمة صغيرة من الزراع والتجار وإن تكن ذات حيوية. ثم تحت إمرة سلسلة من الملوك المحاربين القساة المقتدرين -اكتسحوا أمامهم الجميع: غزوا بابل وهبطوا مصر منتصرين. فلقد قاد سارجون- الذي تسمى باسم الفاتح الذي سبق عهده بقرون -وتيجلات وبايلزر وإسرحدون ومينا خريب، قاد هؤلاء إلى كل مكان جيوشهم المرعبة: نَبَّالَتهم وفرسانهم ومركباتهم الحربية وكباشهم الضخمة (وهي آلات حربية لكسر الأسوار) التي بها دمروا أسوار المدن ولم يكتفوا بالغارات السنوية التي شنها الأباطرة الأولون، فقهروا البلاد التي استولوا عليها ودمروها وبثوا فيها الضباط والحاميات. وأنشأوا إمبراطورية منظمة وتوسلوا لذلك بالغزو العنيف. ولقد وصفهم نبيٌّ يهوديّ بقوله:

«وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث».

وقد عاش أولئك الملوك الآشوريون القساة في القرنين الثامن والسابع ق. م. وكانوا -كجميع أمثالهم من الحكام الأقوياء- جدّ معنيين بالإنشاء والتعمير. وفي الحقّ أنهم عاشوا في نعيم وارف الظلال. وقد اتخذوا نينوَى عاصمة لملكهم، ونينوى مدينة تبهر العين بقصورها ومعابدها اللامعة بقرميدها الملون، المزينة بتماثيلها العملاقة. ولقد نقش فنانون مجهولون على الجدران مناظر صيد بهيجة. وكانت الحدائق تغص بألوان شتى من النبات النادر الذي ينمو في كل البقاع التي يحكمونها، وترتوي بمياه قناة تمر فوق قناطر طولها ثلاثون ميلًا.

ولقد كابدت الإمبراطورية الآشورية من تغير الحاكمين في سنة ٦١٢ ق. م. وذلك عندما اغتصب الحكم الكلدانيون وهم شعب ساميّ آخر من الجنوب. ويتصف أولئك الكلدانيون بالذكاء والرحمة. وإنا لندين لحكمائهم بكثير من معلوماتنا الباكرة عن النجوم. ولقد أعاد بناء بابل بختنصر أعظم مَن حكم الإمبراطورية من الكلدانيين. وهو الذي استولى على بيت المقدس سنة ٥٩٧ وأسر اليهود ونقلهم إلى جوار مياه بابل.

وما أن انقضى على ذلك ستون عامًا حتى تسلم مقاليد الحكم شعب آخر، وكانوا -في تلك المرة- الهنود الأوروبيين، وهم من نسميهم بالفرس.

وإنا لندخل - مع الإمبراطورية الفارسية- تلك الحقبة التاريخية المدونة أخبارها في كتب القدماء الإغريق والرومان. إنها الحقبة التاريخية التي عرفها أسلافنا قبل أن يبدأ علماء العاديات في التنقيب عن الماضي السحيق. إنها قصة الإمبراطوريات الكبرى الثلاث وهي الفارسية واليونانية والرومانية التي تعاقبت بهذا الترتيب. ونهاية القصة أن الرومانيين استولوا على كل تلك البقاع التي حكمها، أول الأمر، الآشوريون ثم الفرس ثم الإغريق. وبذلك جمعوا كل شعوب البحر الكبير تحت

حكم واحد في الشرق والغرب وأدى العالم أجمع الخراجَ لقيصر. فنحن إذن أبناء الإمبراطورية الرومانية.

ولقد زال البابليون والحيثيون والميتاني والكريتيون والآشوريون بصفتهم شعوبًا متفرقة. ولا مرية أن سلالاتهم موجودة معنا اليوم ولكن أمجادهم وأعمالهم دخلت في زوايا النسيان أو حورت إلى أساطير.

وثمة شعبان آخران لعبا أدوارًا هامة في الحكاية التي درسا أسلافنا، وهما اليهود والقرطاجنيون. فاليهود لم يؤسسوا إمبراطورية مادية إلا أنهم ذوو حيوية. ولقد احتفظوا بتاريخهم في كتابهم المقدس: العهد القديم.

أما القرطاجنيون فقد غزاهم الرومان. ولم تصل إلى أيدنا كتابات قرطاجنية. وقرطاجنة الآن فلاةٌ بلقع على الشاطئ الأفريقي للبحر الكبير، ولا يعلم أحد مَن هم سلالة مواطنيها الأباة. والفرس واليهود والإغريق والرومان لا يزالون اليوم موجودين. غير أنه من المستحيل أن يكونوا على حالهم لم يتغيروا بعد كل هذه الأجيال وبعد كل تلك القرون المضطربة.

الفرس:

في سنة ٥٣٨ استولى كيروس (أو قورش) الفارسي على عرش الملوك الكلدانيين وعلى إمبراطوريتهم.

ولقد كان زعيمًا نبيلًا وحاكمًا حكيمًا رحيمًا. وهو لم يستعبد الجماهير ولم يَسسهُم بالسوط أو يخرب آبار الماء كما سبق أن فعل الملوك الآشوريون المتعطشون للدماء. وكيروس هذا هو الذي أعاد إلى بيت المقدس الأواني الفضية والذهبية التي كان بختنصر قد استولى عليها على أنها غنائم حربية. وهو الذي رخص لليهود –الذين كانوا يحيون حياة الأسرى– بأن يعودوا إلى فلسطين كي يعيدوا بناء معبد إلههم في بيت المقدس. وقد امتدت فتوُحه غربًا حتى المدن الإغريقية في آسيا

الصغرى، غير أن أهلها كانوا يعدونه جبارًا صديقًا فاتحًا صارمًا.

وقاد ابنه قمبيز جيشًا عبر شمالي البقاع الصحراوية الواقعة خلف جبال لبنان وهبط ساحل سورية وفلسطين الخصيب ثم اخترق صحراء سيناء الجنوبية ودخل مصر وقد فتحها للفرس.

وكان الملك القوي الذي حكم بعده هو دارا الأول الذي حكم من ٥٢٢ إلى ٤٨٦. وفي حكمه امتدت الإمبراطورية الفارسية من الهند إلى حدود الحبشة (إثيوبيا) في أفريقيا، وشمالًا إلى شاطئ البحر الأسود. وإن نظرة للخريطة فاحصة لهي أفضل من قراءة صفحات في تصوير هذه الإمبراطورية التي كونت كتلة ضخمة، والتي كانت يومًا مهد حضارات قديمة ثم أمست الآن وقد تناثرت فيها الأطلال.

ولقد لُقب دارا الأول -بحق- «ملك الملوك». فلقد حكم «مائة وعشرين إقليمًا»، حسبما ورد في الكتاب المقدس. وحوت إمبراطوريته حشدًا من شعوب تتكلم لغات عديدة. وكانت سفنه -التي يعمل فيها ملاحون من الهنود- تقوم من البحر الأحمر إلى الهند. أما سفنه التي يعمل فيها ملاحون من صور وصيدًا فكانت تبحر إلى غرب البحر الأبيض المتوسط. ولقد تكوّن جيشه من فرق من كل أجناس البشر، بعضها نصف متوحش يتخذ صنوفًا خيالية شتى من الأسلحة والملابس والعمرات(١)، وعلى رأسها «الخالدون» وكانوا عشرة آلاف من شباب أعرق أسر الفرس تحت إمرة الملك ذاته.

وكان الفارسيون شعبًا وسيمًا قويًّا وباسلًا مقدامًا منصفًا كثير التفاخر بأسلافه. ولقد عبد رعاياهم كل ما يعبد في الأرض من آلهة وأوثان وشياطين، وزاد اعتقادهم في السحر. أما هم أنفسهم فقد عبدوا إله النور والحق والخلق وأسموه أهورامزدا. ولم يكن هذا الإله ليكف لحظة عن محاربة إله الشر والإفك والتدمير المسمى أهريمان. وكان حقًّا على كل المؤمنين أن يساعدوا أهورامزدا في حربه السرمدية،

---

(١) العمرة (بفتح العين) كل شيء يجعل على الرأس من تاج وعمامة وغيرهما.

وذلك بأن يحيوا حياة خيّرة ويقْسطوا في كل أعمالهم وينطقوا بالصدق. وهذه الشريعة هي التي حدَتهم إلى إحسان معاملة اليهود الذين دانوا كذلك بإله عادل.

ولقد توسل دارا وخلفاؤه، في حكم إمبراطوريتهم بإنشاء الدروب والطرق العامة الممهدة الطويلة التي تمتد مسافات عظيمة للوصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. فلقد امتدت طريق ملكية، ١٦٧٠ ميلًا، من سوسة إلى مدينة إيفيسوس، وامتدت طريق أخرى إلى داخل الأراضي المصرية. وإلى كل ذلك أنشئت طريق عبر جبال الشرق المقفرة واستطالت حتى دخلت وادي نهر الأندوس بالهند. وعلى طول تلك الطرق ركب خيالةُ البريد الملكي ورسل الملك وقوافل التجارة وحاشية الملك نفسه كلما ارتحلت من مدينة إلى مدينة.

ولقد اتخذ ملوك فارس مدائن وقصورًا ملكية عديدة، وفيها عاشوا في أبهة وفخامة عظيمتين. ولقد كان القصر الملكي يزود بعمد الرخام وخشب السدر (الأرز) ويحلَّى بحلي من الذهب والعاج والأبنوس والفضة والحجارة الكريمة كالعقيق الأحمر واللاذورد[١] تصنع كلها وتثبت في مواضعها على يد صناع مهرة يستقدَمون مِن بلاد قاصية ودانية: من مصر، ومن المدائن الإغريقية، ومن صور والجبال الشرقية. وكانت الحوائك تغطى بصور، مطلية بالميناء، لثيران وسباع لها أجنحة، على النمط البابلي. ولقد زودت تلك القصور بكثير من الطنافس والأستار النادرة. ويصف كتاب «إستير» كيف كان الملك يولم بقصره في ساحة حديقته حيث كانت توجد «أستار بيضاء وخضراء وزرقاء معلقة بحبالٍ من كتان دقيق أرجواني إلى حلقات من فضَّة وأعمدةٍ من رخام وأسرةٍ من ذهب وفضَّة على طوار (ممشى مرتفع) من المرمر الوردي والأزرق والأبيض والأسود».

وكانت أقاليمُ الإمبراطورية تسمى «المرْزبانيات» لأن كلًّا منها يحكمه المرزبان،

(١) اللازورد معدن مشهور يتولد بجبال أرمنية وفارس، وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة، يتخذ للحلي، وله منافع في الطب.

الذي يصحّ أن نسميه نائب الملك. وكان هؤلاء ينوبون عن الملك في جباية الخراج وضمان العدالة وتعبئة الجيوش. وهم لم يلجأوا إلى إزعاج الشعوب ما أدوا الخراج وما احتفظوا بولائهم. وهم لم يكرهوهم على عبادة هذا الإله أو ذاك. ولقد حرص دارا وخلفاؤه على مراقبة المرزبانات ليعرفوا هل هم يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل.

وإذن فالإمبراطورية كانت شيئًا جديدًا في التاريخ، شيئًا قوبل بالترحيب لأنه حلّ محلّ الإمبراطوريات السابقة التي كانت تلجأ إلى القَهر والرعب وعبادة الآلهة المتعطشة لسفك الدماء. ومن أَجَل ما يُذكّرنا بالفرس، العبارةُ التي تصف تنشئة فتيانهم: «الفروسية والرمي بالقوس وقول الصدق».

الإغريق:

من كان الإغريق؟ تشترك الأساطير غير الواضحة وعلم العاديات في رسم صورةٍ لشعوبٍ انحدرت جنوبًا وأحدثت شغبًا وبلاء لجميع الشعوب التي عاشت حول البحر الإيجي (الإغريقي القديم). وقد انمحى كلّ ما يذكّرنا بالمدنية المينوية إلى حدٍّ أن أحدًا لم يعد يتذكّر مَن هم الذين حكموا ميسينيا الذهبية وهي الحصن المنيع الذي يعلو السهلَ «أرچفي» (أي الإغريق).

ولقد أنشد الشاعر الإغريقي (هومر) ملحمةً حماسية عظيمة عن حادثةٍ في حصار طروادة الذي قام به، طوال عشر سنوات، أمراء إغريقيون متحالفون بزعامة أميرٍ من ميسينيا اسمه أجاممنون، كما أنشد ملحمة أخرى عن عودةِ الأمراء الإغريقيين إلى الوطن وعن رحلات واحدٍ منهم اسمه أوديسيوس. وقد وقعت تلك الحوادث «بعد» تدمير كريت و «قبْل» البدء في تدوين التاريخ الإغريقي. إنها تسبح «في الهواء» كما يقولون وإننا لنعجز عن إيجاد الدليل الذي يرفعها إلى صف الحوادث التاريخية المعروفة. إنها تماثل حكايات الملك آرثر وفرسانه التي تحدّثنا عن أشياء وقعت

«بعد» سقوط روما ولكن «قبْل» بداية التاريخ الإنجليزي المدوَّن.

وعلى هذا يكون قصارى ما لدينا عن مجيء الإغريق هو ما يلي: في مكانٍ ما حول سنة ١٨٠٠ ق. م. بدأ أسلافهم يرتحلون جنوبًا عبر ممرات الجبال إلى البلقان وإلى بلاد اليونان حيث ملكتْ سلالاتهم الشواطئ وجزر البحر. وقد عرفهم الإغريق الذين جاؤوا بعد ذلك باسم «الآخيين الشقر» والأيونيين والدوريين. وارتحل الهنود الأوروبيون بعد هذا إلى ما وراء ذلك من ناحية الغرب وهبطوا إيطاليا وبلاد الغال. ثم ارتحل بعد هذا كله حشدٌ كبير إلى الأراضي الألمانية. ولنا أن نتصوّر كلَّ هذي الشعوب وقد تبعثرت في أصقاع مترامية ابتغاء مراع جديدة ومساكن جديدة، العام تلو العام. وبما أننا نحن أنفسنا نعدّ ضمن سلالاتهم التي لا حصر لها فإن من الشائق معرفة ما خمّنه العلماءُ في صدد منوال حياتهم في العصور البائدة قبل أن يبدأوا رحلاتهم، قبل حول سنة ٣٠٠٠ ق. م.

كانوا يغزلون وينسجون ويلبسون أحزمةً على خصورهم وأرديةً فضفاضة ويربون الأبقار والخنازير والإوز. وكانت عندهم أنيار[١] ومحاريث ومركبات لها عجلات. وقد صنعوا الخبز الفطير (أي غير المخمّر) وكانوا يسكرون بعسل النحل بعد تخميره، ويسكنون أكواخًا من الغصون لها فتحات أو نوافذ. ولقد برعوا في ركوب الخيل. ثم إن تلك العشائر التي أدركت الأمور بأحاسيسها إدراكًا مبهمًا والتي رحلت في تجمعاتٍ بطيئة صوب دنيا البحر الأبيض المتوسط مستصحبة مركبات وقطعانًا من الماشية ساقتها معها من المراعي الأسيوية –تلك العشائر ألفت الحصان البرّي وجاءت به إلى الدنيا القديمة المتمدنة. إنه، بلا ريبٍ، من مشخصات ماضينا الهامة إذ إن مجيئه غيَّر صورة الحياة. ومن سهولة قياده وقوّته جاء فارس آشور وبلاد الفرس واليونان وروما. ولقد ظلَّ الخيّالُ المسلّح «أي الفارس» يسيطر على الناس

(١) أنيار جمع نير (بكسر النون) وهو الخشبة المعترضة بعنق الثور أو الثورين لجر المحراث.

حتى اخترعت المدفعية. وفي وسعنا أن نرى التأثيرات التي طبعها على عقول الناس مجيءُ الخيالة في كلمات النبيّ العبري ناحوم الذي يقول: «صوت السوط وصوت رعشة البقر وخيل تخبّ ومركبات تقفز».

وكان ناحوم يتحدّث عن الآشوريين. على أن الخيل والمركبات الحربية لها دورها في حكايات (هومر) عن الإغريق وأهل طروادة.

ومن نظرتنا الأولى إلى إغريق الحقب المدوّن تاريخُها ندرك أنهم عاشوا في مدنٍ مستقلةٌ كلّ منها عن الأخريات. وكانت كلّ مدينة مع ما يحيط بها من مزارع تكوّن دولةً منفصلة تسمى (بوليس). وفي بعض الأحيان كانت إحدى المدائن ترسل زمرةً من مواطنيها لتنشئَ في مكانٍ آخر ابنةً للمدينة. وتتمتع هذه الابنة باستقلالها التام وإن ربطتها وإياها – بطبيعة الحال- صلات القربى. وإنّا لنجد، في القرنين الثامن والسابع ق. م.، آثار المدائن الإغريقية في أنحاء بلاد اليونان كافة: في الجزُر وعلى شواطئ آسيا الصغرى والبحر الأسود وفي صقلية وعلى الساحل الإيطالي وعلى سواحل أفريقيا بل على السواحل الفرنسية، في مرسيليا مثلًا. ومع أنّ كلًّا منها تتمتع باستقلالها التام فإن مواطنيها جميعًا كانوا يعدون أنفسهم شعبًا واحدًا وينظرون إلى غير الإغريق كافةً على أنهم «بربر» ويحسبون كلامَهم لغطًا لا معنى له. فلقد كانوا يقسمون الدنيا إلى إغريق وبربر.

وهم لم يتعلّموا قط أن يعيشوا في ولايات كبيرة على شاكلة إمبراطوريات آسيا القديمة أو الأمم الحديثة. ومع هذا فإن شعبًا ما لم يهتمّ بالتعمق في (السياسة) اهتمامهم بها. و(السياسة) كلمة معناها –كما يحتمل أن تكون قد خمّنْتَ- «شؤون (البوليس) أي المدينة». ولقد تباينت أساليب حكمهم أنفسهم. فكانوا تارة يحكمهم ملكٌ، كما في إسبرطة. وطورًا ينصّب رجلٌ قويٌّ نفسه حاكمًا بأمره يتصرّف وفق هواه، ولقد ظهر –في بعض الأحيان- من هذا الطراز، الحاكمُ الصالح. وحينًا يحكم الأشرافُ، وكان هذا يسمى بـ (الارستقراطية). وأحيانًا يشترك في الحكم المواطنون

جميعًا. وكان هذا، عندئذ، أيسر منه الآن إذ إن المدن كانت من الصغر بحيث تتسع لمن بلغوا سن الرشد قاطبة فيجتمعون لمناقشة شؤونهم، كما حدث في أثينا. وقد رأى أحكم الإغريقُ -أرسطوطاليس- أن كلّ نوعٍ من أنواع الحكم يمكن أن يكون صالحًا أو أن يكون فاسدًا، تبعًا لأساليب معاملةً الناس بعضهم بعضًا. ومن الجائز أن أحدًا لم يفكر قط في جلاء ولم يعبر قط عن رأيه في السياسة في دقة، بقدر ما فعل أرسطوطاليس وأفلاطون.

ولقد كان في وسْع كل مدينة أن تجعل تاريخ إنشائها مبتدءًا لحساب أعوامها. غير أن الإغريق جميعًا أرّخوا أعوامهم من بداية إقامة الألعاب الأولمبية التي كانت تعقد مرة في كل أربع سنوات والتي اشترك فيها متبارون من أقصى البلاد وأدناها. لقد كانوا شعب الهواء الطليق، يعيشون ويجادلون في ساحة السوق، في تدقيق واهتمام. أما اجتماعاتهم الرياضية والدينية فقد عقدوها في ساحات الألعاب الأولمبية والمسارح المكشوفة. وكانت المسارح تُبْنى من صفوفٍ مدرجة من المقاعد الحجرية المستطيلة على شكل أنصاف دوائر كبيرة تقام على المنحدرات أو سفوح الجبال وفوق تلك المقاعد يتسنّى لآلاف المتفرجين أن يشاهدوا ويسمعوا الممثلين والكهان يؤدون أدوارهم في أسفل. وما كانت مسرحياتهم محض لهوٍ بل تمثيليات دينية، تمثيليات تتحدّث عن قدامَى أبطال الزمان الغابر ومصاير الناس وتأثير الآلهة. وكانت قصصهم تستمد من الأساطير الإغريقية القديمة، وأعيادُهم الكبيرة تلازمها الألعاب الرياضية في أماكن شهيرة: كدلْفي وكورينْث وأولمبيا، ومواكبُ المشاعل -بقيادة الكهان- تنادي معلنةً عما سيحدث بما فيه مسابقات الجري ورْمي الأقراص ورشق الرماح والقفز وسباق الخيل والمركبات. وكان الفائزون يتسلمون أكاليل من أغصان الزيتون أو الغار ويظفرون بالشرف لمدنهم، وإذا ساعدهم الحظ تغنى ببسالتهم شاعرٌ عظيم مثل بندر.

وكذلك كان الإغريق -بسبب عيشهم في مدنٍ ساحلية- ملاحين قديرين وتجارًا ناجحين، وكانوا أيضًا جنودًا أشداء، وقد استأجرت مصر وبلاد فارس كثيرًا من شبابهم في خدمتهما العسكرية.

وأدهشُ ما لدى الإغريق براعةُ معمارييهم المذهلة وخزّافيهم ومثاليهم، وما يزال البارثينون -وهو معبد الإلهة أثين الذي يقف في الدرء، شامخًا فوق أثينا- يُعد واحدًا من أجمل ما يحويه العالمُ من مَبَان. وهو اليومَ لا يعدو كونه حجارة رمادية مخضبةً بخضابٍ ضاربٍ إلى حمرةٍ حائلة. أما في أيامه الأولى الزاهرة فكان يومض بالألوان تزينُه أروع التماثيل والنقوش البرونزية. والخزف الإغريقي متقن إلى درجة تحسبه معها من صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان. ويرتفع إلى مثل تلكَ الروعة: الشعر الإغريقي وحكمةُ الفلسفة اليونانية. فتمثيليات إيسخولوس ويوربيديس وسوفوكليس لا تزال تقرأ على أنها من أروع ما كتب إطلاقًا. وفلاسفةُ الإغريق لا يزالون محل دراسةٍ من أجل حكمهم. قال العالم الروماني شيشرون: «الإغريق أساتذتنا في كل فروع المعرفة». وهذا القول الذي صدر في القرن الأول قبل الميلاد لا يزال يصدُق إلى اليوم. نعم إن علومنا لم تُتَحْ لهم ولكنها قائمة على تقديراتهم في صدد الكرة الأرضية. وكل من يتعلم الإغريقية يعرف أن الإغريق امتازوا بأمرٍ عظيم وهو أن لغتهم كانت في حد ذاتها شيئًا فائق الجمال والصفاء.

ونحن نحكم على أي شعب بمقتضى أحسن ما لديه. وأحسن ما لدى الإغريق لا يعلو عليه شيء حتى الآن. غير أن علينا أن نتذكر أن الإغريق كانوا وافري العدد وأن الكثيرين منهم اتصفوا بالغدر والخداع و -بوجه أخص- بالميل إلى المخاصمة. ولكنهم ربما كانوا أغزر ألمعيةً من أي شعب عرفه العالم على الإطلاق وهذا هو سبب اهتمامنا بالسؤال: من كان الإغريق؟

مجد المدن الإغريقية وانحلالها:

في سنة ٤٩٠ ق. م. أشعلت المدنُ الإغريقية بآسيا الصغرى، على الملك الفارسي دارا، ثورة ساعدهم فيها جنودٌ أثينيون. فأرسل دارا جيشًا بغية الاستيلاء على أثينا. ولكن عندما نزل هذا الجيش من سفائنه الكبيرة إلى وادي ماراثون هزمه الرَّماحةُ الأثينيون -بقيادة ملتيادي- هزيمةً حاسمة.

وبعد عشر سنوات جمع ملكٌ فارسيّ جديد -إكسركسيس- من كلّ أملاكه جيشًا حاشدًا وزحف به عبر الهلّسبونت إلى داخل أوروبا، فوق جسرٍ من القوارب. ثم اتجه شمالًا إلى تراقيا وهبط بعدئذٍ إلى أثينا. وأرسل، في الوقت نفسه، أسطولًا من ألف ومائتي سفينة كبيرة إلى الشاطئ الإغريقي. واضطر الأثينيون إلى أن يهجروا مدينتهم التي حرقها العدوّ فورًا. غير أن جيشًا من إسبرطة وقف على أهبة الاستعداد لشدّ أزرهم على أنه -منذ حرب دارا قبْل ذلك بعشر سنوات- أنشأ الوزير الأثيني ثيميستوكليس عمارة بحرية بالغة القوة. وقد جاء دور هذه العمارة البحرية الآن. فلقد رقب إكسركسيس وحاشيته من فوق الصخور التي تعلو خليج سلاميز -رقبوا سفائن أثينا تدمر أسطوله في معركة عاتية استمرّت طوال اليوم. وهذا ما حدا كسرى إلى العودة إلى بلاد الفرس تاركًا وراءه جيشًا قويًّا ليقضي الشتاء في بلاد اليونان ثم يستأنف الحرب في الربيع. غير أنه في السنة التالية دحر القائد الإسبرطي -بوزانياس- هذا الجيش في بلاتايا.

وهكذا استطاع أسطول أثينا في سلاميز وجيش إسبرطة في بلاتايا أن ينقذوا بلاد اليونان من أن تصبح جزءًا من إمبراطورية الملك العظيم. فلقد أخفق في قهر اليونانيين إكسركسيس ملكُ الملوك الذي امتدت إمبراطوريته بين الهند ومصر والذي بلغ جنودُه عددًا لا يحصى كأنها رمال ساحل البحر. وهناك حكايةٌ من حكايات الحرب ينبغي ذكْرُها مرارًا وتكرارًا وهي حكاية ليونيداس ملك إسبرطة وفرقته التي كان قوامها ثلاثمائة من الرجال الغيورين.

كان على جيش إكسركسيس العرمرم، في زحفه الطويل المدى على جنوب بلاد اليونان، أن يجتاز الجبال عبر ممرّ ترموبيليا أي الينابيع الساخنة. وكان ذلك الممرّ في حوذة ليونيداس ورماحته يعاضدهم ألف محارب من تسبا.

وكانت الأرض الواقعة شمالي ترموبيليا تعجّ بجحافل الفرس المشكلة من كلّ محاربي آسيا والشرق: هنود يرتدون القطن ونبالة من بكتريا وعرب في أردية فضفاضة وزنوج أفريقيين في جلود النمور وجحافل من شعوب أخرى تلبس كلَّ أنواع الثياب الغريبة وتحمل كلّ أنواع السلاح من الرماح المنتهية بقرون إلى الهراوات الغليظة ذوات الأزرار الحديدية. وقد حوى هذا الجيش خيالة يحاربون بالمزاريق والأقواس. وقد توسطَ الجميع مشاة ميديا المعروفون يلبسون معاطف وسراويل من الجلد وطواقي من اللباد ويحملون حرابًا ودروعًا من الغصون المضفورة. وحفّ بشخص الملك العشرة الآلاف من الخالدين وهم حرس خاص منتخب من أشراف الفرس.

وجلس إكسركسيس في حلل أرجوانية[1] على كرسي من الذهب وشهد رجاله يهجمون، واستطاع ليونيداس وجنوده الإسبرطيون، ومعهم جنود تسبا، أن يحافظوا، في يسر، على المضيق وأن يقنصوا المديين في ذاك الممر -البالغ عرضه ٥٠ قدمًا- بحرابهم الإغريقية الثقيلة الطويلة، وعندئذ هجم الخالدون، وانتهى اليوم دون أن يتسنى لهم الاستيلاء على الممرّ، وتكرّر الأمرُ في اليوم الثاني.

وتبرع إغريقي من تلك الأنحاء فأرشد الفرس إلى طريق سرية فوق الجبال منها يمكنهم أن يفاجئوا ليونيداس من الخلف.

وتبع الفرس دليلهم في صف مفرد هابطين الدرب الوعر عبر غابات سوداء سواد القار (الزفت) سائرين في جهات تنتثر فيها الصخور وعلى طوال مجاري المياه، درب لا يتسع لأكثر من ماعز واحدة. وسمع الإسبرطيون، ليلًا، دبيب أقدامهم

(١) الأرجواني رمز السلطان والرفعة.

المستمرة المبهمة على ورق الشجر المتساقط وعجبوا للصوت. وعند الفجر كان جيش من جيوش العدو قد بلغ إلى خلف المضيق.

وصمد ليونيداس ورجاله ثم تحركوا إلى حيث أخذ المضيق يتسع ويتسع، وانتظروا استئناف الحملات. وأمعنوا في المحاربة وقتلوا فئات كثيرة من البربر بينهم إخوات إكسركسيس. فلما تكسرت رماحهم عمدوا إلى سيوفهم، ولما لم تسعف تلك حاربوا بأيديهم. ولمت الشرذمة الأخيرة شعثها واستجمعت قواها في نهاية أضيق مكان، وهناك سقطوا قتلى جميعًا. وإذ ذاك كان الخالدون في طريقهم إلى أثينا. ولكن ليونيداس ورجاله رعوا عهدهم الذي قطعوه. وقد نبعت هذه البسالة الخالصة من تنشئة الإغريق على الطاعة والوطنية الدافقة من أجل مدينتهم، وطنية لم تنشأ عليها الإمبراطوريات الآسيوية العظيمة.

وبعد أن انتصرت أثينا في سلاميز وغيرها أضحت، بزعامة بركليز، مركز إشعاع عظمة اليونانيين. فقد أعادت مدنها تشييد بيوتهم ومعابدهم التي زانتها تماثيل فيدياس، وكتب إيشخولوس وسوفوكليس ويوربيديس للملهى العام تمثيليات لا تزال تقر أو تمثل حتى الآن، ولقن أفلاطون تلاميذه الفلسفة في غيضة أسموها الأكاديمي (أي مجمع العلماء). وكان من تلاميذه: أرسطو الذي اشتهر شهرة أستاذه. ولقد اغتر الأثينيون، فوق هذا كله، بدرايتهم كيف يعيشون أطيب عيش يعيشه الأحرار. ومن أنفس الخطب على مر الزمان تلك التي ألقاها بركليز عندما تكلم عن أولئك الذين ماتوا في حرب الفرس. قال: «إن مدينتنا مفتوحة للجميع ونحن أبدًا لا نطرد أجنبيًّا أو نصده عن رؤية أي شيء أو عن تعلمه. ونحن نحب كل ما هو جميل ولكن أذواقنا مع ذلك بسيطة، ونستخدم الغنى لا للظهور بل وفق حاجتنا. والفقر ليس عارًا، أما العار الحق فهو أن تكون فقيرًا ولا تصنع شيئًا لمساعدة نفسك، وإنا لنعد كل امرئ لا تعنيه مدينتنا شخصًا لا يرجى منه، ونفكر قبل أن نعمل. ثم نعمل فعلًا. وإني لأريدكم على أن تركزوا أبصاركم، اليوم بعد اليوم، على قوة أثينا حتى

يفعمكم حبها وحتى يدفعكم صدى ذلك إلى الإيمان بأن قوتها إنما صنعها رجال عرفوا واجبهم وملكوا الشجاعة للقيام به».

ولكن وأسفاه! لأن الأثينيين الذين انتزعوا الزعامة من الفرس لم يلبثوا أن أكرهوا المدن الإغريقية التي تقل عن مدينتهم شأنًا على أداء الضرائب إلى خزانتهم بل إنهم حاربوها. وبعدئذ قامت في سنة ٤٣١ حرب بين أثينا وحلفائها وبين إسبرطة وحلفائها، حرب دامت نحو سبعة وعشرين عامًا وجلبت الشقاء على الآلاف. ولقد كانت حرب البولوبونيز (وهذا اسم طويل ولكنه يستأهل أن نتذكره) في واقع الأمر حربًا أهلية؛ ذلك لأن الإغريق كانوا شعبًا واحدًا وتعاملوا على أنهم كذلك وإن لم يتعلموا قط أن يتعاونوا طويلًا.

وفي أثناء حرب البولوبونيز احترف آلاف من الإغريق صناعة الحرب ونزحوا عن مدنهم ليحاربوا للمصريين أو للفرس أو للقرطاجنيين وأصبحوا مرتزقة يؤجرون رماحهم وسيوفهم لقاء جُعْل. ولقد جاء في كتاب من الكتب القديمة أن زينوفون الأثيني خلف لنا حكاية بديعة الصياغة عن تقهقر العشرة الآلاف إغريقي من بابل عبر جبال أرمينيا الموحشة إلى سواحل البحر الأسود. وانضم أولئك العشرة الآلاف إلى جيش أمير فارسي اسمه كيروس. فلما قتل أَلِفوا أنفسهم مهجورين بلا أصدقاء في بلاد غريبة. وأفلتوا بالطريقة الوحيدة التي وسعتهم، وكانوا من أركاديا وأثينا وطيبة ومن مدن كثيرة غير هذي. ذلك أنهم ثابروا على السير شهورًا، مكدودين مرهقين عبر مضايق الجبال والنجود الباردة الكئيبة وقد عضهم الجوع والفقر وتعثروا في العواصف الثلجية يحارب مؤخرتهم القبائل المناجزة، حتى ظفروا آخر الأمر بالوصول إلى أوطانهم.

ولم يتح للمدن الإغريقية قائد عبقري ولكنهم لم يعوزهم قط رجال يبتغون المغامرة خارجها. على أن الإغريقيين لم يلبثوا أن وجدوا القائد في شخص الأمير

المقدوني: الإسكندر[1].

الإسكندر:

كان المقدونيون شعبًا جليًّا خشنًا مجانسًا لإغريق المدن. ولقد حولهم ملكهم فيليب إلى أمة من جنود حسني التدريب وسلكهم فيالق من الرماحة منظمة على شكل مثلث طويل الضلعين. فلما مات -بعد أن نصب نفسه سيدًا على كل الأصقاع الشمالية باليونان- خلفه على العرش ابنه الإسكندر. وكان فيليب قد أعجب بمدينة الأثينيين وجعل من فيلسوفهم الكبير، أرسطو، مؤدبًا لولده. أما سؤال: هل كان لهذا تأثير في توجيه الإسكندر ليمسي أعجوبة الدنيا؟ فليس في وسع امرئ أن يجيب عن هذا السؤال.

وكان عمر الإسكندر عشرين سنة عندما تبوأ العرش.

ولقد استطاع - بجيش أبيه تحت إمرة قواده البارعين- أن يعبر الهلسينط ليدخل آسيا ويعجل فتح آسيا الصغرى والشام ومصر. ثم دخل بقاع ما بين النهرين ودحر دارا الثاني ملك الفرس في جوجيميلا بالقرب من نينوى. ولم يكن الفرس أكفاء للقاء الإغريق، المدججين بالأسلحة الثقيلة، المتراصين في فيالقهم، ولا فرسان الإغريق الذين تقدموا من الجناحين مكتسحين. ولقد أغار إكسركسيس على أوروبا -قبل ذلك المقدوني بقرن واحد- ولكن كان نصيبه الإخفاق. أما الآن فإن الإغريق - بقيادة ملكهم الشاب الرياضي الوسيم- فقد ظفروا بالشرق كله.

وبقي ما صنعه بعدئذ لا يضارعه شيء على مر التاريخ. فلقد قاد جيشه شرقًا عبر هضاب فارس ودخل الأفغانستان والتركستان، وقضى الشتاء بين قبائل الأفغانستان الجبلية المتوحشة. وفي الربيع اجتاح الهند. وقد انحدر في الممرات الطويلة الكثيرة الالتواء بجبال الهملايا ودخل البنجاب التي استسلم أميرها. وعاد بعد أن زحف

---

(١) انظر شكل -٢- (إمبراطورية الإسكندر الإغريقية؛ إمبراطورية الفرس ثم اليونان ومقدونيا وتراقيا).

زحفًا شاقًّا عبر قفار بلوخستان اللافحة وقد خلف وراءه شهرة وذكرى لشخص «إسكندر» لم تخمل على ممر الأجيال؛ ذلك أن الإسكندر لم يكن قائدًا عبقريًّا وفاتحًا فحسب ولكنه عرف أيضًا كيف ينظم الرجال والشؤون وأبدى حكمة بعيدة النظر. ولم يظهر قط محارب مثله أو جيش كجيشه. غير أنه لم يوجد قط كذلك شعب كالإغريق. أما مسألة ماذا كان يصنعه الإسكندر أكثر من ذلك لو أن حياته استطالت إلى المدى المألوف فلا يقدر إلا تخمينًا. ولكن شعبه فجع فيه إذ مات بالحمى في بابل، سنة ٣٢٣ ق. م.

لقد تسنى له – بعد حرب وجهد لم ينقطعا طوال عشر سنين– أن يغير العالم. لقد صنع إمبراطورية امتدت من الأندوس إلى النيل والبحر الأدرياتي، ولم جميع الناس تحت سلطانه ليعجبوا بالإغريق ويتمثلوا بهم. وبعد وفاته قسم قواده إمبراطوريته وأضحوا ملوكًا وشيدوا ممالك: فسيلوقس أخذ سوريا والعراق، وبطليموس أخذ مصر، ووأنتيجونوس تملك مقدونيا. ولئن كان الإسكندر قد أسس مدنًا –ونخص بالذكر الإسكندرية في مصر– فإن قواده، بالمثل– أسسوا مدنًا إغريقية في أنحاء الشرق كافة. ولقد امتلأت مملكاتهم بالجنود الإغريق والتجار الإغريق والعلماء الإغريق. وفي كل مكان اتخذ الناس العادات الإغريقية وتعلموا التحدث بالإغريقية لتكون لغتهم المشتركة. وفي كل المدن الشرقية حلت هندسة البناء الإغريقية والثياب الإغريقية وألعاب المصارعة الإغريقية ومعرفة الإغريق وطبهم وعلمهم وفلسفاتهم وعاداتهم، حلت كل هذه محل نظائرها مما كان متبعًا. وحتى بعض اليهود –وهم أكثر الشعوب عنادًا– اتخذوا الأساليب الإغريقية وشاركوا في الألعاب الإغريقية، بل ذهبوا إلى ترجمة كتبهم المقدسة إلى الإغريقية، وقد قصدوا بذلك أن لا ينسى اليهود الذين لا يعرفون من اللغات غير الإغريقية ديانة أسلافهم. وعلى هذا بقي كل شيء على ما كان عليه حتى جاءت الكتائب الرومانية، بل إنه بقي حتى اجتاحت تلك الكتائب الشرق. وعندما كتب أصحاب عيسى تاريخه كتبوه بالإغريقية، وظل

النصف الشرقي من مدنيتنا إغريقيًّا عشرة قرون.

ولا عجب إذن أن التلاميذ الإنجليز درجوا على دراسة آثار الإغريق الأدبية وما زالوا يفعلون.

جوابو البحار ومدن غرب البحر الأبيض المتوسط:

في القرن الثامن قبل الميلاد -وقتما كان ملوك آشور يقودون فرسانهم ومركباتهم الحربية ويدكون حصون مدن الشرق بالمنجنيق- تشكلت مدينة على ضفتي التيبر في إيطاليا. وكانت تلك، روما.

وتقول الأساطير إن روما تأسست في سنة ٧٥٣ ق. م.. والأولى أن نقول إنه في منتصف القرن الثامن عشر كانت هنالك مدينة تجارية صغيرة على التيبر لها جسر على النهر: جسر ذو أهمية كبيرة جدًّا إلى حد أن لقب باني الجسور (الحبر) بقي إلى الأبد بعدئذ، موضع تجلة عند الرومان. ونحن حتى اليوم نلقب بابا روما بحبر الأحبار. وكانت تلك المجموعة من الأكواخ والمساكن ملاذًا وسوقًا (أو «ساحة») للفلاحين المتكلمين باللاتينية الذين تيسر لهم هناك أن يقايضوا الحبوب والحيوانات بالأسلحة والأدوات البرونزية والحديدية التي أعوزتهم.

كان هذا بداية روما، ولدينا الكثير من مسجلات الآشوريين والشرق في القرن الثامن ولكن ليس لدينا إلا القليل من مسجلات غرب البحر الأبيض المتوسط الذي فيه يفرغ تيبر روما مياهه. ونحن لا نكاد نعرف شيئًا عن القبائل التي عاشت في الأصقاع الغربية ولا نعرف إلا النذر اليسير عن جوابي البحار الوافدين من الشرق ومن المدن التي أسسوها لتجارتهم.

لقد وُجِد هناك، أول الأمر، الفينيقيون، وهم ملاحو صور وصيدا الأغنياء المغامرون الذين حفظوا سرهم وكتموا عن الأجانب معلوماتهم عن البحار. وكانوا أهم الرواد الذين أبحروا غربًا للتجارة والكسب. فكانوا في بلادهم، على الساحل السوري -

يصرفون تجارة آسيا ومصر. وقد اشتهر صناعهم بحذق الصناعات المعدنية، وفي الخارج أنشأوا مدينة أسموها قرطاجنة (أي البلدة الجديدة) على الساحل الأفريقي المواجه لجزيرة صقلية وبنوا كذلك، على سواحل صقلية وإسبانيا، مدنًا إحداها وراء البحر الأبيض المتوسط على مصب نهر الوادي الكبير اسمها قادس. ومن المحتمل أن أهالي إسبانيا استغلوا مناجم النحاس الأحمر والصفيح. ومن المحتمل أيضًا أنهم اعتادوا الإبحار في الأطلنطي إلى جزائر سكيلي وإلى كورنوول، كما اعتادوا إرسال سفن تنحدر إلى ساحل أفريقيا الغربي. ولقد احتفظوا لأنفسهم بكل ما استكشفوه وظل غرب البحر الأبيض بحرهم سنوات طويلة جدًّا. أما من عسى أن تحدثه نفسه من رباني السفن الإغريقية بالإقلاع إلى هناك فإنما كان يفعل ذلك وهو يعرض نفسه للخطر.

وكان ينافسهم إغريقي البحر الأصلي ومجموعة جزائر البحار الإغريقية. فلقد أسس الإغريق مدائن في جنوب إيطاليا وفي صقلية وعلى شاطئ فرنسا الجنوبي كسرقوسة ومرسيليا.

وكانت سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط الممتدة، دنيا جديدة لأولئك الملاحين. وقد تاجر الفينيقيون والأهالي طلبًا للمعادن والجلود، مقايضين عليها بالأقمشة المنسوجة والخزف وأدوات الزينة، وقد اعتادوا -كلما أقلعوا وجذفوا سائرين على مرأى من اليابسة متنقلين بين معالمها- أن يلقوا مراسيهم بالبلاد التي أنشأوها حيث تنتظرهم البضائع وحيث يتفاوضون مع أهل داخلية البلاد الذين يقلون مدنية.

ولقد كان هناك شعب ذو مدنية درج هو أيضًا على جوب البحار ومبادلة السلع إلا أن هذا الشعب قد عاش في الأراضي الغربية، في الإقليم المتعثر الواقع بين جبال الأبينين الإيطالية والبحر شمالي روما. وكان هذا الشعب هو شعب الأتروريين (الأترشك). عاشوا في مدن أو نحو ذلك وحكمهم سادة أو ملوك، تمامًا كفلسطيني

العهد القديم. ولقد ترك أولئك آثارًا تذكارية لهم، إذ كانوا يدفنون موتاهم في حجرات قدت في الصخر ويضعون لهم أثاثًا وأمتعة يستعملونها في الحياة الأخرى. وقد نقشوا كتابات بالحروف الإغريقية غير أننا لا نستطيع قراءة الكلمات لأن اللغة غريبة علينا. ولقد تفوقوا في الصناعات اليدوية الدقيقة والمصنوعات المعدنية والخزفية، ومصنوعاتهم البرونزية والذهبية تسر الناظرين، وخزفهم يداني خزف الإغريق وإن قل عنه جمالًا. وهم عرفوا كيف يبنون العقود[1] ولم يعرفها الإغريق. ولقد استحدثوا الخيل والمركبات الحربية وتركوا صورًا لحفلات الصيد والأعياد ويبدو أنهم ولعوا بالموسيقى. ولا يعلم أحد من أين جاءوا أول الأمر، ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا من الشمال والشرق. وبما أنهم كانوا جيران القبائل اللاتينية الأشداء فربما يكون ملوكهم قد حكموا روما أكثر من مائتي عام؛ فقد دخل حياة الرومان الكثير من حذقهم وعاداتهم: إنهم أعطوا الرومان أبواقهم الحربية الطويلة وأرديتهم الأرجوانية وحزيمتهم[2] التي اتخذوها رمزًا أمام حكام الرومان. وكثير من الأسر الرومانية انحدر من هذا الجنس الغريب. وقد ألف بعض كتاب الرومان عنهم كتبًا ضاعت لسوء الحظ.

وعلى هذا يمكن أن يعد الأتروريون بين مؤسسي أوروبا.

وتنبئنا قصص روما القديمة كيف نمت المدينة وكيف طرد الشعب ملوكهم الأتروريين (أسرة تركوين) في وقت ما حول سنة ٥٠٠ ق. م.. وتنبئنا بعد ذلك كيف استولى الغال على المدينة في سنة ٣٩٠. ففي ذلك الوقت أخذ نور التاريخ يزداد سطوعًا؛ ولذا بدأنا الآن نستمتع بقصة أكثر تدفقًا. كان الغال -وهم أمة همجية- يزحفون عبر أوروبا من الشرق. وكان بعضهم -قبل هذا بفترة طويلة- قد أغار واستقر في آسيا الصغرى في المنطقة التي سميت فيما بعد، جالاتيا وحول سنة ٤٠٠

(١) العقد -بفتح العين- ما عقد من البناء (أعلاه مقوس).
(٢) الحزيمة -بفتحة فكسرة- قضبان محزومة على فأس وهي شعار روماني.

بلغوا شمال إيطاليا. وفي سنة ٣٩٠ هبط مقاتلوهم مضايق جبال الألب ودخلوا إيطاليا حيث هاجموا المدن الأترورية ثم استولوا على روما كلها، كلها فيما عدا الحصن. وتقول الحكاية القديمة إن الإوز المقدس المحتجز في المعبد قلق عندما سمع العدو يقترب خلسة وهكذا استيقظ الرومان وردوا المهاجمين. غير أن الرومان أكرهوا على دفع فدية باهظة ليستردوا مدينتهم قبل أن يرضى الغال بالانسحاب إلى سهول نهر البو الخصيبة، في شمال إيطاليا. وفي ذاك الوقت كان أقرباؤهم يرتحلون إلى أقصى الغرب في الموضع الذي يسمى الآن فرنسا والذي سمي بلاد الغال بناء على ذلك.

وحول هذا الوقت كان الرومان بسبيل العمل على ذيوع صيت مدينتهم. فلقد تعلموا الكثير من الإغريق والأتروريين؛ فبنوا السفن ومارسوا التجارة بحرًا وتداولوا النقود واقتبسوا الحروف الهجائية الإغريقية وحوّروها تحويرًا بارعًا يناسب لغتهم، وانتقل هذا مع الوقت إلى شعوب الغرب قاطبة؛ وعلى ذلك فهذا الكتاب الذي تقرؤه الآن (الكلام هنا على النسخة الإنجليزية) مطبوع بالحروف اللاتينية أو الرومانية.

اشتبك الرومان مع جيرانهم في حروب عديدة. ويبدو في قصصهم القديمة أنهم يماثلون كل المماثلة أسلافنا الأنجلوسكسون – فهم مزارعون ومحاربون: رجال كانوا يفلحون مزارعهم ويذهبون لملاقاة عدوهم في الهيجاء، كانوا شعبًا باسلًا دؤوبًا قويًّا يعرف معنى الواجب حق المعرفة.

والمعجز حقًّا عند الرومان: أسلوبهم في حكم أنفسهم.

ولقد حكم روما – بعد طرد أسرة تركوين- سناتو[1] أو مجلس أعيان و«رجلان» يطلق عليهما اسم القنصلين. وكان هذا القنصلان يعملان معًا كما قد يعمل ملكان: يقيمان العدل ويسنان القوانين بموافقة السناتو، مع تساويهما في السلطان. وكان لكل منهما -في واقع الأمر- أن ينقض أي أمر يصدره زميله. وفي الحروب درجا

(١) السناتو: مجلس الشيوخ.

على أن يقودا الجيش بالتناوب يومًا بعد يوم. وهذا يبدو الآن أكثر غرابة مما بدا في تلك الأيام التي فيها كانوا يجالدون بعضهم البعض بالأيدي في مواقع قد لا تدوم غير يوم واحد. وبطبيعة الحال يمسي الأمر أكثر يسرًا كلما كان القنصلان متحابين. ولكن المهم هو ما يلي: كان القنصلان يستبدل بهما غيرهما بطريق الانتخاب في كل عام. وعلى هذا المنوال فكر الرومان في تجنيب مدينتهم أبدًا أن يتسلط عليها حاكم بأمره. وأشبه الناس عندنا بالقنصل: محافظ المدينة.

وكان مجلس الأعيان هو صاحب السلطان الرئيسي. والعضو يظل عضوًا مدى الحياة. ولقد ضم السناتو كل من شغل وظيفة قنصل. ولم يسبق في تاريخ العالم أن هيئة برعت في الحكم أكثر من السناتو في أوجه. وحسبك ما قاله كاتب تاريخ المكابيين اليهودي في الكتاب المقدس. إنه ينبئنا بما كان يراه -في السناتو- عن رجال ألموا كل الإلمام بأحوال الملوك والعظماء من وزرائهم.

قال عن أعضاء السناتو: «وفي هذه جميعًا لم يكللوا أحدًا منهم إكليلًا أو يلبسوه أرجوانًا ليتعظم. وصنعوا لأنفسهم ديوانًا. وكل يوم كانوا يستشيرون ثلاثمائة وعشرين مؤتمرين دائمًا لأجل الجماعة لكي يصلحوا ذواتهم».

وهذه تحية جليلة.

كيف بسط الرومان نفوذهم على العالم:

في سنة ٣٩٠ ق. م. عندما استولى الغال على روما ونهبوها اشتبك الرومان، سنوات عديدة، مع جيرانهم: السمنيين والأمبريين والأتروريين. وقد نظموا مواطنيهم فيالق برئاسة نقيب لكل مائة جندي وهؤلاء الجنود المواطنون -يقودهم القنصلان في كل عام- حكموا إيطاليا الوسطى كلها. وتتجلى وطنية الرومان الراسخة الخالصة في حكايتهم عن سنسناتوس الذي استدعوه من المزرعة لقيادتهم عندما عصرتهم الحرب، وبعد أن قادهم فعلًا إلى النصر عاد إلى مزرعته. وفي مرة أخرى، عندما كان

الرومان يحاربون المدن الإغريقية في جنوب إيطاليا، خف الملك الإغريقي بيروس -من بر اليونان الأصلي- لنجدة أقربائه. وحاول بيروس أن يرشو القائد الروماني كاسيوس فابريسيوس. ولكن هذا الرجل الأخير، الذي لم يكن غير فلاح فقير مثل سنسناتوس، أبى أن يرتشي. غير أنه، عندما عرض أحد عبيد بيروس أن يدس السم لسيده إذا أجره فابريسيوس على ذلك، كتب هذا الأخير من فوره إلى بيروس يطلعه على المكيدة. وتبين هاتان الحكايتان -ومثيلاتهما كثيرات- السبب في أن الرومان ظفروا باحترام الناس وثقتهم: وكان أكبر ما يقدره الرومان: «الفضيلة» وأعني بها كل المناقب التي تخلق الرجل الطيب والمواطن الصالح وهي: الشجاعة، والشعور بالواجب، والشرف، والوفاء، وحب الوطن والأقربين. ولهذا تجدنا اليوم لا نزال ندرس القانون الروماني وتجد القوانين الحالية في كثير من البلاد أساسها القانون الروماني.

وبينما كان الرومان يبسطون سلطانهم في كل مكان بإيطاليا كان الإسكندر الأكبر يبسط سلطان الإغريق في كل مكان بالشرق. وكان الملك بيروس من بين أولئك الذين تقاسموا إمبراطوريته الإغريقية بعد وفاته: وكثيرًا ما تساءل الناس عما كان عساه يحدث لو أن حياة الإسكندر امتدت حتى يلتقي بالرومان في ميدان القتال. غير أن الحرب التي شبت ابتغاء السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط كان الخصم فيها عدوًّا يختلف اختلافًا كبيرًا عن روما، كان هذا الخصم قرطاجنة التي استولى أمراؤها التجار على صقلية وسردينيا ومناطق من إسبانيا. وكما تخاصم الفرس والإغريق خصامًا مريرًا للسيادة على الشرق تخاصم الرومانيون والقرطاجنيون خصامًا مريرًا للسيادة على الغرب.

كان التجار القرطاجنيون جد أثرياء، وكانوا يتكلمون لغة كالعبرية غير أن كل مسجلاتهم قد اندثرت. وجدير بالذكر أن كل ما نعرفه عنهم، على وجه التقريب، مصدره مسجلات أعدى أعدائهم وهم الرومان. ولقد كانت مدينتهم العظيمة

قرطاجنة المركز التجاري للقوافل الطويلة الوافدة من الريف الأفريقي ولزُمر التجار الآتية من البحر عبر قناة ضيقة تصب في مرفأ قرطاجنة الصناعي الكبير داخل أسوار المدينة. وعلى المرسى الكبير كانت تفرغ شحنات الفضة الإسبانية والخمور وأقمشة الشرق وتوابله وسبائك القصدير الواردة من الجزائر التي تلي مضايق جبل طارق. ولقد حكم القرطاجنيون خليطًا من الجماهير: من مصريين وغال وإغريق وليبيين وإسبان وسردينيين ونوميديين متفاوتي السمرة. وكان إله قرطاجنة[1] «بعل» الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس. وفي أوقات الشدة والخطر كانوا يحرقون الآدميين أحياء حتى الأطفال الأبكار وذلك لكي يحملوا بعمل على أن يحبوهم النصر. وكان جيشهم، فيما عدا فرقة مختارة من شباب الإشراف، جيش مرتزقة مشكلًا من شعوب عديدة: من الإغريق والغال ومشاة السردينيين ومن الخيالة الليبيين الماكرين الخفاف الحركة. وقد عرف القرطاجنيون المسالك البحرية خيرًا مما عرفها الرومان: وكانوا مرشدين وبحارة ممتازين ولكنهم كانوا من الثراء بحيث يستطيعون أن يؤجروا شعوبًا أخرى ليحاربوا لهم على اليابسة.

كانت صقلية منذ البداية –كحال بلجيكا– ميدانًا تلتقي فيه الأمم المتنافسة وتشعل حروبها التوسعية. فلقد غزا بلجيكا الألمان والفرنسيون والإسبان والبريطانيون، كما غزا صقلية: الإغريق والقرطاجنيون والرومان. وعندما طرد من صقلية الملك الإغريقي بيروس صاح قائلًا: «ما أبهج البلد الذي أنا تارك لروما وقرطاجنة!» ولقد آلت تلك الأرض البهيجة إلى روما. ذلك أن الرومان شيدوا لأنفسهم عمارة بحرية قوية، وتعلموا من النكبات كيف يحاربون في البحر، وهزموا القرطاجنيين وأجلوهم عن الجزيرة. وعندئذ أمست روما سيدة إيطاليا وصقلية جميعًا كما استولت جيوشها على سردينيا. وأصبحت إذ ذاك الدولة البحرية المظفرة في الغرب. وأخذ القرطاجنيون يحلمون بأخذ الثأر، وكان ذلك واجبهم إذا اعتزموا أن يحافظوا على

(١) بعل إله السوريين والآشوريين القدماء.

تجارتهم وهي قوام حياتهم. وهكذا كان الوضع في سنة ٢٢٠ ق. م.

وبعد ما انقضى على ذلك ثلاثةٌ وخمسون عامًا كتب مؤرخ إغريقيّ ألقيّ اسمه بولبييوس، وكان ضيفًا كريمًا ببيت أحد نبلاء روما -كتب يقول: «هل يوجد امرؤ خامل الفكر أو جاهل إلى حدّ أنه لا يرغب في معرفة كيف استولت مدنية روما على العالم أجمع في مدى ثلاثة وخمسين عامًا؟». ثم أجاب عن السؤال الذي سأله بتاريخ طويل مشرق.

وإليك مجمل ما حدث من القُواد المشهورين ومن التبديلات المذهلة في الأوضاع والمصاير.

من القرطاجنيين الذين كانوا يتحرّقون شوقًا إلى الأخذ بالثأر شاب اسمه هانيبال، وقد عقد النية على محاولة تدمير روما. فجيَّش جيشًا غزا به إسبانيا وسار مخترقًا الغال وعبر نهر الرون ناقلًا فيلة الحرب على أطواف[١] صنعها بحيث تبدو كأنها جزر، وتسلق جبال الألب وهو يقد صخور الممرات ويفلقها بالنار والسوائل المُذيبة، وانحدر إلى السهول الإيطالية بجنوده المرتزقة وفيلته، ودمّر ثلاثة جيوش رومانية، وأثار شعوب إيطاليا على روما. وبدلًا عن مهاجمة روما نفسها نهب الريف، وقد أقلق ذلك الرومان فاختاروا -على عادتهم- رجلًا واحدًا ليكون «حاكمًا مطلقًا»، أو السيد الأعلى، في ذاك الوقت وقت الخطر والمحنة. ولقد ذاع صيتُ ذلك الرجل -فابيوس- بالتفادي من الحرب وبالحرص على جعْل هانيبال دائم الترقب والربكة، وذلك بالغارات المستمرة والتوعّد بالانقضاض. غير أن القنصلين اللذين أعقبا فابيوس، دحرهم هانيبال دحرًا تامًّا في (كاني) حيث داس فرسانُ ليبيا بسنابك خيلهم ثمانية فيالق.

وكانت روما لا تزال تحتفظ بسفائنها. فاضطلع سيبيو الأفريقي بقيادة الجيش الروماني في إسبانيا فأخضع تلك البلاد ونقل الحرب إلى أبواب العدو بغزوة أفريقيا

---

(١) الطوف: أخشاب مشدودة يُعبر بها الماء طفرًا.

وإكراه قرطاجنة على عقد الصلح وقد ظل هانيبال في إيطاليا ستة عشر عامًا كانت مديدة مضنية بالنسبة إلى شعب روما. وعاد الآن لينقذ قرطاجنة ولكن سيبيو هزمه هزيمة ساحقة في زاما بأفريقيا في سنة ٢٠٢، فأمست قرطاجنة إيالة تخضع لروما وتذعن لمشيئتها.

وقد أثار هانيبال الإغريق ليحاربوا روما. ولكن فيالقها التي شدت عزمها ممارسة الحروب انتصرت على زُمر المقدونيين. قهرت جيوش ملك سوريا وآسيا الصغرى الإغريقي واستولت على مصر بدون قتال. وكل هذا ذكره بوليبيوس في كتابه. أما سبب انتصار روما فكان -في نظره- اتحاد الرومانيين ووطنيتهم، وفضيلة قوادهم، والأسلوب الحكيم الذي كان السناتو يسوسهم به. ولقد كان الإغريق -كسابق عهدهم في كل حين- أرجح الناس عقولًا، غير أنهم كانوا دائمي النزاع فيما بينهم، ولم تحاربهم روما قدْر ما حارب بعضهم البعض.

وهكذا بسطت روما نفوذها على العالم ولكن حياتها -إذ أتت ذاك- تحولت إلى شيء يباين الأساليب القديمة البسيطة. فحلت الآن محل المساكن والمزارع المتواضعة القديمة -البيوتُ المترفة والكرْمات (الفيلات) الفخمة. والآن عمد الرومانيون- الذين لم يكونوا قط فنانين ولا صناعًا مهرة- إلى استخدام الإغريق والآسيويين في بناء ورسم وصنع أشياء جميلة. وقد جلب الجنود الرومانيون من الشرق مركبات نقلٍ ضخمة محملة بالتماثيل والرسوم. وحولت روما إلى بلد يأتيها كل تجارة العالم، وتقاطرت الألوف من الأجانب إلى عاصمة الدنيا. وأسوأ من هذا أن الحروب الطويلة أمدت روما بحشود لا حصر لها من العبيد والرجال المحطمين وأسرى الحرب، رجال وُلدوا أحرارًا ولكنهم وقعوا في الأسر وسيموا كالسائمة وبيعوا كالبهائم في سوق العبيد الكبير بديلوس. ولقد ملأ أولئك الرجال البائسون بيوت الأعيان وعملوا أفواجًا في مزارعهم وفي المناجم والمحاجر. واستُبْدلت بمزارع الأسرة الصغيرة مزارع مترامية الأطراف يعمل فيها إمرة مراقبين في منتهى

الفظاظة. ولقد كان الشغل الشاق المضني، طوال فترات التاريخ القديم، يقوم به العبيد الذين يعملون في الحفر وجر السفن والتنظيف وفي كل أنواع الكدْح اليدوي. ولقد كانت لعنة العبودية فظيعة إلى حد حدا بستين ألفًا من العبيد إلى إضرام نار الثورة في جميع أنحاء صقلية وجنوب إيطاليا. ولقد جُرد جيشٌ روماني سلخ أعوامًا ليخمدها بحرب من أفظع الحروب التي شهدها العالم أجمع، ومن أبعدها عن الرحمة.

قيصر:

لا شك في أن الحروب الطويلة بدلت أسلوب معيشة الرومان. فلقد غصت روما نفسها الآن بحشود من السوقة[1]، من العبيد والهاربين وذوي الحرف والمتعطلين والأفاقين من كل فج. وقد أخذ التجارُ الأغنياء والمرابون والأعيان يثرون ثراء فاحشًا من التجارة التي ترتبت على غزو إسبانيا وأفريقيا وبلاد اليونان. أما الريفيون والمواطنون عتيقو الطراز، ذوو الخلال الرومانية القديمة وأساليب الحياة البسيطة، فقد بقي منهم البعض ولكنهم شعروا -بلا ريب- بأنهم إنما يعيشون في دنيا غير دنياهم. وقد أجمل ملك أفريقي بارعٌ غني، كان له في روما أصدقاء من بين أعضاء مجلس الأعيان، وصف الحال بقوله: إنه بالمال في روما كان يستطاع شراءُ أي شيء حتى العدل والشرف.

ولم يكن حكمُ إمبراطورية كهذي في مقدور مجالس الأعيان والقناصل الرومانيين، وهل يمكنك أن تتصور مثلًا أن محافظ لندن وأعضاء مجلسها الاستشاري يستطيعون حكم أوروبا، لا شك في أنهم سيحاولون ذلك ويبذلون فيه ما يسعهم من جهد ولكن أغلب الظن أن كفايتهم في ذلك لن تتعدى كفاية ضباط المدينة. ثم إن الإمبراطورية الرومانية لم تكن مستعدة لأن يحكمها مجلسُ أعيان في

(١) السوقة الرعية من الناس للواحد والجمع والمذكر والمؤنث.
انظر شكل -٣- (الإمبراطورية الرومانية في أوسع مدى لها).

روما أو في أي مكان، لأن السواد الأعظم مِن الناس في أنحاء المعمورة اعتادوا على أن يحكمهم ملوك.

والغريب بل المضحك في أمر روما هو هذا:

إنها المدينة الوحيدة التي لم يكن مواطنوها ليطيقوا الملوك، ولكنها مع ذلك غزت العالم الذي لم تفهم جموعه إلا أن يحكمهم ملوك أحلتهم منها محل الآلهة، كما كان شأن فراعنة مصر القديمة أو عواهل الشرق، البابليين والآشوريين والكلدانيين والفرس والروم (أي الإغريق).

وقد حدثت في مجلس الأعيان مخاصماتٌ بين من رغبوا في معاونة الطبقة الفقيرة من المواطنين الأحرار ومن رغبوا عن إجْراء أي تغيير. وأصبح الرجال الذين قادوا الكتائب هم أصحاب السيطرة العليا لأن جيش المواطنين الروماني القصير الخدمة القديم قد ألغي وحل محله جيشٌ من جنود نظاميين يؤدون خدمة عسكرية طويلة، جنود اتخذوا مقر فيالقهم منازل لهم واختصوا قوادهم بكل ما لديهم من ولاء. وقد أصبح القواد ذوو المهارة الفائقة أو الشعبية هم أقوى رجال الإمبراطورية. وأول هؤلاء: ماريوس، وكان جنديًا نظاميًّا خشنًا أنقذ إيطاليا من غزوة للغال. تزعم ماريوس الطبقة الفقيرة من المواطنين ضد الطبقة الغنية، غير أنه لم يؤت الحكمة في السياسة، فقهره سُولا وكان أرستقراطيًّا، وندًّا له في القيادة، يتزعم أعضاء مجلس السناتو. وحكم سُولا بيدٍ حديدية ونصب نفسه حاكمًا بأمره[١]. ولما انتهى من إعادة تشكيل أسلوب الحكم وسن القوانين –على الوجه الأكمل في نظره– اعتزل الحكم وتقاعد في بيته، وكان هذا المنوال متبعًا في روما.

اعتزل سُولا بعد أن أصبح، بكتائبه، سيدًا لسيدة العالم. وظهر في الصورة الآن: قنصلان كالمعتاد، وأعضاء لمجلس السناتو يعدون بالمئات، وعالم ينبغي له أن يحكم.

(١) دكتاتور.

فاقتسم السلطان ثلاثةُ رجال في «حكومة الثلاثة»[1] هم: بومبي وهو واحد من قواد سُولا الممتازين، وكراسوس عضو مجلس السناتو وصاحب ملايين عديدة، ويوليوس قيصر وهو من أسرة شهيرة تقلب في مناصب شتى في حكومة روما، وكان عالمًا وخطيبًا.

ولقد ألقيت إلى يوليوس قيصر مقاليد القيادة في إقليم الغال على جانبي الألب. وكان المأمول أن يتسلم قيادة جيش لدى صدور الأمر بذلك. غير أن كراسوس، صاحب الملايين، أوفِد على غرة ليقود الكتائب ضد البارثيين في بلاد الفرس وهناك لقي مصرعه. وكان «الضبط والربط» في الجيوش يعد جزءًا من الخلال الرومانية ولكن ما رأته روما الآن، لم تره قط من قبل: ذلك أن قيصر -الذي بلغ الأربعين قبل أن تعقد له القيادة المستقلة الأولى- قاد كتائبه وغزا «كل» بلاد الغال ووصل رأسًا إلى الراين. وقد أبدى من الحذق والبصيرة الحربية وثبات العزم ما هو جدير بالإسكندر الأكبر الذي صاغ (قيصر) نفسه على غراره، أي أنه اتخذ الإسكندر مثله الأعلى. وقد وجد قيصر الوقت لتجريد حملات في قلب بريطانيا، وما زالت قصته عن حروبه في بلاد الغال تقرأ في كل يوم بمدارسنا. إنها سفر جدير بالاعتبار. فلقد كان قيصر جديرًا بالاعتبار. ولقد وثقت مقدرته وجاذبيته الروابط بينه وبين ضباطه وأفراد كتائبه. والرجل الوحيد الذي يشبهه على مر التاريخ، هو نابليون.

وبعد أن غزا بلاد الغال زحف إلى روما مع أن قانونًا قديمًا نص على أن الفرق العسكرية لا يرخص لها أن تقترب من روما بعد النهر الصغير المسمى روبيكون الذي كان عبوره يعدّ تحديًا لمجلس سناتو روما وشعبها. عَبره قيصر، وعندما عارضه بومبي في ذلك باسم مجلس السناتو طرده من إيطاليا.

واجتاز إسبانيا كي يأسر فيها بعض جنود بومبي، ثم اقتحم بلاد اليونان حيث قهر بومبي في فارسالوس. ثم لاحقه في مصر حيث أمضى فترة ليطمئن إلى ولائها له.

---

(١) الائتلاف الثلاثي أو الحكومة الائتلافية الأولى.

وبعد ذلك طهر آسيا الصغرى وأفريقيا من معارضيه كافة. وبذلك يكون قد حارب في سنوات قليلة -حول العالم: بلاد الغال وإيطاليا وإسبانيا وبلاد اليونان ومصر وآسيا وأفريقيا، وحالفه النصر في كل مكان. وبطبيعة الحال كان كل جندي ممن حاربوا تحت إمرته يخلص له بقلبه وروحه.

ومرة أخرى كان يوليوس قيصر أحد أولئك القلائل النادرين الذين يشابهون نابليون من حيث البراعة في السلم والحرب. وما إن عاد إلى روما نادى بنفسه حاكمًا بأمره مدى الحياة. وهنا تملك أعضاء مجلس السناتو الانزعاج والحسد والسخط. ومع ذلك أمعن قيصر في تنفيذ مناهجه ومشروعاته الضخمة: إصلاح التقويم وإعادة بناء روما وإنشاء الطرق ووضع حد للرشوة والغش في الحكومة، وخطط لغزو ألمانيا إلى ما وراء الراين الذي كان هو قد قوض أحد جسوره في أثناء حملاته على بلاد الغال، كما خطط للانطلاق إلى بلاد الفرس لينتقم لكراسوس، وأصبح قيصر سيد العالم.

وفي منتصف مارس من سنة ٤٤ ق. م. تآمرت طائفة من أعضاء مجلس السناتو -بزعامة كاسيوس وبروتاس- وطعنوه بخنجر وأردوه قتيلًا، لأنهم لم يطيقوا أن يروا روما ترزح تحت سلطان حاكم بأمره.

وما هو إلا القليل حتى اقتُص لقيصر، إذ إن أحد قواده (أنطونيوس) وابن أخته (أوغسطس) هزما وقتلا من تآمرا عليه، في فيليبي بمقدونيا. ولقد كان يستطيع هذان اقتسام سيادة العالم فيما بينهما. غير أن أنطونيوس وقع في حب كليوباترا ملكة مصر وبدد وقته. فهزم أوغسطس أسطول أنطونيوس ومصر في أكتيوم. وكان يوليوس قيصر قد همّ بجعل أوغسطس خليفته. فاتخذ أوغسطس الآن لقب قيصر: العاهل أوغسطس قيصر، إمبراطور العالم الروماني، وأول حاكم من هذا النوع في مدى قرون عديدة جدًّا.

ولقب عاهل معناه «صاحب الأمر». وكان الأباطرة هم الحاكمون وقد اتخذوا

جميعهم، لقب «أوغسطس» ولقب «قيصر»، ولم يتخذوا قط لقب «ركس» أي ملك. ولكنهم اتخذوا لقبًا موحدًا مألوفًا لنا جدًّا وهو «برنسبير» ومعناه «الأول» أي المواطن الأول. ونحن نعرف هذا اللقب في صيغة أكثر رومانسية وهي برنس (أمير).

أهالي «مدينة غير دنيئة»:

ترك يوليوس قيصر على العالم سِمَته كما لم يفعل أحد من قبل. ولقد اتخذ عشراتُ وعشرات من الأباطرة الرومان، الذين خلفوه، اسمه -قيصر- لقبًا، وأصبح كل منهم «قيصرًا» أي حاكم الناس الأعظم. واستعارت شعوب أخرى لقبه: فحوره الفرس إلى «شاه» والروس إلى «تزار» والألمان إلى «كايزر».

ولقد كان يوليوس رجلًا ذائع الصيت حقًّا. ولكن شهرته وذكراه يزدادان إلى حد كبير -إلى أنه روماني، إذ إن الرومان كانوا جديرين بالاعتبار، فلقد جمعوا الدنيا بين أيديهم. وإن الإمبراطورية لتبدو في التاريخ وكأنها الزمان والمكان اللذان فيهما انصبت كل المدنيات السابقة ومنهما نبعت كل مدنياتنا اللاحقة.

ولقد جاء قبل قيصر، رومان عظماء، وجاء بعده كذلك رومان عظماء كان كثيرون منهم من أبناء إسبانيا وبلاد الغال وشمال أفريقيا وسوريا وأراضي الدانوب. وإن القديس بولس، عندما وصف نفسه بأنه «من أهل مدينة غير دنيئة» استعمل عبارة ازدهت بها الآلاف من البشر في كل مكان من عالم البحر الأبيض المتوسط. وقد صنع الرومان شيئًا لم يلحقهم فيه أحد قط، ذلك أنهم جعلوا كل من دانوا لهم يفخرون بأنهم رومان. وكان هذا سحرًا اختصوا به.

ولقد قبسنا معرفتنا وحكمتنا من اليونان. وكذلك فعل الرومان الذين كانوا ينظرون إلى المدارس الإغريقية كما قد ننظر نحن إلى الجامعة، والذين درجوا على أن يرسلوا أبناءهم ليتلقوا العلم في أثينا. ولقد كان الرومان محنكين في فن الحكم وفي صياغة القوانين. والألفاظ التي نستعيرها من الإغريق ألفاظ

اصطلاحية مثل: قضية علمية ودراما[1] وموسيقى ورياضيات ومنطق وفلسفة. ومفرداتنا التي تتصل بفن الحكم تغلب فيها اللاتينية مثل: مدينة ومدني (أي غير عسكري) ومجمع أو مجلس شورى وشركة تجارية وجمعية أو محفل ومحكمة أو دار قضاء وسجن ووزير وأمير وعدالة ورئيس وعضو مجلس شيوخ. ولقد ظلت القوانين في أوروبا أجيالًا عديدة تكتب باللاتينية كما أن فقهاءنا القانونيين استعملوا وما يزالون يستعملون عشرات من العبارات اللاتينية. وأكبر نظامين للتشريع في العالم المتمدن، أحدهما إنجليزي والثاني روماني، وهذا الأخير هو اليوم أساس القوانين في بلاد كثيرة. ولقد كانت هبة روما للعالم هي الهبة التي لم يعثر عليها الإغريق قط، وهي هبة فن الحكم وصياغة القوانين وإقامة العدل وكل ما من شأنه أن يربط الناس بعضهم ببعض ويؤدي إلى «السلام» و«النظام» (وهاتان كلمتان لاتينيتان أخريان). وكاد عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني أن يكون عهد السلام العالمي في كل الأقطار. ولقد كتب أحد الأساقفة المسيحيين يقول: «يعم السلام العالم، والفضل في ذلك للرومان». وقال كاتب آخر: «لا وجود للحروب ولا لقطاع الطرق أو اللصوص ولا للقرصان».

ولقد آمنت صفوة الرومان بشيء أسموه «الجمهورية». وخير ما نستطيعه من ترجمة لهذه الكلمة هي «حكومة الكافة» أو حسب التعبير الدارج: «المصلحة المشتركة». وهم ما ينفكون يذكرون على ممر الأيام معنى الفضيلة الرومانية أي كل الصفات الطيبة التي تتكامل لتكون المواطن الصالح، مثل: الشجاعة والصدق والاحترام وشرف الأسرة والولاء. وكانت صفوة الرومانيين واسعة الإدراك تقدر الخير في ترك الشعوب، التي تخضعها روما، تمارس تقاليدها وتحكم نفسها بنفسها، وبغير ذلك لم يكن ليتسنى لهم أن يظفروا بولاء مثل هذا العدد من تلك الشعوب العديدة.

(١) الدراما: مسرحية أو مأساة، شعرية كانت أو نثرية.

وعندما خاف القديس بولس حسد اليهود واستغاث بعدالة قيصر في روما فهو إنما صنع ذلك لأن كل الناس كانت تؤمن بأن العدالة الرومانية تمنح دون خوف أو فضل.

ويخبرنا القديس بولس أنه تعرض للهلاك أربع مرات، وتقدم لنا كتابات الحواريين وصفًا رائعًا للمرة الأخيرة. ولقد كانت هنالك عقبات قليلة تعوق التنقل في الإمبراطورية، فلا جواز سفر ولا تأشيرات للدخول. ويخبرنا شاهد قبر صانع عاش في فريجيا بأنه قام باثنتين وسبعين رحلة إلى إيطاليا. وكانت هنالك سجلات عديدة من هذا النوع.

ولقد طهر الرومان بحرهم (الذي كانوا يسمونه: بحرنا) من القرصان وجعلوه حُر المسالك.. ولكن بعد سقوط روما -حول سنة ٤٠٠ ميلادية كثرت جماعات القرصان وازدادت سطوتهم، حتى القرن الثامن عشر.

وتنبئنا حكاية شائقة بأن القرصان قبضوا على يوليوس قيصر شابًّا، وأبقوه في الأسر حتى دفع ذووه فدية لإطلاق سراحه. وفيها أنه وهو يلعب النرد[(١)] مع القرصان، قال لهم إنه سوف يعود إليهم حتمًا ويشنقهم جميعًا. ولا بد من أنهم تلهوا بذلك وقتئذ. وما هو إلا القليل حتى عاد فعلًا وشنق منهم كل من وقع في قبضته. ورفرف سلام روما على أرجاء البحر. أما عن ذهاب السفن ومجيئها المستمرين عبر المانش إلى بريطانيا ومنها، فليست لدينا من المسجلات سوى دمار منارة دوفر الكبرى ونقش (أو نقشين) كالذي يحدثنا عن ضابط اسمه أوفيديوس بانتيرا الذي شغل منصبًا كمنصب أمير البحر في البحار الضيقة. واسمه لا يبدو الآن في كتبنا التاريخية، إلا أنه هو وأمثاله كان لهم شأن في صون المدنية باسم روما.

وتنبئنا كتابات الحواريين كيف رحل القديس بطرس عبر مدائن آسيا وبلاد اليونان. ويروي لنا مؤرخو الرومان كيف جالت الكتائب بأحذيتها ذوات المسامير

(١) النرد زهر (الطاولة) وغيرها من الألعاب.

الغليظة في نعالها - بين أقاليم الإمبراطورية. وكان الرومان مهندسين ممتازين يعرفون قيمة الطرق الحسنة الأعداد ولذا أنشأوا منها الكثير في كل مكان.

ولهذا السبب مهدوا طرقًا عامة ممهدة بين أخاديد المصارف كما أنشأوا جسورًا مقنطرة فوق الأنهار ومجاري المياه، ودقوا أعمدة في الأراضي المنخفضة لدعم الطرق المرتفعة، ومن أدق ما أقاموه جسر خشبي عبر الدانوب العظيم يحمله عشرون عمودًا من الحجر. ولقد أنشأوا على طول طرقهم محطات - يتسنى فيها استبدال الجياد- وحانات للراحة وتناول المأكولات والمشروبات المنعشة. وقد بقيت تلك الطرق العامة الممهدة، قرونًا، تثير إعجاب أهل الريف -في القرون الوسطى- الذين كانوا يتخيلونها في بعض الأحيان من عمل المردة أو الشياطين. وما يزال الكثير منها مستعملًا حتى اليوم، بينما البعض وأجزاء من البعض قد دفنت تحت التراب المتراكم. وفي إنجلترا كانت تنتهي كلها إلى لندينيوم أوجستا تمامًا كما هو شأن الطرق والسكك الحديدية الآن. وفي أوروبا - في عهد الإمبراطورية- كانت كل الطرق تؤدي إلى روما حيث توجد نصبة الأميال الذهبية التي منها يبدأ ترقيم جميع المسافات.

ولئن كانت الطرق جميعها تلتقي في روما بوصفها مركزًا فإنها تربط في الخارج مئات من المدائن التي تكونت منها إمبراطورية المدن المترامية. توصل هذه الطرق إلى أسواق شهيرة كأزمير وأنطاكية وطرسوس أو إلى مرسيليا وكولونيا ولندن كما توصل إلى الحواضر الريفية مثل كابرناوم في جليلي أو كايرونت في منماوث التي يستطاع حتى اليوم رؤية أسوارها تقف مرتفعة من الحقول. وبين هذه المدائن بعضها البعض تدفقت تجارة لا تنقطع من كثير من الشعوب والأقاليم على طول شبكة الطرق المترامية. وكان الناس يصنعون في المدن الإغريقية أثوابًا تيلية من الكتان الذي ينمو في الحقول السورية. وكانوا يرسلون الأواني الزجاجية الفاخرة من صور وصيدا إلى كل أنحاء الإمبراطورية. ولقد عمل الخزافون في بلاد الغال على تزويد

الغرب بالطاس والأقداح. وكان خشب أرز جبال لبنان العالية ينقل إلى روما ومصر. وقد عثرنا على سجلات: في الراين عن صناع السيوف، وفي شمال إيطاليا عن صناع الدروع. وقد استخرج الغواصون الفرنسيون من تحت أمواج مرسيليا، مع حطام إحدى السفن القديمة، دنانًا لا حصر لها من النبيذ الإغريقي كما استخرجوا من البحار الضحلة المقابلة لقرطاجنة القديمة عمدًا وتماثيل من الرخام حملتها سفينة تجارية وغرقت بها في تلك البحار قبل ألف سنة. وكان رصاص دربيشاير وصفيح كورنوول يصدران إلى القارة، كما كان قدر كبير من الجلود والأصواف والحبوب يعد من بلاد الغال وبريطانيا وشمال أفريقيا للتجارة إلى ما وراء البحار، ورزم من البردي توسق من الإسكندرية.

وثمة تجارة أكثر إبداعًا وقدمًا تدفقت من الأراضي الغامضة الواقعة وراء مشرق الشمس فكانت أنواع الحرير تصل إلى الأسواق السورية من الصين بعد مسيرة شهور عديدة معفرة مضنية عبر الجبال الباردة الكئيبة والصحراء المنهكة للقوى. وكانت التوابل من بلاد العرب واليواقيت والعقاقير من سيلان وجزائر الهند الشرقية تصل إلى مواني البحر الأحمر. وقد احتفظ الرومان بمحطة تجارية على سواحل الهند نفسها، كما عرف وكلاؤهم أيرلندا في أقصى المغرب، وجلبوا الكهرمان من سواحل البلطيق في الشمال.

وهذه الحركة جميعًا كانت تملأ الطرق المترامية طوال الربيع والصيف والخريف. وكل تلك الأنواع من الناس - من كل شعب- كانت تقيم في المدن وبخاصة في روما والعواصم الكبرى بالأقاليم. وقد نحل بعض تجار الخمور من الإيطاليين أسماء إغريقية لكي يتجروا في الخمور الإغريقية. وأقام السوريون واليهود بيوتات تجارية في إسبانيا وبلاد الغال، وانتشر أصحاب الحوانيت الإغريقيون في كل مكان. وكانت لغة التخاطب المشتركة هي اللاتينية، والغالب أنها كانت نوعًا منها أقرب إلى التكسر ينطق به -في أكثر الأحيان- بلهجات غريبة. وفي الشرق كانت الإغريقية

هي لغة التخاطب. وكثيرًا ما اتخذ غير الرومان أسماء رومانية كما فعل شاؤول الطرسوسي عندما أسمى نفسه باولو. وهذا هو الشأن في الدنيا الحديثة، إذ تجد الزنوج يعطون أو يتخذون لأنفسهم أسماء إنجليزية أو فرنسية. واختلاط الشعوب واضح كل الوضوح في سجلات الأباطرة أنفسهم. على أن أغلبهم لم كونوا حتى من إيطاليا بل مواطنين من إسبانيا أو أفريقيا أو الليريا، وأحدهم عربي.

ولقد بادت سجلات الإمبراطورية البردية التي لا تقع تحت حصر، وكذلك باد أغلب الكتب العلمية، وأصبحت معلوماتنا تعتمد على معاول علماء العاديات.

ومن حسن حظنا أن لدينا الكثير من النقوش، ومعظمها حجارة من قبور جنود الحاميات التي وكلت إليها حماية الحدود الإمبراطورية: من الفرات إلى التاين ومن الصحراء إلى الدانوب، وما يزال العلماء يتوفرون على شيء من البيانات المسلسلة عن الجيوش الرومانية وذلك بالتأليف -في تمهل وعناء- بين بعضها البعض، وإنها لمهمة خلابة. فقد يظهر حجر لجندي بريطاني في سوريا وقد يظهر حجر لجندي سوري بجوار السور الروماني في نورذمبرلاند.

ولقد ضم كل فيلق في تلك الأيام نحوًا من ستة آلاف رجل، وكان هناك نحو ثلاثين فيلقًا. وكان هنالك، فوق هذا، فرق صغرى أو وحدات اسمها الملحقة أي السريات الاحتياطية، بعضها من الخيالة وبعضها من رماة السهام أو رماة القلاع. والبعض من البربر الذين ألحقوا بالعسكرية الرومانية. وربما بلغ المجموع، على أكبر تقدير، ربع مليون جندي تحت السلاح، وهذا القدر ليس بالغ الكثرة بالنسبة لحراسة العالم.

ولقد عمل الجنود النظاميون لقاء أجر ودانوا لقوادهم بولاء كبير إلى حد أنهم كانوا يحيونهم كما قد يحيون الأباطرة، فإذا فعلوا هذا، وكثيرًا ما فعلوه في القرن الثالث، اقتتلت الفرق فيما بينها. وكلما أفلح قائد وأصبح إمبراطورًا، كافأ جنده بعطايا أو نقود. وقد حدث مرة أن قائدًا هولنديًّا اسمه كاروسيوس أقام في بريطانيا

«إمبراطورية» مستقلة، وهناك حكم وصك النقود باسمه، حتى هبطت عليها من بلاد الغال جيوش قوية وردت الجزيرة إلى الإمبراطور الآخر المقيم بالقيادة.

وكان لكل فيلق شعاره الخاص وأعلامه المقدسة. ويقال إن تنين ويلز الأحمر كان شعارًا لفيلق وتُوورث طوال أجيال عديدة. ولقد عسكرت بعض الفيالق في أماكن لم تغيرها قرونًا وقرونًا مثل الفيلق الثاني أوغسطا (أو «الفيلق الملكي») الذي عسكر في كارليون على نهر الأسْك. وكارليون معناها –ببساطة– مدينة الفيلق. وكان الأباطرة في بعض الأحيان يوطنون قُدامى العسكر في مستعمرات الجنود المحنكين ويحولونهم إلى زراع، وكان لتلك المستعمرات أكبر النفع في المناطق الخطرة القريبة من الحدود. ولقد عسكر في روما نفسها الحرس الإمبراطوري، وكان يتألف من رجال مختارين. وفي الأيام الأخيرة للإمبراطورية درجت الفيالق على أن تعسكر –في العادة– على مسافة ما من الحدود. أما على طول الحدود –كالسور في بريطانيا وخط الاستحكامات على الراين والدانوب– فقد عسكرت فصائل من الاحتياطي. فإذا ضُيق على تلك استطاعت الفيالق أن تخف إلى الحرب.

وكان العمود الفقري لتلك الفيالق هم النقباء، أو ضباط المائة جندي كما كان يسميهم المترجمون الإنجليز القدامى. ولم يكونوا جميعًا متساوين في الدرجة، إذ إنهم يتدرجون في كل فيلق من أقلهم حداثة إلى أكبرهم قِدمًا، ولكنهم على كل حال كانوا يهيمنون على الجيش. وربما وصل عددهم –في أي وقت– إلى الألفين. وقد يكون خير وصف لهم أنهم رؤساء فرق. ولقد كانوا –بوصفهم ضباط القائد الأعلى، وهو الإمبراطور –يمثلون صولة ومهابة روما الإمبراطورية سيدة العالم. ولقد خلدتهم الأناجيل أكبر التخليد. وكان نقيبًا ذلك الذي قال لعيسى: «أنا أيضًا إنسان مرتب تحت سلطان، لي جند تحت يدي، وأقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر ائت فيأتي».

الديانات القديمة واليهود:

عبد الناس آلهة كثيرة مثل جوبيتر وأبوللو[1] عند الرومان، وأوزيريس وإيزيس عند المصريين، والإلهة الأم الكبيرة عشتروت عند السوريان. وكان لجميع أولئك أضرحتهم وهياكلهم وكهانهم. وكذلك كان شأن ملوخ إله القرطاجنيين الرهيب الذي كانت الأمهات تضحين بأطفالهن قربانًا له. وكان لكل نهر وجدول وممر في غابة ربه المحلي، ولكل مدينة إلهها الخاص بها أو إلهتها، ولقد عبد أهل أثينا (آثينة) إلهة الحكمة التي كانت تعد حامية تلك المدينة، وعبدوا مع ذلك أربابًا أخر، وغالوا في التثبت من صنعهم ما يجدر بهم صنعه بإقامة محراب للإله «الخفي». وعبد الناس طواعية واختيارًا -في واقع الأمر- آلهة غيرهم من الأقوام وآلهة المناطق التي يتصادف وجودهم فيها عندئذ. ولم تجد سوقة المدن ضيرًا من آلهة غرباء، إلا أنهم كانوا ينفرون ممن لا يمارسون العبادة كما يفعلون هم، وإلى هذا كله أحل الرومان أباطرتهم، من حيث التجلة مجل الآلهة وحرقوا البخور تلقاء أضرحتهم، وكانت تقام في الأماكن العامة، كما كان من الخيانة ترك ذلك.

ولم يكن أحكم الإغريق والرومان ينظرون إلى أي إله في كثير من الجد، إذ إن العبادة في نظرهم لم تزد على كونها عادة عتيقة عديمة الضرر تتبعها العامة والفلاحون. ولقد عمد البعض من الفلاسفة الملقبين بالكلبيين[2] إلى التندر بحكايات الآلهة، وعمد بعض آخر، ويسمونهم بالرواقيين[3] إلى الزراية بالآلهة والاستخفاف بهم وإلى القول بأن الناس ينبغي لهم ألا يلقوا بالًا إلى ما عساهم يصيبون من توفيق أو نحس وأن يعيشوا لأداء واجبهم ليس إلا بصرف النظر عن السرور أو الألم. ومع كل

(١) عند الرومان كان جوبيتر إله الآلهة، وأبوللو إله الجمال والرجولة والشعر والموسيقى.
(٢) الكلبيين؛ الساخرين بالعالم مثل ديوجين.
(٣) الرواقيون المروجون لفلسفة زينون القائلة بكبح العواطف وعدم المبالاة بعدم المؤثرات الجسدية كاللذة والألم.

فقد آمن البعض الآخر من الفلاسفة، الذي كان يطلق عليهم اسم الأبيقوريين[1]، بأن الناس يجب أن يكون قصاراهم التمتع بما في الحياة من متع مع عدم التفكير في المستقبل.

ولقد كان الناس في كل مكان في حاجةٍ إلى الأمل والإلهام، وكانت الحياة البشرية صراعًا عنيفًا مع المرض والنحس والشر، وكان في الفقر ما فيه من سوء. ثم إن كل فقير أو كل أسير قد يصبح عبدًا، وقد وجد العبيدُ في كل مكان. وكما قد يتطلع الجنود -في يأسهم وسط ميدان القتال- تطلع الناس إلى قائد، إلى مخلص وإلى صيحةٍ تلمّ شعثَهم وتَجمع قواهم. على أن شعبًا واحدًا وقف بمعزل عن غيره من الشعوب وظلّ متماسكًا مكافحًا في ظل دين قويّ روحيّ. وكان أولئك هم اليهود.

وقد أرشدهم أنبياء كثيرون إلى الله الواحد الحق، إله لم تصنعه يدُ بشر ولا يحدّه مكان، إله روحانيّ يعلم السرّ وأخفى، إله من الأزلية إلى الأبدية، أرشدوهم إلى (يهوه)[2] أي إله العدل والحق الذي قضى على رجاله المصطفين بأن يحموا شريعته، شريعة الرحمة والحق. ويَسعنا أن ندرك على أي صورة عرفوا الله إذا قرأنا منظوماتهم المسماة بالمزامير. لقد كان (يهوه) قبل كلّ شيء، إلهًا لم يرخّص لهم تكريمَ أيّ إله غيره أو عبادته. وقد شقَّ على اليهود الإذعانُ لهذا التوجيه الصارم عندما أحاطت بهم شعوبٌ أخرى درجت على أن تغني وترقص وتهنأ حول أصنام آلهتها المرحة. ولم تكن هذه الأصنام إلا صورًا تمثّل تلك الآلهة وهذا ما يسهل التفكير فيها (أي الآلهة)، إذ من العسير عليك أن تفكر في شيء لا يسعك تصوُّره. إلا أن الأنبياء العظماء الذين أرسلوا إلى اليهود قالوا إن الله روح غير مرئية تقدر على كلّ شيء.

---

(١) الأبقيوريون، القائلون بأن السعادة تأتي براحة البال عن طريق العيشة الفاضلة.

(٢) كلمة عبرانية معناها الله، وكذلك كلمة دوناي.

وهكذا كان اليهود مكافحين متحدين. ولم يكن لهم من بين المعابد غير هيكل بيت المقدس. ولقد أقام الملك سليمان معبده الأول، وقد خربه البابليون. وأقام الملك هيرود المعبد الذي عرفه عيسى. على أن اليهود عاشوا على جوانب الطريق العامة الكبيرة، للتجارة والحرب، تلك التي تقع بين آسيا ومصر وسط الإمبراطوريات البالغة السلطان. ولقد كانوا شعبًا صغيرًا استعبده البابليون وغزاهم الإغريق وغزاهم الرومان مرة أخرى في عهد بومبي، فتفرقوا خارج حدودهم في كل مناحي الإمبراطورية الرومانية. وكان لهم في كل مدينة كبيرة -من الإسكندرية إلى مرسيليا- دائرة كنسية أو حي خاصّ بهم. أما اليهود في مصر فقد استوطنوها دهرًا طويلًا فنسوا لغتهم وأصبح لزامًا أن يُترجَم لهم العهد القديم من لغتهم الأصلية -العبرية- إلى الإغريقية.

وأيًّا كان المكان الذي رحلوا إليه واستوطنوه -سواء أكان الإسكندرية- أو روما أو أثينا- فإنهم ظلوا أفراد شعبٍ منعزلٍ يلتقون ليصلوا ويقرأوا أسفارَهم في كنائسهم ويديمون التفكير في معبدهم المقدس ببيت المقدس. ولقد حجّوه وتبرّعوا لخزائنه بأموال طائلة إلى حدّ أن الذهب المختزن هناك كان يكفي لأن يفتدي به ملك من الملوك. ولقد كدّوا في العمل وأثروا بسبب ولاء أفراد أسرهم بعضهم لبعض ونواميس سلوكهم الصارمة. وهم قاموا بدور هام في تجارة العالم القديم.

وكان اليهود، أيضًا، يتوقعون، في شغف بالغ، نزول مخلّص أو مسيح يخلصهم من أعدائهم.

المسيحية:

وبشر المسيح يهود الجليل بإنجيل المحبة في وقت شملت فيه الإمبراطورية الرومانية كل الرقعة المعروفة من الدنيا وانتشر فيه اليهود انتشارًا واسعًا في المدائن الكبرى جميعها. وإذا كانت الفرصة قد سنحت لدين أن ينتشر في العالم أجمع، في ظروف ملائمة، فهو الدين الذي جاء به عيسى.

كان عيسى وأتباعه يتكلمون اللغة القديمة، لسوريا وفلسطين، التي نسميها الآرامية. غير أن كتب اليهود المقدسة كتبت بالعبرية وكان في استطاعة كل أحبار اليهود قراءتها.

أما اللغة المشتركة بين كل بقاع البحر الأبيض المتوسط الشرقية فكانت الإغريقية.

ومن المفيد معرفة اسم اللغة التي كان ينطق بها عيسى كلما تحدث إلى قواد الرومانيين المائة. ولا مِرية لدينا في أن هذا الخليط من اللغات يبدو غريبًا بعض الشيء غير أن السهل اليسير، حتى عند غير المتعلمين، أن يتكلم الناس لغتين أو ثلاثًا إذا عاشوا بين شعوب مختلفة. وذلك أمر شائع جدًّا على حدود أوروبا الشرقية اليوم.

وكانت الإغريقية هي اللغة التي يتكلمها التجار والعلماء. فلا عجب إذن في أن المدونات -التي تتحدث عن حياة عيسى وتابعيه الأولين - وصلت إلينا بالإغريقية، إغريقية «العهد الجديد». ونحن نعلم أن الأسفار المختلفة تم جمعها في وقت مبكر جدًّا وأنها كثيرًا ما كانت يحتفظ بها في شكل كتاب وليس في قراطيس البردي الملفوفة المألوفة. ومن بين تلك: ذاك الكتاب العظيم المسمى «أعمال الرسل»، وهو الكتاب الوحيد لدينا الذي يقدم لنا صورة مفصّلة للحياة في القرن الأول.

جرت محاكمة عيسى أمام حاكمٍ رومانيّ هو ينتيوس بيلاطس، بتهمة خيانة الإمبراطورية. ولم يكن بيلاطس علىً يقينٍ من صحة التهمة. غير أنه، إنقاذًا لنفْسه

من متاعب اليهود، أصدر أمرًا بإعدامه.

على أن عيسى لم يعلِّم الناس أن يزدروا الدنيا ولا أن يتمتعوا بالدنيا ولا أن يسخروا من الدنيا ولكنّ علمهم أن يُحبّوها. وأوجب عليهم أن يحبوا بعضهم بعضًا ويساعدوا بعضهم بعضًا. وقد علم عيسى الناس أن الحب أقوى شيءٍ في الحياة، وتجاهل كلّ فروق المركز والتعليم، واختلط بكل أنواع الناس، ووعظ كلّ أنواع الناس: الغني منهم والفقير واليهوديّ منهم والوثنيّ والإغريقيّ منهم والبربريّ، غير أننا ما ينبغي لنا أن ننسى أنه كان رسولًا إلى بني إسرائيل بصفة خاصة.

وقد أسمى تابعوه أنفسهم بالإخوان. وكانوا يسمّون أول الأمر بـ «المسيحيين» في أنطاكية وهي مدينة إغريقية كبيرة جميلة على نهر أورونتيس، بها كثيرٌ من الأساطين (أي الأعمدة) الرخامية ومن غيضات الشجر، اشتهر أهلها بإطلاق الكنايات التهكمية.

وقد نُقل الإنجيل في سرعة إلى كلّ البقاع، وفي إحدى الأساطير أن القدّيس توما أخذه إلى الهند. وسمعتْه قبائلُ الصحراء العربية. وبه وعظ القديسُ فيليب الأحباش. غير أن أكبر أعمال التبشير قام به القديس بولس.

وكان بولس مواطنًا رومانيًّا أصيلًا من طرسوس في آسيا الصغرى وتمرّس بصناعة الخيام، وقد اشتهرت (طرسوس) بصناعة قماش وبر الماعز، وفي تلك المدينة تعلم تعليمًا نظاميًّا بجامعتها وتلقى بعض العلوم الإغريقية القديمة. وكان ورعًا خيّرًا شابًّا يدرس على يد كبار أحبار بيت المقدس وكان حقًّا ما قيل عنه، كما قيل عن مؤلف كتاب المزامير القديم من أن كل متعته تركزت في شريعة (يهوه). غير أنه انقلب مسيحيًّا بسبب رؤيا مذهلة رأى فيها عيسى في الطريق إلى دمشق، وهي المدينة التي تتلاقى فيها جميعُ طرق الصحراء. وقام برحلاتٍ تبشيرية ثلاث في كلّ المناطق الغنية الآهلة بالسكان من آسيا الصغرى وبلاد اليونان. ولقد بشَّر بتعاليم المسيح في الكنائس اليهودية وفي السوق وحوّل كثيرين إلى المسيحية وسبَّب شغبًا كثيرًا،

وقبض عليه وحُبس وجُلد بل لقد سِيق إلى مقاتلة الوحوش في ساحة المجالدات.

وقد نقل إلينا التواترُ أنه كان قصير القامة أصلع يخاله الرائي رجلًا قليل الأهمية. وهو لم يكن ليرهب أي شيء. وأخيرًا، بعد شغبٍ في بيت المقدس قبض عليه الرومان لينقذوه من غضب الدهماء. وقد طلب أن يحاكم أمام قيصر روما بوصفه مواطنًا رومانيًّا. وعلى هذا أحيط بحراسةٍ قوية ونُقل في سفينة تجارية إلى روما. وقد تمكن، بحكمته ورباطة جأشه، من إنقاذ حياة حرسه وحياة زملائه الركاب عندما تحطمت السفينة في مالطة. وعاش في روما بضع سنوات. وتقول إحدى الأساطير أن بولس ضُرب عنقه في أثناء اضطهاد المسيحيين بأمر من الإمبراطور نيرون في الوقت الذي صُلب فيه القديس بطرس.

وقد وجَد علماءُ العاديات في المدائن المخربة بآسيا الصغرى –وهي الأرض الخصبة التي أصبحت فلاة موحشة –آثارَ الرعيل الأول من المسيحيين: وجدوا شواهد أضرحة عليها نقوشٌ قصيرة حزينة. وقد أطلقت جماعاتٌ من المسيحيين على نفسها اسم: جمعيات الدفن، أو كما قد نقول: شركات التأمين، وذلك اتّقاءً للتعقّب. وكانوا يلتقون سرًّا. واضطُهِدت هذه الجماعاتُ عندما أبت أن تحرق البخور عند ضريح الإمبراطور. وقد كرهتهم الدهماء وأذاعت عنهم الشائعات الكاذبة. أما في روما نفسها فقد درجَ المسيحيون على أن يتعبّدوا على أن يدفنوا أمواتهم الأعزّاء في مسالك وحجراتٍ، يقدّر طولها بالأميال، قُدّت في الصخر تحت الأرباض (أي الضواحي). ونحن نسمِّي هذه الأماكن «قباء الرموس». وفي هذه القباء حافظت أجيالٌ كاملة من المؤمنين بالمسيحية على حياة دينها. وما تزال جدرانها تحمل النقوش المسيحية الباكرة، وما تزال مقابرهم تحوي المخلّفات الأثرية للرعيل الأول من الشهداء الذين أعدموا في أثناء الاضطهاد.

وكانت قدامى آلهة المدينة والحقل في سبيلها إلى الزوال. وتقول أسطورةٌ غير ذائعة بأن كلّ الكائنات الحية، التي كانت في البرية عند ولادة عيسى، علمتْ بالخبر

المؤسف وهو وفاة إلهِهم (بان)[1] إلهِ البرية ذي الأظلاف المشابهة لأظلاف الماعز. وقد ضمّن هنا، جون ملتن وهو أكثر شعرائنا موسيقيةً، في قصيدته التي نظمها عن ميلاد المسيح والتي يقول فيها: «لقد سمعتْ الجبال البعيدة الموحشة وسمع الشاطئ المدوّي صوت بكاءٍ ونُواح حادّ». ولا ريب في أن هذه الحكاية الخيالية القديمة تُنْبئنا بذيوع الإنجيل ذيوعًا مذهلًا. فلقد سرى مسْرَى النار في الهشيم إلى حدّ أن نفرًا من أسرة قيصر آمنوا به. وفي وسعنا أن نتصور الإنتاج العظيم الذي ملأ قلوب فقراء العبيد عندما سمعوا البشائر السارة بالأخوة والمحبّة.

غير أن اليهود لقوا مأساتهم النهائية.

سقوط بيت المقدس:

ظهرَ بين يهود أرض الميعاد غيورون أو وطنيون كثيرون أزمعوا على الخلاص مِن نير العبودية الرومانية. وهؤلاء لم يُطيقوا –وهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار– أن يدفعوا المكوس لقيصرٍ وثنيّ. وظلوا ينتظرون مسيحًا يقودهم إلى الانتصار على الرومان. وأمّل بعضُهم أن يصبح عيسى، ذلك المسيح المنتظر. غير أنهم تحيّروا واغتاظوا عندما قال لهم إن مملكته ليست في هذه الدنيا، لأنهم أرادوا الحرب.

وفي سنة ٧٠ م. أشعلوا نار الثورة في كل مكانٍ بأرض الميعاد. ونظرًا لشعورهم المرير أضرموها نضالًا قاسيًا انتهى بدمار بيت المقدس والمعبد. وقد أنفذ القائد الروماني تيتوس كتائبه فأحاطت بالمدينة التي حكم عليها القدر وأرسل عُدده الجبارة التي اعتِدت للحرب لترشق أسوارها وأبراجها بالحجارة. فهلك جوعًا بعض اليهود المحاصرين في الداخل وأخذ البعض يتقهقر وهو يرد الهجمات المفاجئة أو يحاول أن ينجو بتسلُّق الأسوار ليلًا فلا يجد غير مصير واحد وهو الأسر والصلب. ولقد حاول تيتوس فعلًا أن يستبقي المعبد. إلا أن الغيورين لم يشاؤوا أن يستسلموا

(١) (بان) إله الماشية والقطعان والرعاة عند الرومان.

حتى لهذا الغرض وحتى بعد أن تبين لهم أن قضيتهم خاسرة لا محالة. وحاربوا إلى النهاية وكانت النتيجة تدمير المعبد وقدس أقداسه. وسيق آلاف من أسرى اليهود الناعسين ليباعوا عبيدًا أو ليوزعوا على المدائن الإغريقية التي ساقتهم بدورها إلى مجالدة الوحوش في ساحات المجالدة تسليةً للجماهير. هذا بينما ضرب جنود الفيلق العاشر خيامهم تحت ظل الأسوار المحطمة، على تل صهيون حيث عاش داوود وسليمان وصلّيا لإلههما وحيث بقي المعبد حطامًا إلى الآن.

وظل اليهود يعيشون جماعات صغيرة في مدائن أخرى. واحتفظ الأحبار بكتب الشريعة وكتب الأنبياء. واحتفظوا حتى اليوم كذلك بأساليب الحياة الدينية القديمة رغم أن قرونًا من المشقة والاضطهاد مرت بهم. وإنك لتجد في الكنائس اليهودية بلندن وباريس ونيويورك وغيرها أن أناسًا من سلالات قوم عيسى لا يزالون يجتمعون في أيام السبت (وهو يومهم الديني المخصص للراحة) وما يزالون يقيمون مراسم الصيام وأعياد العهد القديم وغالبيتهم لا تزال مبعثرة في شتى أنحاء العالم.

الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية:

درج عيسى وحواريوه على أن يجتمعوا في بيوت خاصة كالبيت الموجود في بتاني الذي كانت تعيش فيه ماري ومارثا، وكالغرفة العليا في بيت المقدس. وكانوا يهودًا متدينين ولم تكن بهم حاجة إلى ما نسميه «كنيس». وكانت الاجتماعات المسيحية الباكرة تعقد في بيوت الإخوان وهم أولئك الذين اتبعوا سبيل المسيح. وعلى هذا كانت أولى الكنائس المسيحية هي «كنيسة البيت». وكانت القداسات الأوليات تشبه إلى حد ما تلك التي تقام في أقاليم البراري بكندا حيث يركب المرسلون للتبشير من مزرعة إلى مزرعة.

وبما أن المسيحيين كانوا مكروهين لدى الجماهير أو لدى الأباطرة فلم يكن من دواعي أمنهم أن يجتمعوا في مبان معينة. وعندما بنيت الكنائس الأولى لوحظ عند

بنائها أن تكون مشابهة تمام المشابهة للقاعات العامة الرومانية أو «البازيللكات». والبازيللكا حجرة مفردة كبيرة يستدير أحد أطرافها وهو ذاك الذي اعتاد القضاة الرومان أن يعقدوا فيه مجلس القضاء، وبه كان يقام المحراب المسيحي. وإذا اتسعت الحجرة اتساعًا كبيرًا رُفع السقف على صفين من الأعمدة. وهذا هو بالضبط ما نراه اليوم في الكنائس الأبروشية.

وظل خطر الاضطهاد يتسعَّر تارة ويخمد أخرى طوال ثلاثمائة سنة. وثمة لون معين من الاضطهاد يُجَرُّ فيه، أحيانًا، عشرات وعشرات من المسيحيين إلى القضاة الرومان ويغصبون على أن يحرقوا البخور للإمبراطور أو يجازون بالموت. وقد اضطهدهم نيرون ودوميشيان في القرن الأول واضطهدهم دقلديانوس في القرن الثالث كما اضطهدهم الإمبراطور الرواقي[١] ماركس أوريلياس في القرن الثاني. ولم توجد فترات ضمن فيها المسيحيون لأنفسهم الأمن التام.

«يُسخر منهم ويُسجنون ويرجمون بالحجارة ويعذّبون ويفلقون شطرين بالمنشار وينحرون بالسيف».

ولقد كانت عبارات الترنيمة صادقة، ولا يسع أحدًا أن يحصر عدد الذين ماتوا في سبيل إيمانهم. وعلى سبيل المثال: من بين أساقفة روما، الثلاثين لم يستشهد أقل من تسعة وعشرين. وربما كان شح سجلاتنا عن الكنائس الأولى يردّ إلى أن السواد الأعظم من الشهداء كانوا من عامة الشعب المتضعين. وثمة سبب آخر هو أن المسيحيين أنفسهم كثيرًا ما كانوا يبيدون سجلات الكنائس المكتوبة ليقي بعضهم البعض، فإذا دخل الموظفون المأمورون كنيسة ليقبضوا على أعضائها خف شخص ما إلى حرق كشوف أسماء جماعة المصلين. وعلى أي حال فإن سجلات الإمبراطورية الرومانية –التي لا تدخل تحت حصر– قد بادت جميعها. واكتنفت معلوماتنا عن القرون الخمسة الأولى ثغرات فاجعة، ولم يعرف تاريخ نمو المسيحية

---

(١) الرواقية فلسفة زينون.

وانتصارها إلا من مِزَق ورقع متناثرة. غير أن هذا التاريخ هو أساس دنيانا الحديثة.

وإنا لنعرف، على سبيل اليقين، أن المسيحيين -رغم الاضطهاد- ما كانوا ينفكون يجتذبون الناس جميعًا إلى الدخول في دينهم. ولقد صدق هذا تمامًا على بلاد لا تبدو، في نظرنا، مسيحية، وهي الأيالات الرومانية في شمال أفريقيا.

فلقد كان عالم مسيحي ومشرع من شمال أفريقيا اسمه ترتوليان -وكان ابنًا لأحد قواد المائة -هو الذي أزرى بالوثنيين، إذ كتب يقول: «إن تماثيل آلهتكم إن هي إلا أوكار للفيران والصقور والعناكب. إنكم تبيعون آلهة بيوتكم المقتناة بل ترهنونها لقاء بعض المال. ونحن الرجال والنساء المسيحيين، أبناء الأمس القريب، ومع ذلك فقد ضاقت بنا مدائنكم ومعاقلكم ومعسكراتكم وقصوركم ومحافلكم ومجلس أعيانكم ومحاكمكم، ولم يخلُ منا غير معابدكم. وإذا حدث يومًا أن حزمنا أمتعتنا ورحلنا إلى بلد من البلاد القاصية فإن عزلة دنياكم ووحشتها سوف تفزعانكم».

وذهب القديس بطرس إلى روما. وبشر القديس بولس في المدائن الإغريقية. وفي المدائن نما الإخاء المسيحي وازدهر. على أن كلمتي «وثني» و «جاهل» معناهما «القرويون» أولئك الذين يجهلون الديانة المسيحية.

فلقد كانت المدن الكبيرة من الدنيا القديمة هي التي توجد فيها -أولًا بأول- أكبر جمعيات المصلين، وانتهى الأمر بأن أصبح شيوخ الكنيسة المسيحيون أو «الأساقفة» المقيمون في تلك المدن هم قواد الكنيسة المسيحية. ومن الأمور التي تعلمها المسيحيون من اليهود: فائدة الوحدة، ولذا بقوا متواصلين. ومنها كذلك ترتيل الترانيم وتسابيح الحمد عند إقامة الصلاة. وكان للموسيقى دور رئيسي في الحياة المسيحية.

ولقد سبق لنا الكلام عن مدينة أنطاكية الجميلة التي يظن أن أسقفها أغنثيوس لم يكن غير الطفل الذي رفعه عيسى وباركه... ودمر الرومان في سنة ٧٠ م. المدينة المقدسة بيت المقدس. وهناك أنشأ الرومان مدينة أخرى فوق الأطلال، وظل المكان دائمًا كعبة الحجاج من اليهود والمسيحيين على السواء. وهناك: الإسكندرية -

بالإقليم المصري- وهي مدينة ذات مبان بيضاء متألقة درج العلماء الإغريق على أن يلتقوا فيها للدراسة في المكتبات وفي الجامعة. وقد ذاع صيت كنائس الإسكندرية.

ومن اليهود الغابرين أناس أصبحوا نساكًا[1] ورجالًا أقداسًا يعيشون عيشة منعزلة قاسية في جهات صحراوية يقضون أيامهم ولياليهم في الصلاة والصيام والتأمل. وكذلك فعل كثير من النصارى. فلقد خرج من الإسكندرية إلى الصحراء المصرية أسراب من النساك المسيحيين ليقضوا حياتهم بين مقابر قدامى الفراعنة المخربة. ولقد عاش أولئك الرجال والنساء من صنْع حصائر وسلال من الحلْفاء. وكانوا يعذبون أنفسهم تعذيبًا بالغ القسوة بالجلد وكثرة الصيام وهم يحسبون أن إيذاء أجسادهم ينقذ أرواحهم، ويجتهدون في التفوق في الألم بعضهم على البعض -تمامًا كما يفعل الرياضيون بغية التفوق في مباريات السباحة. وكان أشهرهم: القديس أنطون الذي توفي في سنة ٣٥٦ م.

وما وافت تلك السنة حتى كان اضطهاد المسيحيين قد انتهى. وقصة هذا الحدث تذرع الإمبراطورية الرومانية من أقصاها إلى أقصاها في حياة رجل ذائع الصيت، وهي: في القرن الرابع مات، في يورك، قائد روماني، وحمل ابنه قسطنطين على تروس جنوده ونودي به إمبراطورًا.

ولقد تعهد لهم قسطنطين بالنصر وهبط بهم من بريطانيا عبر المانش إلى الغال ثم إلى إيطاليا حيث قهر منافسيه ودخل روما ظافرًا وكان جنديًّا مبرزًا.

وتقول أسطورة قديمة إنه -قبْل نصره الأكبر- رأى في سماء العشية صليبًا يتوهج بعبارةٍ لاتينية معناها: «بهذه الشارة تنتصر» (أي إذا اتخذت هذا دليلك فستكون لك الغلبة) وأنه منذ تلك اللحظة دفع صانعي أسلحته في صُنْع صُلبان تُرشق في أعلام الفيالق، وقد انتصرت هذه الفيالق في اليوم التالي.

---

(١) الناسك: المنقطع للعبادة.

تلك هي الأسطورة. والواقع أنه أنجز أمرين شهيرين غيرا تاريخ العالم.

لقد جعل الإمبراطورية نصرانية بإعلانه أن المسيحية هي دين الدولة، ومنذ تلك اللحظة قام أساقفة الكنيسة بدور قيادي في حكم العالم الروحاني.

وصار قسطنطين وخلفاؤه رؤساء للكنيسة في مستعمراتهم المستقلة.

ثم أنشأ مدينة جد قشيبة «روما جديدة» على ضفتي البوسفور حيث تلتقي أوروبا بآسيا. وكان هذا موقعًا مدهشًا في إقليم جميل ذي مرفأ ممتاز سهل التحصين والحماية. وأطلق على المدينة اسم القسطنطينية، أي مدينة قسطنطين. ولكي يزينها جلب لها من روما تماثيل ونصبًا تذكارية تسجل النصر. وهاجرت إليها أفواج كثيرة من الأسَر الرومانية.

وبذلك أصبحت هناك حاضرتان كبيرتان. وعمد الأباطرة الرومان، الذين خلفوا قسطنطين وأقاموا في المدينة الجديدة التي بناها، إلى متابعة جلائها بإنشاء القصور والكنائس. وكانت أعظم الكنائس قاطبة كنيسة الحكمة المقدسة، ذات القباب العديدة المزخرفة بالثمين من المرمر وماء الذهب والصور المرسومة بالفسيفساء.

وكانت القسطنطينية حاضرة الشرق المسيحية تمامًا كما كانت روما عاصمة الغرب المسيحية. وهيمن أساقفة القسطنطينية وبطارقتها على كنائس الشرق تمامًا كما انتهى أساقفة روما إلى الهيمنة على كنائس الغرب.

وكانت لغة أهل الشرق الإغريقية. وإنا لنسمي النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية -أحيانًا- بالإمبراطورية الإغريقية، كما نسمي أباطرة الشرق بالأباطرة الإغريق. غير أنهم وشعوبهم دأبوا على حسبان أنفسهم رومانيين، وفاخروا بذلك.

ولقد حل نظامان عظيمان للرهبان محل نساك مصر الذين عذبوا أنفسهم، فسن القديس باسيلي نظامًا للرهبان الإغريق الذين لا تزال أديرتهم المنقطعة قائمة على قمم شواطئ الجزر القاصية. وقد وجدت فيها، في العصور الحديثة، نسخ خطية قديمة من الأسفار المقدسة لا تقدر بثمن، مثال ذلك: دستور سيناتيكوس الكبير

المحفوظ في المتحف البريطاني. ولقد عاش هؤلاء النساك بمعزل عن العالم مقسمين وقتهم بين الصلاة والصوم، على طريقة كليات الرهبان.

وفي الغرب سن القديس بندكت وهو مواطن من نورسيا بإيطاليا، عاش من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٥٤٣ – سن لائحة لحياة الرهبنة سميت باسمه (بنيدكين). وأعدت – فيما بعد ذلك– كل أنواع التعديلات لجماعات النساك الغربيين المختلفة، وإن بقيت لائحة القديس بندكت أساسًا لنظام عيشهم. وتنهاهم تلك اللائحة عن أن يعيشوا للعزلة والنسك ولا شيء غير ذلك، كما تأمرهم أن يعيشوا بوصفهم أعضاء في مجتمع متعاون، تحت نظام صارم، خاضع لرئيس دير. وقد فرض عليهم الطاعة، والبقاء منفردين، والتنازل عن كل ما يملكون للدير؛ وكان لباسهم مجرد أعطفة غير مصقولة الغزل، وطعامهم بسيطًا، ومثواهم خشنًا؛ وكانوا يصلون صلوات موصولة حتى إنهم ليصحون في جوف الليل ليؤموا مصلاهم ويقيموا دورة لا تني عن الصلاة والحمد نهارًا وليلًا. والأمر الذي يجعل نظام القديس بندكت مغايرًا كل المغايرة للنظام الشرقي هو أنه يأمر الرهبان بأن يعملوا لصالح الدير: يأمرهم بأن يعنوا بالحدائق أو يزاولوا التجارة، ويربوا الغنم، أو ينقلوا المخطوطات. وبهذا أصبحت الأديرة خلايا نشاط بها مصليات جميلة، وضيعات وكومات معتنى بها، ومجتمعات لها دور ريفية مستكملة، وقاعات وزرائب، وبرك للصيد، وخانات «جمع خان» للمسافرين، وتكايا للفقراء والمعوزين. ولا معدى لرئيس أي دير مضبوط الإدارة عن أن يكون رجل أعمال وأبًا روحيًّا لرعيته. والحياة في دير كهذا يمكن إجمالها إجمالًا صحيحًا بالقول البندكتي اللاتيني المأثور الذي معناه «العمل عبادة».

وقد علم القديس بندكت القديس جريجوري الأكبر الذي أصبح بابا روما والذي كان واحدًا من أعظم رجال عصره، وإنما حدث هذا بعد الاضطرابات والتخريب التي رزئت بها الأقاليم الغربية. ولقد عمل القديس بندكت والقديس جريجوري بين أطلال الدنيا القديمة.

الباب الثاني

نهاية الإمبراطورية الرومانية وضياع العلوم القديمة

الإغارة على الغرب:

في عهد القديس بندكت كانت الدنيا الرومانية القديمة في الغرب، في سبيلها إلى الزوال. وكانت كل الأقاليم تغص بجماعات من بربر الغابات الشمالية.

وإذا وقفت اليوم على برج سالزبرج في بلاد الراين - ذلك البرج الذي كان يومًا مرقبًا رومانيًا- وإذا نظرت متجهًا إلى الشمال، كما كان ينظر الحراس الرومانيون، رأيت الإقليم الذي جاء منه الغزاة. وبمجيئهم ذهب سلام العالم... في مكانه قدم القديس بندكت سلام الدير -وهو الملاذ والحمى- وعمد إلى عيشة الصلاة والعمل المنظمة خير تنظيم.

كان الغزاة -طوال عهد مديد- أعداء الرومان. وكان بعض شبابهم قد تجند في الفيالق أو في فرق الحدود العسكرية، بل إنهم عملوا -في بعض الأحيان- تحت إمرة رؤساء قبائلهم. وكانوا على علم تام بأساليب الحرب الرومانية. وكان أغلب الفيالق الرومانية -في واقع الأمر- يجنّد من البربر، يعملون لقاء أجر ويخلصون لقُوادهم.

وفي القرن الرابع، من أوله إلى آخره، تعددت الغارات والغزوات عبر الراين

والدانوب. وقد اعتاد الإمبراطور جوليان –وهو إغريقي وعالم وجندي كفء– على أن يقضي فصول الشتاء في باريس حيث يقرأ أعمال فلاسفة الإغريق، وعلى أن يمضي فصول الصيف في الزحف والحرب على رأس فيالقه ضد القبائل الألمانية في بلاد الراين. غير أنه جاء وقت فقدت فيه الجيوش الرومانية قدرتها على حماية الحدود.

وسجلاتنا قليلة. غير أن حدثًا واحدًا ظل مذكورًا بوصفه كارثة مفزعة: في منتصف شتاء سنة ٤٠٦ عبر قوم من الألمان –القوط والآلان والواندال[١] والبورجانديين– عبروا الراين المتجمد عندما ينز وتدفقوا في الغال «ولقد عرف أولئك الناس الكثير عن أساليب الحياة الرومانية ورغبوا في استيطان الإمبراطورية والتمتع بثروتها. وأسس القوط مملكة في جنوب فرنسا وفي إسبانيا حيث حكم ملوكهم طوال قرنين. واجتاز الواندال بلاد الغال وإسبانيا وعبروا إلى شمال أفريقيا حيث أقاموا مملكة. وغزا قوط آخرون شمال إيطاليا ونهبوه. وغزا شعب شرس من فرسان المغول – وهم الهُون– إيطاليا ثم فرنسا (وهي بلاد الغال) تحت إمرة مليكهم أتيللا. وهؤلاء المحاربون البشعون، قهرهم جيش موحد من القوط والرومان.

وفي صدد جميع جولات الشعوب تلك، علينا أن نتذكر على الدوام أن الخصومة لم تكن مجرد نزاع بين الرومان والبربر. فنحن نعرف أن كثيرًا من جنود البربر تجندوا في الجيوش الرومانية وحاربوا في بسالة لإنقاذ الإمبراطورية من المغيرين وماتوا وهم يحاربون في شجاعة. ومن أعظم حماة روما ستليخو وهو واندالي أصبح قائدًا عامًّا. إلا أن الفيالق تلاشت أما كيف وأين انقضت، فهذا ما لا علم لنا به.

وتحرك الفرنجة الشقر –وهم أغلظ الألمان جميعًا وأشهرهم– تحركوا جنوبًا من دلتا الراين إلى شمال بلاد الغال (التي أصبحت «بلاد الفرنجة» أي فرنسا). وعاش فرنجة شرقيون آخرون في بلاد الراين نفسها وما وراءها. وطالما ود هؤلاء الفرنجةُ

(١) من قبيلة الوندال التوتونية المشهورة بتخريب الآثار، والكلمة تستعمل بمعنى المخرب.

الرومانيين. وتجند الكثير منهم في الجيوش الرومانية.

وبهذه الغزوات تغير العالم الروماني الغربي تغييرًا كليًّا. ومع ذلك فقد ظلت جموع كبيرة من المواطنين الرومان في المدائن المسورة تعيش وفقًا للقوانين الرومانية القديمة غير أنهم أخذوا يدفعون المكوس إلى سادتهم الجدد من البربر. وقد رؤي في بعض الجهات، ملّاك رومان يعيشون في ضيعاتهم الريفية. وثمة شيء واحد لا نستطيع حقًّا تخمينه هو (عدد) الغزاة، على أننا نستطيع، على أي حال، التثبت من قوتهم ومن الشقاء والخسران اللذين جلبوهما. ولكن علينا أن نتذكر أمرين (أ) كان الرومان والبربر متعارفين كل التعارف (ب) وأنهما انحدرا من جنسين متشابهين أو من (أرومة) واحدة وأنهما كان في وسعهما أن يتزاوجا فيما بينهما وهذا ما حدث فعلًا، تمامًا في مثل اليسر الذي به يستطيع الإنجليز والألمان والفرنسيون أن يتزاوجوا فيما بينهم. ولقد اختفى آخر أباطرة الرومان وهو صبي اسمه روميولاس أغسطولاس. ومهما يكن من أمر فإنه لم يبق أثر لأي حكومة رومانية. ذلك أن القوط والفرنجة والبورجانديين والواندال حكموا أقاليمهم. والصورة العامة مشوشة فالريف يغص بالعبيد الهاربين والأرقاء الثائرين من دون أن تكون هناك شراذم تأتمر بأمر رؤسائها، أي قطاع الطرق. إنها صورة بلاد فيها يحرص كل رئيس قبيلة على أن يكون قويًّا حرًّا، وذلك بقوة من لدنْه من إخوان السلاح. وفي المدائن الواقعة خلف الأسوار كان الناس أحيانًا أكثر أمنًا. أما في مدائن (القارة) فقد بقي قبس من عيشة التمدن.

وفي سنة ٤١٠ -عندما استولى على روما نفسها جيش الملك القوطي ألاريك- أحس الناس بأن أفدح السوء قد حل بهم. وجال جنود البربر وهم يندهشون (وينهبون) في المدينة السرمدية التي كانت يومًا سيدة العالم المتمدن جميعه من الفرات إلى التاين. وبعد حلول هذه الكارثة كتب أسقف عالم من شمال أفريقيا، اسمه القديس أوغسطين، كتابه المشهور «مدينة الله» الذي قال فيه إنه وإن كانت

روما -أكبر مدن العالم- قد سقطت فإن روما، مدينة الله، قد بقيت وظلت خالدة لا سبيل إلى قهرها لأنها إنما بنيت في قلوب الرجال والنساء المسيحيين كافةً «ليس لنا سكن مقيم هنا (على الأرض) فإننا ننتظر سكننا العتيد (في السماء)».

وكان لهذه الأحداث رد فعل مفزع على بريطانيا آخر الأقاليم الغربية في الإمبراطورية.

ولقد عبر حرسُ الجزيرة الروماني المانش ونزل في بلاد الغال ليصون الإمبراطورية ولم يعد قط. ويبدو أن «جيش بريطانيا» كان قوة محاربة ذات كفاية، وبرحيله صارت بريطانيا حقًّا إقليمًا مفقودًا. ولئن كان سجل الأحداث في القارة شحيحًا أو غير متصل فإنه، في هذه الجزيرة، لا وجود له البتة! ولدينا علامات تشير إلى هجرة البريطانيين إلى بلاد اسمها أرموريكا التي أصبحت -نتيجة لذلك- (بريطانيا)، وهذا يوضح اليوم السبب في أن أهل ويلز والبريطانيون (أي الإنجليز) يفهم كل منهم لغة البلد الآخر، وأهل ويلز هم -بطبيعة الحال- من سلالة البريطانيين الذين صاروا رومانيين ولغتهم تضم قدرًا وفيرًا من الكلمات الرومانية (أي اللاتينية). ولقد أسماهم -«الولش» أي أهل ويلز- غزاة الجزيرة البحريين الذين كانوا يسمون الأجانب: «الولش».

وهؤلاء الغزاة كانوا من الإنجليز أو السكسون، فأصبحت هذه الجزيرة أو أكبر جزء فيها: بلاد الإنجِلز أو بلاد الإنجليز. على أن مجيئهم ليست له مسجلات واضحة. ولقد طردت طردًا خاسرًا مجموعة واحدة على الأقل. والظاهر أن مجموعات أخرى، حملتها سفن عديدة أنزلت إلى البر. واستوطن البحارة -تحت إمرة رؤسائهم- على الشاطئين الشرقي والجنوبي. أما ما حدث لـ «نوتية الدجلة»، التابعين للأساطيل الرومانية، الذين أقيموا على مقربة من التاين، وأما النوتية التابعين لحرس المانش فلا نعلم عنهم شيئًا على الإطلاق. وقصارى ما نعلمه أن الملوك ورؤساء القبائل الإيرلنديين كانوا إذ ذاك يغيرون على الشاطئ الغربي، وأن الأمراء البريطانيين كانوا يتنازعون فيما بينهم.

ويبدو مع ذلك أنه ثبت إلى درجة كبيرة بأن الغزاة لقوا هنالك مقاومة أشد من تلك التي لقوها في القارة، إذ إن الإنجلز والسكسون لم يبلغوا نهر السفرن إلا بعد مضي قرن على نزولهم الأخير إلى البر، وقطع مائة وخمسين ميلًا في مائة سنة يعدّ غزوًا بطيئًا وقد يكون السبب: قلة عدد الغزاة، وهذا ما علم لنا به. وفي مكان ما من ميادين الحروب التي شنت عليهم ترد حكاية الملك آرثر وموقعة كبيرة أشعلت في مكان اسمه تل بيدون الذي نجهل الآن موقعه.

ومهما يكن من أمر فإن بريطانيا الرومانية تحولت إلى خرائب ولم يبق لها ذكر إلا في بلاد الويلز.

وبعد أن مضت مائة وخمسون سنة، لم تكد حوادثها تسجل خلالها ظهرت «إنجلترا» بلدًا وثنيًّا يضم ممالك صغيرة: كِنت وساسكس وأنجليا الشرقية وميرشيا ونورذمبريا ووسكس. وكان أهل ويلز مسيحيين ولكنهم لم يحاولوا أن يحملوا الإنجليز على اعتناق ديانتهم.

وهكذا تفتتت وحدة الإمبراطورية الرومانية في الغرب خلال القرنين الخامس والسادس، وهناك سبعة أجيال من الناس غابت عنا أخبارهم اللهم إلا قطع وأجزاء من الوثائق المكتوبة.

وكانت تلك هي الفترة التي فيها انتهت الفيالق، بما فيها قواد المائة والرايات، المتشامخة المزدهية، إلى مصير مجهول. أجل، كان هذا مصير كثير منها كالفيلق الثاني لأوغسطس -الذي سمعنا به، آخر مرة، في رتشبورا بـ (كِنت) بعد أن بقي خمسمائة سنة. كانت هي الفترة التي فيها بليت أو احترقت سجلات روما العظيمة التي لا تقع تحت حصر ومسجلات البردي على ورق هش مصنوع من قصب الغاب (البوص)، كانت هي الفترة التي فيها هدم الجنود البربر أسوار القلعة بمقاليع الحصار التي دربهم الرومان على استعمالها، كانت هي الفترة التي فيها لبس القائد الحربي الأكسية العسكرية والدروع الرومانية وجعل أركان حرب أحد قواد الرومان يمثلون

في حضرته والتي فيها هبطت جماعات كثيرة من الإنجلز والسكسون شواطئنا واستوطنوها وأطلقوا على قراها الأسماء التي نعرفها بها اليوم، كانت هي الفترة التي فيها دفن رئيس قبيلة مجهول تحت استحكام ترابي ضخم في جنوب انجلترا عرفه الريفيون فيما بعد بـ «قبر زعيم المغيرين»، كانت هي الفترة التي فيها توقفت عن العمل إدارة البريد وغيرها من المرافق العامة، والتي فيها هجرت الحمامات والمكتبات والمسارح وخربت مجالس الشورى والأنبار؛ لقد كانت فترة عنف وموت يفاجئ وضيعات تحرق وحقول تهجر. كانت الصحاف والأقداح الفضية يهشمها مالكوها بعضها البعض ويصهرونها أو يدفنونها ليصونوها ليعثر عليها بعد أجيال.

لقد كانت فترة لم تتلف فيها السجلات القديمة فحسب بل هلكت كلها أو القدر الأعظم منها. وإنا لنقرأ، في القليل الذي بقي منها، عن الغارات والحروب والمجاعات وعن الأوبئة الشرقية التي عمت كأنها رسول جاء ليُهلك العالم.

لقد ظلت منازل الحصون مشرقة، والحمامات العامة عديدة، ومجموعات الأبراج سامقة، وضوضاء الناس صاخبة، وكان هناك كثير من الخمارات يملؤه أنواع السرور والناس، إلى أن قلبها القدر الجبار رأسًا على عقب، فخرّت الأسوار العريقة المترامية، وحلّت أيام الوباء والضر، وحصد الموت شجاعة الناس، وأصبحت حصونهم أماكن خاوية، وتحولت المدنية إلى خرائب.

كانت هذه هي الصورة التي لاحت لعازف قيثار إنجليزي غنى بعدئذ وهو يرنو إلى خرائب المدينة الرومانية المسماة «باث» على أن الناس لم يزوروا المدن التي مني أهلها بالطاعون إلا بعد انقضاء فترة طويلة: نبت العشب وارتفع في الكرمات وعلى الطرقات، ورزحت الجسور في مياه فيضانات الشتاء، وغصت أخاديد القنوات والمصارف، وتعطنت السفن في المرافئ أو غرقت، وترك الخزافون، وتخربت المصانع، وكثرت الفلوات بين مزارع الحنطة. وكان على الرجال والنساء

أن يقيموا كل شيء من جديد بالعمل الشاق المضني بالفلاحة البسيطة.

هذا هو ما حدث في بريطانيا وفرنسا وبلاد الراين وإسبانيا وإيطاليا. وكان أعظم البوار في بريطانيا وأقله في إيطاليا.

البربر والأساقفة:

بين سنتي ٤٠٠ و٦٠٠ ميلادية أغار البربر على البقاع الرومانية الغربية. كان في شمال إيطاليا وإسبانيا وجنوب فرنسا أقوام من القوط، وفي أفريقيا أقوام من الواندال، وفي شمال فرنسا فرنجة، وفي شرقها بورجانديون. وفي بريطانيا أخذت العصابات المحاربة من الإنجلز والسكسون تستعمر رويدًا رويدًا وتتحرك صوب الحرب وذلك بعد أن قاومها البريطانيون مقاومة ضاربة.

وفي سنيّ الشغب والتلف تلك، ثبت شيء واحد لا يتزعزع: وهو كنيسة المسيح يتزعمها أساقفتها.

وكان للأساقفة سلطان عظيم في الشرق والغرب حتى قبل الاضطرابات. فلقد حكم القديس باسيل منطقته في آسيا الصغرى كأنه نبيل روماني كبير وتحدى القديس جون كريزوستوم، الإمبراطور، وأمر القديس أمبروز -وقد أقام في ميلان- تيودوسيوس، خاتم كبار أباطرة الغرب، أمره بأن يركع ليكفر عن الانتقام الجائر الذي ذبح فيه بعض الثوار بأمره. ولئن كان في مقدور جندي عظيم وإمبراطور أن يصنع هذا فمن اليسير أن نتبين أي صيت يحيط بأسقف في نظر رئيس قبيلة بربري. إنه أشاع الفزع والرعب في صدور أشد الغزاة شكيمة وذلك لأنه أحد قساوسة دين ذائع الانتشار يتسربل بكسوته الكهنوتية الرسمية، «وسحر» الكنيسة المسيحية سحر قوي.

كانت الدنيا القديمة مدنية بنيت في المدن. وكان لكل مدينة أسقف خاص بها تمدّه معرفته وحكمته في العلوم والفنون والقانون اللاتيني والسجلات بأسباب

القوة. وكان الرجال الذين أصبحوا أساقفة -بطبيعة الحال- على شاكلة أولئك الذين تزعموا الناس في الدنيا الوثنية القديمة، كانوا رجالًا ذوي شخصية ومقدرة يحذقون سياسة غيرهم من الناس وحكمهم، وكانوا فوق ذلك زعماء المسيحية الناظرين إلى كنيستهم على أنها مركز حياتهم وباعثهم الأصلي، شأنهم في ذلك شأن اليهود الذين كانت ديانتهم أساس المسيحية.

لقد كانت الكنيسة أو الإيمان شيئًا قد يموتون في سبيله طواعيةً كما قد يموت الوطنيون الغيورون في سبيل أوطانهم. ولم يسبق قط لروماني أو إغريقي الموت في سبيل جوبيتر(١) أو أبوللو(٢). ثم إن الغزاة الكفار كانوا يخشون آلهة غيرهم من الأقوام، أما المسيحيون فلم يخشوا شيئًا.

وعلى هذا فإن الغرب لم يكن مجرد مرقعة(٣) من ملوك البربر، إذ تخلف شيء من النظام الروماني القديم، وكان هذا الشيء هو الكنيسة. وكان اسم المنطقة التي يحكمها الأسقف، أي «الأسقفية» أو الأبروشية، هو الاسم نفسه الذي كان يطلق على تلك المنطقة عينها أيام الحكم الروماني الوثني. وكانت هنالك حقيقة بالغة الأهمية وهي أن الأساقفة جميعًا ظلوا يتصلون بعضهم بالبعض، وهكذا تمكنوا من الإبقاء على ذكرى المدنية القديمة وتقاليدها.

على أن شهرة باباوات روما وقوتهم تردّ إلى أنهم حكام تلك المدينة السرمدية التي حكم مواطنوها العالم دهرًا. وعندما اجتاح إيطاليا في سنة ٤٥٢ فرسان الهون(٤) ذوو العيون المائلة والوجوه الذميمة والسيقان المعوجة كان البابا ليو هو الذي أغرى ملكهم أتيلّا بسجنهم.

وعلى هذا أمسى مصير الغرب، في ذينك القرنين المظلمين -من سنة ٤٠٠

(١) جوبيتر: إله الآلهة عند قدماء الرومان.
(٢) أبوللو: إله الجمال والرجولة والشعر والموسيقى.
(٣) المرقعة: (بتشديد القاف) ما يؤلف من أجزاء ورقع.
(٤) الهون: شعب أسيوي همجي اجتاح أوروبا في القرن الرابع حوالي سنة ٤٥٠.

إلى سنة ٦٠٠- بين أيدي رؤساء القبائل الغزاة والأساقفة المسيحيين. ويجب أن لا نحسب الغزاة متوحشين بل يجب أن نعدّهم محاربين يكتسون الزرد ويحذقون فنون الحرب. وقد يمكننا أن نحسن الظن بهم قليلًا إذا تذكرنا أن الجيوش الرومانية العظيمة كانت هي نفسها «تغلب عليها البربرية» وأن الوافدين الجدد -من مواطني جنود الفيالق الرومانية- سلكوا سلوكهم ولبسوا لبسهم وحاربوا على غرارهم.

وقد اعتنق القوط -وهم الرعيل الأول من الألمان الذي استوطن الإمبراطورية- اعتنقوا المسيحية قبل سنة ٤٠٠ عندما كانوا لا يزالون في البلقان وكان ألْريك -الذي استولى على روما- يعتنق المسيحية بطريقة قد تكون هي السبب في أن الرومان لم يرتاحوا إليه. وربما اقتصرت مسيحيته على القدر الذي يجعله يخاف إله المسيحيين ويخشى السحر المسيحي. ولسوء الحظ كان الإغريقي، الذي بشر القوط بالإنجيل، مسيحيًّا من «الهراطقة»[١]، كان من القائلين بأن عيسى لم يكن رجلًا قدسيًّا. وفي وسعنا أن ندرك الفزع الذي ينظر به الرومان إلى القوط الذين عدّوهم أسوأ من الوثنيين، تمامًا بقدر ما يُعد الثوار أسوأ من الأعداء العاديين. وهذا النوع الهرطقي من المسيحية كان يلقنه أسقف اسمه أريوس، وانتشر في وقت ما انتشارًا كافيًا حتى نسخه الأسقف أثناسيوس[٢]، وتجد مذهبه الأثناسي في كتاب الصلوات الإنجليزي المستعمل الآن.

وكان القوط مسيحيين «آريوسيين». وقد أمسى الجنس الآخر القوي من البربر -وهم الفرنجة- مسيحيين وفقًا للمذهب الأثناسيوسي، وأولئك يصح أن نسميهم بـ«الكاثوليك».

على أن الفرنجة الذين استولوا على أراضي الرومان الزراعية ومدنهم الواقعة شمالي فرنسا، كانوا -من بين الغزاة جميعًا- أكثر الغازين ضراوة. ولقد تزوج أول

(١) الهراطقة الضالين: المارقين ذوي البدع في الدين.
(٢) أثناسيوس: صاحب قانون (الأمانة) المذكور في كتاب الصلوات للكنيسة الإنجليزية.

زعمائهم -كلوفيس- من أميرة بورجاندية مسيحية ظلت تتوسل إليه بشتى الوسائل حتى ردّته مسيحيًّا. وقد تلقى التعميد[1] ومعه ألفان من المحاربين المختارين، في كنيسة ريمز أمام جميع أساقفة مدنه. ووقف في أرديته البيضاء أمام القديس ريمي أسقف ريمز- الذي لقنه، في إيجاز وجلاء، كيف يسلك سلوك المسيحيين: «اعبدوا ما كنتم تحرقون، واحرقوا ما كنتم تعبدون». حدث هذا في ٤٩٦ م. وقهر كلوفيس القوط الأريوسيين الموجودين في جنوب فرنسا. وما هو إلا القليل حتى استقبل رسلًا من قبل إمبراطور القسطنطينية الذي أنعم عليه بلقب: قنصل روماني، ولبس الأردية الأرجوانية المخصصة لذاك المنصب. وفي عهده وعهد خلفائه صارت بلاد الغال أرض الفرنجة أي فرنسا.

وفي إسبانيا عاش الرومان والقوط جنبًا إلى جنب يحكمهم ملوك من القوط.

وفي إيطاليا حكم ملك قوطي -اسمه تيودوريك- القوط الأريوسين والكاثوليك الرومانيين، وقد أحسن الحكم. وكان من كبار وزرائه كثير من الباحثين الرومانيين العلماء. وقد بذل غاية جهده ليحافظ على أساليب الحياة الرومانية القديمة طوال حكمه الطويل الذي امتد من سنة ٤٩٣ إلى سنة ٥٢٦، غير أن إيطاليا تعرضت لأرزاء فاجعة في أثناء «الحروب القوطية» التي بدأت بعد موته والتي تجمعت عن محاولات إمبراطور النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية استرداد إيطاليا من القوط.

الإمبراطور جستينيان:

بينما كان الأقطار الغربية تُغتصب أو تدمر صمد نصف الإمبراطورية الرومانية الشرقي صمودًا راسخًا. وأنشأ الأباطرة -الذين كانوا يحكمون من معقلهم بالقسطنطينية- أنشأوا جيشًا كامل العدة والتدريب يحوي فرقًا ثقيلة التسليح من الخيالة المتسربلين بالزرد، وعديدًا من النبّالة أو رماة السهام وغيرهم من الرجال

(١) التعميد أو التغطيس من تقاليد التنصير عند المسيحيين.

المسلحين بالأسلحة الخفيفة. وقد تدربوا على أن يغيروا من أساليب الحرب تبعًا لما كان يظهره أعداؤهم المختلفون من فنون الحركات الحربية. وهكذا نجت مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى والأصقاع والجزر الإغريقية، من الدمار الذي حل بالغرب.

وكان الأباطرة يلبسون النعال الذهبية وأردية القياصرة الأرجوانية الفاخرة، كما كانوا يحافظون على قوانين الرومان القديمة. وكان طلاب العلم في مدارس القسطنطينية والإسكندرية يتباحثون في الفلسفة والعلوم الإغريقية. وفي ملاعب الخيل بالقسطنطينية درجت الجموع الصاخبة المستثارة على أن تترقب ركبانيّيها[١] المحبوبين وهم يقودون فرقهم إلى النصر. وقد غصت المدينة بالدهماء والمتبطلين والشحاذين والعبيد وأرباب الحرف من شعوب عديدة، وكثرت المشاغبات بين الفرق المتنافسة –وبخاصة بين «الخضر» و «الزرق»– في مباريات السباق بملاعب الخيل. ولكن الإمبراطورية كانت غنية. وقد مخرت في البحر قوادسها[٢] وسفنها التجارية وعليها البضائع. أما عبر اليابسة فإن تجارة الشرق كانت تجيء مع كل شروق شمس. وكانت تلك هي الفترة التي فيها هرّب بعض المغامرين الجسورين دودة القز من الصين السحيقة وبدأ – تبعًا لذلك– إنشاء حقول الحرير في الإمبراطورية. لقد كانت إمبراطورية مسيحية تسهر على سلامة أقدس الأماكن التي تهم الكنائس المسيحية وهي الأماكن التي مشى فيها عيسى والتي رحل إليها حواريوه. وقد حكم الأساقفة أملاكًا شاسعة، وكانوا رجال قوة وسلطان بشروا في جميع مدائن الشرق الأدنى القديمة.

وقد حافظت الإمبراطورية الشرقية، أو إمبراطورية «بيزنطة»، على جيشها المنظم الموفق وذلك طوال قرنَي الظلام والشغب في الغرب (من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ م). وكان

(١) الركبانيون: المحاربون في عجلات حربية.
(٢) القادس: الزورق الحربي الكبير.

أكبر أباطرتها: جستينيان الذي حكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥. وهو الذي أرسل جيوشًا تغزو الغرب من جديد.

فأخذت أفريقيا في تقدم خاطف ودمرت إمبراطورية الواندال التي كانت هناك. وكذلك استعادت تلك الجيوش إيطاليا. على أن ذلك لم يتم إلا بعد حرب ضروس مع القوط دامت عشرين عامًا. وقد منيت إيطاليا بخسائر مفزعة من جراء الحرب، منيت بالقحط والوباء. وإن المؤرخ القديم الذي يؤرخ لهذه الحرب القوطية الطويلة ليرسم صورة بشعة للمزارع التي تخربت وللفلاحين الذين ماتوا جوعًا.

إلا أن أخص ما اشتهر به جستينيان لم تكن حروبه بل أعماله في سبيل البناء وسن القوانين، فلقد اصطفى خيرة المشرعين ليجمعوا كل قوانين روما ويبوّبوها في مجلد أو مجموعة صارت أساسًا لكثير من دساتير القوانين المعمول بها إلى الآن. وما يزال يتعين على الطلبة في جامعاتنا أن يدرسوا القانون الروماني، وهذه حقيقة تذكرنا بأننا متصلون اتصالًا وثيقًا بتلك العصور السحيقة. ومن آثار جستينيان الأخرى الباقية: كنيسة أيا صوفيا البديعة -أو الحكمة المقدسة- التي ما تنفك ترفع قبابها العددية فوق القسطنطينية، وقد شيد الإمبراطور كثيرًا من الكنائس والحصون.

ولقد احتفظ خلفاؤه بأجزاء من إيطاليا: البندقية وروما ونابولي والجنوب وصقلية. وكانت وفاة جستينيان في سنة ٥٦٥. وبعد وفاته بخمس سنوات غزت السهول الشمالية الإيطالية أمةٌ جرمانية هي (أهل لومبارديا) الذين جاؤوا من وراء الألب والذين سارع دوقاتهم إلى المناداة بأنفسهم سادة على ميلانو ومدائن أخرى. ونحن ما زلنا نسمي السهل الشمالي، بـ (لومبارديا) وإن يكن اللمبارديون ولسانهم الجرماني قد ذابوا منذ زمان طويل -مع القوط والرومانيين- في شعب إيطاليا.

وسلخت إيطاليا ١٣٠٠ سنة لم تسترجع فيها اتحادها!

رأينا أن الفرنجة المسيحيين حكموا بلاد الغال وأخذوا يصيّرونها إلى أرض الفرنجة أو فرنسا وأن القوط المسيحيين حكموا إسبانيا. وكانت في بريطانيا وحدها

ممالك وثنية. وفي الحق أن أهل ويلز كانوا مسيحيين وأن الإيرلنديين تنصروا نتيجة لتبشير القديس باتريك وهو بريطاني روماني، وأن القساوسة والناس كثيرًا ما تنقلوا ذهابًا وإيابًا بين أيرلندا وكورنوول وويلز وبريطانيا. غير أن الناس -في كينت وسَسَّكس وإسّكس ونورذمبريا في غرب إنجلترا وفي بلادها الداخلية -كانوا لا يزالون يعبدون وودن وثور وهما من قدامى آلهة الشمال الوثنية.

تلك صورة ما كانت عليه الحال في نهاية القرن السادس. وكانت تلك حال الإمبراطورية الرومانية المتفتتة التي انتهت عندما ظهر على المسرح رجلان غيرت أعمالهما كل شيء وهما جريجوري الكبير في روما ورجل عربي اسمه محمد.

* * *

الباب الثالث

رايات الصليب أو مملكة وحصن وكنيسة

المسيحية: البابا جريجوري الكبير:

كان البابا جريجوري الكبير -الذي رأس كنيسة القديس بطرس بروما في سنة ٥٩٠- تلميذًا للقديس بندكت الذي أسس نظام الرهبان في الغرب. وقد كرس أولئك الناس حياتهم -كما رأينا- للعبادة والعمل. ولم يلبث مسعاهم أن آتى أُكُله في الأديرة المعتنى بها، وذلك بنسخ الكتب المسيحية وبتلقين الإنجيل. وكان من الخير في تلك الحقب الوعرة وجود دُورٍ تكون حقًّا موائل للنور والعرفان والإيمان المسيحي الحق.

وقد أسهم جريجوري الكبير - بوصفه رئيس أساقفة الغرب- في إعادة بناء مدنية مسيحية جديدة.

كان حاكمًا لروما وعرف كيف يسوس الرجال بحكمة وحزم. وألف كتبًا عن الدين وأرسل رسائل إلى رهبانه ورؤساء أديرته يرشدهم فيها إلى طريقة إدارة الكنائس والأديرة. وإذا كنّا اليوم نسمي أحد أنواع الموسيقى الكنسية بـ«الجريجورية» فلأنّه كان ذلك النوع نفسه الذي أمر بعزفه. وهو -إلى هذا- أوفد مرسلين يعلمون الإيمان

ويردّون الناس إلى المسيحية. ولهذا السبب –وبفضل حكمته ومقدرته– أصبح زعيم مسيحي الغرب قاطبةً. ولهذا السبب أمست كنائس البلاد البربرية المختلفة جماعةً مسيحية متآخية يتبادل أساقفتها ورؤساء أديرتها الرسائل والزيارات، وأضحى الغربُ «نصرانيةً» أي ملةً كبيرة من المسيحيين (أو مملكة من ممالك الله على الأرض. وعلى الرغم من هذا أسمَى جريجوري نفسه «خادم خدّام الله» وهذا لقب بديع.

وذلك يوضح السبب في أن الراهب أوجستين، مع أربعين آخرين، عبروا المانش في سنة ٥٩٧ وهبطوا إلى البر على مقربة من ساندوتش في كيْنت الوثنية. وهناك جلس الملك على عرشٍ في الهواء الطلق ليستقبلهم فأتوا إليه حاملين صليبًا من الفضة ولوحًا نُقشت عليه صورةُ المسيح وقد ساروا ينشدون أورادًا لاتينية. وأصغى الملك واعتنق المسيحية وتلقى التعميد (أو التغطيس) مع كل رجالاته البارزين. وقد وُهب أوجستين كنيسةً قديمة في البلدة الرومانية القديمة: كانتر بيري. وكان في كينت –في حقبة من الحقب– مسيحيون يتعبدون في بيوتهم، وهذا ما دلتْنا عليه حديثًا الحفائرُ في بيتٍ روماني بـ(لو لينجستون). والآن أصبح بربرُ كينت الجددُ مسيحيين وأصبحت كانتر بيري –وهي لا تزال بلدةً صغيرة جدًّا– مقرّ رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية أو سدّته البابوية.

ويذكرنا ما تلا ذلك في إنجلترا بكلمات الإنجيل: «فترى الأمم برّك وكلُّ الملوك مجدك».

وكان في تلك الجُزر ملوك وأمراء كثيرون. سمعوا الإنجيل في مدَى قرنٍ من الزمان، وقد تلقى أكثرُهم التعميد، وكان أمراء ويلز مسيحيين على طول الزمان منذ الأيام الأولى لروما. غير أنهم وشعبهم لم يبذلوا جهدًا ما لينصروا جيرانهم الإنجليز الذين طردوهم من خير بقاع الجزيرة.

وقد حدثت، في أثناء التحول، حوادث مثيرة. منها أن الناس، في لندن طردوا الرهبان الرومانيين الأوائل الذين اجترؤوا على الخروج إلى أولد كينت رود (طريق

كيت القديمة) وفي يوركشير قاد كبير قساوسة الإله الوثني (وودن) قاد بنفسه حشدًا من الوثنيين ليحطموا ويحرقوا معبد (وودن)، وذلك بعد أن سمع راهب بولينوس يقص قصة الإنجيل.

وفي الوقت الذي فيه أوفد المبشرون من روما نشطت الكنيسة الإيرلندية القديمة في أعمال التبشير. وكان الإيرلنديون قد سمعوا الإنجيل، في القرن الخامس، من القديس باتريك، وهو روماني مسيحي كانوا أسروه في إحدى غارات الرقيق على بريطانيا، وبنيت كنيسة إيرلندية على جزيرة أيونا الواقعة على مسافة من الشاطئ الإسكتلندي، وفي الوقت الذي دخل فيه أوجستين (كينت) جاء القديس أيدان، من أيونا إلى نورذمبريا ليبشر بين أهلها. وأقام أيدان ديره على جزيرة لينديسفارن الواقعة على مسافة من شاطئ نورذمبريا.

وقد حدثت فعلًا منازعات بين القساوسة الإيرلنديين والقساوسة الرومان في صدد بعض شؤون دينهم، غير أن المنازعات فضت من دون أن تترك أثرًا في النفوس، وتحركت الجزيرة كلها نحو الأسرة المسيحية الكبيرة التي أسهمت في تكوينها جهود جريجوري الكبير. وقد أرسل أحد البابوات اللاحقين راهبًا يونانيًّا عالمًا وهو تيودور أحد مواطني طرسوس (وهي مدينة القديس بولس القديمة)، أرسله ليكون رئيس أساقفة كانتر بيري، وقد نجم عن ذلك ازدياد المعرفة بتعاليم الكنائس الإنجليزية. ولم تلبث بعض الأديرة - مثل جارو، ويورك في الشمال ومثل ماليسبوري وكانتر بيري في الجنوب- أن تحولت إلى بيوت للمعرفة والثقافة المسيحيتين، وقد عمل الرهبان والباحثون من اليونانيين والإنجليز والإيرلنديين معًا ووثَّقوا جميعًا صلتهم بروما. وعلى هذا عادت الصلة ثانية بين أقاليم بريطانيا الضالة وبين المدنية المسيحية الآخذة في الانتشار في غرب أوروبا. وثمة فارق غريب واحد -دام قرونًا- هو: في فرنسا وإيطاليا كان الأساقفة يوجدون في كل مدينة، أما في إنجلترا فكان كل أسقف يهيمن على كنائس مملكة أو قسم من مملكة، وعلى هذا

أمسى الأساقفة الإنجليز، على قلتهم أغنياء أقوياء.

تلك كانت الأيام الذهبية للكنائس الإنجليزية والإيرلندية، وكانت مبانيها عمائر خشبية بسيطة، ولكن أعمالها اليدوية في الكتابة وصناعة الكتب والتطريز اشتهرت في أوروبا كلها، وإلى هذا أرسلت أيرلندا وإنجلترا مُرسَليها وارتحل قديسون إيرلنديون -مثل كولومبانوس وجول- إلى أوروبا وأسسوا أديرة مثل فولدا بألمانيا. وبشر قديسون من الإنجليز -مثل بونيفاس- بين السكسون الأشراس في ألمانيا واستشهد الكثيرون منهم هناك. وتلك إحدى القصص الكبرى في تاريخنا. وقد روى لنا كثيرًا مما بها راهبٌ وهو «بيد» (من بلدة جارو) الذي قضى في ديرها كل حياته منذ دخله غلامًا في جوقة المرتلين إلى أن مات أمينًا للمكتبة. وقد ألف (بيد) كتبًا كثيرة أهمها «تاريخ الكنيسة الإنجليزية» المكتوب بلغة لاتينية جيدة، وترجمته اليوم في متناولنا جميعًا.

ومات (بيد) في سنة ٧٣٥ بعد نزول أوجستين إلى البر بمائة وثمانية وثلاثين عامًا. وكان ممكنًا أن يلقى أبوه رجالًا رأوا أوجستين وأن يكلمهم. وفي تلك الفترة القصيرة تمت إعادة إنجلترا إلى المسيحية. ولكن حدث في شرق أوروبا وجنوبها -في تلك الفترة نفسها- شيء آخر مثير.

رجل من الصحراء:

درج الرعاة «الأعراب» على نهب الأقوام التي تفضلها حظًّا والتي تعيش على مقربة منهم. وكانت الحياة على المراعي الصحراوية القليلة الغناء، عسيرة ولذا كان من دواعي رضائهم -وبخاصة في فترات الجدب- أن ينهبوا الناس الذين يفضلونهم حظًّا، أي أولئك الذين يعيشون في أرض خصبة أو في المدائن. وكانت المدائن والأراضي الخصبة -في عهود الإمبراطوريات الإغريقية والرومانية- تحرسها جيوش الإمبراطور وظلت الغارات العربية -طوال قرون عديدة- مجرد أمور مقصورة على التخوم.

وجاء محمد –وهو عربي ولد في مكة في سنة ٥٧٠– وبشر بدين جديد. علم الناس أن يصلوا لإله واحد هو الله، وأن يعيشوا عيشة رشيدة يحوطها التحفظ. وحرم عليهم الخمر والموسيقى الماجنة. وعلمهم أن يساعدوا المعوزين والمظلومين وأن يطيعوا زعماءهم وأولي الأمر منهم. وحرم عليهم عبادة الأصنام وصنْع تماثيل أو صور لأي مخلوق حي. وما يزال فن المعمار العربي –إلى يومنا هذا– خلوًا من التماثيل والصور، غير أنه تزينه خطوط ذوات ألوان نسميها «أرابسك» أي النسق العربي في النقش والزخرفة. وعلمهم أن الذين يؤمنون بالله حق الإيمان جميعُهم إخوان سواسية وأن من لا يدخلون في دين الله يدفعون الجزية لبيت مال المسلمين.

وقد آمن العرب المسلمون بالتوراة وأسموا أبناءهم أسماء مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف وسليمان، ونظروا إلى سليمان على أنه حكيم مقتدر، وإلى عيسى –لا على أنه ابن الله بل– على أنه نبي. فهم يقولون بوجود إله حق واحد هو الله الرحمن الرحيم العظيم الحكيم، ونبي حق كبير هو محمد رسول الله، وبأن محمد يعرف ما يُرضي الله الذي نظم في عليائه كل شيء في السماء والأرض. وقد سُجلت التعاليم التي نزلت على محمد في كتاب مقدس هو القرآن.

كان العرب يحذقون ركوب الخيل والجمال، وكانوا يتصفون بقوة البنية وخفة الحركة والشجاعة وعلو الهمة. ولقد شكلوا فرقًا عسكرية تمتاز بالقوة والإقدام. ثم إن دينهم الجديد –وهو دين بسيط واضح– قد وحد القبائل وتطور إلى دين فتوح، مذهبه مجاهدة الكفار بالأحدب والرمح والحسام. وكان زعماء العرب، ممن تعاقبوا بعد محمد، كانوا يوصفون بأنهم الخلفاء وأمراء المؤمنين وكانوا قادة جيش من الفاتحين. وهؤلاء السمر أبناء إسماعيل –يقودهم أمراؤهم ذوو العمائم البيضاء– نقلوا الحرب إلى الأراضي المسيحية، وكان قتالهم في سبيل الله. وكان جميلًا الانتقال من الصحراء اللافحة إلى المراعي الخضر والغياض. وكان الفاتحون قدريين يؤمنون بمذهب القضاء والقدر وهو أن كل ما هو آت ترسمه مشيئة الله

ثم لا يتبدل. وقد شد أزرهم في الحرب دافعٌ أفضل هو اعتقادهم بأنهم -إذا ماتوا مجاهدين في الحرب -ضمنوا جنة الله بغير حساب.

وقد حدث أن إمبراطورًا إغريقيًّا ضعيفًا أحمق دفع الفرس إلى اجتياح فلسطين ومصر فسهل الفتح العربي بسبب قلة الحرس والجنود الإغريق. وقد تصدى للعرب الإمبراطور هرقل محاولًا أن يمحو أثر الأذى الذي صنعه سلفه الأحمق إلا أن العرب ردوا هرقل على أعقابه واستولوا على دمشق عاصمة الصحراء العظيمة (التي عمد فيها القديس بولس)، كما استولوا على أنطاكية المدينة الجميلة، الغنية بمجموعات الأعمدة وبالحدائق، (التي فيها لقب أتباع المسيح بالمسيحيين، أول مرة). واستولى العرب أيضًا على بيت المقدس التي كانت مدينة «مقدسة» لديهم ولدى المسيحيين، وفتحو مصر أرض الفراعنة العتيقة التي اشتهرت بعلمها وبأديرتها. واستولوا على الإسكندرية، المدينة اللامعة برخامها الأبيض.

واتجه العرب صوب الشرق وقطعوا مسافات شاسعة وحطموا قوة خصوم اليونان وروما الأقدمين وهم الفرس. ونشروا دينهم إلى ما وراء شاطئ أفريقيا الشرقي، وسبحت سفائنهم مع الرياح الموسمية إلى الهند.

ذكرنا عن الشرق ما فيه الكفاية. أما عن الغرب فقد تم فتح كل شمال أفريقيا (وكان يحوي كثيرًا من المدن والقرى المسيحية). وقاد أمراء المؤمنين جحافلهم غربًا في اتجاه مغرب الشمس ولم يتوقفوا إلا بعد أن خاضت سنابك مطاياهم أمواج الأطلنطي السحيق. وانخرط الأهلون من المغاربة في جيش الفاتحين ليصبحوا من عساكر الموحدين. وعمرت المساجد بدلًا عن الكنائس واضمحل ما شيدته روما من معابد وكرمات ومدرجات. وكان النصر ميسرًا.

(حدث كل هذا قبل وفاة الراهب الإنجليزي (بيد) في دير الجيب بـ(جارو).

الهلال في أولى مدافعاته:

عبرت الجيوش الإسلامية، من العرب والمغاربة، من مراكش إلى إسبانيا واكتسحت شبه الجزيرة ودفعت المسيحيين أمامها إلى الجبال الشمالية ثم أخذت تغير -العام تلو العام- على أراضي فرنسا الداخلية.

ويجب أن نتذكر أن المنطقة التي كانت يومًا إمبراطورية موحدة في العهود الرومانية والتي شملت الشرق والغرب، أمست الآن يحكمها كثير من الملوك والأمراء، كل منهم له رفاقه المحاربون وكل منهم حاكم مسيحي، إلا أن كلا منهم يتصرف منفردًا كما يحلو له. وقد استولى المسلمون على نصف الرقعة المسيحية، وفي هذا النصف خير ما أحبوا وقدسوا من البلاد العتيقة. بل إن حصن القسطنطينية نفسه كان مهددًا. وكانت تحيط بالحدود الجنوبية للبقاع المسيحية ولايات إسلامية شاسعة باسلة. وبدأ البحر الأبيض المتوسط يغص بسفائنهم، ولم يكن من المستطاع صدهم إلا بأعجوبة.

وكانت جحافل الخيالة العرب تتقدم في فرنسا العام تلو العام، الصيف تلو الصيف. ثم حدثت الأعجوبة. التقى فرنجة فرنسا الشقر وكانوا مسيحيين وشجعانًا، يقودهم الأمير شارل مارتل (أي المطرقة) -التقوا بحشد من العرب والمغاربة في (تور) في سنة ٧٣٢ وهزموهم، واستخلص الفرنجة فرنسا من أيدي العرب وبذلك استخلصوا الغرب.

وبقي على إسبانيا والبرتغال أن تتخلَّصا بعدُ منهم. أما البلاد الأخرى التي فتحها المسلمون فقد لبثت تحت رايتهم الخضراء ألفًا ومائتين من السنين.

شارلمان:

إن شهرة شارل مارتل قد فاقتها شهرة حفيده شارل الأكبر أو شارلمان. فلقد وسع رقعة ممتلكات الفرنجة إلى درجة امتد معها سلطانه من جبال البرانس إلى نهر الألب

في ألمانيا ومن الأطلنطي إلى نهر الدانوب وإلى نهر التيبر في إيطاليا. وبعبارة أخرى حكم إمبراطورية شملت فرنسا وبلجيكا وهولندا وغرب ألمانيا وشمال إيطاليا. ولقد قضى أغلب فصول الصيف في محاربة مغاربة إسبانيا، والسكسون في ألمانيا، والدانماركيين على تخوم بلادهم، والسلاف على التخوم الشرقية لألمانيا. وقد اتسع له الوقت مع ذلك فعمل على تشجيع العلوم والفنون وهندسة البناء. وشيد كاتدرائية جميلة في آخن -حاضرة ملكه- واستجلب لها أعمدة من المرمر من روما ورافينا في إيطاليا. وكان يتكلم اللغات بدرجة كافية ولكنه لم يحسن الكتاب كل الإحسان. ولقد أحب القداسات الكنسية والموسيقى الكنسية والمساجلات الدينية والتحدث بحكايات قومه وإعادة تلك الحكايات. وكان يدعو إلى بلاطه العلماء الأجانب، وقد اشتهر منهم بصفة خاصة إنجليزي اسمه ألكوين (من يورك) الذي أصلح التعاليم والمراسم الكنسية في أراضي الفرنجة وجعل من بلاط شارلمان مدرسة جديدة للعلم في الغرب. وكان ألكوين من زمرة العلماء الموفقين المشهورين والقديسين، أولئك الذين كان من بينهم الراهب (بيد) الذي كتب «تاريخ الكنيسة الإنجليزية».

وأجمل لحظة في حياة شارلمان كانت في الوقت نفسه أعظم ما وقع في تاريخ الغرب في مدى قرون طويلة. إذ إنه في يوم عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ في كنيسة القديس بطرس بروما، توَّجه البابا «إمبراطورًا». ومنذ ذلك اليوم وجدت في أوروبا إمبراطوريتان: إحداهما في القسطنطينية وثانيتهما في روما.

وكان خلفاء شارلمان يلقبون بـ«الأباطرة الرومان المقدسين». غير أن ذلك لم يكن شأنهم جميعًا، ذلك أن إمبراطوريته - بعد أن انقضى بضع سنين على وفاته في عام ٨١٤- انقسمت ثلاثة أقسام: غربي وأوسط وشرقي، يتولى كلًّا منها واحد من أسرته. ومن القسم الغربي -حيث أخذ الناس يتكلمون لغة تشبه الفرنسية شبهًا غامضًا- تنحدر مملكة الفرنسيين وأمتهم. ومن القسم الأوسط -وكان أغنى الأقسام وأجملها- تنحدر بلاد الراين واللورين وبورجانديا وشمال إيطاليا أي كل الأصقاع

والأقاليم التي ظل الألمان والفرنسيون يتحاربون من أجلها. ولم تدم هذه المملكة الوسطى دهرًا طويلًا جدًّا بل تفتت جزئيات وأجزاء: ولايات ومدن ودوقيات وما إلى ذلك. ومن القسم الشرقي –حيث كان الناس يتكلمون الألمانية– انحدرت أصول ألمانيا. وبفعل مصادفات متتابعة أصبح لقب الإمبراطور الروماني المقدس وقفًا على القسم الشرقي. وظل الأباطرة الرومان المقدسون –قرونًا– أعظم الملوك أو السادة الأعلون في مئات الولايات والدوقيات الألمانية جميعًا. وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة – مدة بقائها، وقد بقيت فعلًا دفعة واحدة حتى سنة ١٨٠٦– كانت في واقع الأمر هي الرقعة التي تتكون منها الآن ألمانيا والنمسا مجتمعتين. وهكذا كانت الإمبراطورية التي كونها شارلمان منشأ أوروبا الغربية أي منشأ فرنسا وألمانيا والأراضي المتنازع عليها الواقعة بينهما. وقد ادَّعت الإمبراطورية الرومانية المقدسة السيادة على شمال إيطاليا ولكن مقياس قوتها هو دائمًا: هل كان العديد من دوقات وأمراء الشعوب الألمانية والمدن الإيطالية، موالين للإمبراطورية؟ والواقع أن الشعوب الألمانية والمدن الإيطالية لم تصبح أممًا متحدة مستقلة حتى جزء كبير من القرن التاسع عشر. وإن خرائط ألمانيا وإيطاليا لتبدو في خلال ألف سنة –وهي الواقعة بين ٨٧٠ و ١٨٧٠– كأحجيات المنشار الدوَّار الكبير.

ولقد كان الفرنجة أنفسهم يتكلمون اللسان الألماني. وكانوا الحكام وملاك الأرض. وقد ترك أولئك الذين استوطنوا منهم هذا الجانب من الراين في الرقعة التي تسمى الآن «فرنسا» كما أسموها هم، تركوا لغتهم القديمة واتخذوا لغة السكان الرومان الغالبين لسانًا لهم. وهذا هو السبب في أن اللسان الفرنسي الحديث هو نفسه ما نسميه بـ «اللاتيني» وأصله لسان لاتيني كان يتكلمه الغال الذين تلقنوه بدورهم عن الرومان. ولا يزال الناس في بريتانيا الحديثة يتكلمون لغة سلتية[1] أو غاليَّة قديمة تشبه لغة الولز. على أن الفرنجة، الذين عاشوا على ضفاف الراين وما

(١) السلت: نسبة إلى سكان أوروبا الأقدمين.

وراءها؛ ظلوا يتكلمون لغتهم الألمانية.

وفي خلال حكم شارلمان هدد المسيحيةَ خطر جديد همجي. كان شارلمان قد حارب الدانماركيين في «الدانمارك» (أي: على ساحل الدانماركيين). وبدأ الدانماركيون والنرويجيون عندئذ يغيرون على الشواطئ الغربية ويعملون فيها القتل والنهب والحرق. واستولوا على بوردو في سنة ٧٧٩، وعلى ليندسيفارنه في سنة ٧٩٣، وعلى أيونا حيث ذبحوا ثمانية وستين راهبًا وسلبوا في سنة ٨٠٦ ما كان بالمحراب من أوانٍ ذهبية وفضية. ونحن نعرف هؤلاء الناس باسم «الفايكنجز» أي قراصنة شمال أوروبا.

رجال من الشمال:

في المدونة التاريخية الأنجلوسكسونية نستطيع أن نقرأ الاستهلال التالي: «٧٨٧م. في تلك السنة اتخذ بير تريك ملك وسكس اتخذ «إدبورجا» -ابنة أوفا ملك ميرسيا- زوجة له. وفي عهده جاءت ثلاث من سفن رجال الشمال، من بلاد القرصان. فركب إليهم مأمور الأحكام وصمم على أن يسوقهم إلى مدينة الملك لأنه لم يعرف أي نوع من الرجال هم. غير أنه قُتل هناك. وكانت تلك أولى سفائن الدانمارك التي جاءت إلى إنجلترا».

وبعبارة أخرى قاد مأمور الأحكام الملكي رجاله ليقبضوا على الأجانب وقُتل وهو يحارب على الساحل.

وفي مدى ثلاثمائة عام تقريبًا أغار محاربو الدانمارك والنرويج، وهم رجال «القرصان» أو الفايكنجز -على سواحل كل الأراضي المسيحية. وقد أعملوا التدمير والنهب، أول الأمر- على أنهم بحارة السفن. ولكنهم فيما بعد ذلك، تحركوا بوصفهم جنود جيوش كبيرة يقودها قواد مشهورون، وكانوا وثنيين يسعهم أن يكونوا في أقسى ما تكون الغلظة. ولكنهم أخلدوا مع ذلك، إلى سن القوانين

وتسوية خلافاتهم بالمفاوضة فيما بينهم. وكان يعدُّون البسالة، الفضيلة التي لا يُعلى عليها. وهم لم يتقيدوا بقيادة فرد واحد إذ إن كلًّا منهم كان يتصرف تلقائيًّا عند الضرورة.

أما ديانتهم فيمكننا أن نقرأ عنها في أشعارهم القديمة. كان حصن أسجارد السماوي المنيع -الذي لا يستطاع بلوغه إلا بعبور جسر قوس قزح- موئل الآلهة: أودين وامرأته فريجا وولديه ثور وبولدر وكذلك لوكي روح الشر. وكان أودين ما ينفك يهيم ابتغاء الحكمة، وثور بمطرقته الكبيرة -مجولنير- يصنع الرعد وما يفتأ يحارب مردة الشمال المتجمد، وبولدر -إله النهار الوسيم- يحتمي بصفة خاصة برقية سحرية حياه بها أودين. غير أن لوكي الشرير تسبب في قتله بسهم من الدابوق[١]. إلا أن بولدر ردت عليه حياته بناء على طلب الآلهة. هذا بينما شُد لوكي بسلسلة إلى الصخور حتى يظهر «شفق الآلهة» ويتحول كل دنيا الآلهة والرجال إلى خرائب. وعبر «ساحات السماوات» ركب المطايا عذارى النار -وهن الفلكيريات[٢] لابسات الخوذ اللائي تختزن المذبوحين، واللائي سُقن القرصان إلى فالهالا أي إلى قاعة المذبوحين التي فيها كان كل يوم يقضي في الحرب استعدادًا للمعركة الأخيرة الكبرى التي تحتم أن تقع عند انتهاء العالم. وكان هذا العالم والعالم الذي يليه- فيما يرى القراصنة الفايكنج- ساحتي كفاح لا يأمن فيهما ويسعد غير الأقوياء. وهكذا كان كل اعتزازهم منصبًّا على البسالة والقوة ليس غير. ومع هذا كان هناك شيء غير انصرافهم للحرب، إذا نجد -في أشعارهم القديمة نفسها- أقوالًا مأثورة تنطوي على الحكمة والأدب:

- ينبغي للمرء أن يكون عاقلًا ولكن لا إلى أبعد حدود العقل، إذ إن قلب العاقل قلَّما يبتهج.

---

(١) الدابوق أو الدبق: غراء أخضر اللون ينشر على قضبان توضع في الأشجار فينخدع الطير بها ويجثم عليها فتلصق به ويصطاد.

(٢) الفلكيريات: حوريات من أساطير الشمال.

– تموت الثروة ويموت الأقربون ويموت المرء نفسه آخر الأمر، أما المجد والشهرة فلا يموتان أبدًا.

ولقد كان أناس كأولئك لهم مثل هذه المعتقدات يكونون تباينًا مروعًا مع الشعوب المسيحية التي حاولت عندئذ أن تعيد بناء المدنية الأوروبية.

ولقد جاء أولئك القرصان جنوبًا في سفن طويلة مكشوفة ترتفع جدرانها عند المقدمة والمؤخرة يدفع كل منها في الماء الهادئ مجاذيف يتراوح عددها بين الأربعة والعشرين والستين. وكان تصنع من البلوط المصلصل أي من ألواح خشبية طويلة متراكبة. وكانت قليلة الغور إلى درجة يسهل معها دفعها إلى الساحل، ويتوسط كلا منها سارية تحمل الشراع، وكانت مصفحة الحواشي بستور خشبية. ولقد ظلت تلك من أنسب السفن للملاحة في العالم الغربي حتى اخترعت السفن البخارية في القرن التاسع عشر.

على أن القراصنة (الفايكنج) ولدوا بحارة، وقد أوصلتهم غاراتهم ورحلاتهم إلى القسطنطينية بل إلى أمريكا. واستقروا في أيسلندة. ومن هناك زار بعضهم شواطئ نيو إنجلند الأمريكية التي أسموها وابندلاند (أي أرض الصهباء).

واستقروا في روسيا وفرنسا وإسكتلندا وأيرلندا وإنجلترا. وفي هذه البلاد جميعًا تعيش سلالاتهم إلى اليوم.

ورحلوا برًّا، عبر روسيا، هابطين إلى البحر الأسود يجرِّرون سفائنهم من نهر إلى نهر. وكانت لهم في روسيا مستعمرات تجارية تقايض الفرو والدقيق والخشب بالذهب والحرير والسلاح المجلوب من القسطنطينية التي كانوا يسمونها السد المنيع أو المدينة العظمى.

وتوصلوا في سنة ٩٠٧ إلى محاصرتها بألفي سفينة، غير أنهم ارتدُّوا عندما نقدهم الإمبراطوري قدرًا كبيرًا من المال. ضم الإمبراطور، فيما بعد، طائفة منهم إلى حملة

الفؤوس من الحرس الإمبراطوري وذلك لحمايته وحراسة كنوزه.

وفي الغرب جلب القراصنة (الفايكنج) على المدنية الإيرلندية والكنيسة الإيرلندية الدمار متوسلين بالقتل والنهب. وقد عاشت سلالاتهم -في دبلن وليميريك وأكسفورد وووتر فورد- بمعزل عن سائر السكان، وقد عرفوا -حتى سنة ١١٠٠- بالمشارقة أي الشعوب التي وفدت من الشرق: حتى أواخر القرن الحادي عشر. والسبب في تسمية أقصى شمال إسكتلندا إلى اليوم بـ (سذر لاند) يرجع إلى أنه في القرن التاسع كان اسمه «سذرن لاند» أي الأرض الجنوبية. وذلك من وجهة نظر القراصنة النورويجيين الذين أغاروا عليها واستوطنوها.

ولقد تجمع القراصنة (الفايكنج) في أساطيل كبيرة تحت إمرة بعض أمراء البحر الذائعي الصيت وأبحروا مصعِّدين في الأنهار الفرنسية والإنجليزية. ودمروا روان ونانت وأغاروا على هامبورج بأسطول قوامه ستمائة سفينة. وداروا بحرًا حول إسبانيا واستولوا على لشبونة وإشبيلية.

وكانت تلك حقبة تاعسة للنصرانية التي فقدت شمال أفريقيا وإسبانيا والشرق لمصلحة العرب. ثم أغارت أساطيل الوثنيين المخربين على طول الشواطئ الغربية.

ولا معدَى هنا عن أن نسجل، بوجه أخص، أثرًا من آثار القراصنة (الفايكنج). في ٩١٢ تجمعت بعض عصابات القرصان -الفايكنج بقيادة زعيم قدير اسمه رولو- وجاؤوا إلى شمال فرنسا قبالة شاطئ سسكس واستقروا هنالك، وأصبحوا مسيحيين وتلقوا التعميد. وعكفوا على التحادث باللسان الفرنسي وعلى اتباع المدنية الفرنسية. وكان هذا بداية بلاد أهل الشمال، أو نورمانديا كما نسميها. أما ما تعنيه نورمانديا والنورمانديون بالنسبة لإنجلترا وغيرها فسيرد ذكره فيما بعد[1].

(١) انظر شكل رقم -٥- (متاعب أوروبا الغربية- القرن التاسع).

ألفرد وسكس:

كان الأمر من أوله إلى آخره مفزعًا فقد جلب الشقاء والدمار إلى المدائن والضياع المسيحية، وأنهى -في إنجلترا- الأيام الذهبية للقديسين والعلماء الذين عرفهم (بيد) وأحبهم.

كانت الغارات أول الأمر مناوشات بسيطة كبعض المعارك على السواحل وكمشادات يعمد إليها بحارة نفر قليل من السفن ضد ضابط الأمن والمزارعين المحليين. ثم ظهرت بعد ذلك -حول سنة ٨٥٠- أساطيل القراصنة (الفايكنج) يقودها زعماء جبابرة: سحبوا صنادلهم إلى البر وأقاموا معسكرًا ونهبوا المنطقة واغتصبوا خيولًا وركبوا إلى داخل البلاد واستولوا على لندن ونهبوها، ولم يمض ثلاثون عامًا حتى كان القرصان الدانماركيون قد احتلوا شرق أنجليا على نحو ما كتب المؤرخ الإنجليزي المكتئب الذي قال «شتوا هناك». وقد استولوا على يورك وأقاموا مملكة يورك. وحرقوا الأديرة الجميلة في البطحاء، كرويلاند وبيتربارا، وقتلوا القديس إدموند ملك أنجليا الشرقية في الحرب. واستولوا على كل بقاع أواسط إنجلترا وشماليها، وأطلق على تلك المنطقة اسم (دين لو) «الشريعة الدانماركية» أي المنطقة التي فيها سرت على الجميع شريعةُ الدانماركيين.

ولم يبق حرًّا إلا وسكس، مملكة السكسونيين الغربيين.

وفي منتصف شتاء سنة ٨٧٨ غزوا وسكس راكبين في سرعة فائقة إلى داخلية البلاد من جلوستر. وقد سقطت وسكس وهي غير متأهبة في أسوأ فترة في السنة، فترة كان فيها فيض من الحصاد مختزنًا لمن ينهب، إلا أن الطرق كانت غزيرة الوحل. ولاذ الملك ألفرد بالغرب في مستنقعات سمرست بـ (أتلني)، وعندما حل الربيع تحرك أهل ديفون وأبادوا أسطولًا من أساطيل القراصنة (الفايكنج) كان قد ظهر عند الشاطئ. ثم انطلق ألفرِد وانضم إلى جيوش ولتشاير ودورسيت وهامبشاير واشتبك في معركة مع جوثروم رئيس القراصنة في إيثانديون حيث شق طريقه بعد

ساعات من القتال بين حملة الفؤوس من جنودهم، وساقهم إلى معسكرهم. وأكره جوثروم على قبول الصلح والتعميد والارتداد إلى شرق أنجليا.

وعندما غزا وسكس، فيما بعد، دانماركيون آخرون كان ألفرد ورجاله قد استعدوا، وقهرهم هو وابنه الصنديد إدوارد، ثم عاش هو وشعبه في سلام طوال الأربعة الأعوام الأخيرة من حياته.

ولم تكن ثمرة انتصاراته كسبًا لوسكس فحسب بل كانت كذلك كسبًا للمسيحية جمعاء. وكان سر وسكس سره. ولقد أوتي وحده، من بين كل الملوك الإنجليز في تلك الحقبة، قوة الزعامة التي بدونها تصبح الشجاعة عديمة الجدوى. وإن زعامته المسيحية الصادقة لتُرى في سائر ما صنع لشعبه، لأنه لم يكن ملكًا محاربًا فحسب بل كان أيضًا أبًا لذاك الشعب.

يتبع الملك المسيح، ونحن نتبع الملك الذي نفح الله العلي فيه سرًّا.

وهذا يطابق قول ألفرد نفسه: «ليس في وسع المرء أن يصنع أي خير، كائنًا ما كان، ما لم يُعنه الله».

ولقد قسم دخله الملكي بين صيانة جيشه، ومكافأة الصناع المهرة كالحدادين والبنائين والجوهريين، وبين رعاية الكنائس والأديرة بوصفها بيوتًا لله والعلم. وكان يرحب في بلاطه بالعلماء والسياح الأجانب من أمثال أوثير النورماندي الذي ساح في أقصى الشمال حتى البحر الأبيض. ولقد درس القانون وحمل أبناء الأشراف في بلاده على أن يتعلموا بالإنجليزية واللاتينية، وقد ظل ذلك شيئًا تجهله إنجلترا حتى ظهرت الكتب المطبوعة بعد ذلك بستة قرون. وجمع طائفة من المخطوطات وأمر بنقلها وبترجمة بعضها وقد ترجم بعضها بنفسه. كما أمر الرهبان أن يعدوا مدونة للحوادث. والمدونة الأنجلوسكسونية -التي ظلت تكتب عامًا بعد عام، فترة طويلة بعد وفاته- واحدة من أثمن مدخراتنا.

صمد ألفرد لجيوش القراصنة (الفايكنج) عندما تملك العجز سائر الشواطئ الغربية، وقضى عمره كله في محاولات بطولية لينقذ المدنية المسيحية. وإن أسماء (أودا -وإثيلنوث -وويليحموند -وويرنيرث) العجيبة لا تعني اليوم كثيرًا بالنسبة لنا. ولكنها مع ذلك كانت أسماء جماعة قليلة من رفقاء ألفرد الصالحين المؤمنين الذين -بدونهم- لم يكن ليقدر على صنع ما صنع. إنها جماعة من الرجال الراسخين الحازمين الذين لن تتسنى لنا أبدًا معرفة صورهم وأشكالهم، غير أن أعمالهم ما زالت باقية.

أنقذ ألفرد وسكس، وأما ابنه إدوارد الكبير وحفيده آثلستان وابن حفيده إدجار -في القرن التالي (العاشر)- فقد أعادوا فتح إنجلترا جميعها التي أضحت عندئذ مملكة واحدة، وكانت تلك أول مرة حدث لها ذلك منذ تركها الرومان. وإذ ذاك كانت الطرق الرومانية المديدة على حال أفضل مما كانت عليه في أيام نلسون - وولنجتون، وعلينا أن نتصور أسلافنا الأنجلوسكسونيين وهم يستخدمونها في الحرب والتجارة.

على أن موقعة كبيرة كان لها شأن عظيم. التقى الملك آثلستان بجماعات من الدانماركيين والبقط[1] والإسكتلنديين الذين تضافروا عليه وهزمهم بعد موقعة احتدمت من شروق الشمس إلى غروبها. حدث هذا في «برونانبورة» وهذا اسم نجهله في الوقت الحاضر يغلب علي الظن أنه اسم «بيرنز» الواقعة على السور الروماني بالقرب من مصب سولوي. ولقد كان الفنانون الإنجليز الذين يعزفون على القيثار يتغنون بتلك الموقعة، «أغنية برونانبورة»:

لقد فلقوا السور السميك التحصين. حرقوا تروس خشب الزيزفون بنصال مطروقة. إن أبناء إدوارد -بسجية شعبهم النبيل الذي يهرع إلى القتال- قد حاربوا أعداءهم جميعًا من أجل أوطانهم ومدافئهم وبيوتهم. فسقط الأعداء. سقط

(١) البقط أو البكت: قبيلة استوطنت بريطانيا قديمًا.

المحاربون الإسكتلنديون وجوابو البحار سقطتهم المحتومة. واشتد السكسون الغربيون في حملتهم طوال اليوم يطاردون، في ضراوة، أعداءهم المقيتين زرافات زرافات.

وكما كان جوابو البحار الإغريق يتغنون بطروادة، تَغَنَّى الإنجليز الطروبون بالمواقع التي حاربها ملوكهم. لقد كانوا يغنون في البهو بعد الوليمة بينما أميرهم ورجاله يصغون إلى صنائع أسلافهم. وقد غاب عنا أغلب الأغنيات. وكان القديس دانستان قد جمع الكثير منها ليستمتع بها لشخصه ولكن تلك أيضًا قد ذهبت مع غبار الدهور.

مدنية عربية:

بعد ما استقر القراصنة (الفايكنج) وأخلدوا إلى الزراعة والتجارة وبعد ما اعتنقوا المسيحية، تضاءلت همجيتهم وأصبحوا شعب سلام كجيرانهم. وكان كانيوت واحدًا من أعاظم قوادهم، وهو الذي أمسى ملكًا على النرويج وإنجلترا. كان مسيحيًّا وأحسن الحكم واكتسب طاعة الإنجليز وولاءهم. وأخذ أولئك المغيرون من القرصان الذين استوطنوا نورمانديا يضعون أنفسهم في مقدمة فرسان الغرب المسيحيين.

وكان تحول القراصنة (الفايكنج) عن دينهم ميسورًا على خلاف شأن المسلمين. ولقد استمرت الحرب بين أولئك وبين المسلمين في الشرق وفي إسبانيا. وتصدى جنود الإمبراطور الإغريقي المقيم في القسطنطينية ونبلاء إسبانيا المسيحيون لحماية جناحي النصرانية. وتكررت التوقفات والمهادنات والمصالحات، بل جرى في بعض الأحيان تبادل التجارة والصداقة بين الطرفين، ذلك أن خيار العرب كانوا متمدنين مهذبين. ودرج عديدٌ من المسلمين والمسيحيين على احترام بعضهم بعضًا وعلى أن يتعلم كل منهم من الآخري، وطالما صنع الخصوم ذلك، غير أن الخصومة

الدينية كانت تكمن دائمًا وهي على استعداد للظهور في حرب علنية.

وقد نجم عن فتوحات العرب المذهلة أن المدنية الإغريقية والرومانية في الشرق قد دانت لهم وباتت بين أيديهم. ووجد من خيارهم علماء نجباء وحكام حكماء لم يترددوا في اتخاذ بعض علماء اليهود والنصارى مستشارين لهم. وكان أحد هؤلاء: هارون الرشيد الذي حكم بغداد والذي نعرفه على أنه خليفة ألف ليلة وليلة، وكذلك كان منهم الخليفة عبد الرحمن (الناصر) الذي حكم في الأندلس.

ولقد قامت -في وادي النهر الكبير الجميل، بإسبانيا المغربية- مدينة قرطبة عاصمة مُلك عبد الرحمن، وهي مدينة الأحلام التي تمتاز بالقصور المرمرية والمساجد المتألقة. وقد حوت حمامات عامة (تمامًا كما حوت المدن الرومانية) ومكتبات ومدارس. وكانت شوارعها تضاء ليلًا وتبردها نافورات وقنوات يجري فيها الماء ويسري أريج حدائق الفاكهة والزهر، وكان المغاربة يحذقون زراعتها وزراعة الحقول، فزرعوا الكروم والأرز والقطن وقصب السكر وأدخلوا زراعة الزنجبيل والبلح والموز والتوت والمشمش.

كان العرب علماء، إذ درسوا الكيمياء والطب، ونقلوا كل الكتب التي عثروا عليها وترجموا الكثير منها عن الإغريقية القديمة. ويقال إن مكتبة الخليفة حوت ستمائة ألف مجلد. وقد وضع العلماء العرب كتبًا في الملاحة والجغرافيا، ودرسوا الرياضة. وآية ذلك أننا ما زلنا نطلق على قسم من العلوم الرياضية اسمًا عربيًا هو «الجبر». وقد استعملوا الأرقام العربية (الهندية الأصل) بدلًا عن الأرقام الرومانية القديمة، كما أنهم برعوا في علم الفلك. ونحن لا نزال حتى اليوم نسمي النجوم بالأسماء التي أطلقها العرب عليها مثل. بيت الجوز (أصله بيت الجوزاء وأكدبران (ويسمى أحيانًا: نير الثور). وتعاليم القرآن الشديدة التحفظ لا تقر الموسيقى الخليعة، غير أن الخليفة والمغاربة كان يبتهجون بها وبالشعر ومنهم تعلم مسيحيو إسبانيا قرض القصص الشعرية وقصائد الحب وإنشادها، تلك التي اقتبسها فيما بعد

منشدو الغناء المتجولون في جنوب فرنسا.

هذا أسلوب حياة وتعلم محبب إلى أقصى حد. حدث ذلك في القرن العاشر وقتما كانت إنجلترا ميدان قتال للدانماركيين والسكسون ووقتما كانت مدارس أوكسفورد وباريس بعيدة الورود حتى على الأذهان. أما قرطبة في عهد عبد الرحمن (الناصر) فقد وفد عليها علماء مسيحيون ليغتنموا الحكمة عند أقدام أساتذة مسلمين. وفي الحق أن القسطنطينية كانت هي المدينة المسيحية الوحيدة التي قد تقارن بقرطبة. بل إن روما القياصرة العظيمة نفسها كانت لا تزال مكانًا نصف مخرب تعشش الطيور في أبنيته العتيقة المتفتتة.

ومع أمور كتلك، ورغم فترات السلام والألفة فإن المسلمين والمسيحيين لم يستطيعوا أن يتعايشوا زمنًا طويلًا من دون أن يصطرعوا. واشتعلت حرب الصليب والهلال، الموسم تلو الموسم، أجيالًا، على التخوم. والجبال الوسطى في إسبانيا لا تزال تحمل اسم كستيل (قشتالة)، ومعناها أرض «القصور» المحصنة أي المعاقل، وذلك بسبب تلك الحرب الطويلة الأمد.

واحتجبت في الأيالات الإسلامية -التي امتدت من إسبانيا عبر أفريقيا الشمالية إلى سوريا وبلاد الفرس- احتجبت جماعات دينية مسيحية كان الخليفة يتركها وشأنها ما دامت تدفع الجزية، وكانت المهادنة الحربية الطويلة المدى في حيز الإمكان. ولكن من دواعي الأسف الشديد لدى المسيحيين أن الأماكن المقدسة التي قضى فيها المسيح حياته الدنيوية دخلت في حكم العرب، وإن رخصوا للحجاج المسيحيين زيارة بيت المقدس، وكان أولئك الحجاج المسيحيون يعدون بالمئات.

النورمنديون والحروب الصليبية الكبرى:

في خلال القرن العاشر وقتما أخذ ملوك وسكس يستردون المناطق الداخلية ونورذمبريا من الدانماركيين الوثنيين كان ملوك بواسل أخر ينقذون المسيحية من

أعدائها الوثنيين في البقاع الألمانية. فلقد رد الملك السكسوني -هنري صياد الطيور- الدانماركيين في الشمال كما رد النبالة الهنجاريين أي (المجريين) المفترسين في الشرق. وأباد حفيده أوتو الكبير جيشًا مجريًّا كبيرًا سنة ٩٥٥. وقد شارك أولئك الرجال، وسكس، في شرف إنقاذ أوروبا المسيحية، كما تحول الوثنيون المقهورون إلى المسيحية.

وربما تسنى لنا -من تلك العصور المعتمة المحفوفة بالمخاطر التي خيم عليها الرعب الهمجي والضيق والعذاب- أن نتتبع بداية بعض الدول الحديثة: وطَّن الملوكُ الألمان جنودًا في التخوم أو «الحدود» لحماية ممالكهم. وكانت واحدة من مستعمرات الحدود وهي: (حدود الدانماركيين) أي الدانمارك وثانية - وهي الحد الشرقي منشأ النمسا، وثالثة -وهي الحدود السلافية- البداية الباكرة لبروسيا.

وقد رأينا أن شارلمان -ملك الفرنجة- قد لقب بـ «الإمبراطور الروماني المقدس» لأنه كان حامي حمى المسيحية وأنه لهذا كان، على صورة ما، خليقة الأباطرة الرومانيين. ثم إن أوتو الكبير لقب نفسه بمثل ذاك اللقب وتوج بروما -في أبهة- إمبراطورًا رومانيًّا مقدسًا، في سنة ٩٦٢. ومنذ تلك السنة جرت العادة دائمًا على ألا يحمل اللقب إلا أمير ألماني. وكانت الأصقاع الألمانية، بالإضافة إلى شمال إيطاليا، هي التي تكونت منها الأملاك المستقلة التي أطلق عليها اسم: الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وظل هذا النظام قائمًا إلى سنة ١٨٠٦ في عهد نابليون. وعلى هذا تكون الإمبراطورية المقدسة قد دامت نحوًا من ٩٠٠ عام! وبذلك يكون ما حدث في القرن العاشر قد ظل ذا بال قرونًا طويلة بعد.

وفي القرن الحادي عشر تبدلت إنجلترا تبدلًا كبيرًا غيَّر مصاير الجزيرة ومصاير العالم. وبدأ سليلو رجال الشمال مغامراتهم المفزعة. واعتنقت المسيحية تلك العصاباتُ من الذين سبق لهم استيطان ساحل فرنسا (أرض الفرنجة) في سنة ٩١٢ والتي أسمت المكان باسمها -نورمانديا- وحدثت المعجزة وأضحوا أقدر الحكام

والجنود، وفتحوا أكبر جزيرتين في أوروبا.

أما كيف عبر الدوق وليم النورمندي المضيقَ في سنة ١٠٦٦، وكيف هزم الملك هارولد جودونسون في معركة عن كثب من «شجرة التفاح الشيباء الرمادية» بالقرب من هيستنجز، فهذه قصة كثيرًا ما تتردد على الأسماع. ولم يقتصر وليم على فتح إنجلترا بل عمد إلى توزيعها كلها على أمرائه (باروناته) بل وضع لها دليلًا إحصائيًّا وصف فيه أرضها وثروتها تمامًا كما قد يفعل امرؤ حاز ضيعة جديدة. وما يزال بين أيدينا ذلك الدليل الإحصائي المسمى «كتاب يوم الحساب». وقد جعل وليم الفاتح هذا وخلفاؤه، من إنجلترا، حكومة ملكية هي أقوى مما عرفته أوروبا كلها منذ الأيام العظيمة التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية. وقد نجم عن هذا الفتح أن سكان إنجلترا ظلوا -مدةً تربي على الثلاثمائة عام -يتكلمون لغتين «فالملك والحاشية والأمراء ورجال الكنيسة يتكلمون اللغة الفرنسية النورماندية، وأرباب المهن والفلاحون يتكلمون الإنجليزية. ومن ائتلاف هذين اللسانين تولدت لغة الكلام الحالية في إنجلترا وفي الدنيوين الجديدتين أمريكا وأستراليا.

أما الجزم بأن غير هؤلاء من النورمنديين قد فتحوا صقلية فقلما يتردد على الألسن. تملكت حفنة من مغامري النورمنديين -بزعامة روجر دي تفيل- كل جنوب إيطاليا وصقلية وجعلوا منهما مملكة نورمندية قوية (١٠٥٠ -١٠٩٠). وقد سكن جزيرة الخصومات القديمة تلك، سلالات شعوب عديدة: من القرطاجنيين والإغريق والرومان والعرب. وأمست صقلية -تحت حكم النورمنديين- بقعة من أكثر بقاع العالم الغربي تمدنًا وتهذيبًا وباتت ملتقى التجار، وكان ذلك أجلّ مزاياها.

وفي هذا القرن الحادي عشر نفسه ارتفع شأن شعب آخر وقويت شوكته. فلقد جعل الأتراك السلجوقيون الوافدون من آسيا الوسطى أنفسهم سادة على بلاد الفرس، واعتنقوا الدين الإسلامي وتزعموا المسلمين في الشرق. وما هو إلا القليل حتى بدأوا يهددون أملاك الإمبراطور الإغريقي المسيحي الموجود في القسطنطينية.

وهم لم يوهبوا فن الحكم ولكنهم كانوا أشداء شجعانًا بارعين في فنون الحرب. وقد جاؤوا تمامًا وقتما كان المسلمون والمسيحيون في سبيل الاستقرار والسلام. ثم إنهم جاؤوا وقتما كانت جموع من المسيحيين الغربيين يحجون أرضهم المقدسة ليتعبدوا في أماكنهم المقدسة.

وقد أهاب الإمبراطور الإغريقي في القسطنطينية بمسيحي الغرب أن يخفوا إلى مظاهرته على الأتراك. واستصرخهم البابا أن يتطوعوا لينقذوا بيت المقدس ممن أسماهم هو بالكفار. فانطلق في الحال إلى بيت المقدس، أول فوج من المتطوعين يقودهم فارس لقبه وولتر المفلس. وكان أكثرهم من الفقراء، ولم يكونوا على أهبة الاستعداد. وفي سنة ١٠٩٥ هلك –بعد أن كابد العنت والضنك –من استطاع منهم أن يصلوا إلى آسيا الصغرى، وكانوا بقية قليلةً العدد.

وفي السنة التالية التقت في القسطنطينية، أربعة من جيوش الفرسان الآتية من الغرب بقيادة أمراء فرنسيين بينهم جود فروا دي بويون –وريمون دي تولوز –وروبير دي نورمندي وكذلك نورمنديو آل هوتفيل الجموحون –ويوثمون –وتانكريد. عبر أولئك –تحت الرايات الصليبية، وفي أبهة دروع الزرد –عبروا البوسفور إلى آسيا الصغرى– ومن ثم ساروا محاربين شرقًا وجنوبًا. وهم يكابدون الجوع والعطش والمرض والجراح والموت. واستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة شهور. وبعد قرابة أربعة أعوام من بداية الحرب شق من بقي منهم طريقه عبر جسر خشبي أُرخي من برج حصار عال فوق معاقل بين المقدسْ وبعد أن استولوا على المدينة أعملوا الذبح لا تأخذهم فيه رحمة ولم يستحيوا الشيوخ أو النساء. ثم عرضوا المُلك على جود فروا فأبى قائلًا: «لن ألبس تاجًا من الذهب حيث لبس مخلصنا تاجًا من الشوك». ولقب نفسه بلقب «حامي اللحد المقدس» غير أن أخاه بودوان الذي خلفه توج ملكًا. وهكذا تأتّى لهذه الحرب الصليبية الأولى والكبيرة أن تقيم مملكة مسيحية في بيت المقدس وفي دوقيات وولايات مسيحية أخرى في فلسطين.

وما تزال أنقاض المعاقل الجسيمة التي بنوها قائمة، في عظمة شاحبة مقفرة، على الشاطئ أو على التلال المتاخمة للصحراء القائظة. ولقد كانت أبهاؤها الخاوية التي فقدت سقوفها، كانت مقر الولائم والمثاقفات (أي المبارزات والمنازلات بالعصي أو السيوف) في المناسبات التي فيها كان الأمراء يجيِّشون الجيوش من عامة الناس ويخرجون للقاء الأتراك المغيرين من الحدود الصحراوية. وقد فني كثير من الصليبيين في تلك المعارك التخومية المستوفية العتاد تحت أشعة الشمس الحارقة، كما أن المرض أهلكهم. وكان عليهم أن يواصلوا الإمدادات والتعزيزات لكي يحتفظوا بقوتهم.

وكان أخص مصادر العون جماعتان صليبيتان شهيرتان من «الرهبان المحاربين»: الداوية أو فرسان معبد سليمان وفرسان القديس حنا، ببيت المقدس، الذين نذروا حياتهم للمسيح متوسلين إلى ذلك بمحاربة العرب. إلا أن الولايات الفلسطينية المسيحية أعوزها مجندون من الغرب.

وفي سنة ١١٤٧ أخفقت حرب صليبية أخرى بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور كونراد، وذلك نظرًا للنزاع بين قُواد الحملة. ووجد الأتراك جنديًّا محنكًا وحاكمًا عبقريًّا في شخص صلاح الدين الذي أباد جيش فرسان المسيحيين في معركة عند قرني حطين. ونكب المسيحيون نكبة فادحة إلى حد أن صلاح الدين استعاد مدينة بيت المقدس ذاتها.

وقد جر هذا إلى حرب صليبية ثالثة وكانت مغامرة ملكية كبيرة بقيادة إمبراطور وملوك فرنسا وإنجلترا. وقاد الإمبراطور المسن فردريك بارباروسا -وهو في السادسة والستين من عمره- أمراءه الألمان بطريق البر إلى القسطنطينية، ولكنه غرق في حادثة وقعت له في نهر صغير في آسيا الصغرى. وقام فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ونورمنديا، بطريق البحر. واستهدف ريتشارد الاستيلاء على عكا الواقعة على شاطئ فلسطين غير أن النزاع الذي فشا

أحبط أي تقدم جديد.

أما الحرب الصليبية الرابعة فكانت فضيحة. استأجر قُوادها في سنة ١٢٠٤ سفائن من البندقية لكي تنقلهم إلى القسطنطينية. ولم يكد الصليبيون يبلغون تلك المدينة حتى استولوا عليها فعلًا وأحكموا السيطرة على أصقاعها واستقروا هنالك على أنهم حكام وأمراء في الإمبراطورية اليونانية المسيحية. ويبين ذاك الهجوم -الذي شنه المسيحيون اللاتين على المسيحين اليونانيين- يبين إلى أي حد قسم المسيحيةَ الخلاف بين الكنائس الرومانية واليونانية ومدى الحب القليل الذي ضاع بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب، كما يبين إلى أي درك هبط التحمس للحرب(١).

باءت الجيوش الصليبية بالخسران المبين وضاع هباءً كل ما بذلته من عناء وجهد شديدين. ولم تعد إلى المسيحيين قط المناطق التي استخلصها المسلمون منهم في القرن الثامن، فهي لا تزال لهم حتى اليوم. غير أن شعوب الغرب انتفعت أيما انتفاع من التجارة التي انتعشت، إذ إن الحرب والتجارة كانا يسيران جنبًا إلى جنب. وكان أكثر المنتفعين تجار البندقية الذين رفرف الغنى والترف والتوفيق على جمهوريتهم البحرية التي «زفَّت إلى البحر». فلقد كانت التوابل وأقمشة الشرق المنسوجة تمر بمستودعات البضائع في البندقية التي هي المعبر إلى المسيحية الغربية. وكانت البندقية -في مدى قرون- دولة عظيمة وذلك حتى قبل أن يتجه التفكير إلى مملكة إيطاليا.. وإن مواطن البندقية اليوم ليجد من الأسباب ما يجعله يفاخر بأنه كذلك أكثر مما يفاخر بأنه مواطن إيطالي. نعم إن جميع مدائن إيطاليا انتفعت من انتعاش التجارة مع الشرق الإسلامي غير أن أغرب نتائج صلة الشرق بالغرب تُرى في صقلية.

ففي هذه الجزيرة -التي هي ملتقى شعوب كثيرة- استقر إمبراطور روماني مقدس وأقام بلاطه، وكان هذا الإمبراطور فردريك الثاني وهو أحد أحفاد بارباروسا وابن أميرة نورماندية في صقلية. ترك هذا الإمبراطور موطنه الألماني الأصلي يحكمه

(١) انظر شكل رقم -٦- (الدول اللاتينية التي شاركت في الحملة الصليبية).

أمراؤه وأساقفته واختار لنفسه عيشة بالغة الغرابة تحت شمس الجنوب. ولقد وجد لدى أهل عصره إذ ذاك من الأسباب القوية ما يحملهم على أن يلقبوه بـ «أعجوبة الدنيا».

فقد احتفظ بحريم حسب العادة التركية القديمة. وكان يحف به حراس مسلمون. وقد أنشأ حديقة حيوان، ودرج على أن يحمل أمتعته نجائب (أي هجن). وكان هو نفسه عالمًا خبيرًا يتكلم ست لغات بينها العربية، ويحشد في بلاطه علماء الرياضة والفلك والطبيعة، من المسيحيين واليهود والمسلمين. وهو الذي أسس جامعة نابولي. ولقد عرف من أحوال الطير أكثر مما عرفه أي رجل في عصره وكثيرون ممن جاؤوا بعد عصره. ودوَّن كل ما يعرف في كتاب لاتيني عن الباز (أي الصقر) وطالما تهكم على الدين المسيحي وخاصم البابا ولكنه مع ذلك حارب حربًا صليبية! وهو إلى ذلك كله قد استولى على البقاع المقدسة وذلك بعقد معاهدة مع المسلمين الذين سمحوا له بأن يتوج في بيت المقدس!

على أن نتيجة حرب فردريك الصليبية لم تدم طويلًا. وقاد صهره -الذي تشبه بالقديسين، وهو لويس التاسع ملك فرنسا- جيشًا إلى مصر وحاول أن يغزو فلسطين من هناك، ولكن حملته أخفقت. وكذلك أخفقت حملة شنها فيما بعد على تونس في شمال أفريقيا، القديس لويس.

جرت هذه الحوادث في القرن الثالث عشر، وهو الذروة السامقة لما نسميه القرون الوسطى، جرت في السنوات التي وقعت بين نهاية الإمبراطورية الرومانية واستكشاف أمريكا. وقد ظل الناس يتحدثون عن الحروب الصليبية ويخططون لها طوال ثلاثة قرون أخرى في حميّة غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعماء. فلقد كان ملوك الغرب جد منهمكين في محاربة بعضهم بعضًا، كما كانت الحال بين ملوك فرنسا وإنجلترا. وكذلك كان النزاع بين الباباوات والأباطرة دائم الوقوع. ومع ذلك فإن حرب الصليب استمرت فعلًا. ففي إسبانيا حارب المسيحيون بحجة استرداد أراضيهم من المغاربة.

فلقد كانت السفن المسيحية دائمة الرعب من قرصان الأتراك والعرب. وكان أكثر الجنود ولاءً للصليب فرسان القديس يوحنا المقيمون في بيت المقدس. وعندما طردوا من بر آسيا حصنوا جزيرة رودس. وعندما أكرهتهم قوة الترك البحرية، الآخذة في الازدياد، على الجلاء عن رودس ذهبوا إلى جزيرة مالطة وحصونها. وأخذوا -بوصفهم فرسان مالطة- يثابرن على الإغارة على السفن التركية مع صمودهم لكل الغارات. وكانوا جماعة دينية متحدة من فرسان الدول جميعها وكونوا -على صورة ما- ساقة (أي مؤخرة) المسيحية في تقهقرها من الشرق والجنوب.

شؤون الحرب والعبادة: الحصن والكنيسة:

تطرقت بنا حكايتنا عن الحروب الصليبية إلى ذرى القرون الوسطى وهي الأعوام الألف الواقعة بين سنتي ٥٠٠ و ١٥٠٠م.. وإنما سميت كذلك لوقوعها بين مدنية البحر الأبيض المتوسط القديمة والدنيا الجديدة.

وقد ظلت أصقاع الإمبراطورية الرومانية -طوال القرون الوسطى- مقسمة إلى ثلاثة أقسام: كانت هناك إمبراطورية البلقان الإغريقية الشرقية وبلاد اليونان وآسيا الصغرى، يحكمها جميعًا الإمبراطور الإغريقي المسيحي المقيم في القسطنطينية. وكانت هناك الأراضي الغربية وهي فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وإسكانديناوا وألمانيا وأجزاء من إسبانيا، وكلها دول مسيحية كاثوليكية تنظر إلى بابا روما على أنه رئيس كنيستهم، غير أنها جميعًا يحكمها نفر عديد من الملوك والأمراء والنبلاء والأساقفة. ثم كانت هناك أراضي الجنوب والشرق المفقودة: جزء من إسبانيا وشمال أفريقيا كله وفلسطين وسوريا والعراق، يحكمها سلاطين مسلمون.

وهذا التقسيم الثلاثي يظل قائمًا في تاريخ أوروبا من أوله إلى آخره.

ولم يسترد المسيحيون قط الأراضي المفقودة، فيما عدا إسبانيا. وهذا هو ما نعنيه اليوم عندما نقول إن الحروب الصليبية أخفقت. وكان مرد إخفاقها إلى انهماك

الملوك والأمراء الغربيين في محاربة بعضهم البعض.

وطالما زحف القياصرة الألمان -أو «الأباطرة الرومان المقدسون» الذين حكموا جماعة وفيرة العدد من الأمراء والنبلاء الألمان- طالما زحف أولئك القياصرة على إيطاليا مطالبين بسيادتهم على المدائن الإيطالية الموجودة في تلك المناطق. وطالما حاربت المدن الإيطالية والنبلاء الإيطاليون بعضهم البعض. لقد كانوا يحبون المعاركة ويحاربون ابتغاء الأرض أو الثأر. وكثيرًا ما اشتبكت إنجلترا وفرنسا في حرب. وأكثر ما وقع ذلك، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، هذا إلى درجة أن حملات إدوارد الثالث وابنه وحملات هنري الخامس وإخوته يسميها المؤرخون «حرب المائة عام» (وقد وقعت على وجه التقريب بين سنتي ١٣٥٠ و ١٤٥٠).

وكانت تلك هي الحملات التي فيها قهر إدوارد الثالث جيشًا فرنسيًّا في كريسي وقهر هنري الخامس جيشًا آخر في آجينكور. غير أن الجنود الإنجليز ظلوا سنوات طويلة ينهبون ويدمرون الريف الفرنسي، في جماعات من الرماحة والنبالة يقودهم رؤساء مستقلون أي غير تابعين لأحد. وانتشرت أمثال تلك الجماعات المستقلة في إيطاليا بل في إسبانيا مغتصبين كل ما أعجبهم أو مؤجرين أنفسهم للنبلاء والمدائن. وفي ذلك الوقت احتفظ ملوك الإنجليز ببلدة كاليه على أنها مركز حربيٌّ أماميٌّ محصن عبر المضيق. وانتهت الحرب الطويلة... بقهر الجيوش الإنجليزية الملكية التي طردت من فرنسا. ويرجع أكبر الفضل في ذلك إلى الإلهام المذهل الذي أوحت به إلى الفرنسيين عذراء أورليان، جان دارك.

ومن بين الحروب الغربية كلها، أخلفت حرب المائة عام تلك، على أهل الريف التعساء الذين كابدوا أشدَّ المكابدة من النهب والقحط، هذا إلى درجة أن عصابات من الفلاحين ثاروا ثورة شعثاء فقمعوا في أشد قسوة حتى على يد ساداتهم. ذلك أن الحروب في القرون الوسطى لم تكن حرب أمة على أمة ولكن حرب جيش إقطاعي على جيش إقطاعي.

والحكومة الإقطاعية كانت شيئًا في غاية البساطة. كان الملك أو الأمير يخلع الأرضين على أمرائه وفرسانه مقابل حلفانهم يمين الولاء له وخدمتهم إياه في الحرب -إذا استدعاهم- لمدة أربعين يومًا في كل عام على نفقتهم. ويتوقف عدد المجندين الذين يستجلبونهم معهم على مقدار الأرض التي تكون في حوزتهم. وعلى ذلك يتكون الجيش من رجال فرق مجندة عديدة، كل فرقة تستظل براية سيدها. ومثل تلك الأنظمة يتوقف على الوفاء بالعهد، وكان القسَم الإقطاعي يعد ارتباطًا مهيبًا. وإذا حدث أن قيصرًا ألمانيًّا خاصم البابا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا فإنه يستدعي تحت رايته كل أمرائه ونبلائه الألمان الذين يركبون ويدخلون معسكره مع تابعيهم. وإذا أعلن ملك إنجليزي -مثل إدوارد الأول- الحرب على ويلز فإن أمراء المملكة من نورذمبرلند إلى ديفون يدخلون تشستر أو شروزبري راكبين مع مجنديهم الإقطاعيين من الرماحة والرقباء (قواد العشرة) وحاملي التروس والنبالة، ينظمهم المشير العسكري للملك شخصيًّا الذي يختار من كبار الأمراء. وإذا أعد إدوارد الثالث أو هنري الخامس العدة لغزو فرنسا فإن الأمراء ورجالهم كانوا يحتشدون في ساندوتش أو في سوذا مبتون ليستقلوا السفن مستظلين راياتهم الكثيرة ليعبروا المسافة القصيرة في البحر. وكان يحدث أحيانًا أن أسقفًا -كأسقف ديرهام العظيم- يستدعي رجاله لمحاربة الغزاة الإسكتلنديين. كما كان يحدث أحيانًا أن بلدة غنية، كلندن أو بريستول، تجند جماعة قوية من رماة الأقواس الطويلة في خدمة الملك من بين صناعهم وتلاميذ صناعهم. على أن الأقواس الطويلة لم يكن يصلح لحملها غير أولى القوة والعضل المفتول والحذق وكانوا يؤجرون أجرًا عاليًا لقاء خدمتهم.

وهكذا أمسى الفرسان ورجالهم قِوام الحروب. وكانت الدروع الحديدية أول الأمر -على نحو ما حدث في الحرب الصليبية الأولى- تصنع من سلاسل من الزرد اللدن (أي المرن) تلتصق بالجسم التصاقًا. ولبس الفرسان بعد ذلك دروعًا ثقيلة

مصفحة أي بذلات يصنعها صناع السلاح -في حذق- من صفائح معدنية لتسبك في حذق على مفاصل الكتف والمرفق والركبة. ولم يحلَّ القرن الخامس عشر حتى كان الفرسان يغلفون بالمعدن تغليفًا كاملًا من قمة الرأس إلى إصبع القدم. بل إن خيلهم نفسها كانت تلبس دروعًا. وكانت خيلهم هذه في واقع أمرها أقرب إلى خيل الأقاليم منها إلى مطايا الفرسان في العصر الحديث. وكان تقدم الفرسان الثقيلي التسلح عملًا خطيرًا. ويمكن تمثيل التغيير بصورتين متباينتين: الأولى لفرسان الصليبيين في دروعهم الزردية يتسلقون برج المعقل ليصعدوا في جدران بيت المقدس، والثانية لفرسان القرن الخامس عشر في حرب الورد الأهلية الإنجليزية، غير ممتطين جيادًا، في صدام المعركة، مثقلين بدروعهم المصفحة، متعثرين تعثرًا غريبًا عاجزًا يجعل منهم صيدًا سهل القنص.

وهذا الدرع الثقيل المربك -الذي جعل السرعة مستحيلة- أمسى معوقًا إلى درجة جعلته، بعدئذ، مقصورًا على الخوذة وقطعتين لحماية الظهر والصدر، وأحيانًا لحماية الفخذين. وكل تلك -خلا الأخيرة- ظلت تستخدم أجزاءً من لباس الدراغون (وهي كتيبة خاصة من فرسان الجيش الإنجليزي والجنود الفرنسيين المدرعين في ووترلو عام ١٨١٤).

وساعد استخدام المدافع، في القرون الوسطى، على جعل الدروع تفقد بعض قيمها. وأصبحت كلمة «المدفعية» معناها الأسلحة التي تقذف بعد أن كان معناها، في وقت من الأوقات، القوس والنشاب. وكان معناها، في الدنيا القديمة: المنجنيقات التي تطوح أحجارًا جسيمة على أسوار المدن. وفي حرب المائة عام استعمل البارود لقذف أكر مستديرة من الحجر من مدافع صنعت من الزهر المسبوك، أكر قد تصيب وقد تخطئ. وقد ورد في المسجلات ذكر الجونيس الملكية (وهي طلائع المدفعية الملكية). ولنا أن نستوثق من أن الجونيس كانت تخيف بضوضائها ودخانها بقدر ما تخيف بما تحدثه من ضرر. وكانت أقوى آثارها الناطقة تحدث لدى محاصرة

القلاع والمدائن، إذ إن القذائف المدفعية كانت تحدث بالأسوار ثغرات أو ثلمات. وكانت المدافع يعظم أثرها بوصفها مدفعية حصار بنسبة ما كانت تصيب من تحسين تدريجي.

وفي زمان الإمبراطورية الرومانية كانت المدن تسوَّر، وعندئذ كانت المعاقل تبنى على طول التخوم. وفي القرون الوسطى كانت المعاقل تتكاثر في كل مكان. وكانت أسوارها الجسيمة تبنى بحيث تصمد لمحاصرات طويلة، كما كانت القلاع والأسوار ذوات الزوايا تشرف على المداخل والمشارف. وبهذا يتسنى لرماة السهام والنبال أن يصيبوا مقتلًا من المغيرين. وكانت السلالم الحلزونية -التي يسهل الدفاع عنها أكثر مما يتيسر الهجوم منها- توصل إلى الطبقات العليا وإلى السطوح. وكان خندق الماء يجعل الهجوم المباشر بالغ الصعوبة. ومن وسائل الهجوم إذ ذاك قذف حزم من الأماليد[1] أو الاندفاع بها إلى أن يمتلئ الخندق. وتكون تلك عملية كريهة عندما تصوب النواظر الحادة، نشابًا يناهز المتر طولًا، إليك من الكوات الطويلة الضيقة المفتوحة في الأسوار السامقة. وكان الاستيلاء على المعاقل يقتضي وجود سلالم متنقلة وأبراج للحصار ومنجنيقات للقذف ومدافع. والمعاقل آمنة في الأغلب ما لم تباغت. وقد روعي احتواؤها على مخازن وإصطبلات ومعسكرات للحرس كما روعي احتواء المبنى الرئيسي على مطابخ ومخازن لحفظ الأطعمة ومستودعات للمعدات الحربية وغرف للنوم وبهو كبير وكنيسة صغيرة. وكذلك، في مكان ما من الساحة، يقوم مصنع للحدادة، وفي مكان آخر يوجد بئر يحميه، غالبًا، برج يرفع من فوقه. وكثيرًا ما كانت تبنى الأبراج بحيث يتسنى لكل منها أن يحمي نفسه محليًّا أيًّا كان مصير سائر الأبراج. وهكذا يكون الاستيلاء على المعقل الواحد سلسلة من المحاصرات. وما يكاد الجسر المتحرك برفع والعدو يظهر حتى تصبح الحياة في المعقل خشنة حذرة. ولكن في أيام السلام لا شك في أن الحياة كانت مرضية إلى

(١) الأملود أو العسلوج: شجر مرن الأغصان يشبه الصفصاف.

حد كاف. وفي المعقل رفاق عديدون، إذ إن المعقل كان أكثر من مثوى محصن للأمراء أو للفرسان، فلقد كان يأوي مجتمعًا كبيرًا من الناس يحميهم ويطعمهم.

وقبل غزو النورمنديين لإنجلترا كانت المعاقل تقام من الخشب كما تبنى الخوازيق المحصنة في أفريقيا وأمريكا. وفي الإمبراطورية الإغريقية توارث الناس خبرة التحصين بالحجر عن عهد روما. وعندما ذهب الصليبيون شرقًا تعلموا الكثير عن بناء المعاقل. وبنوا في سوريا معاقل عظيمة كمعاقل أسكليون وكراك دي شيفالييه على حافة الصحراء. وعندما عادوا ارتفعت معاقل مماثلة في جميع أنحاء الغرب. وعلى طول الراين فوق رؤوس الجبال، وعلى مزارع الكروم ارتفعت حصون الأمراء الألمان القوية، حصون الراين لاند التي تقدم خرائبها المزيدَ من المتعة للسياح. ولقد كانت الأراضي الإسبانية غاصة بالمعاقل التي شيدت خلال حرب التخوم، غير المتناهية، ضد المغاربة. وعلى الحد الشرقي لألمانيا وعلى الحد بين ويلز وبريطانيا قامت معاقل التخوم للأمراء الذين درجوا على أن يعيشوا دائمًا في حذر من أعدائهم القدامى والذين كان رجالهم المحاربون يدربون في مدرسة شاقة المنهج. وهذا هو السبب في أن أمراء ويلز المهاجمين ونبلاء الحدود البروسية لعبوا دورًا ذا بال في تاريخ بلادهم. ولقد غصت الحدود الشمالية لبريطانيا بالمعاقل مثل أولنويك –وبيرويك –ونورهام. على أن المعقل كان من مميزات الأصقاع الريفية في القرون الوسطى وكثير من مدائن تلك الفترة. وكان للندن قلعتها الشهيرة التي تحمل اسمها (لندن تاور) ولباريس باستيلَها.

وحكاية الحرب بين بعض الناس والبعض حكاية ينقبض لها الصدر. غير أنها، مع الأسف، حكاية الجنس البشري. وهي ككل الحكايات الإنسانية لها قصص تتحدث عن الفضيلة والتضحية بالنفس كما تتحدث عن آلام لم تُرْوَ قصتها. حكاية القرون الوسطى تتركز في معاقلها. ولم يكن أي ملك أو أي أمير ليستطيع، بطبيعة الحال، أن يكسب حربًا على الإطلاق بمجرد القعود في معقله. أجل، كان عليه أن

ينطلق ويبحث عن عدوه ويشعل حربه في العراء. غير أن من المعاقل كان الملوك والأمراء يحكمون ممالكهم.

في القرون الوسطى كانت الكنائس -كالمعاقل- جزءًا من المنظر الخلوي العام. فلقد وجدت في كل قرية كنيسة. أما البلدان الكبيرة فكانت تحوي كنائس عدة. مثال ذلك نورويك ولندن اللتان تحويان كنيسة في كل قسم من أقسامهما. فكانت أجراسها كلما دقت، تحدث طنينًا من الأنغام على البيوت الصغيرة التي تأتلف تحت أبراجها. وكانت هنالك -إلى جانب الكنائس والأبرشيات- أديرة في المدن وفي الريف، بعضها بني منذ عهد بالغ القدم كما هي حال: فولدا في ألمانيا، وكلوني في فرنسا، ومونت كاسينو في إيطاليا. وقد أقيمت في كل منها مصلاها وكنيستها التي تستطيع العامة أن تتعبد فيها. وهي تشبه المعاقل في أنها استخدمت مراكز للعمل والتسويق. وكانت تنشأ حولها أحيانًا بلدان صغيرة كما هو الشأن في بوري سنت إدموند -وبير تربورا. وكثير من الأسماء في مدينة لندن تذكرنا بالكنائس والبيوت الدينية، مثل ذلك: سنت جيمس، سنت مارتين، ذي تمبل (أي المعبد)، أوستن فرايارز (أي الرهبان)، وستمنستر وما إلى ذلك. وينطبق مثل هذا على مدن أخرى فيها استعارت الأبروشيات أسماءها من الكنائس. مثال ذلك: سنت أنطوان وسان جرمان في باريس.

وتاريخ القرون الوسطى هو، إلى حد كبير، تاريخ الكنائس. فقد ذكرنا برجال من رجالات تلك المملكة الأخرى التي ينتمي إليها الناس وهي مملكة الله على الأرض.

ففي مملكتي إنجلترا وفرنسا العلمانيتين (الدنيويتين) وفي بلاد أخرى كان الحكام الدنيويون الذين يحكمون الناس هم أرباب الضيعة وأمراء الأقليم وأخيرًا الملك: هاري أو فيليب أو غيره من الشخصيات أيًّا كان اسمها. أما في المملكة الروحانية فكان الناس يحكمهم قسيس الأبروشية والأسقف وأخيرًا البابا المقيم في روما.

واندمجت المملكتان كل منهما في الأخرى، لأن الأساقفة كانوا في الوقت نفسه سادة الأقاليم. وذلك لأنهم اقتنوا مزارع على غرار الفرسان والأمراء. ولقد كان بعض الأساقفة -أمثال أساقفة كولونيا ومانيز ودرهام- كان هؤلاء حقًّا هم الحكام يحف بهم أبهة الأمراء وسلطانهم. وما هو إلا أمر يصدر عنهم حتى يهرع الناس إلى التجند وحتى تحتشد الجيوش. ولقد كانت بيوتهم قصورًا تغص بالأتباع وجماعات الخدم. وكان الأساقفة في كل مكان هم مشيري الملك، نظرًا لما امتازوا به من العلم والتجربة والمقدرة. وكان بعضهم من القديسين والبعض من العلماء الأعلام الذين يؤلفون الكتب باللاتينية في الفلسفة والدين والقانون. وكان على كل منهم أن يدبر شؤون ضيعات شاسعة تحوي كنوزًا وتضم الأشراف ووكلاء الخراج.

وكذلك كانت حال رؤساء الأديرة. وقد داوم الرهبان البيندكتيون على اتباع شرائع مؤسِّس ملّتهم. ونقلت جماعات أخرى، معاصرة أو تالية، شريعة هذه الملة مع كثير من التزمت. فكانوا يمارسون المزيد من الصيام أو التأمل أو الصلاة أو الصمت أو ساعات العزلة في صوامعهم. ومن بين أولئك الرهبان اللاحقين بنى السسترشيون بيوتهم في الفلوات. ولذا نجد خرائب أديرتهم في شمال إنجلترا التي كانت إذ ذاك مشتتة السكان والتي حدتهم إلى أن يصبحوا مزارعين يربون الأغنام ويتجرون في أصوافها. وخلّف الرهبان الكارثوسيون -الذين اشتهروا بورعهم العميق- اسمهم في بيت الرخص والبراءات اللندني القريب من سميثفيلد. وذاك لفظ يشبه، بعض الشبه، اسم المكان الذي بدأوا منه: شارتريز (بفرنسا).

وكان الرهبان يلزمون أديرتهم ويتعبدون بمعزل عن دنيا الناس الشديدة الحركة. وقد عاشت جماعة الرهبان -التي أسسها، حوالى سنة ١٢٠٠، الإسباني سان دومينيك والإيطالي سان فرانسيس مواطن بلدة أسبسي- عاشت هذه الجماعة في الدنيا الشديدة الحركة تبشر الناس وتعمل بينهم. وجعلوا شأنهم شأن الرهبان في قطع العهد على أنفسهم بأن يكونوا فقراء وأن لا يتزوجوا وأن يطيعوا رؤساءهم. وقد

حث سان دومنيك أتباعه على أن يبشروا بالإنجيل ويذودوا عن الحق ضد أولئك الذين قد يضلون الناس بتعاليمهم المبطلة الأفاكة. وكانوا يلبسون أردية سوداء. ولقد عرف بيتهم، القريب من النهر في لندن، باسم ذي بلاك فرايرز (أي الرهبان السود). وكثيرًا ما أضحى الدومنيكانيون رعاة الملك الشخصيين أو كهان الاعتراف الأخصاء. وأطلق على بيت آخر في لندن اسم ذي جراي فرايرز (أي الرهبان الرماديين)، نظرًا إلى أن الرهبان الفرنسسكان كانوا يلبسون أردية رمادية.

وكان سان فرانسس يذهب إلى أن الغنى، بل أي شيء يقتنى. يعرض روح الإنسان للخطر. وكان من حواريي الفاقة. فقد هجر ذات يوم، بغتة، متجر القماش الذي يملكه والده وتسول شحاذًا يلبس جلبابًا رماديًّا خشنًا ويسأل الناس الصدقات ليرمم بها كنيسة قديمة خربة في الغابة. وقد خاله الجيران مجنونًا. إلا أن إخلاصه وطيبة قلبه أقنعاهم بأنه ليس رجلًا عاديًّا. ولم يلبث أن جمع فرقة من الأتباع الغيورين أطلق عليهم اسم «الإخوة الصغار» وبث فيهم روح المسيحية التي تنكر النفس وتفيض بالحب. ولم يحدث أن شخصًا -غير من ذكروا في الإنجيل- فاض حبًّا أكثر من حبه ولقد تحدث في مرح عن «الأخت النوم» و «الأخ الموت»، وأوصى بما أوصى به المسيح: «لا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا في مناطقكم ولا مزودًا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية».

وكان حواريوه يمشون حفاة الأقدام يرتلون في مسيرهم ويقيمون على كِسَر الخبز وثمالات الشراب. لقد كانوا أصحاب العالم أجمع وجوالين يتغنون بحب الله للناس. وطالما فتشوا عن أعفن الأحياء القذرة ومذابح الماشية ليسكنوا فيها ويقيموا أكواخهم المتواضعة. غير أنهم -على غرار الفرق المنتقاة من أي جيش- اجتذبوا أقدر المجندين وأشدهم غيرة. وانضم إليهم رجال ألمعيون نالوا بعدئذ الشهرة والثراء. وكاوا يعلمون في الجامعات، وما هو إلا القليل حتى أفسحت أكواخهم المتواضعة المجال لأبنية جميلة من الحجر.

ولقد ألفنا اليوم رؤية مبان عامة من أنواع مختلفة تعقد فيها المجالس والمؤتمرات ليست مع ذلك حصونًا ولا كنائس. أما في القرون الوسطى فقد كانت الحصون والكنائس والأديرة، كانت المباني «العامة» الوحيدة، وفيها فقط كان يستطيع الملك أن يستقبل مستشاريه أو يجمع كبار أمراء مملكته. وكان بهو قلعته الكبير أو بيت إصحاح الكنيسة أو ردهة الدير، هو المخصص لشؤون الحكم في مملكته. وكان مستشاروه -كلهم تقريبًا- من رجال الكنيسة كما كان أغلب أعضاء مجلس اللوردات من الأساقفة أو رؤساء الأديرة.

ومجلس الملك شيء أنشئ من زمن بعيد. ويرجع تاريخه في إنجلترا إلى أيام السكسون. وكان يضم كل من يسرُّ الملك اختياره. وفي القرن الثالث ولد نوع جديد من المجالس، الفكرة الأساسية فيه أن امرءًا واحدًا يستطيع أن يمثل رفاقه، أولئك الذين يماثلونه في المرتبة أو المهنة.

وبما أن كل فرسان البلاد لم يكن من السهل جمعهم، ولا جمع كل مواطني البلدان وكذلك جميع رجال الدين، فقد اقتصر الملك على استدعاء ممثليهم إلى اجتماعات (برلمانات أو مساجلات) في وستمنستر أو أكسفورد أو جلوستر أو أي مكان آخر يتصادف وجوده فيه. وهناك كانوا يجتمعون ويجتمع كبار أمرائهم.

ويكون الفرسان والمواطنون «العموم» أي الشعب، ويكون الآخرون «اللوردات» وهذان اسمان لا يزالان يستعملان إلى اليوم.

وقد درج فرسان كل مقاطعة على أن ينيبوا عنهم فارسين، كما درج مواطنو كل مدينة على أن ينيبوا عنهم مواطنَين كذلك.

وقد درجوا على أن يحملوا معهم شكاوي مقاطعاتهم وبلدانهم التي تتصل بالمظالم. وهذه الشكاوي أو الملتمسات كان يقرؤها رجال الدين الذين يتكون منهم مجلس كهنة الملك. وبهذا يسهل على الملك أن يأمر بسن قوانين تعالج بها الأخطاء والمظالم، وبعد ذلك يطلب إلى البرلمان الترخيص بفرض ضرائب تساعده -في

أغلب الأمر- على الإنفاق على حروبه.

وكان هذا النوع من البرلمانات ينعقد في الشهور الصيفية، ولم يحدث قط أن امتد انعقاده فترةً بالغة الطول. على أنهم لم يستدعوا إلا في الفترات التي كان الملك يحسبها مناسبة. وكان الفرسان والمواطنون يقومون بنفقاتهم الخاصة، وكثيرًا ما وجدوا في الحضور مشقة. ومن النقط التي تجب علينا ملاحظتها: أن الكنائس كانت لها برلماناتها الخاصة التي تسمى بـ «المجامع الأكليروسية» والتي ترخص للملك فرض الضرائب. وفي كل الأعمال البرلمانية كان الأساقفة ورؤساء الأديرة يقومون بأدوار قيادية. في كنائسهم أو أديرتهم أحيانًا.

وكانت برلمانات كهذي، مختلفة الأشكال، تستدعى كذلك في فرنسا وإسبانيا للانعقاد.

وفي الكنيسة كانت هنالك مناسبات عديدة يجتمع فيها المندوبون للمشاورة في بعض الشؤون. أما إنجلترا فهي وحدها التي ظلت فيها البرلمانات النيابية تستدعى للانعقاد حتى يومنا هذا. ولقد نطق إدوارد الأول بالعبارة الآتية: «الشؤون التي تخص الجميع يجب أن يتشاور فيها الجميع». وقد تعود اللوردات الإنجليز ووزراء الملك على هذا، وأسهمت أشياء أخر في بقاء البرلمانات بصفة مستمرة. ولقد أطلق على البرلمان الإنجليزي -في أيامنا- «أم البرلمانات» وذلك لأن أممًا أخرى نقلت عنه. وكان من حسن حظ الإنجليز أن يعيشوا في جزيرة ويفلتوا من الغزو. كان من حسن حظهم أن تكون لهم حكومة ملكية موحدة قوية على رأسها ملوك يؤمنون بالحكومة العادلة القوية. كان من حسن حظهم الظفر بميثاق عظيم للحريات من الملك جون (هو الماجناكارتا) مع تمتعهم بروح الإخلاد إلى القانون.

وقد تصادمت، مرارًا، المملكتان الدنيوية والروحية:

كان البابوات يمتلكون أراضي في إيطاليا وكانوا يحاطون ببلاط كالملوك، وكان للكنيسة نظامها القضائي. وفي بعض الأحيان كان البابوات والملوك يتنازعون نزاعًا

شديدًا. وعندما يحرم البابا من عضوية الكنيسة أحد الحاكمين أي عندما يحكم بأنه خارج على ملة الكنيسة المسيحية، عندئذ يكون رعايا هذا الحاكم في حل من الخروج عن طاعته ويكون في وسعهم أن يثوروا برضاء من الكنيسة، وهذا ما يسبب له أشد الحرج والضيق. وعندما قضى البابا جريجوري السابع على الإمبراطور الروماني المقدس هنري الرابع بالحرمان من عضوية الكنيسة اضطر هذا الأخير إلى أن يستجدي عفو البابا، ولم يحظ به إلا بعد أن عبر جبال الألب وانتظر ثلاثة أيام خارج حصن كانوسا حيث أقام جريجوري. وليس في وسعنا أن نتصور أن أي حاكم عظيم، بل أي رئيس وزارة، يقبل أن يصنع اليوم مثل ذلك.

وقد وقعت أسوأ نتائج مثل تلك المنازعات في القرن الرابع عشر عندما قبض بعض الفرسان الفرنسيين على البابا بسبب نزاع احتدم بينه وبين الملك الفرنسي. ونتيجة لهذا انتقل البابوات إلى أفنيون بفرنسا حيث أقاموا أعوامًا طويلة. ثم حدث أن بعض الكرادلة في روما انتخبوا هناك بابا آخر. وكان من دواعي الخزي والفضيحة لكل المسيحيين المخلصين أن وجد بابوان يدَّعي كل منهما أنه البابا الحقيقي ويتهم كل منهما الآخر. وانتهت هذه الحالة المحزنة آخر الأمر ولكن بعد أن أضعفت احترام الناس للكنيسة.

ورغم كل تلك المنازعات التي يرثى لها شعر المسيحيون فعلًا أنهم جميعًا أعضاء كنيسة واحدة ومدنية واحدة.

ويُرى ذلك بمزيد من الوضوح إذا تذكرنا أنه في القرون الوسطى كان يسع قسيسًا إيطاليًّا أن يمسى أسقفًا في إنجلترا وكان يسع إنجليزيًّا أن يصبح مدرسًا من علماء جامعة باريس. فلقد كانت جامعات الغرب إذ ذاك دولية حقًّا. تضم كل منها طلابًا من جميع الشعوب. وكانت الكنيسة دولية لغتها اللاتينية التي يتكلمها جميع المثقفين.

وكان أحد أسباب التنازع الكثيرة الوقوع: من الذين ينبغي للأسقف طاعته، أهو الملك بوصفه من ملاك الأرض أم هو البابا بوصفه من خدام كنيسة الله؟ ولقد

ترددت أصداء نزاع كهذا في كل مكان بسبب الفاجعة التي أدى إليها: عندما حدث أن هنري الثاني الإنجليزي -وهو ملك سريع الانفعال- خاصم أسقف كانتر بيري توماس بيكيت، تولى أربعة من الفرسان قتل الأسقف داخل الكنيسة بكانتر بيري بفكرة أن هذا (العمل) يسر هنري، عندما حدث هذا أذل هنري نفسه بل ترك رهبان الكنيسة يجلدونه. ثم أمسى مزار بيكيت حرمًا مهمًّا يُحج إليه.

لقد سيطر المعقل والكنيسة على القرون الوسطى. ومهما يكن فقد كان اعتماد الفارس والقسيس والكاهن والراهب على كد الآلاف من المزارعين والصناع المتضعين الذين أقيمت بيوتهم من الخشب والطين. غير أن جميع الناس كانوا عاجزين إزاء القحط والأمراض التي كانت تقضي عليهم قضاء غامضًا. فلقد يصبح المرء مجذومًا ويبتعد عنه رفاقه. وكانت الحياة قصيرة والموت كثير الحدوث. وكان أخوف المصائب التي يخاف الناس: الطاعون أو الوباء الذي لم يتخلف قط فترة طويلة والذي طغى في ١٣٨٤ على كل أوروبا بـ «موت أسود» مبيدًا قرى بأكملها وقاضيًا على شخص من كل ثلاثة أشخاص.

وكانت حماية المعقل وسلوى الكنيسة من الأمور الحقيقية التي تهم أسلافنا. وسنعرف الآن شيئًا من حياتهم، وذلك بالذهاب مع طائفة منهم إلى ذلك المزار نفسه -مزار بيكيت في كانتر بيري- في رفقة جوفري تشوسر أول شعراء الإنجليز.

حجاج من كانتر بيري:

قضى جوفري تشوسري -أحد خدام الملك الإنجليزي ريتشارد الثاني- أيامه في جمع الرسوم الجمركية أو ضرائب الصوف المكدس فوق مراسي السفن على نهر التيمز أو في الإشراف على إصلاحات مباني القصور الملكية وأثاثها. أما الأمسيات فكان يقضيها في إعادة سرد الحكايات القديمة ونظمها شعرًا، وهذا الشعر لا تزال قراءته في متناول أيدينا وإن تكن لغته قديمة الأسلوب إلى حد ما.

وإنا لنقرأ في كتابه «حكايات كانتر بيري» -الذي كتب حول عام ١٤٠٠- صورة لرجال عصره ونسائه الذين كانوا يحجون مزار سنت توماس بيكيت في كانتر بيري، وكانوا حشدًا أكثر تنوعًا مما قد نجده الآن إذا ما قمنا برحلة جماعية. غير أن الحج يسوي بين الناس كافة.

كان على الناحية الجنوبية من جسر لندن في سوثوارك (خان) تابارد.

وقد انطلق الحجاج من فنائه -في صباح يوم من إبريل مطير بهي- انطلقوا جميعًا على ظهور الخيل. ورافقهم هاري بيلي مدير (الخان). ذلك أن صاحب (الخان) في تلك الأيام كان حقًّا مضيفًا يرحب بنزلائه كأنما هم ضيوفه ويجلس وإياهم إلى المائدة. وكان بيلي رجلًا بالغ المرح جسورًا متزن الكلام. وهو الذي اقترح أن كل حاج عليه أن يقص حكاية لتسلية الجماعة وتهوين الرحلة. ووقع الاقتراح منهم جميعًا موقع القبول، وهكذا ظفرنا بالكتاب.

قاد الركب صاحب الطاحونة وما زال يوقع لهم على مزمار القرية حتى زايلوا المدينة. وكان رجلًا جسيمًا غليظ البنية قصير المنكبين عريضًا مكتنز البدن يسعه أن ينفذ من الباب إذا نطحه برأسه. وكان يلبس سترة بيضاء لها قلنسوة زرقاء. وتبعه آخرون، وهناك فارس «بالغ الوداعة كامل الصفات» وكانت صدرته الوقورة الألوان يلطخها الصدأ حيث ضغطت عليها السترة الزردية. الوصيف، ابن الفارس، وهو أعزب ممتلئ الصحة أجعد الشعر يرتدي ملابس مبهجة الوشي، ثم فلاح من الملاك أسمر الوجه يرتدي ثيابًا خضراء ويحمل في حزامه حزمة من نشاب الطاووس وفي يده قوس كبير. وبعده دكتور -في الطبيعة أو الطب- عباءته مصنوعة من قماش أحمر وأزرق سماوي ومبطنة بالحرير، وكان يعرف مسببات جميع الأمراض سواء أكانت «حارة أو باردة أو رطبة أو جافة». وضابط قضائي عالم ذو وجه وقور يلبس أبسط الملابس. وتاجر له لحية متفرعة يلبس قبعة من السمور الفلمنكي وحذاءين أنيقين. وفرنجي صغير خفيف الروح أحمر الوجه أبيض اللحية أو قل إنه فلاح،

بيته «يمطر لحمًا وخمرًا». وطباخ يعرف كيف يقدم «خوانًا مباحًا» طيبًا. وكاهن من أكسفورد -أو طالب- حصانه الصغير نحيل كالجاروف يصرف قروشه الزهيدة على الكتب ثم يحتفظ بها في فراشه. ومراكبي من سفينة البضائع «موديلين» وهي من سفن دار تموث، وهو بحّار سفعته الشمس، يعرف الشواطئ جميعًا من هول إلى البحر الأبيض المتوسط. وقد ركب الآن -بملابسه الخشنة الغزل- ركب حصانه ركوبًا غريبًا كما قد يركب البحار.

وتبع أولئك بائع غفران أصفر الشعر تملأ جرابه صكوكُ الغفران المجلوبة من روما. ثم مُحضر وهو موظف بالكنيسة عمله استدعاء الناس إلى المحاكم الكنسية، وكان مبقع الوجه مبثوره رغم الأدهان التي درج على استعمالها وربما كان مرد ذلك إلى إخلاده إلى الشراب في أغلب الأحيان. وتلاه متعهد عمله توريد الأغذية لإحدى كليات الحقوق. ثم قفَّاه عمدة ذو سترة زرقاء وسيف صدئ إلى جانبه، ثم سيدة هي رئيسة دير أنيقة مهذبة اسمها مدام إجلنتين، وكانت رقيقة الشعور حتى إنها لتبكي إذا رأت فأرًا في مصيدة. وجاءت بعدها سيدة أخرى هي «زوجة صاحب حمام عام» وكانت مرحة جريئة غنية كثيرة الترحال. وقد تزوجت خمسة رجال، الواحد تلو الآخر -وعمرت بعدهم جميعًا، وكان يسعها أن تغزل كما قد يغزل أي غزَّال فلمنكي.

ثم جاء ناسك يحب الصيد أكثر مما يحب الترتيل في المصلى، وراهب درج على الغناء في الحانات يستجدي روادها نقودًا. ثم جاء -على النقيض من هذا- خوري (أي راهب كنيسة) كان يحب جمهوره حقًّا ويرشدهم إلى دنيا الله خير إرشاد. وقد صحبه أخوه وهو حراث.

وفي آخر الموكب جاءت جماعة من صناع المدن: بائع سلع صغيرة (خردوات) ونجار وصباغ ونساج وصانع سجاد، يلبس كل منهم زيه أي البذلة التي يلبسها أرباب حرفته.

ويقدم لنا جوفري تشوسر أغلب أنواع الشخصيات التي يلقاها المرء في القرون الوسطى، بين رجال ونساء. وكان الأمراء الكبار والأساقفة يسافرون ترافقهم -بطبيعة الحال- مجموعاتهم الخاصة من خدام منازلهم. فمثلًا عندما ركب إيرل أكسفورد إلى لندن ليسكن بيته الواقع في واريك لين (حارة) كان يركب أمامه ثمانون سيدًا في حلل ريدنج العفراء ومن خلفه مائة من ملاك الفلاحين يلبسون شارة أكسفورد وهي خنزير أزرق مطرز على ستراتهم. وعندما ركب أسقف هيرفورد إلى لندن احتاجت بطانته إلى واحد وخمسين فرسًا.

أما الملك فكان موكبه الملكي يشمل منادين وسعاة ومجموعات من المركبات الطويلة وكلَّ حاشيته. وكان منظر سير هذه المواكب خلابًا.

ولنترك الآن حجاج تشوسر المرحين يحجلون فرحين، هابطين درب كينت القديم في طريقهم إلى كانتر بيري ولنتحول إلى الكلام عن حياة بعضهم.

الفرسان والشهامة:

دأب الفارس المسيحي على أن يحمي الكنيسة ويساعد الفقير والضعيف، وأن يظهر الشجاعة في الحرب والولاء لسيده المتبوع ويقاوم كل أذى أو ظلم، وأن يكون نبيل السلوك فيتحلى بفضائل الفروسية. والفارس المسيحي يبدأ، أول الأمر، وصيفًا صغيرًا يخدم سيده عند تناول طعامه ويسوس خيله ويرعاها ويحمل أسلحته. فإذا أضحى فارسًا طوق بسيف، وجهز بمنخاسين مذهبين بدلًا عن منخاسيه الفضيين القديمين، وتناول لطمة أو ضربة على كتفه بسيف عارٍ عن قرابه. وفي بعض الأحيان كان يضع أسلحته فوق محراب في كنيسة ويسهر في حراستها طوال الليل. وكان درعه ومعطفه -الذي يغطي وشاح الدرع- يحمل شعاره أو شارته وكان يتخذ لنفسه عنوانًا أو لعله يرثه. وعندئذ يستعد ليثبت أنه فارس صنديد في الحرب أو في ألعاب الخيل الممتازة (البرجاس). وكان يتخذ لنفسه مثلًا أعلى: كبار الأبطال الغابرين من

أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر وشارلمان وآرثر وجود فراو دي بويون.

ولقد كان، قبل كلِّ شيءٍ، فارسًا مسيحيًّا. فكان في أيام الحروب الصليبية الكبرى، «يأخذ الصليب» أي يذهب إلى الحروب الصليبية مع ريتشارد قلب الأسد أو سنت لويس. ومع أن أيام الحروب الصليبية قد انتهت فإنه كان يسعه مع ذلك، إذا أراد أن يحارب الترك، الالتحاق بفرسان سنت جون ومركزهم بيت المقدس، أو يستطيع أن يحارب البروسيين الوثنيين، وذلك بالالتحاق بفرسان السيف في ألمانيا الشرقية. وكانت هناك تشكيلات أخرى من الفرسان أو هيئات من النبلاء أسسها فرسان أو أمراء. فإدوارد الثالث ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام ربطة الساق، وهنري الرابع ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام الحمام، وفيليب الطيب دوق بورجاندي أسس طائفة تحمل وسام الفروة الذهبية. وكانت تلك كلها جماعات زمالة أو إخاء للفرسان، لها قواعدها وجلساتها النظامية ومُصَلاها أو كنيستها الخاصة للعبادة الجماعية.

وكان أهل القرون الوسطى يهتمون كثيرًا بتشكيل جماعات إخاءٍ أو زمالة.

أرباب الحِرَف بالمدن:

وكان هناك نوع آخر من الزمالة، أكثر تواضعًا هو نقابة الصناع. وتضم النقابة كل مواطني المدينة الواحدة الذين يحترفون حرفة واحدة تكون فيما بينهم «السر الدفين». مثال ذلك نقابات صنع الخبز والبيرة والشمع والمصنوعات الخشبية (النجارة). وكانت من أغنى نقابات لندن. نقابة صائغي الذهب الذين درجوا على الاشتغال بأعمال البنوك، ونقابة صناع القماش الذين جمعوا ثروات طائلة من الإتجار بالصوف. وكثيرًا ما كانت نقابات المهن تلك -في لندن وغيرها- يخاصم بعضها بعضًا بسبب نصيب كلّ نقابة في حكم المدينة.

وقد قامت خصومات -في أيام تشوسر- بين البقالين والسماكين وبين تجار

الأقمشة والحرير والسلع الصغيرة (الخردوات).

وكثيرًا ما أدى هذا النوع من المنازعات إلى شغب بين الصناع وتلاميذهم (أي صبيانهم)، شغب ينتهي بتهشيم الرؤوس أو بالعقوبات يوقعها عليهم القضاة.

وكان رئيس كل نقابةِ حرفة ينظم نوع الشغل وساعات العمل. وكانوا يعاقبون أعضاء النقابة إذا قدموا عملًا غير متْقَن أو طففُوا وزنَ البضاعة. وكانوا يكرِهون صانعي الأحذية -إذا أساؤوا صناعتها- على أن يعلقوها حول رقابهم أمام الناس في الأماكن العامة.

وكانت النقابات تحدد أسعار البضائع، وتقوم مقام شركات التأمين وتقدم مساعدات مالية للأرامل واليتامى وأهل المهنة. وكان لكل مهنة زيّ خاصّ بها، وبهو يجتمع فيه أهلُها، كما كانوا يتعبدون جميعًا في إحدى الكنائس القريبة. وكانت بعض النقابات تختار لنفسها قديسًا حارسًا، مثل سنت هيو لصانعي الأحذية. وكانت كل نقابة تشرف على قبول التلاميذ الصبيان الذين كانوا يعيشون في بيوت رؤسائهم سبع سنوات كي يتعلموا أسرار المهنة. وكان الرؤساء يفحصون عن مصنوعات تلاميذهم فحصًا ينتهي، آخر الأمر، بجعلهم رؤساء في أعمال المهنة. نعم، لقد كانوا يصبحون، مثلًا، رؤساء في صناعة الخبز أو الجلد، تمامًا كما قد يصبح بعض المتعلمين «أساتذة في الفنون». وإذا صادف تلميذًا حظ كبير كالذي صادف ديك ويتنجتون فإنه هو أيضًا يتزوج ابنة رئيسه ويصبح محافظًا للمدينة. وكانت في كل مدن أوروبا نقاباتها المهنية.

وكانت في أكثر المدن أسواقها العادية، وفي أقلها أسواقها الموسمية، وتلك أسواق تقام في كل عام من «الأكشاك» أو الظُّلل الخشبية تنصب لمثل ذاك الغرض. ولقد كانت السوق الموسمية لستوربردْج (بالقرب من كمبردْج) تقام سنويًّا وتستمر ثلاثة أسابيع ويؤمها التجار من كل مناحي أوروبا. وكانت توتنجهام تقيم سوقًا موسمية للإوز، وكانت للندن سوقها الموسمية الشهيرة بسوق سنت بارثولوميو،

وتقام تحت الأسوار الكبيرة لكنيسة سنت بارثولوميو. وكان يفتتحها -رسميًّا في كل عام- محافظ المدينة نفسه. وكانت تلك الأسواق تجذب الجماهير كما تجذب، بطبيعة الحال، النصابين والمشعوذين والمنجمين وذاك النوع من الدجالين الذين يقدمون حبوبًا وأدوية تشفي جميع الأمراض. وكانت المشاجرات والمجادلات العنيفة، التي تنشب في تلك الأسواق، تفصل فيها محاكم خاصة تقام على أرض السوق التي كان يطلق عليها اسم مناسب (وهو: دقيق الفطير) ويقصد به: محاكم الأقدام المعفرة. وليس ما نسميه اليوم (سوقًا) غير الجزء المختص بالتسلية في تلك الأسواق السنوية القديمة.

وبدافع حب الأبهة القديم، تستعد النقابات استعدادًا طيبًا: فتسهم كل نقابة في لندن بنصيبها في الرقابة والحراسة داخل الأبواب الكبيرة، إذ لم يكن هنالك عندئذ نظام الشرطة، مع ضرورة حراسة الشوارع خوف اللصوص وحراسةٍ المنازل خوف الحريق. وكان من أفخم ما يرى في منتصف ليلة صيفية «موكب الحرس» لشركات نقابات الحرف يقوم باستعراض عبر الشوارع التي كانت تضيئها المصابيح وتبهجها الأعلام والأزهار، مع إعداد موائد في كل مكان عليها الفطائر وخبز الزنجبيل، وذلك استعدادًا للوليمة التي تلي الاستعراض.

وكانت النقابات المهنية تقدم، في كل صيف، من فوق منصات على عربات نقل كبيرة متحركة تقف في أماكن معينة معروفة -كانت تقدم مسرحيات يستطيع فيها المتفرجون أن يشهدوا تمثيليات متعاقبة. وكانت المشاهد تقتبس من الكتاب المقدس. فكان صانعوا السفن يمثلون سفينة نوح، والصاغة يمثلون «سجود الملوك المجوس الثلاثة للطفل في بيت لحم». وكانت الملابس نفسها تستعمل في كل عام. ولقد درجوا في يورك على أن يُلبسوا يهوذا الأسخريوطي في كل مرة، أردية صفراء، والمسيح فروة غنم بيضاء وخفين أحمرين. وكانوا يظهرون هيرودوس (وهو ملك اليهودية عند ميلاد المسيح) متبجحًا وصخابًا كبيرًا. وكان مشهد نوح وزوجته يمثل

بأسلوب فكاهي. وكانت تمثيليات أرباب المهن أو التمثيليات الدينية تلك، تبرز حكايات الكتاب المقدس أمام عيون الناس الذين لا كتب عندهم تمامًا كما كانت تبرزها الصور والتماثيل المحفوظة بالكنائس. ولقد كان أسلافنا يحبون الملابس المسرحية والتمثيليات بقدر ما نحبها نحن.

رجال القانون ورجال الدين:

كان المشرع الذي تكلم عنه تشوسر ينتسب إلى أحد دور العدالة الموجودة في لندن. وكان رجال القانون -كغيرهم من الناس- يعيشون مع زملائهم في المهنة. وكانت دور العدالة كأنها كليات يسكنونها ويطعمون بها ويدرسون فيها معًا في رعاية أنظمة صارمة. وكانوا يدرسون، بوجه أخص، القانون الإنجليزي. أما في جامعة باريس فكان طلبة الحقوق يدرسون، بصفة خاصة، القانون الروماني. ومن أهم ما تفردت به إنجلترا أن أهلها احتفظوا بنوع من القانون خاص بهم. وكان القانون المدني الروماني يدرس في القارة، وهو أساس كثير من القوانين الأوروبية المعمول بها الآن. وإلى جانب هذين النظامين القضائيين كان هناك نظام قضائي ثالث وهو شريعة الكنيسة التي كانت سائدة في المحاكم الكنسية.

ولا يذكر تشوسر القضاة ولا مستشاري البلاط الملكي ضمن حجابه إذ إن الشخصية العظيمة المهيبة التي هذا شأنها كانت أعلى وأعظم من أن تسير راكبة على ذاك النحو، وإنما كانت لها حاشيتها الخاصة. فقد يرى الأئمة هذه الشخصية جالسة، وحدها أو مع زميل أو اثنين من القضاة، على منصة القضاء يلبسون أردية قرمزية وشعرًا أبيض مستعارًا ولفائف تدثر بها رؤوسهم الحافلة بالعلم. وقد يترافع دكتور القانون في قضيةٍ أمامهم في وستمنستر أو في بلدة ريفية مثل واريك أو نورتش. وعندما يفد المستشارون الملكيون إلى بلدة ريفية، ليحاكموا كل من أذنبوا منذ زيارتهم الأخيرة، يملك الفزع كثيرًا من سكانها إذ إن المستشارين الملكيين كانوا متجهمين شديدي التقصّي.

وإلى جانب دكتور القانون كان هناك كاهن من أكسفورد ضمن موكب الحجاج. وهو ما قد نسميه طالبًا لم يتخرج بعد.

ولم تقم دور القضاء اللندنية مقام الجامعة قط. نعم كان رجال القانون في الخارج يتمرنون في مدارس الحقوق التي تضمها الجامعات كما في باريس، أو بولونيا وساليرنو في إيطاليا. ولم يكن في إنجلترا غير جامعتين هما أكسفورد وكمبردج. أما في أوروبا فكانت فيها جامعات كثيرة، اشتهر بعضها بالتخصص في بعض الدراسات: ففي بادوا مثلًا كانت هناك مدرسة طب قصد إليها كثير من الإنجليز للدراسة فيها. ولم تكن الجامعة إذ ذاك مبنى أو مكانًا ولكن كانت هيئة من المدرسين والطلاب. وكان من المألوف بين الطلاب أن يتنقلوا من جامعة إلى جامعة للدراسة على أساتذة ذوي شهرة. وكان أولئك الطلاب الجوابون، من الشباب الذين يتدفقون حيوية وأغلبهم من الفقراء الخليين من الهموم.

وكان يحصلون على ترخيص من أحد الأساقفة ليتلمسوا طريقهم. وما يزال بين أيدينا كثير من الأناشيد اللاتينية التي كانوا ينشدونها وهم يدبُّون في الطرقات أو يجلسون في الحانات المترامية على جانبي الطريق.

والأصل أن يكونوا من الكهنة أو خدام الدين ثم يتدرجون حتى يصبحوا من القساوسة. وبما أنهم كانوا الوحيدين الذين يعرفون كيف يقرأون ويكتبون اللاتينية (وهي أهم ما كان يستعمل في الكتابة من لغات) فقد كان كل من يستطيع أن يقرأ أو يكتب يسمى كاتبًا. وعلى ذلك بقي لفظ «الكاتب» إلى يومنا هذا يطلق على كل من يكسب عيشه من الكتابة، وكان أغلب قراءاتهم وكتاباتهم يتصل بالدين. وكان أسمى ألوان الدراسة: علم «اللاهوت» أو دراسة كل ما يتصل بالله. وكانت هناك -إلى جانب الكتاب المقدس، وهو الكتاب التي ترجمه سنت جيروم قبل القرن الرابع بوقت طويل والذي سُمِّي بالـ «فلجيت» أي النسخة اللاتينية للكتاب المقدس -كانت هنالك كتب كثيرة كتبها أساقفة المسيحية الأولون مثل سنت كلمنت وسنت

أوجستين. وكان أولئك يلقبون بآباء الكنيسة. ثم كانت هنالك الكتب اللاتينية التي وضعها عظماء مدرسي الجامعات، وأعظمهم جميعًا سنت توماس أكيناس. كما ترجمت إلى اللاتينية كتب أرسطو الإغريقية القديمة. غير أن الترجمة لم تكن على خير وجه. ومع هذا فقد أحلت تعاليم أرسطو محل الاعتبار الكبير لأنها حكمة كبير فلاسفة الدنيا القديمة. وقد وصلت إلى المسيحيين بعض المعلومات عن مؤلفاته عن طريق الترجمة العربية التي قام بها علماء من المسلمين.

وكان بعض العلماء يدرسون الفلك الذي كانوا يزعمون أنه ينبئ بالمستقبل من واقع حركات الكواكب والأبراج. وقد حاول البعض أن يوجد «حجر الفلاسفة» (أو حجر الكيمياء) الذي يحول المعادن الرخيصة إلى ذهب. وقد درس نفر قليل جدًّا من العلماء -مثل الكاهن روجر بيكون الذي تخرج في أكسفورد -درس البصريات والعلوم الرياضية دراسة جدية. وكان كثير من العلماء العرب يجيدون العلوم الرياضية. وكان أشد ما يعوق الدراسة -بطبيعة الحال- صعوبة الحصول على الكتب لأن كل كتاب كانت تنبغي كتابته باليد من أوله إلى آخره.

وكان أحد معوقات التقدم العلمي ذيوع اللاتينية في كل الأغراض، وكانت لغة أهل العلم جميعًا. وكانت القداسات الكنسية يُنطق بها ويتغنى بها باللاتينية. وكذلك كانت تُعلن بها البلاغات الملكية. وكانت البراءات (الرخص) والقوانين تُكتب بها. وقد استعملها أهل العلم في مجادلاتهم، كما كُتب بها بعض الكتب النفيسة مثل «محاكاة المسيح» لمؤلفه توماس كمبيس. غير أنه عندما يستخدم أهل العلم جميعًا لغة غير لغتهم الأصلية فليس لنا أن نأمل ظهور كثير من الكتب العظيمة.

ولكن حول سنة ١٤٠٠ وجدت طائفة آخذة في الازدياد من الكتب التي تتصل بالعبادة والقصص والشهامة ومن الشعر، مكتوبة باللغات التي كان يألفها ويتحدث بها غرب أوروبا. وكانت هنالك دائمًا قصص شعرية وأغان. وما يزال بين أيدينا قليل مما خلفه لنا هذا النوع. غير أنه لم يكن بد من فقدان مجموعة كبيرة منه. ولكن

حول نهاية القرن الرابع عشر وجدت كتب باللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية. فهناك، بالإيطالية، ملحمة دانتي «الملهاة[1] الإلهية» التي تحوي مشاهد من الجحيم والمطهر[2] والجنة. وهناك، بالفرنسية «الحوليات» التي كتبها جان فرواسار عن فرسان فرنسا وإنجلترا في حرب المائة عام. وهناك، بالإنجليزية «قصص كانتر بيري» تلك التي وضعها جيوفري تشوسر والتي سبق الكلام عنها.

وقد طويت في مكتبات بعض الأديرة كتب قديمة كتبت باللغتين الأنجلوسكسونية وبالفرنسية القديمة اللتين لم يقرأهما أحد. وهناك براءات (رخص) وقوانين أنجلوسكسونية قديمة كانت مخبأة في علب وصناديق من الخشب البلوط (القرو). ونحن نعرف تلك الأشياء الآن. أما هل استطاع أي راهب أو كاهن محب للاستطلاع أن يقرأها أو هل اهتم بها أي امرئ على الإطلاق في ذلك الوقت، فهذا ما لا علم لنا به.

المزارعون:

ومن سائر حجاج تشوسر يمكننا أن تكون ثلاث مجموعات: (١) الفلاح والطحان والعمدة (٢) راعي الكنيسة والناسك والراهب وبائع الغفران ومحضر المحكمة الكنسية (٣) النوتي.

لقد كفل الفلاح للعالم أجمع البقاء. عاش في كوخ ذي إطار من خشب مرقع بالأغصان المضفورة والطين مسقوف بالقش أو البوص. كان يطعم على الخبز الخشن ولحم الخنزير المقدد والزبد والجبن والعسل الأبيض والمذر (وهو شراب يشبه الجعة أو البيرة) والفاكهة والمكسرات، وكلها من إنتاج أسرته أو مجاوريه. وكان لباسه من صوف تنسجه النساء في البيت، ومداسه من صوف أو جلد يصنع في البيت. كان يلبس المشلح (ويشبه ثياب السيدات). والقدر من الضوء الذي كان

(١) الكوميديا.

(٢) المطهر (بفتح وسكون) مكان تطهر فيه أنفس الأبرار بعد موتهم قبل دخولهم الجنة.

يحتاج إليه مبعثه سمار الحصر تحشر في مصباح. أما قناديل الزيت وأما الشمع فكان ترفًا. وكان مسكنه ذو الغرفة المفردة يؤوي بهائمه وغنمه في أيام الشتاء القارسة الموجعة، هذا بعد تثبيت عارضةٍ عبر الكوخ. وكان سريره صندوقًا خشبيًّا يمتلئ بالقش. وكان دخان نار الخشب الدائم الاحتراق -المنبعث من المدفأة التي تتوسط كل بيت- يتسرب من ثقب في السقف.

وكان التعاون بين أهل القرية بالغًا مداه سواء في الفلاحة وتبادل السلع والعمل. فكان أمرًا محتومًا أن يوجد في القرية الواحدة أو في القرية التي يجاورها: الحدّاد والنجّار والحذّاء والنسّاج والطحّان. وكل أولئك يدين بالطاعة لسيد الضيعة. وكان هذا يعيش في إيوانه الخشبي المكون من حجرتين أو ثلاث تتبعه عن كثب منه: الأنبار ومباني الـ (دوار). وإذا كان سيد الضيعة غنيًّا جاز -بطبيعة الحال- أن يعيش في حصن أو في بيت ضيعة محصنة ومبني بالحجر والقرميد. وكان كل القرويين يدفعون الإتاوات بالعمل له أو بتقديم الغلال والبيض والسمك والشهد وما إلى ذلك أو بالأمرين معًا. ومن الجائز قطعًا أن يكون سيد الضيعة رئيس دير. وفي تلك الحالة يسلم العمل والمدفوعات إلى وكيله المكلف بإدارة أراضي الدير.

وكان من دواعي راحة الجميع أن يقسم العمل تقسيمًا رائده حسن الإدراك، فواحد يعنى بالخنازير في الغابات، وثان يلتفت إلى الماشية، وثالث يرعى الغنم. وكان لكل فلاح أن يرسل سائمته وشياهه ترتع في الأرض العامة وخنازيره في الغابات وأن يحتطب حتى يستكفي. وكان خير أصدقائه -الثيران- يحملون أثقاله، وهي صغيرة وبطيئة وصابرة. وقد درجوا -عند الحرث- على أن يستخدموا ثمانية منها تُشد معًا إلى أنيار (جمع نير) كل بهيمتين تساق بمنخس يستحثها.

وكان الحصان ينقل الناس إلى الحرب والحج، وإنه لحيوان نبيل. وأمسى من يجيد ركوبه سيد أقرانه، لأنه يعد فارسًا. ولقد كست الغنمُ الناس وقدمت عملًا دائمًا للنساجين وأمدت تجار الصوف بالثراء. أما الثور الصغير الأعجف البادي العظام

فكان واسطة كسب العيش، إذ إنه لم يكد ينقطع عن العمل تحت النير عبر الفدادين وصاحبه يرشده ويستحثه. وهو خير أصدقاء الفلاح يجر له المحراث ويجرف له بالزحافة منذ قرون ويساعد في تشكيل الأرض. «وماذا يجني من كل تلك المدرات الطينية التي يقلبها بسكين محراثه رأسًا على عقب؟». كتبت تلك الكلمات في القرن الأول قبل الميلاد بيد الشاعر الروماني فيرجيل. وفي وسعنا أن نجيب عن السؤال بتسميته «أخانا الثور» وبذكره مع عرفان فضله.

كان لأهل القرية ثوران أو ثلاثة تعمل معًا في الحرث. وكانت أراضيهم مقسمة إلى رقع مفردة، كل منها (إيكر) عرضه ٢٢ ياردة وطوله ٢٢٠، وقد دأبوا على نظام «الأرض المراحة». فكانت تلك الرقع تقسّم إلى ثلاثة «حقول». ولم يكن الحقل في تلك الأيام رقعة صغيرة مسورة بل كان رقعة عريضة من الأرض العراء، فكانوا، في كل عام، يتركون منها حقلًا يستريح ويستخدم لرعي السائمة ويستعيد خصبه. وربما ملك كل فلاح نحوًا من ثلاثين رقعة مبعثرة بين رقع رفاقه، وبذلك يأخذ كل منهم نصيبه من الأراضي الطيبة والضعيفة.

وفي الصيف كانت الحياة بهيجة بقدر كاف أما في الشتاء فنظرًا إلى قلة الطعام الطازج وإلى شح أنواع الخضر الكثيرة التي نزرعها اليوم كانت الحياة يكتنفها الضيق، إذ كانت الماشية عرضة للموت بنسبة كبيرة بسبب قلة العلف. وكذلك كان انتشار المرض كثير الاحتمال، كما أن شبوب الحرائق كان كثير الاحتمال أيضًا. وإذا تصادف أن ساء الجو في أي فصل من فصول السنة وأن شح المحصول، تعرضت البلاد للمجاعة.

أما عن الآنية فكان القرويون يستعملون صحافًا (أي قصاعًا) خشبية وفخارًا خشنًا ومُدى وقرونًا للشرب. وأما عن الأثاث فقد استخدموا الكراسي غير المسندة والمناضد الخشنة. وكانت المهارة الزراعية تظهر في الحرث والبذر وتمهيد الأرض وتكسير مذراتها بالمطارق وفي ضم المحصول ودق الحنطة وغربلتها وتخزينها

وطحنها لتحويلها إلى دقيق. وكانت المهارة تبدو كذلك في تسقيف البيوت بالغاب وإقامة السياجات وفلق القصب والخشب لصنع الحواجز المتشابكة والحصد بالمنجل وجز الغنم وتقطيع الأشجار وتشذيبها بالمقشرة (أي القدوم). وكان في الأديرة والمدائن رجال يصنعون الدروع المزرودة ويصوغون الجواهر والميناء (وهو طلاء خزفي ثمين) والخواتم والمحابك (البوكلات) ومشابك الصدر (بروش) ومقابض السيوف وينقشون على الخشب والحجر. وكان صنع الخبز والبيرة ودبغ الجلود والطحن والنسج والحدادة من المهن الشائعة، وكان بعضهم يصنع السلال ويجدل الثمار حيث يكسو شجر الصفصاف مجاري الماء أو حيث ينمو في المروج التي تغزر المياه فوق أراضيها. وكان سكان الأباطح يقضون أوقاتهم في تربية الدواجن، كما أنهم تعلموا كيف يكدسون البيط (المكون من المواد النباتية القديمة المتحجرة) ليتخذوه وقودًا. وقد استخرج بعضهم الحديد من غابة (دين) ومرج سسكس، والرصاص من ديربي شير وتلال منديب، والصفيح من كورنوول. وكان العمال يجمعون الملح من آبار الماء الأجاج في تشيشير وينقلونه عبر الريف فوق ظهور الخيل على طول الدروب التي أطلق عليها اسم «دروب الملح». وفي الغابات المنبثة بكثرة كان حداقو الفحم الخشبي يقومون بمباشرة فنهم الفذ العجيب وذلك بتكديس أكوام لا حصر لها من الغصون ويغطونها بمدر من الطين ويمضون أيامًا كثيرة في تحويلها -على مهل- إلى فحم بحيث يمتنع خطر أي انبجاس للهب. وقد درجوا على أن يقيموا لأنفسهم من الغصون أكواخًا صغيرة تكاد تماثل تلك التي كانت تقام في العصور الحجرية.

ولقد كانت الأديرة الكبيرة -لدى البسطاء من الناس في كل الكفور تقريبًا- بيوتًا للمحبة والعون. أما لدى غيرهم في سائر البقاع فكان الشاهد الوحيد على الديانة المسيحية هو كنيسة الأبروشية، وفيها كان القسيس يبارك الخبز والنبيذ في القداس، ويتزوج الناس ويعمدون أطفالهم في حوض المعمودية، وإلى جوارها يرقد آباؤهم

وأمهاتهم في مقبرة الكنيسة «أرض الله». ولقد بقي -بعد الوثنية- بعض مخلفاتها الأثرية كالتعاويذ والرقى والتمائم السحرية التي يبيعها الباعة المتجولون، وكإيقاد مشاعل الزينة في عشية سنت جون، وكالاعتقاد في الساحرات والعفاريت. أما الكنائس فكانت مراكز الحياة الريفية. ففيها كان يحتفل بالأعياد تقدم فيها -بوفرة- الفطائر والجعة. وكان الغلمان المجدون يتلقون العلوم والآداب، جالسين في السقيفة إلى جوار القسيس. وكان القسيس الطيب -مثل قسيس تشوسر- زعيم قومه ومطمئن قلوبهم.

ولقد كان أولئك الفلاحون أميين لا يعرفون شيئًا عن التاريخ والجغرافيا، ويعيشون حياة خشنة. فكان القسيس يقص عليهم قصة عيسى الذي ولدته مريم في الناصرة، وهي قصة طفل فقير ولد في مذود (أي طوالة) وأضحى واعظًا طوافًا يحكي حكايات رمزية عن بعض الزراع وعن أناس وقعوا بين اللصوص وعن مزارع الكروم وحفلات الزواج وعن وكلاء خراج ظلَمة وعن الخبز والخميرة والحصاد والرعاة وعن أبناء ضالين وبعض زارعي الكروم. فإذا أصغوا إليه فهموا تلك المسائل على طريقتهم، تبعًا للحوادث اليومية البسيطة التي تقع في حياتهم الخاصة.

الكنيسة:

كانت الكنيسة مركز حياة الكافة، وكانوا يدفعون لها الضرائب أو «العشور»، غلالًا في بعض الأحيان. وما زلنا نرى، إلى الآن، الأنبار الفسيحة الأرجاء التي كانت الغلال تخزن فيها. وكانت هنالك محاكم كنسية تنظر في أمر غرق السفن أو تحطيمها وفي النزاع على الوصايا والزواج. وقد درجت الكنيسة على استخدام بعض ذوي المقدرة من القانونيين والكهنة ليباشروا اختصاصات الملك، كما أن الغالبية العظمى من وزراء الملوك في القرون الوسطى كانت من الأساقفة. ودرج الناس على أن يحجوا روما وبيت المقدس ومزارات: سنت جيمس في كومبوستلا بإسبانيا، وسنت توماس بيلت في كانتر بيري، والعذراء في والسنجهام بنورفولك.

وكانت الكنيسة -بالنسبة لحياة الناس الخاصة- مرشدهم وسكينة قلوبهم. وربما تغالبهم قوى الشر، فينصت القديسون لصلواتهم وتصير نفوس الصالحين بين يدي الله. وكان كل امرئ -إذا جاء أجله- يطمع في أن يسمع صوت القسيس يقيم صلاة السر المقدس. فكان القادرون منهم يتركون للقساوسة مالًا ليقيموا قداسًا لإسعاد أرواحهم. على أن تلك القداسات كان يقوم بها يوميًّا، في الأبرشيات والكنائس، قساوسة خاصون بالصلاة على أرواح الموتى.

وبسبب حياة الدين المسيحي تلك، أقيمت الأبرشيات والمباني الكبيرة للأديرة.

وقد حل عقد الرومانيين المقوس مشكلة تسقيف الفتحة الواسعة في أعلى البناء. ونال هذا الحل تقدمًا في قبة أو في قبو كنائس الإمبراطور جستينيان وبخاصة في كنيسته المدهشة، كنيسة الحكمة المقدسة. وبعد هذا أخذت كنائس الغرب الكبرى تبنى على الطراز الروماني، أي أنها أقيمت من صفوف طويلة من العقود المستديرة تحمل سقفًا مقبوًّا مستديرًا. وقد بني كثير من أديرة إيطاليا وبلاد الراين على هذا الطراز، الذي استخدمه النورمانديون، وأهم ما يميزه العظمة والضخامة.

وإن تأثير ما نسميه بـ «الطراز القوطي» ليعْدله في العظمة ولكن مع مزيد من الروعة. وقد استخدم هذا الطراز -أول ما استخدم- في كنيسة سانديني بباريس عام ١١٤٠. وتمكننا رؤيته اليوم -على سبيل المثال لا الحصر- في سنت شابل أي (المصلى المقدسة) بباريس وفي أبرشيات أورفييتو وشارتر ووستمنستر أبي وسولسبوري، وقد أكثر البانون من العقود المدببة التي ترتفع من كل عمود على هيئة تحاكي العناقيد وتنتشر وتتقاطع على شكل صليب لتشكل هيكلًا من الأضلاع الحجرية ترتكز عليها تربيعات السقف الحجرية. وكانت جوانب الأقبية الضخمة، المكونة من المنقوشات الحجرية الرشيقة، تثقب فيها نوافذ من الزجاج الملون. فأمست في جملتها تشبه قفصًا حجريًّا ذا أشرطة من الزجاج الملون معلقة في الفضاء كالمصباح المدهش المرصع». وبدلًا عن الركائز أو الدعامات الراسخة القديمة

المقامة خارج جدرانها أخذت المباني القوطية الطراز تستخدم الدعامات الطائرة (أي: الخالصة الحرة) ولقد كان مجموع العمل، الذي أنجزه البناؤون المجدون ورجالهم، بالغ الضخامة. ذلك أن كل حجر، على حِدة، كان يلزم قياسه وتشذيبه ودفعه إلى مكانه، فوجب رفع مئات الأطنان إلى علو كبير وموازنته في مهارة فوق تلك العمد الرشيقة والجدران، كما تحتم تشغيل عدد كبير آخر من الصناع المهرة قبل أن يبلغ العمل نهايته، كما اقتضت الحال أيضًا استدعاء الفنيين على اختلاف فنونهم لزخرفته.

ونقشت قصة المسيح على الحجر ورسمت على الجدران ووضحت في الشبابيك الملونة. وقد نقش البناؤون نقوشًا أنيقة -كرؤوس ووجوه ودواب وملائكة وشياطين- وذلك في أطراف الحجارة التي يتصادف بروزها من الجدران. وكانوا يغطون السقائف الغربية بتماثيل للأنبياء والقسيسين والملوك والملكات والقديسين والبطارقة بل بمشهد كامل ليوم الحشر. بل إن الدعائم كانت تحمل قبابًا مستطيلة مرتفعة مزينة بنقوش، وكانت بها فجوات لتماثيل القديسين. ولقد قدم النجارون وقاطعو الزجاج والحدادون والنقاشون والنساجون وصائغو الذهب وصائغو الفضة، قدم كل أولئك خير ما في مقدورهم من عمل، إذ كان أهم هدف لأي مهنة هو زخرفة الأبنية. وكانت الحجب الخشبية المنقوشة وكراسي المرتلين غير المسندة، والظلل الحجرية المحلاة كما قد تحلى الـ (دنتلة)، والقضبان والبوابات المصنوعة من الحديد المشغول، والطنافس المزركشة بالزاهي من الألوان الذهبية والأرجوانية والخضراء والزرقاء، والأواني الفضية والمذهبة، والصور والنماذج الملونة الماثلة فوق الجدران - ينير عليها جميعًا الضوء السهل المستمد من مجموعة كبيرة من الشمع- كان كل هذا يوحي للناس بمعنى لديهم غامض رهيب. وكثيرًا ما كان وقع أقدامهم يطلب إسكاته ليحل محله الحفيف الصادر عن العصائب الجافة - من خضراء ورمادية- التي تنتشر على الحجارة.

وكان القداس يقام في كل يوم ويحضره الملوك والأمراء، وقد تطور معنى كلمة «القداس» حتى أصبح معناه توقيتًا يوميًّا معينًا، كما يعني السر المقدس.

وكان الغناء -الذي يصاحبه الأرغن- غناء بسيطًا تتبع إيقاعاته اتزان الألفاظ اللاتينية. وكان يبدأ بفاصل غنائي يشترك فيه مغنيان أو أكثر ولكن ليس على (نوتات) موحدة. وقد ابتدع إنجليزي -اسمه جون دانستابول- فن كتابة طبقات لأصوات مختلفة تغنى على (نوتات) مختلفة وتتحرك بحيث يستقل كل منها عن ما عداه، وبتطور هذا، نشأت موسيقانا الحديثة. وفي أواخر القرون الوسطى تطورت الموسيقى في سرعة بالغة. والواقع أن هولنديًّا كتب نشيدًا بـ ٣٦ طبقة من الأصوات.

البحارة والرحالة:

ليس هناك أدنى شك في أن البحارة كان لهم -على ظهر النقالة المائية موديلين- أسلوب في الغناء يختلف كل الاختلاف عن أسلوب غيرهم. فلقد كان البحارة دوامًا من الناس الذين يجيدون الغناء، ولم يخالفهم في ذلك بحارة دارتموث في عهد تشوسر، وكان بحارة الأقاليم الغربية من أكثر البحارة جسارة. فلقد كان بحار تشوسر فتى شجاعًا كأهل بلده. وذاك الفتى هو هاري باي الذي ذهب بوازع من نفسه ليحارب ملك إسبانيا.

وهنالك مجموعة من البلدان تستحق أن ينوه بها في صدد السفن والبحارة هي الموانئ الخمس، وكانت تلك: دوفر، دومني، ساندوتش، هيستنجس، هيث. وقد أضيفت إليها فيما بعد ونتشلسي، راي. وكان على تلك البلدان أن تعدّ سفنًا تحمل كل منها طاقم بحارة كامل لبحرية الملك. وكانت الموانئ الخمس بالغة الأهمية إلى حد أن أقيم لها محاكم خاصة تقتص من اللصوص وسفاكي الدماء وتفرض ضرائب لتقام بها حواجز الماء. فإذا بذلت جهدها على أكمل وجه وسعها أن تبني ٥٧ سفينة قوامها ١٣٠٠ بحار. وكانت السفن تصنع من شجر البلوط (الأرو) وهي

من نوع النقالة المائية ذات السارية (الصاري) الواحدة والشراع الواحد. فإذا قامت حرب جهزت ببرج أمامي وبرج خلفي وبمرقب حربي في أعلى ساريتها. وكانت مساحاتها تحصى بالدنان (البراميل) أي بعدد دنان نبيذ بوردو التي يسعها حمله. وكانت تلك هي السفن التي طليت وخفقت فوقها رايات الشعار المثلثة وحملت الملكين الإنجليزيين، إدوارد الثالث وهنري الخامس ومن لاذ بهما من فرسان ونبالة، وعبرت بهما إلى نورمنديا.

وكان أولئك جميعًا من أهل الجزر. وكانت أعظم الدول البحرية في القرون الوسطى، البندقية والتجار الألمان في العصبة الهنسية (مجمع دولي للتجار).

ولقد حارب تجارُ البندقية الأتراكَ كما بادلوهم التجارة. فاشتروا الفراء والقنب (نبات الخيش) والسجاجيد والحرير والجواهر والمعادن الثمينة والبن والسكر والتوابل والعقاقير من تجار البحر الأسود اليونانيين ومن التجار العرب في مصر وسوريا. وفي الناحية الغربية أبحرت غلايينهم -ذوات الساريات العالية- إلى مياه سوذامبتن والتيمز لتقايض على بضائعها بأصواف إنجليزية وإهاب (جلود حيوانية غير مدبوغة) وصفيح. وقد وصلت شبكة تجارتهم الغنية من البندقية -بالبر، عبر ممرات الألب- إلى مدائن جنوب ألمانيا. وإلى بلاد الراين وفي الطريق كان على الأفاويه (أي التوابل) الغالية أن تدفع ضرائب لكثيرين من البارونات اللصوص الذين كانت معاقلهم تعبس منحدرة من قمة تل إلى ارتفاع هو قاب قوس فوق الطريق العامة التي يمر على طولها رتل من الخيل المحملة. ولا عجب إذا ارتفعت أثمان التوابل الشرقية ارتفاعًا كبيرًا في أسواق أنتورب (أنفرس) أو كولونيا أو باريس أو لندن.

وفي الناحية الشرقية كانت تجارة البندقية تصل عبر البحر -بحر الدنيا القديمة الكبير- إلى أراضي الشرق القديم الفسيحة وإلى البحر الأحمر عبر وادي مصر. وكانت قوافل الجمال والحمير والخيل تسافر عبر جبال آسيا وسهولها، وكانت السفن

العربية تسبح مسرعة أمام رياح البحر الأحمر الموسمية، وبذلك استطاعت أن تبلغ الهند وجزائر الهند الشرقية بل موانئ البلاد الصينية التي تشبه الخرافة. ولا شك في أن نفرًا قليلًا من المسيحيين المجازفين قد ارتحلوا إلى تلك البلاد الغريبة الشاذة.

ولقد وصلت إلى علمنا معلومات عن رهبان ذهبوا إلى التتار في مهمة تبشيرية. ذهب أولهم في سنة ١٢٥٠ بعد أن أسس سنت فرانسيس جمعيته «صغار الأخوة» بوقت غير طويل جدًّا. وبين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ شق أولئك المجازفون الجسورون طريقهم، باسم المسيح، عبر السهل الموحش -الذي يغطيه الثلج- ليعيشوا مع فرسان التتر ورعاتهم. وكثيرًا ما ركبوا ثلاثة أيام متتابعة دون أن يروا إنسانًا واحدًا. وكانوا ينامون في العراء أو في أكواخ حقيرة، ويعيشون على الضأن المسلوق ومرق الضأن. ويشربون لبن الحِجْر (أي أنثى الخيل) المختمر. وقد وصل أحدهم -بعد أن ركب ٥٠٠٠ ميل- إلى بلاط الخان (الأمير) الأكبر في كاراكورام حيث يسكر كل امرئ، في وقت بالغ القصر، من خمر مصنوع من الأرز. وحيث وجد، لشدة دهشته، صائغ فضة من باريس وهو ماستر وليم الذي سبق أسره في حملة تتارية والذي كان يشتغل عندئذ بصياغة الفضة للخان الأكبر! وبعد ذلك بوقت ما وصل إلى الصين نفسها عن طريق الخليج الفارسي رهبان ممن نعرف أخبار رحلاتهم، ووجدوا رهبانًا في الشرق الأقصى بل في بكين، في بلاط قبلاي خان.

وخير حكاية عرفت هي تلك التي تحدثنا عن رحلات تاجرين من البندقية لقبهما: آل بولو: بدأ نيقولا وأخوه مافيو رحلتهما عام ١٢٦٠، وقد تعلما كيف يتكلمان لغة التتار ويتوددان إلى قبلاي خان الذي أرجعهما لكي يعودا بمائة من القساوسة المسيحيين، وهذا لم يعد بطائل ولكنهما رجعا إلى الصين بالابن الصغير لنيقولا: ماركو بولو، وقد تسلق ثلاثتهم إلى «سقف الدنيا» (هضبات بامير وهضاب التبت العالية) وبلغوا بلاط قبلاي خان بعد رحلة دامت ثلاثة أعوام ونصف.

حدث هذا في سنة ١٢٧٥، وحظي ماركو وأبوه وعمه برعاية التتار وقاموا برحلات

في أنحاء الشرق كافةً بوصفهم سفراء الخان. وعادوا إلى وطنهم يحملون رقاعًا ذهبية، أي جوازات سفر، تيسر أمور رحلتهم عبر آسيا، ووصلوا إلى البندقية في سنة ١٢٨٥ بطريق البحر إلى جاوه ثم إلى الخليج الفارسي. ولم يصدق أحد حكايتهم حتى شقوا جلود ضأنهم التترية وسقطت منها، متناثرةً، يواقيت حمراء وزرقاء. وأخيرًا أنبأهم ماركو بحكايته التي أصبحت واحدًا من أروع كتب الرحلات في كل العصور.

ونحن أسعد حظًّا من الناس الذين عاشوا في عصر ماركو بولو أو عصر تشوسر إذ إننا جميعًا نستطيع أن نقرأ كتابه. وما الناس الذين استطاعوا قراءته عندئذ غير أولئك الذين أسعدهم الحظ إلى درجة استطاعوا معها أن يحصلوا على نسخة خطية منه.

ولنعد إلى البندقية مدينة القصور الرخامية، تلك المدينة التي اجتاز دوجها أو دوقها الاحتفال بتزويج مدينته إلى البحر وذلك بإلقاء خاتم فيه. ولقد كانت البندقية تحصى سفنها بالمئات، وفيها الجروم (أي الزوارق الكبيرة) والجالصات (وهي ضرب من السفن الكبيرة) والغلايين. وببأس تلك السفن كانت (البندقية) سيدة البحر الأبيض المتوسط المزهوة. وكان يحكمها تجارها. وقد حكمت أكثر من عشر مدن في شمال إيطاليا، هذا إلى احتفاظها بمستعمرات في الجزر اليونانية. وكان أبناؤها أغنياء أسخياء يلبسون أفخر الملابس، ومبانيها مزخرفة بالتماثيل البرونزية وبالفسيفساء وأنواع الرخام الزاهية الألوان وبالحجر السماقي (البورفيري). لقد كانت (البندقية) مدينة قنوات وبحيرات ضحلة «بولغ في تجميلها وسط البحر» كمدينة صور القديمة. وتقارير سفرائها -الذين مثلوها لدى جميع الأمراء والملوك الأجانب- ماثلة بين أحسن مسجلاتنا التاريخية.

وقد عرف البحار الذي وصفه تشوسر سفائنهم كما عرف جيدًا البحارة الشماليين للبلاد الهنسية، وكانوا زملاء من التجار يعيشون في بلاد الراين ومدائن بحر البلطيق. وكان أولئك الناس يتاجرون في الأخشاب والفراء المجلوبة من بلاد الشتاء الشمالية وفي السمك المملح والمقدد (البكلاه) وفي النحاس السويدي والمصنوعات

الصوفية، وكانوا -كأهل فينيقيا- يشتغلون بأعمال البنوك ويقرضون ملوكًا، مثل إدوارد الثالث في إنجلترا، مالًا كان يعوزه ليغزو فرنسا. وكانوا يحتفظون بـ «وكالات تجارية» أو فروع محصنة في المدائن الأجنبية حيث كان ممثلوهم يعيشون عيشة تقرب من عيشة الرهبان ذات النظم المتزمتة التي تقفل الأبواب في وجوه جميع الأغراب. وفي لندن -حيث كانت وكالتهم التجارية تسمى بالميزان الروماني (أي القباني)- كما يعرفون بأهل المشرق.

ومثلما كان أهل البندقية يعرفون خصوم النصرانية في شرق البحر الأبيض المتوسط كان البحارة والتجار الهنسيون يعرفون أهل سهول البحر البلطيقي الوثنيين حيث حاربت جماعات الصليبيين الألمانية -فرسان التيوتون أو فرسان السيف- البروسيين المتوحشين، واستولوا على أراضيهم.

وقد غيرت الحروب الصليبية ومخاطرات رجال البحر مصاير المسيحية الغربية في خلال القرن الذي تلا عهد تشوسر وهو أكبر قرن للمغامرات والاستكشافات ولرجال الحروب الصليبية والبحر، ألا وهو القرن الخامس.

حروب الصليب:

شبت حروب الصليب في كل من طرفي البحر الأبيض المتوسط: في إسبانيا وفي أقطار الإمبراطورية اليونانية. ولم يفلح صليبيو الغرب قط في استرداد شبر واحد من فلسطين بعد إخفاق الحرب الصليبية الثالثة التي شارك فيها ريتشارد قلب الأسد. فلقد أخذت قوة المسلمين تزداد في نموها وفي تهديدها للإمبراطورية اليونانية. وانتهى كل بأس الملوك والفرسان المسيحيين وكل جراحهم وآلامهم إلى لا شيء لأنهم تنازعوا فيما بينهم ولأنهم أعوزهم المدد من بلادهم. وتعب رجال الممالك الغربية وانصرفوا عن الاهتمام إذ كان لديهم ما يشغلهم عن الحرب، ولم يكن الخطر يتهدد تخومهم.

وعلى خلاف ذلك: في كل وقت الخطر ذاك، من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، لم يكن للإسبان حاجة بالرحيل إلى الخارج ليشاركوا في الحروب الصليبية، إذ إن الحرب – في ذاك الوقت جميعًا- كانت على أبوابهم. ذلك أنهم كانوا يحاربون المسلمين بغية استرداد أراضيهم.

وفي القرن الخامس عشر كان الخطر قاب قوسين من قلب الأملاك المستقلة للإمبراطور اليوناني في القسطنطينية.

وانتهى الأمر إلى أن المسلمين فتحوا كل آسيا الصغرى، وعندئذ اعتنق أهل آسيا الصغرى الإسلام، وهكذا ظلوا إلى وقتنا هذا.

وعبر الأتراك إلى أوروبا وركبوا عبر البلقان وبلغوا نهر الدانوب العظيم.

وانضوت الشعوب المسيحية، من رعاة وفلاحين وجبليين، تحت إمرة أمرائهم ليحاربوا للصليب. فكافح الصربيون والألبانيون والهنجاريون (المجريون) والبولنديون ليصدوا الفاتحين ولكنهم أخفقوا. وحاول الكثيرون من الغرب أن يؤلبوا الملوك والأمراء ورجال الكنيسة ليبذلوا جهدًا جديدًا في حرب صليبية ختامية، ولكن أحدًا لم يتحرك لأن الملوك والأمراء كانوا منصرفين كل الانصراف إلى محاربة بعضهم البعض.

نهاية القسطنطينية:

أرسى جون جستينياني – وهو نبيل من جنوا وجندي ذائع الصيت- سفينته في ميناء القسطنطينية في يناير من سنة ١٤٥٣. والتحق –ومعه رجاله السبعمائة الحسنو التسليح المدججون بدروع نحاسية على صدورهم –التحقوا بحماتها الذين كانوا يدافعون عن أسوارها ضد الأتراك. وقد سبقهم إلى هناك بعض نبلاء البندقية وجنودها. واتخذ إمبراطور الإغريق، اتخذ هذا، جون جسيتينياني قائدًا عامًّا له.

وكان الرجال المتعبون –الذين وقفوا بأسلحتهم على طول أسوار المدينة-

يحسبون هذا الوضع جزءًا من حرب لا نهائية. فلقد استمرت منذ قرون وبدا كأنها سوف تعمر أبدًا. وكان أولئك تسعة الآلاف من الجنود المسيحيين -من أهل اليونان وجنوا والبندقية- يقاومون جيشًا ضخمًا قوامه سبعون ألفًا من الأتراك. ومن ورائهم في تلك المدينة الغنية الواقعة على البوسفور قامت هناك خزائن فنية وعلمية تجمعت في ألف عام: صروح ريفية، كنائس، قصور. مكتبات، تماثيل، نقوش، فسيفساء. وكانت الكنائس تغص بالناس يصلون للخلاص من الغزاة بمعجزة سماوية.

وكانت الأسوار ضخمة ولكنها قديمة. فلما أطلق المدفع التركي الضخم «قاهر المدن» اهتزت الأرض وملأ هدير الغلبة الجو وأُرسل قنطار من الأكر الحجرية التي أطلقتها المدافع فهشم الدير العتيق الذي خر من وقع الصدمة الكبرى. وقد غص السهل الأمامي بحشود من آسيا. ولم يكن أولئك فلاحين خشنين وخيالة فطريين، ليس غير، بل لقد كانوا أيضًا جنودًا مهرة شجعانًا حسنى التنظيم. وصد المسيحيون الهجمة تلو الهجمة، وقاوموا غزوات خيالة الباشبوزوق الآسيويين والأشداء وفرق الأنكشارية المنتخبة التي أرسلت تحت بصر سلطانهما وأمرت أن تتسلق الجدران أو تهلك دون ذلك.

وكان الأتراك قد أخذوا يهددون المدينة في خريف ١٤٥٢، وقد حل مايو. ومع ذلك بدأت أيام القلق تمر، وترقبت جنود جستينياني وانتظرت وحاربت. ولم يبدُ أن أمم الغرب المسيحية ترسل مددًا. وحارب أولئك اليونانيون وحلفاؤهم القليلون، حاربوا وحدهم في ذلك الربيع المخيف ربيع عام ١٤٥٣.

وقد وقفت المدينة كأنها جزيرة في بحر من الأعداء وقفت المدينة الإغريقية المسيحية.. ووقف للدفاع عنها تسعمائة رجل أغلبهم من اليونان تساعدهم حفنة من أهل البندقية وجنوا، وقفوا مسلحين في هذا التنازع الذي اشتدت وطأته على العالم المسيحي والذي سبق أن شطره قبل ذلك بسبعمائة عام.

وهكذا فتحت المدافع التركية نيرانها، وهزت العصفة الأسوار، وهجم جنود السلطان مغيرين، وطار جزء من البناء فانفتحت فتحة إلى جوار أحد المداخل. ومع هذا صمد اليونانيون والبندقيون. ثم سَربَ بعض الأتراك خفيةً من المداخل الخلفية ودلفوا وراء المدافعين. وما هو إلا قليل حتى رؤيت على الحوائط قواويق (مفردها: قاووق) الأنكشارية الطويلة المصنوعة من اللباد وتسلقت جماعات كبيرة من الجنود الأتراك جثث موتى رفقائهم وتدفقوا إلى مشارف المدينة وجرح جستينياني وبرّح به الألم فاعتزل في إحدى سفائنه حيث مات متأثرًا بجراحه.

وركب آخر الأباطرة -قسطنطين باليولوجاس مدججًا بسلاحه، ومعه شرذمة من رفاقه المتحاربين- ودخل من الفجوة التي فتحت في المدخل وهناك مات وهو يحارب شرذمة من الأتراك، وكانت النهاية الحزينة التي تليق بالقصة الطويلة لقياصرة روما وأباطرتها أن آخرهم لم يعش بعد زوال الإمبراطورية.

واحتشد سكان المدينة -بين اللجب والجلبة- على طول الجبهة المائية ليهربوا بطريق البحر. ولكن قليلين هم الذين استقلوا الزوارق الإيطالية الكبيرة، وكان الأسرى كثيري العدد.

وركب محمد الفاتح -أمير المؤمنين- يجتاز الشوارع حتى بلغ كنيسة الحكمة المقدسة، البديعة (أيا صوفيا) وهناك أمر بخطيب المسجد فصعد على المنبر - الذي ظل أسقف القسطنطينية يعظ منه مئات السنين- ونادى المؤمنين للصلاة. وكان المؤمنون عندئذ هم الأتراك الذين حاربوا وانتصروا ثم استحثوا الخطى ليستمعوا، بلغة أخرى، إلى الشهادتين «أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

ولقد كان السلطان نفسه رجلًا عالي التهذيب، وقد تأثر بعد فتح تلك المدينة الذائعة الصيت. وعندما رأى قصر الإمبراطور المتوفى، وقد أصابه ما أصابه، توقف هنيهة ثم استشهد ببيت شعر فحواه: «لقد نسج العنكبوت نسيجه في القصر الإمبراطوري، ونعقت البومة على أبراجه بأغنيتها الساهرة».

وهكذا سقطت القسطنطينية وصار اسمها الآن «استنبول» وأصبحت في حوزة الأتراك غير أن الحرب استمرت. فقد احتفظ أهل البندقية بأجرامهم الحربية في البحر، واستولى فرسان سنت جون -ومقرهم بيت المقدس- على جزيرة رودس لتصبح حصنًا بحريًّا. وأبقى الخيالة الهنجاريون والبولنديون والصربيون الجبليون، أبقوا الأتراك جنوبي الدانوب.

ورفرفت راية الإسلام على الأراضي القديمة: مصر، فلسطين، آسيا الصغرى، بلاد اليونان الحالية-رفرفت عليها راية الإسلام الخضراء وبقيت -بعد ذلك، على هذه الحال- طوال الأربعمائة من الأعوام التي تلت.

سقوط غرناطة في إسبانيا:

غير أن المسيحيين انتصروا في إسبانيا. فقد استولى ملوك قشتالة وأراجون على إشبيلية وقرطبة في القرن الثالث عشر. وفي وقت سقوط القسطنطينية في يد السلمين لم يكن في يد المغاربة غير مملكة غرناطة الصغيرة وهذه هاجمها واستولى عليها في ١٤٩٢ الجيش المسيحي الكبير الذي ضم فرسانًا من إنجلترا وفرنسا. وعندما فتحت أبواب غرناطة -لفرديناند ملك أرجوان وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة- رفعت راية الصليب فوق أعلى برج في قصر الحمراء ورتلت تسبيحة الشكر «الحمد لله يا الله».

ومن هذه الأحداث القديمة نبعت أشياء كثيرة تركت أثرها اليوم على العالم. ففي إسبانيا والبرتغال الآن أناس يجري في عروقهم الدم المغربي ولغتهم تحوي ألفاظًا كثيرة أصلها عربي. وأهم من هذه أن جنود شبه الجزيرة المسيحيين تملكتهم رغبة جامحة لنصرة الصليب وألهبتهم الحروب الصليبية الطويلة الأمد، فرفعوا راية الصليب على مسجد غرناطة، ولم يمض وقت طويل حتى رفعوها في بلاد غير شبه الجزيرة، تحت آفاق غريبة، بعضها يبعد آلافًا من الأميال بطريق البحر.

الاتجاه صوب الجنوب:

عندما نظر سماكو البرتغال إلى الغرب والجنوب فوق أمواج الأطلنطي الطويلة كانوا واقفين على طرف من أطراف المعمورة. وهكذا كان صيادو السمك الإيرلنديون الذين يسكنون شاطئ أيرلندا الغربي الموحش. وثمة طرف ثان من أطراف المعمورة في كورنوول وثالث في بريتاني ورابع في إسبانيا. غير أنه كانت هنالك جزائر وراء مغرب الشمس، أو هكذا قالت القصص بل كانت لها أسماء: أنتيلة. برازيل، جزيرة سنت برندان، جزيرة المدائن السبع، جزائر شيب (الغنم) وتلك كلها بعيدة في الغرب الأقصى عبر المياه. على أن الرجال الذين أبحروا بحثًا عنها جاؤوا ولم يكن عندهم ما يقصونه أو ربما يكون قد أخذهم المحيط إلى الأبد. وكان كل شاطئ الأطلنطي، يقينًا، آخر الدنيا المعروفة من جهة الغرب، ووراء ذلك لم يوجد غير البحر الأجاج.

غير أن الجنوب كان له شأن آخر. فقد جاءت قصص غريبة مثيرة من الجنوب إلى صليبي البرتغال الذين انتزعوا سبتة (أي «سوته» في مراكش) من المراكشيين في سنة ١٤١٥.

وأنبأهم المغاربة عن أرض خضراء خصيبة في غانا على مسافة بعيدة عبر الصحراء الكبرى حيث يسكن كثير من الناس على شاطئ نهر كبير (هو السنغال). وكان ذلك النهر -حسبما قيل- فرعًا من نيل مصر المعروف. وكان في وسع أولئك الذين يبلغونه أن يركبوا الشراع ويصلوا إلى الإمبراطورية المسيحية الغامضة التي كان يحكمها برستر جونس (حنا القس) الذي كان قسيسًا وملكًا والذي عاش في الشرق خلف البقاع الإسلامية.

واستثارت تلك الأخبار أميرًا غنيًا قويًا. وكان هذا الأمير: هنري البرتغالي أخا الملك ورئيس جماعة الصليبيين البرتغالية. وقر قرار الأمير هنري على أن يستولي على غانا وأن يدخل أهلها في دين المسيح وأن يحكمها بفرسان جماعته. وكان عنده مال يكفي ليستخدم رسامين للخرائط وفلكيين وعلماء من اليهود وليبني سفنًا ويقوم

بنفقات الرحلات. وأرسل سفنًا شراعية كبيرة تبحر على طول الشواطئ الأفريقية. وتحسس رجاله طريقهم جنوبًا، رحلة فرحلة، إلى ما وراء الشواطئ الرملية القاحلة والصخور. وكانت كل مخاطرة تضيف النزر اليسير من المعلومات ينتفع بها في المحاولة التالية. وكان التقدم بطيئًا.

وبعد سنوات من الجهد الشاق وصل رئيس تجارته إلى (نهر) ريو دي أورو الذي كان يبعد عن بلاده أكثر من ألف ميل. ولم تكن النتيجة سيئة بالقياس إلى صغر السفن المسقفة تسقيفًا نصفيًّا والتي يسع كل منها ثلاثين رجلًا روع أغلبهم الخوف من الحرارة القاتلة ومن أهوال البحر. ولا بد أن ليالي البحر كانت تملأ راكبيه رعبًا.

وإلى هنا كانت الشواطئ عقيمة مجدبة، صحراوية أو نصف صحراوية. ومع هذا أفلح البرتغاليون في أن ينزلوا إلى البر ويقبضوا على بعض الزنوج ليرسلوهم إلى بلادهم ويبيعوهم عبيدًا للعمل أو للفلاحة في المزارع البرتغالية. ولقد أخذوا، في إحدى الرحلات فقط، أكثر من مائتين من العبيد التاعسين.

وأخيرًا، في سنة ١٤٤٥، وصل إلى نهر السنغال أسطول من ست سفن شراعية كبيرة تحمل راية الصليب ورأى غابة غانا الخضراء أو «غينيا» بنطق أهل البرتغال. وقد جاؤوا ببعض العبيد وبنبأ أنهم استكشفوا الطريق إلى برستر جونس (القس حنا). وحمل أسطول آخر مستعمرين إلى جزائر الأزورس (أو «الصقر»). وما هو إلا القليل حتى أخذ رجال الأمير هنري يرسلون إلى بلدهم العاج الأفريقي والتبر الغيني.

وعرف الأمير قبل وفاته في سنة ١٤٦٠، أن أحلامه قد تحققت.

وعندئذ بدأ التجار يقومون بالعمل الذي كان يقوم به لأنه كان رابحًا. وسارت السفن أبعد وأبعد إلى الجنوب، ومرت بشاطئ العاج، ومرت بساحل الذهب، ومرت بنهر النيجر ثم وصلت تحت آفاق جديدة إلى نهر الكنغو العظيم. وأسست موانئ في غينيا لتصبح مراكز لتجارة الذهب والعاج والرقيق. وبقيت تلك الرحلات

جميعًا سرًّا دفينًا، وبُذل أمض الجهد للحرص على ألا تقع الخرائط في أيدي أمم أخرى.

وفي سنة ١٤٨٦ أقلع بارثولوميو دياز مارًّا بالكنغو. ثم توقف ليتطلع صوب الجنوب، أي أنه أقلع في عرض الأطلنطي. وأدركته الرياح الغربية وردته إلى وراء. فلما عاد إلى البر مرة أخرى كان الشاطئ شماليه.

ودار – دون أن يدري– حول رأس الرجاء الصالح ووصل عندئذ وراء جنوب القارة الأفريقية. وكان يود أن يتابع الرحلة ولكن رجاله لم يشاءوا أن يتعرضوا للخطر. وهكذا عاد صوب وطنه.

وفي هذه المرة رأى الرأس الذي أسماه (كابو تورمنتوزو). وكان ملك البرتغال هو الذي أطلق عليه اسم «الرجاء الصالح» وهذا من أعظم الأسماء التي أطلقت أبدًا على رأس من الرؤوس.

وراء رأس الرجاء الصالح:

وكانت الرحلة الثانية مغامرة عظيمة. وقد أطلق على السفينتين اسمي «جبريل» و«روفائيل» تيمنًا باسم هذين الملاكين، وكانا قد بنيا بنيانًا متينًا وجهزا بشراع مربعة وثلاث ساريات لكلٍّ، وعلا طرفاهما عن الماء علوًّا كبيرًا.

وجهزتا بأبراج حربية من أمام ومن خلف، مع إمداد كل من السفينتين بعشرين مدفعًا. وكانت حمولة كل منهما مائة طن. وقد خطط لبنائهما –من واقع تجاربه– بارثولوميو دياز، وعقدت قيادتهما على فاسكو دي جاما وهو نبيل من بلاط الملك.

وتحركتا – تصحبهما سفينة شراعية صغيرة وأخرى لخزن المؤن– إلى منحدرات في (نهر) التاجه وهو نهر لشبونة. وقد نفخت الريح أشرعتهما المرسوم عليها علامة الصليب. وقد اختزنت مؤن تكفي ثلاث سنوات. وقبل أن يستقل البحارة السفن شهد البحارة قداس بركة ووداع في أبرشية لشبونة. وفيما كان حشد من الأقرباء

وأهل المدينة يرقبون من الشاطئ -وكثير منهم في ثياب الحداد- انساب الأسطول الصغير إلى المحيط مغامرًا. ورفرف علم الملك على رأس سارية «جبريل». ثم نفخ في الأبواق وعزف بالنايات وضرب على الطبول. واصطف الضباط على ظهر السفينة متسربلين بالذرد والدروع. وظهر بينهم القائد البحري فاسكو دي جاما وهو رجل حارب أسلافه المغاربة وتربى في البحر وامتلأ رأسه بقصصه ومهر في المعرفة وصهرته تجارب الرحلات البحرية، رجل ذو شخصية قوي البنية شديد العزم أحمر الوجه شجاع معتز برأيه، عنيد، يقسو على أعدائه.

وتحركت السفن رويدًا رويدًا إلى أقصى مرمى البصر ثم اختفت تحت الأفق الغربي في ذلك اليوم القائظ من يوليو سنة ١٤٩٧.

وكان أول جزء من رحلتهم هو الاندفاع المعروف إلى الرأس الأخضر وشاطئ سيراليون. وتبع ذلك عبور بعيد المدى عن طريق جنوب الأطلنطي قادهم إلى جنوب أفريقيا، حيث أسروا رجلًا من سكان الغابات الأصليين وكسوه واشترك بعد ذلك في الرقص مع بعض المتوحشين من قبائل الهوتنتوت. ثم ألقوا مراسيهم في مكان أسموه «ناتال» (أي الميلادي) إذ إنهم بلغوه في عيد ميلاد المسيح، وهناك نزلوا إلى الساحل ودفعوا سفنهم حتى احتكت بالقاع القريب من الشاطئ. وهناك أيضًا ظهرت على بعضهم أعراض مرض البحارة الوبيل المسمى بداء الأسقربوط. (وهو ضرب من الجرب).

وبعد ثلاثة أشهر، بعد أن ثابروا على الصعود بسفائنهم مصعدين مع الشاطئ صوب الشمال، بلغوا موزمبيق حيث تحدث مترجمو دي جاما مع العرب، وهنا رأوا السمك الطائر وشجر جوز الهند. وبعد مضي شهر تركوا ثغر مومباسا الجميل. ووصلوا بعد ذلك إلى مالندي حيث رأوا السفن العربية التي تتاجر مع الهند وحيث استخدموا مرشدًا عربيًا سار بهم، في رياح موسمية، عبر المحيط الهندي إلى شاطئ مالابار في الهند.

وألقوا مراسيهم وراء كالكوتا في مايو سنة ١٤٩٨ وذلك بعد أن أقلعوا من لشبونة بأربعة عشر شهرًا. فرحب بهم الحاكم الهندي. وسألهم أحد العرب عن علة مجيئهم فأجاب أحد البرتغاليين بقوله: «بحثًا عن المسيحيين والتوابل».

ولبثوا على مسافة من كالكوتّا ثلاثة أشهر رأوا في خلالها جميع ما في مدينة هندية تجارية من غنى وتنوع: رأوا شجر جوز الهند وتعريشات الفلفل والمنجة والموز والليمون ورأوا الطواويس والنموس (جمع نمس) والدر (وهو ضربٌ من الببغاوات الصغيرة) والقرود والفيلة، رأوا هذه وهي تُستخدم في بعض الأعمال ورأوا في الأسواق سلعَ النحاس الأحمر والأصفر والسيوفَ والمُدَى والمنسوجات الحريرية والقطنية ومحار السلحفاة (البرِّية) والعاج والزمرد والياقوت والكافور والقرفة (أو الدارصيني) وخشبَ الصندل وجوز الطيب ولباب جوز الهند المجفَّف. واختلطوا بالجماهير المبرقشة الأكسير، من الهنود والصينيّين والزنوج والملوّنين والفرس والعرب. وحُمل فاسكو دي جاما في محفَّة معهم (وهي نوع من الهودج أو التختروان). وقايض بحَّارتُه على ما كان معهم من سلع محليَّة تافهة، قايضوا بهدايا تذكارية اشتروها من الأسواق. وأخيرًا رفع دي جاما مراسيه واستدار مُيمّما وطنه موقنًا من أمرين: الأول أن من المستطاع القيام بتجارةٍ وفيرة الربح مع الأمراء الهنود، والثاني أن العرب الذين سيطروا على الشواطئ التجارية كانوا يتبرمون بإرسالية التبشير المسيحية.

واستغرقت العودةُ عامًا. وحدث أنَّ عاصفةً أعطبت السفينةَ (روفائيل) بحيث اضطروا إلى سحبها إلى الشاطئ وإحراقها. أما (جبريل) فقد استدارت حول رأس الرجاء الصالح مع ريح مؤاتية وقامت برحلةٍ إلى غينيا ونهر التاجة، وفي هذا النهر ألقت مراسيها –آخر الأمر– في أغسطس من سنة ١٤٩٩.

وكانت الرحلة مذهلة، كانت أكبر رحلةٍ جَرت حتى ذاك الوقت. واستكشفت البرتغال طريقًا خاصة إلى مستقر كنز الشرق العظيم. ولا عجب إذن إذا كان سفير

البندقية في لشبونة قد أرسل الأخبار، بكل ما وسعه من سرعة، إلى سادته في البندقية، إذ إن البندقيّين كانوا يعيشون من الأرباح الطائلة التي درَّتها تجارة التوابل مع عرب مصر.

وكان قِوام المغامرة البرتغالية التالية عام ١٥٠٠ ثلاث عشرة سفينة، وقوامُ الرحلة الثالثة -عام ١٥٠٢- عشرين سفينة مرة أخرى تحت إمرة دي جاما الذي قَتل كل عربيّ وقع في قبضته والذي أطلق النار من مدافعه على كالكوتا. وذبح ألبوكيرك -القائد البرتغالي الذي جاء بعد ذلك -ذبح ٦٠٠ مسلم في جُوّا. وهكذا انتقم جنود الصليب من خصومهم متجاهلين الرحمة التي يأمر بها (الصليب). وبهذا الأسلوب العنيف القاسي أقرّ البرتغاليون سلطانهم في الشرق، وما هو إلا القليل حتى ترامت حصونهم ومراكزهم التجارية بعيدًا بعيدًا حتى الصين.

وقد ظلّ البرتغاليون، أكثر من مائة سنة، أصحابَ الشرق وسادةَ المحيط الهندي وبحار الصّين.

جزائر غروب الشمس (سَنْسِت) وإمبراطوريات عجيبة:

عاش رجال البرتغال أولئك، وكذا منافسوهم تجار البندقية، في عصرٍ مليءٍ بالأعاجيب. وكان الجنود الإسبان يتقاطرون صوب الغرب على ألواج الأطلنطي الطويلة حتى قبل أن يصل فاسكو دي جاما إلى الهند.

وسارت الأمور على النحو الآتي: كان مرشد من جنوا -اسمه كريستوفر كولومبوس- يعمل في خدمة البرتغاليين في التجارة الغينيّة. وكان بحارًا عظيم الخبرة سبق له الإبحار شمالًا حتى أيسلندا. وقد أنعش في فؤاده طموحًا نهِمًا: وهو أن يبحر غربًا، لا بحثًا عن أي جزيرةٍ في البحر ولكن ليصل إلى (كاثاي) الصين وإلى (جيبانجو) اليابان وإلى جزر التوابل، رغبة في نشر الدين المسيحي. وقد أيقن أن ذلك ممكن ولذا سأل ملوك أوروبا مساعدته بالسفن والرجال. وكان ملك البرتغال

شديد الانشغال برحلاته البحرية الشرقية. وظل الملك الإنجليزي -هنري السابع- يفكر في الأمر. أما العاهل الذي ساعده فعلًا فكانت الملكة إيزابلّا ملكة قشتالة، وكانت هي وزوجها -فرديناند ملك الأراجون- حاكمي إسبانيا.

وهكذا أبحر كولومبوس -في الثالث من أغسطس من سنة ١٤٩٢ -من بالوس، في إسبانيا على السفينة سانتا ماريا (القديسة مريم) ومعها سفينتان تصغرانها كثيرًا. وكان بين البحارة بعض معتادي الإجرام الذين أجبروا على ركوب المغامرة التي أرعبت معظم البحارة. وفي التاسع من سبتمبر زايلَ كولومبوس جزر كاناري (العصفور) واندفع إلى الغرب المجهول. ولم يحلّ اليوم الواحد والعشرون من ذلك الشهر حتى تملَّكهم الخوف. وهبّت الريح، مثابرةً، من الشمال الشرقي وانقطع كلُّ أملٍ في عودتهم. ولم تقع أبصارهم -من كل هذه الدنيا- على غير البحر والسماء، ولم يطرق آذانهم غير جرْس أصواتهم وضوضاء حبال السفينة وبكراتها. وعمد رئيس بحارتهم إلى تهديدهم ومجادلتهم وإلى مخاتلتهم في صدد المدى الذي قطعوه فعلًا.

وعندما حلّ اليوم الحادي عشر من أكتوبر كانوا قد استعدوا لقتله. وبعد أن انقضى أكثر النهار رأوا أرضًا. وفي اليوم التالي نزلوا إلى البرّ. وقد دار بخلد كولومبوس أنه -على أقل تقدير- وجد طريقًا غربية إلى آسيا بل إنه يقف الآن على إحدى جزر جيبانجو (اليابان). والحقيقة أنه كان في إحدى جزر البهاما. وقد قدم له الهنود الذهبَ والحلي وسجدوا أمامه وأمام رجاله كما لو كانوا آلهة. وكان أولئك الهنود من هنود البحر الكاريبي. وبعد أن ارتادَ كولومبوس ما بين جزائر الهند الغربية عاد إلى وطنه وواصل السير حتى بالوس في الخامس عشر من مارس من سنة ١٤٩٣. وكانت رحلته الثانية التي قام بها بعد ذلك بستة شهور بعثة مسلحة قوامها ١٥٠٠ رجل وسبع عشرة سفينة. وكانت تلك حربًا صليبية إذ إن الجنود الذين أجْلوا، لتوّهم، المسلمين من إسبانيا تأهبوا من فورهم ليخضعوا الدنيا الجديدة ويدخلوها في دين

المسيح. استعمروا جزيرتي بوروتوريكو وكوبا وأكرهوا أهاليهما التاعسين على العمل في مناجم الذهب، وعمَّدوهم، وصادوهم بالكلاب كلما فروا، وضربوهم بالسياط حتى الموت.

ولم يفطن كولومبوس قط إلى أنه وقع على عتبة دنيا جديدة. وحدث أن مرشدًا إيطاليًّا آخر -اسمه أميريجو فِسبوتشي كان أول من كتب عن «الدنيا الجديدة» التي رآها. واعتاد الناس على استعمال كلمة «أمريكا» وهم يقصدون الأرض التي وصفها أميرجو.

فما الذي حدث إذن في صدد كاثاي (الصين) وجزر التوابل؟ لقد أجيب عن السؤال فورًا. رأى بعض الإسبان -من فوق قمة جبل في باناما- محيطًا جديدًا يفيض وراء الدنيا الجديدة.

وعلى أي حال فقد استكشف البرتغاليون، حتى الآن، أمريكا انطلقوا أمام الرياح التجارية الشمالية الشرقية ثم انثنوا عبر الرياح الجنوبية. ورأى مرشدوهم شاطئ البرازيل في سنة ١٥٠٠. وحدث أن مرشدًا كان يعمل في خدمة البرتغاليين -وقد سبقت له زيارة جزر التوابل بالإبحار حول رأس الرجاء الصالح- ذهب ليعمل في خدمة ملك إسبانيا وملكتها. وكان هذا المرشد: فرديناند ماجلان. وفي سنة ١٥١٩ عبر الأطلنطي إلى البرازيل واتجه جنوبًا[١] ومر عبر المضايق الطويلة التي تحمل اسمه الآن ودخل ذاك المحيط الجديد: المحيط الهادي. وقتله بعض الأهلين في جزائر الفلبين ولكن سفينته «فكتوريا» (أي المنتصرة) داومت السير إلى بورنيو وجزائر الهند الشرقية ثم استدارت حول رأس الرجاء الصالح ووصلت إلى وطنها عام ١٥٢٢. ولم ينج ممن كانوا عليها -الذين أقلعوا قبل ذلك بثلاث سنين وعددهم ٢٧٢- غير ثمانية عشر رجلًا. ولقد فاقت مأثرة ماجلان -وهي السياحة بالبحر حول الأرض- فاقت مأثرة ماجلان تلك، أحلامَ كولومبوس. ذلك أنه لم يكتف بكشف

(١) انظر شكل رقم -٧- (مخارج جنوبية من الأطلنطي).

الطريق البحرية الغربية إلى آسيا بل طاف بالبحر حول الكرة الأرضية العظيمة.

وجد جنود إسبانيا وقساوستها دنيا جديدة شاسعة المساحة يغزر فيها الذهب والفضة. وأبحروا من جزائر الهند الغربية إلى داخلية البلاد، وهناك عملوا أعمالًا هي أعظم من أن تصدق. فلقد ناضلوا في المستنقعات المميتة الموبوءة بالحمى وعبر جبال دارِبن التي تكثر فيها الغابات. وفي عام ١٥١٩ سيطر فرديناند كورتيز على إمبراطورية المكسيكيين العتيقة: نزل إلى البر وأحرق سفنه وتقدم في داخلية البلاد يصحبه ٦٠٠ رجل، وبهم هزم قبائل الأزتك الذين حكموا البلاد واستولى على عاصمتها وثبت صليب المسيح على أعلى مكان من المعبد الذي كان قساوسة قبائل الأزتك يضحون فيه بقرابين آدمية. وقد استولى على كنوز الذهب الذي كدسته قبائل الأزتك في مدى نيّف وسبعمائة عام. ومأثرة السلاح هذه بَزّتها مأثرة فرانسسكو بزارو الذي قوض الإمبراطورية الغامضة التي كانت تقيمها قبائل الأنكاس في بيرو. صنع ذلك في سنة ١٥٣١ بمساعدة رفاق لا يزيدون على المائة والستين. وقد عرفت تلك الشعوب (الأنكاس) كيف تقيم قصورًا هائلة الحجم وكيف تنشئ طرقًا طويلة من دون آلات حديدية، بل من دون أن يعرفوا العجلة، كما أنهم استخدموا المعادن الثمينة في صنع الأواني العادية على نحو ما نستخدم نحن الحديد أو الفخار. وكان حكامهم يخططون لكل كبيرة وصغيرة في حياتهم. وكانت أراضيهم تعاد تسويتها في كل عام، وطعامهم يقسم بينهم في عناية، بل إن زيجاتهم كانت تحدد لها أيام تعيّن من قبل. ولم يكن العوز معروفًا لديهم، ولم يعرفوا الانفعال إلا بعد مجيء الإسبان. وقد ملأوا حجرة بقضبان ذهبية ليفتدوا مليكهم من بزارو.

على أن مئات من جنود الإسبان هلكوا في المستنقعات والغابات بفلوريدا. ففي إحدى المرات أرسلت بعثة قوامها ألف رجل لم يعد منهم غير ٣٠٠ بعد أن قضوا أربع سنين في رحلة، بمركبات النقل، إلى المكسيك. وفي مرة أخرى لم يبلغ شاطئ المحيط الهادي، غير رجل واحد من فرقة قوامها ٦٠٠ وكانت سبيلُه إلى النجاح:

انضمامه إلى قبيلة من قبائل الهنود. وفي الحق أن الجنود الإسبان نقبوا في أنحاء تلك القارة الضخمة عن مدائن الذهب وعن الينابيع التي تكفل مياهها للناس شبابًا مقيمًا. وقد يبدو لنا الآن أن بساطتهم تشبه بساطة الأطفال غير أن صلابتهم كانت بطولية.

ولم يكن عمل رجال الكنيسة من الإسبان أقل بطولة. فقد صنع الكثير منهم كل ما وسعه ليساعد الأهلين البائسين. وعملًا باقتراحهم استدعى زنوج من أفريقيا ليعملوا في مزارع قصب السكر، إذ إن الزنوج قوم أكثر صلابة. وعمل رجال الكنيسة لا يزال ماثلًا في خرائطنا بخط كبير واضح ولئن نظرت إليها لتجدنّ أسماء مثل: فيراكروز (الصليب الحقيقي) - ترينداد (الثالوث)- سان سلفادور (المخلص المقدس) وعشرات أخرى على هذه الشاكلة. ولقد كانت الدنيا -في نظر كثير من القانتين من القسيسين والرهبان والراهبات- حقل تبشير كبير، وإنا لنجد -إلى جانب قسوة الجنود وشرههم- بِرًّا ورأفة مسيحيّين. وتجيئنا التقارير والإحصاءات -عن أهل جزائر الهند وعن اليابسة- منقولة عن دراسات الرهبان الإسبان.

توسع المعمورة:

كانت هذه تغيرات عظيمة، أعظم بالتأكيد -في تلك الفترة التي قد يعيشها امرؤ، وهي الفترة التي وقعت بين سنتي ١٤٥٣ و ١٥٣٠- كانت أعظم من التغييرات التي يسعنا التعرف عليها في أي ثمانين سنة غيرها.

فالإمبراطورية الإغريقية المسيحية -بكنوزها التي تجمعت في ألف من السنين- جرفها تيار المسلمين الجارف. فالتركي وفد على أوروبا وسيبقى بها في واحدة من أروع مدائنها جمالًا، وإلى هذا فإن جيوشه تعسكر على ضفتي الدانوب.

ثم إن البرتغاليين شقوا طريقهم -بحرًا- إلى آسيا. وأثرت لشبونة بتجارة التوابل، ووجد بحارتها شاطئ البرازيل. وأقلع الإسبان عبر الأطلنطي وأخذ مستكشفو

الطرق، الذين أوفدوهم، أخذ هؤلاء طريقهم إلى نيو مكسيكو وكاليفورنيا، وطافت سفائنهم حول الأرض. وأصبحت أعلام الصليب ترفرف على بيرو والمكسيك والحصون البرتغالية في غرب أفريقيا وفي الهند وفي جزائر الهند الشرقية. والذهب يتدفق على أوروبا: ذهب غينيا والذهب الإسباني. والتوابل والموسلين (الشاش) والأصباغ وأنواع الحرير ترد إلى أوروبا بحرًا.

وتجارة رقيق زنوج أفريقيا -الفظيعة- بدأت في الغرب.

والإغريق والترك والبندقيون والمغاربة والبرتغاليون والإسبانيون... أولئك جميعًا قاموا بأدوار قيادية في أثناء تلك الأعوام الثمانين، ترتبت عليها نتائج بقي أثرها طويلًا. ووقعت حوادث أخرى، بقي أثرها طويلًا كذلك في المدائن الإيطالية وفي ألمانيا، وسننتقل إليها في الفصل الثاني. وفي تلك الفترة ذاتها عاش في إنجلترا -في مدينة برستول- تاجر من البندقية اسمه جون كابوت وكان يتاجر مع بلاد العرب في التوابل. جهز التاجر سفينة في برستول. عليها بحارة من ذلك الثغر. وأقلع غربًا. وكان يعتمل في خلده كثير من أفكار كولومبوس، واستكشف -مثله- أرضًا غريبة. حدث هذا في عام ١٤٩٧ وهو العام الذي فيه قام دي جاما برحلته ولم يستطع أسلافنا أن يطلقوا عليها اسمًا خاصًا فأسموها نيو فاوند لاند (أي الأرض المستكشفة حديثًا) وهي ما زالت تحتفظ بهذا الاسم.

ومن ثم بدأ السماكون الجسورون -من إنجلترا وويلز وبسكاي وبريتانيا- يستقلون قواربهم في كل عام إلى شواطئ نيو فاوند لاند ليعودوا بسمك القد المملح (البكلاه) لأوروبا. ولقد كان أولئك السماكون المجهولون أمهر رجال البحر في العالم، يعملون نهارًا وليلًا، في الضباب وفي الريح القارسة وفي البحار المضطربة. لقد طيف بالبحر حول أفريقيا... وكشف الشرق الآسيوي.. وفُتحت الدنيا الأمريكية الجديدة.. كل هذا حدث في مدى لا يتجاوز مدى حياة فرد واحد! وإذا لم نقرأ قصص الرحالة القدماء فلن نستطيع مشاركة الرواد الأوائل دهشتهم عندما رأوا براكين

جزائر الهند وغابات جبال الأبالش، ومستنقعات أفريقيا المنجروفية (أي الغاصة بالأشجار التي تخرج كثيرًا من الجذور الهوائية)، وغابات الهند ومعابدها، ومعابد بورما (المسماة باجورا)، والبلدان الصينية المزدحمة الصاخبة، ورحاب المحيط الصامتة. وإن آلافًا جديدة من أنواع الصخور والحيوان والحشرات والأسماك والطيور والنبات لتنتظر علماء طبقات الأرض والحيوان والنبات ليدرسوها. ومن يدري! فلقد وردت في ثرثرة تافهة بإحدى الحانات، أو في خريطة مصورة مفقودة، أو بين أسرار ديوان ملك من الملوك -وردت أنباء قارة ظلت غير مستكشفة فلنسمها (كما أسماها البرتغاليون) «أرض الروح القدس الجنوبية، أو تِرّا أو ستراليس». ولقد وصلت سفينة برتغالية -واحدة على الأقل- إلى أخيرة القارات. وقد تُعزز هذا الرأي المدافعُ النحاسية الطويلة التي تركتها على شاطئها الشمالي.

وهكذا تجد أن أودية القرون الوسطى قد فقدت حدودها. فإن صحراوات الجنوب والشرق قد دار حولها البحارةُ كما أن المحيط الواقع في الغرب قد عرف البحارة طرقه.

المسالك البحرية:

في كل جزء من أجزاء القصة، التي تلت ذلك، معلومات عن تجارة جديدة تنشط، تجارة يزاولها الرجال الذين ينحدرون في سفائنهم إلى المحيطات. ففي النهار والليل، سنة بعد سنة، تعبر السفن والرجال الذين يعملون ويغنون بها، يعبرون المحيطات إلى أمريكا وأفريقيا والهند والصين وأخيرًا إلى أستراليا وجزائر المحيط الهادي. إنهم يحملون -يومًا بعد يوم- الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ويحرصون على بقاء أبواب التجارة الغنية مفتوحة بينهم وبين الشرق الأقصى. والمدنية -كما نعرفها- لا يمكن لها أن تدوم بغير هذا العمل المتصل وبغير تعرض البحارة للخطر والموت ومثل هذا الكد -ككد الفلاحين سواء بسواء- يظل غالبًا، غير مرعيّ لأن السواد الأعظم من سكان المدن الكبرى لا يراه رأي العين. ومن سوء حظ الكثيرين

أنهم ينطبق عليهم قول الشاعر:

قوارب خشبية قديمة مفردة الشراع غرقت بحطامها المتقطر،

إنها سفن لم يقُدها أحد قط إلى الميناء ولم تعد إطلاقًا.

ومع ذلك فالسفن والرجال -الذين يعلق عليهم المحافظة على بقاء الطرق البحرية مفتوحة- لم ينضب معينها قط.

والاستكشاف الأول عبر المحيطات يسّره اختراع البوصلة البحرية وكذلك الجهاز الذي ينظم أشرعة السفن الذي اخترعه أحد صانعي السفن بين سنتي ١٤٠٠ و ١٥٠٠. ويتركب ذلك الجهاز من ثلاث ساريات تحمل نحوًا من ستة أشرعة يستطيع مهرة البحارة تسويتها بحيث تقوى على مقاومة الرياح، وبهذا لم يعد البحارة خاضعين لرحمة تلك الرياح. أما البوصلة فإبرة ممغنطة تترجح على قطب فوق ورق مقوى به علامات. وأصل البوصلة مجهول، كأصل اختراعات القرون الوسطى الأخرى مثل الورق والبارود والأرقام العربية والبرلمانات والطباعة. وبإضافة الإسطرلاب -وهو آلة تعرف بها خطوط الطول عن طريق قياس ارتفاع الشمس والنجوم- بإضافة الإسطرلاب تُيسر البوصلة للمرشد السير في مجراه المطلوب في البحار المفتوحة، في دقة معقولة. أما طريقة معرفة خطوط الطول فقد كان على المرشدين أن يعملوا إحصاء تقريبيًّا وذلك بحساب سرعتهم بمساعدة الساعة الرملية. ولقد كانت هذه الإحصاءات -في القرن الثامن عشر- تجري في مزيد من الدقة وذلك باستخدام كرونومتر السفينة (وهي ساعة بالغة الدقة) وكذلك بالرجوع إلى جداول المواعيد والأماكن الملاحية التي وضعها الفلكيون.

وبسبب هذه الاختراعات ومغامرة أولئك الذين استخدموها مرت التجارة من البحر الأبيض إلى الأطلنطي، وإلى المحيط الهادي بعد ذلك، ونشرت الأمم الأوروبية أقوامها وأساليب حياتها وقوانينها وعاداتها وديانتها وحروبها في كل مكان من العالم.

الباب الرابع

إعادة استكشاف العلوم القديمة

ثلاث مدنيات:

الفترة التي نسميها «القرون الوسطى» هي الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والخامس عشر، أي بين سنتي ٥٠٠ و ١٥٠٠ الميلاديتين. وتلك هي القرون التي تقع بين المدنيات القديمة وبين زماننا هذا. وقد بدأت هذه الفترة بتضعضع الإمبراطوريات الرومانية في الغرب وقتما اختفى القياصرة وفيالقهم وتخربت المدائن ونسيت المعرفة والحرف الدقيقة. حدث هذا عندما دخل الفرنجة والقوط والبرجانديون والسكسون نصفَ الإمبراطورية الرومانية الغربي واستقروا يحكمهم ملوكهم وأمراؤهم.

أما نصف الإمبراطورية الرومانية الشرقي فقد ظل يحكمه الأباطرة المتكلمون باللغة الإغريقية وذلك في القسطنطينية: الحصن القوي والمدينة الجميلة التي أنشأها قسطنطين على مدخل البحر الأسود حيث تتقارب آسيا وأوروبا على أقصر مدى.

ودخل في دين المسيح الفرنجة والقوط والبورجانديون والسكسون ومَن إليهم من شعوب غابات الشمال العظمى، وبذلوا أكبر ما وسعهم من جهد لتقليد مدنيات روما القديمة. وما هو إلا وقت قصير بل بالغ القصر حتى استولى خصومٌ لهم أقوياء مهرة على كل بقاع آسيا الصغرى والعراق وسوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا. وكان هؤلاء الخصوم هم المسلمون العرب.

وقد أشعِلت الحروب الصليبية بقصد العَود إلى الاستيلاء على الأصقاع التي خرجت عن النفوذ المسيحي والتي لم تكن خصبة جيدة فحسب، بل كانت كذلك موطن المعرفة القديمة والجمعيات المسيحية الباكرة. ورفرفت راية الإسلام فوق البقاع التي مشى المسيح فوق أرضها والتي فيها بشر حواريوه بالإنجيل.

وعاد المسيحيون -كما رأينا- فاستولوا على إسبانيا بعد قرون طويلة من الحروب التخومية. وقد أنزلوا فعلًا -أعوامًا قليلة- جيوش فرسانهم في سوريا وفلسطين ولكن الحروب الصليبية أخفقت في رد المسلمين عنها. وفي القرن الخامس عشر أضاع المسيحيون القسطنطينية، وبفقدها تلاشت الإمبراطورية الرومانية في الشرق.

وإذن فقد كانت هنالك -على مدى القرون الوسطى- ثلاث مدنيات:

المدنية الإغريقية المسيحية ومركزها القسطنطينية.

والمدنية اللاتينية -أو الغربية- في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وألمانيا والجزر البريطانية.

والمدنية العربية أو الإسلامية الممتدة حول جنوب تلك الأصقاع من قرطبة في إسبانيا إلى بغداد على الفرات.

وترقد تحت المدنيات الثلاث خرائبُ الدنيا العتيقة التي ضمت بلاد الإغريق الوثنية وروما الوثنية، ترقد منسية بعد أن تفتتت وضاعت هباء. فلقد اختفت مدائن برمّتها مثل قورين (سيرين) في أفريقيا الرومانية بعد أن نسفها زلزال ولم يبق منها غير خرائب عمد رخامية مكسرة مهشمة وجدران محطمة. وكانت بلاد أخرى في أفريقيا مطمورة تحت رمال الصحراء السافية. وفي إنجلترا تستطيع الأرانب والخلد(1)، وحدها ليس غير، أن تزور أساس جدران سيلشستر مدينةِ الأبهاء والردهات الكبيرة التي تركت موحشة ثم دفنت تحت التراب السافي والحشائش

(١) الخلد (بفتح اللام) : حيوان صغير ذو عينين بالغتي الصغر وفروة ناعمة، يحدث حفرًا في الأرض ويقذف بأكوام صغيرة من الطين أو التراب.

المتعفنة. ولم يبق منها إلا بعض الجسور والطرق الطويلة المستقيمة التي أصابها البلى والتي أغرقتها وطمستها فيضانات الشتاء. وهنالك كانت المخلفات العجيبة لمساقي المياه الضخمة التي تجري فوق قناطر. مثال ذلك: بون دي جار في فرنسا التي تمتد عبر الريف، وبعض مدرجات مهجورة تغطيها الحشائش البرية، وأقواس نصر نحتت الصور على جدرانها، وقلاع وقصور حصينة تمتد على تخوم غابات بلاد الراين أو على طول سور هادريان الكبير القائم على أجم نورذمبريا العالي. أما بوابات مدينتي يورك ولينكولن وأسوار لندن، «والبوابات السوداء» ذوات الطبقات الثلاث في (ترابر) حيث عاش ذات مرة حاكم بريطانيا الروماني، أما هذى ومئات غيرها من الآثار فقد تذكّر الناس بتفوق الرومان في الهندسة، ولو بفرض أنها لم تكن تستخدم إلا محاجر لحجر البناء وإلا لصنع الكلس (الجير). وكثيرًا ما تفرس الفلاحون في جدران ريشبورو أو كايستر بعيون تملكتها الدهشة وخالوها من عمل المردة أو الشياطين! وكثيرًا ما وجد الفلاح وهو يحرث، مشبكًا (دبوسًا) من البرونز أو قدرًا مليئًا بالنقود، أو كثيرًا ما كشف اللحّاد (حفار القبور) طَوارًا (رصيفًا) من الحجارة الملونة، وأخذها صغاره كي يلعبوا بها!

وإلى هذه الآثار والخرائب البالية كانت هناك مخلفات تفوق تلك كثيرًا في أهميتها ولكنها أهملت كذلك. ففي مكتبات وخزانات وأقبية الكنائس والأديرة تتكدس كتب قديمة ومخطوطات لتمسى نهبًا للبلى. وقد بادت تمامًا وثائق البردي كما قد يبيد الورق. وأسدل النسيان على الوثائق المكتوبة على جلود الرق. وكانت تلك الكتب: مكتوبات ومسجلات الإغريق والرومان: تواريخ وأشعار وتمثيليات ورسائل وخطب وكتب رحلات وعلوم ورياضيات وهندسة وزراعة.

والكتب الوحيدة التي عني بأمرها علماء المسيحيين الغربيون لم تعْدُ الكتاب المقدس والكتابات الدينية التي كتبها آباء الكنيسة الغربيون مثل سنت أوجستين، والتي كتبها مدرسو الجامعات مثل القديس توما الأكويني، إذ فيم يكلف أي رجل

خاطره الاهتمامَ بأمر كتب الإغريق والرومان الوثنيين؟ قال أوجستين الذي عاش عندما كانت كتب الوثنيين القديمة موفورة، قال: إن الكتاب الوحيد الذي يحتاج إليه المسيحيون هو الكتاب المقدس.

ولم يكن العرب -بطبيعة الحال- يستخدمون اللغة اللاتينية أو الإغريقية أو يوجهون اهتمامهم إلى كتب أخرى أكثر مما يوجهونه إلى كتابهم المقدس: القرآن، الذي جمع تعاليم دينهم. ومع هذا ظهر من بينهم علماء يدققون في البحث والاستقصاء ويبحثون في الفلك والطب والرياضيات، علماء عرفوا بعض ما كتبه الإغريق ونقلوا إلى الغرب ثانية حكمة مجوس[1] الشرق ومعرفة فلكيي الكلدانيين وفن الأرقام، نقلوها عن حكماء الهند القديمة. ومن أمثال أولئك من علماء العرب المجتهدين عرف رجال الغرب شيئًا عن تعاليم أرسطو وهو الإغريقي الذي ربى الإسكندر الأكبر قبل المسيح بثلاثمائة عام. وقد جمعت كتب أرسطو العديدة خلاصة الكثير من معارف الدنيا القديمة. ولكن عالمًا مسيحيًا قرأ ترجمة لاتينية لترجمة عربية لكتابات أرسطو الإغريقية وقرر أن الترجمة ينقصها شيء من الدقة!

أما تاريخ الدنيا القديمة -في نظر أهل القرون الوسطى- فكان خليطًا عظيمًا، مشوشًا من قصص الأبطال والأباطرة وكلها عن الأحداث العجيبة المثيرة أو عن السحر.

وهكذا كانت الأمور تجري في الغرب، في خلال العصور الوسطى.

كان الفلاحون في كل مكان يستعينون بثيرانهم على فلح رقع أراضيهم المستطيلة. وكان أرباب الحرف في المدن يجتمعون -في نقابات طوائفهم- للعمل والعبادة والتصدق بعضهم على البعض. وكان ملاك الأرض أو الفرسان هم الخيالة الذين يحلفون لملوكهم وأمرائهم يمين الولاء ويتبعونهم إلى الحرب ويتطوعون في الحروب الصليبية أو يتنازعون فيما بينهم. وكان التجار يغامرون في البر والبحر يشترون ويبيعون

(١) المجوس قوم كانوا يعبدون الشمس أو النار.

أصوافهم وأقمشتهم المنسوجة ونبيذهم وما لديهم من جلود الحيوان غير المدبوغة. وكانت دنياهم صغيرة. فقد حبسهم البحر غربًا والغابة السوداء شمالًا. ولم يكن يعرف ما ينضم عليه جوف صحارى الجنوب غير العرب. ولم ينتقل إلى آسيا القديمة على طرق تجارة التوابل أو الحرير غير رحالة قليلي العدد.

وفوق كل المسيحيين وبينهم جميعًا كانت: الكنيسة المسيحية بأبرشياتها العجيبة وأديرتها العظيمة ورجال دينها ورهبانها ونساكها العلماء والجهال ومحاكمها الدينية وضرائبها وجامعاتها الكثيرة التي أسست لدرس كل ما له علاقة بالله وبعلة الخلق.

ولم يكد الغرب يعرف أي شيء عن الحكمة والعلوم والصناعات الدقيقة التي كان لها شأن في دنيا الإغريق القديمة. وكان الناس في القسطنطينية يتكلمون اللغة الإغريقية لا كما تكلمها الأقدمون بل مع بعض التغيير في النطق وفي الألفاظ. ولم يكن في القسطنطينية من العلماء من يعرف اللغة ويبحث فيها إلا القليلون، تلك اللغة التي كان يتكلمها كذلك سيدات البلاط الإمبراطوري اللائي وُلدن نبيلات. وكان في القسطنطينية مجموعة كبيرة جدًّا من الكتب القديمة. وعلى أي حال فإن نصارى الكنيسة الإغريقية هناك كانوا -كنصارى الكنيسة اللاتينية أو الغربية تمامًا- لا يأبهون أصلًا بالكتابات القديمة. ولم يكن هنالك كثير من الحب المفقود بين هاتين الطائفتين من المسيحيين. وبهذا الخيط الواهن تتعلق فرصة الحفاظ على مسجلات الأقدمين.

هكذا كانت الحال في القرن الخامس عشر وقتما كان البرتغاليون يقلعون في نصف الكرة الجنوبي على طول سواحل أفريقيا الغامضة، ووقتما اقتحم الأتراك المسلمون القسطنطينية تحت إمرة محمد الفاتح، ووقتما قاد كولومبوس بحارته المذعورين إلى البحر الكاريبي.

بدء التنقيب:

وفي النهاية عندما أخذت البلدان تثري من التجارة، وعندما تعلم الناس كيف يبنون بالحجر ويصنعون عروضًا جميلة من الحديد والخشب، وينسجون البديع من أقمشة المفارش الثمينة، ويبنون سفنًا كبيرة، وعندما أصبحت الحياة أكثر أمنًا وأقل عناء وكدًّا ويقظة خشية الأعداء المتوحشين، وعندما زادت الحياة مراعاة للقانون، عندئذ بدأ بعض العلماء يهتمون بالقديم من الكتب والعملة وآنيات الزهر والزينة ومن التماثيل التي خلفها الأقدمون.

حدث هذا في إيطاليا حيث انتعشت المدنية القديمة أيما انتعاش، وحيث يتسنى رؤية المخلفات في مزيد من الجلاء. ولقد كانت مدن إيطاليا أول المدن التي صارت جميلة وأثرت تجارتها. مثال ذلك: فلورانسا.. وبولونيا.. بادوا.. البندقية.. بيروجيا.. ميلانو.. وروما الكبيرة ذاتها. وكان الصناع الإيطاليون معروفين بالمهارة المذهلة في كل صنعة (وما يزالون كذلك)، يكدح كل منهم ليبز أترابه به في الإتقان. وفي القرن الخامس عشر كادوا يبلغون أجمل ما صنعه الأقدمون من الإغريق والرومان، ولهذا كان طبيعيًّا أن يبدأوا في الإعجاب بمخلفات الماضي بما لدى الصناع المهرة من غبطة.

وكان من أسبق مَن بدأ البحث والتنقيب عن الكنوز القديمة: بترارك الذي عاش في القرن الرابع عشر (من ١٣٠٧ إلى ١٣٧٤). كتب شعرًا بالإيطالية وبذا زاد اهتمامه بالألفاظ وكيفية استعمالها. وحاول أن يكتب باللاتينية، على غرار شيشرون، السياسي الروماني الكبير. وهذا حداه إلى دراسة اللغة الإغريقية القديمة. وكان شيشرون نفسه قد صرح بقوله: «الإغريق أساتذتنا في المعرفة وفي كل فرع من فروع الأدب»، وكان شيشرون -ككل الرومان المثقفين- يعرف اليونانية. وهكذا تجد أن رغبة بترارك في تقليد شيشرون قادته إلى دراسة اللغة اليونانية. وجال في إيطاليا وفرنسا وبلاد اليونان بل في شمال أفريقيا ابتغاء الكتب والعملة والنقوش والمدونات. وكان همه أن يستكشف الدنيا المفقودة، دنيا الجمال والمعرفة، تلك التي اختبأت منذ قرون.

ومن أفخر كنوزه كتاب لم يستطع قراءته وهو الشعر الإغريقي الذي نظمه هومر عن سقوط طروادة وعن رحلات بوليسيز (عولُس) «إن ذكرى الأعمال المجيدة بل إن أسماء الأقدمين من الإغريق والرومان وحدها لتملأني حبورًا». قال هذا القول وهو يصدُق على أولئك الذين جاؤوا بعده. ولقد كانوا كثيرين: رهبانًا، علماء، قساوسة، أساقفة، باباوات، فنانين، تجارًا، رجال مصارف مالية، أمراء... في كل مدن إيطاليا.

وعندما استقر في فلورانسا إغريقيٌّ من القسطنطينية -اسمه مانويل كريسولوراس- وبدأ في تدريس الإغريقية، تزاحمت حشود من الناس لتستمع إلى محاضراته. ولقد اعتذر طالب حقوق -من بين من واظبوا على الاستماع إليها- اعتذر لنفسه عن إهماله دراساته القانونية بقوله، محدّثًا نفسه: «أتأبى أن يلقنوك دراسات عن هومر وأفلاطون وديموسطين وعن كل أولئك الكتاب الذين يروي عنهم كل هذه الأعاجيب؟». ولقد نحا نحو كريزولوراس علماء إغريقيون آخرون زايل كثير منهم القسطنطينية جاؤوا يحملون كتبهم، كتبهم الإغريقية، وقد أحضر واحد منهم ٢٣٨ مجلدًا! وأرسل بعض الأغنياء من تجار فلورنسا والبندقية إلى القسطنطينية وكلاء ليبتاعوا منها كتبًا إغريقية. وبدأ البابا نيقولا الخامس جمع المكتبة الكبيرة التي لا تزال تحتل مكانها في الفاتيكان حيث يعيش البابا، قد جمع فعلًا ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مجلد.

وقد هربت إلى إيطاليا أفواج كثيرة من الإغريق وذلك قبل فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ مباشرة. وقد بقيت في مكتبتها -حتى بعد فتحها- مجموعات كبيرة من الكتب. بل لقد فاخر سفير ألماني لدى سلطان تركيا -بعد ما انقَضَت مائة سنة على فتحها- بأنه استجدى واشترى كتبًا ومخطوطات على الرق إغريقية، ملأت مركبات نقل كاملة وأعدَّها لتبحر إلى البندقية.

واستمر البحث، إذ ذاك، في كل مكان استمرارًا حثيثًا. ووجدت -في نسخ مفردة- مخلفات كثيرة من قُدامى المؤلفين وحُملت إلى بعض الأمراء أو الأساقفة أو التجار الذين دفعوا لقاءها أثمانًا عالية جدًّا.

عصر النهضة العلمية:

كان الإغريق أحكم الأقدمين قاطبة. فلا عجب إذا افتتن بهم أهل القرن الخامس عشر. وبما أن أفلاطون -وهو الفيلسوف الإغريقي الذي كتب عن سقراط، أعقل أهل أثينا- درج على التدريس لتلاميذه في حديقة باسم الأكاديمي (أي الندوة العلمية) فقد أسّست في المدن الإيطالية «ندوات علمية» اختلف إليها محبو المعرفة. وكانت كتابات أفلاطون تُبجَّل تبجيلَ الكتب المقدسة، إلى حد إن بيكو دلّا ميراندولا أوقد مصباحًا أمام مزار وقفه على تمجيد أفلاطون بل إن إيراسمُوس -وهو العالم الهولندي وأحد المبرّزين الأفذاذ- تضرّع إلى «القديس سقراط» أن يصلي من أجْله. وأهاب أحد كرادلة الكنيسة بأصحابه ألا يقرؤوا ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية وذلك لرداءة أسلوبها بالمقارنة إلى اللاتينية السامية التي استخدمها شيشرون. وقال كردينال آخر إن أحدًا لا يستطيع أن يفهم الكتاب المقدّس ما لم يقرأ كتب أرسطو الإغريقي.

ولم تكن تلك المعارف «الجديدة» -في واقع أمرها- غير معارف الإغريق القديمة أعيدَ استكشافها، لقد كانت بعثًا أي ميلادًا جديدًا.

و «عصر النهضة العلمية» هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على تلك الحقبة من الزمان. وقد بلغت النهضة أوجَها في مدينة فلورنسا في عهد لونزُو دي ميديتشي من ١٤٦٩ إلى ١٤٩٢، وفي روما في عهد ولده البابا ليو العاشر من ١٥١٣ إلى ١٥٢١. غير أن الأساقفة والنبلاء والتجار ظاهروها في كلّ المدائن طوال نصف قرن من الزمان.

ولم يكن قوام النهضة -من أول عصرها إلى آخرها- الكتب وحدها بعد أن نُقب في خرائب روما عن النقوش والتماثيل. وقد استخْفى دونا تيللو النحات استخفاءً في ثياب عامل وجال في كل مكان بمعْوَلِه ومجرفته ليستخرج دفائنها من التحف والفرائد فلم يظفر بطائل، ولم يلبث أن أكره على السعي إلى رزقه من مهنة صياغة

الذهب. وعندما وُجِد تمثالُ لاؤكوتين مطمورًا بالقرب من روما نقب عنه الفنان الكبير ميكل أنجيلو شخصيًا ونقل (التمثال) عبر المدينة في موكب كمواكب الغزاة الفاتحين: ازدانت الشوارع بالأعلام ودُقت الأجراس وأطلقت المدافع بينما كان الشعب يهلل وينثر الأزهار ونقلت النقود المعدنية والأوسمة (الميداليات) والقماقم والقوارير البرونزية وأواني الزينة ونماذج الوجوه المصغرة، نقلت أحمالًا في السفن من الجزائر الإغريقية إلى البندقية حيث دفع هواة جمع التحف لقاءها أثمانًا عالية. ولم يدر في خلد الفنانين الذين زخرفوا جدران الكنائس والمنازل أن يدخلوا في تصاويرهم، للمناظر التي وردت في الكتاب المقدس، شيئًا من صور آلهة الوثنيين وتماثيلهم! وبما أن القوم إيطاليون فقد اعتزوا بأنفسهم لأنهم من سلالة الرومان الأقدمين، وقد لبس بعضهم الشَّملة[1] تقليدًا لأعضاء مجلس السناتو الروماني. وأدعى أحد الباباوات مزهوًّا أنه من سلالة الإمبراطور نيرون.

وبصرف النظر عن كل ما صدر عن البعض من الانفعال والسلوك الغريب، ظهر كثير من نتائج العمل المضني إلى حيز الوجود. فقد قضي كثيرٌ من العلماء حياة مديدة في دراسة النحو والصرف الإغريقيين وفي تفهم الأشعار والتمثيليات والروايات والسِّير الإغريقية. وإنا لندِين بالكثير لكدهم الطويل الأناة الذي سهل جميع ما تَلى ذلك من دراسات. وإلى هذا النبوغ والتعمق في العلم، وجدت بإيطاليا، في عصر النهضة، مجموعة مذهلة من عظماء الفنانين.

فقد كان ميكل أنجلو يقْدر على نحت كتل ضخمة من المرمر، في سرعة ودقة فائقتين، في أعجب موئل للتماثيل رأته الدنيا في كل العصور. وكان ليوناردو دافينشي يجوب الشوارع ساعات طويلة بحثًا عن «وجوه» تصلح موضوعًا يرسمه بريشته، وكان يصور صورًا جمالها منقطع النظير، وكان نبوغ هذين الفنانين متعدد النواحي... كان ميكل أنجلو أيضًا شاعرًا مهندسًا. ودرس ليوناردو الموسيقى

---

(١) الشملة: كساء واسع كان الرومانيون (واليونانيون) يشتملون به.

والرياضيات وخطط لآلات تطير ولمدافع سريعة الطلقات، وإن حياته لتذكرنا بقول أفلاطون: «ما ينبغي لرجل يتبع الحكمة أن يهوى نوعًا واحدًا من العمل بل عليه بجميع الأعمال».

ولقد شحذ عصر النهضة اهتمام الناس بكل ما صنعه الإنسان وبكل ما يسعه صنعه. لقد كان «الإنسان» موضوع دراساتهم ولذا أسموهم «الباحثون في علم الطبيعة البشرية أو علم الإيمان بالإنسان».

بدأت الفترة العظيمة الأولى -من عصر النهضة العلمية- في إيطاليا غير أن تلك العظمة امتدت إلى بقاع أوروبا الغربية. وفي غير إيطاليا أمسى العلماء «إغريقيين» ومؤمنين بالإنسان: في فرنسا وفي هولندا وفي ألمانيا. وكثيرًا ما وطأت أقدام الإنجليز الطرق الطويلة الممتدة إلى فلورنسا وبولونيا وبادوا، نعم حدث ذلك في القرون الماضية عندما كانوا يطوفون -بوصفهم طلبة- منشدين أغانيهم اللاتينية. ولقد كانوا يرتحلون إذ ذاك، بوصفهم حملة مشاعل للمعرفة الجديدة، ويزورون إيطاليا لينقلوا إلى وطنهم (إنجلترا) حكمة قدامى الإغريق التي بُعثت. وكان من بين أولئك: توماس ليناكر مؤسس كلية الأطباء الملكية، وجون كوليت الذي أسس في لندن مدرسة سنت بول. وما هو إلا القليل حتى أخذت اللغة الإغريقية تدرس في أكسفورد وكمبردج.

وازداد عدد الكتب أضعافًا مضاعفة. فقد استأجر الأغنياء من هواة جمع الكتب، استأجروا النساخين لنقل كتب أفلاطون وأرسطو ومن إليهما. ولم يكن في حساب المؤمنين بالإنسان، الذين استكشفوا هذا القدر الكبير من المعرفة المنسية، أن هذه المعرفة قد تضيع مرة أخرى، وكان المفروض أننا سوف نظل ننقل كل كتبنا بأيدينا لولا أن ظهر رجل اسمه يوهان جوتنبرج كان يعيش في مدينةماينز الألمانية.

الطباعة:

اخترع جوتنبرج مطبعته حول سنة ١٤٥٠. وقد عرف الناس، قبل عهده بزمان طويل، كيف يطبعون أو كيف يصنعون وسمًا أو انطباعًا... على الشمع أو على الصلصال، بخاتم محفور. وكانوا قد بدأوا ينقشون صورًا وحروفًا على كتل من خشب ويدهنون الكتل بالحبر ويخرجون صورًا بسيطة مطبوعة، وذلك بضغطها على فروخ من الورق، من نوع الورق الذي نعرفه، لا من البردي.

وكانت صناعة الورق قائمة منذ بعض الوقت، تعلمها أسلافنا من العرب الذين يكونون قد نقلوها عن الشرق الأقصى. ثم قفزت صناعته من فورها إلى عمل عادي بسطته الخبرة العالية. وكانت خرق الأقمشة القطنية تمزق وتندف حتى تتنسل ثم تحول إلى عجين سائل كاللبن السميك، وتبيّض وتسكب على أحواض لتجف وتصير أشرطة من الورق رقيقة بيضاء، وقد كان جوتنبرج يطبع كتبه على الورق.

وأهم ما في اختراعه أنه صنع حروفًا هجائية معدنية تتحرك بحيث يمكن أن تتركب منها كلمات وسطور وصحائف تشد في إطار شدًّا محكمًا ثم تطلى بالحبر بحيث يمكن أن يضغط عليها فرخ الورق بعد الفرخ.

ولقد تعودنا على الكتب المطبوعة إلى حد أننا لا نستطيع أن نتصور الدنيا من دونها ومن دون الورق. فعندما شرع كوسيمودي ميدتشي الفلورنسي في إنشاء مكتبته طلب كتبًا من مورّد كتبه، فاستخدم هذا ٤٥ نساخًا لينقلوا بخط اليد ٢٠٠ كتاب مختلف، وقد أنجزوا هذا العمل في ٢٢ شهرًا. وكان السير جون باستون الإنجليزي ينقد نساخه بنسين لقاء نقل كل صفحة من الصفحات المخطوطة على الرّق. على أن أحسن الخطوط المكتوبة بالحبر الأسود الحالك على رق من العاج لتفوق كثيرًا في منظرها كل ما كان مطبوعًا آنذاك. وفي الواقع أن كثيرًا من الكتب المطبوعة كانت قبيحة إلى حد أن نبيلًا إيطاليًا أبى أن يقتنى في مكتبته كتابًا مطبوعًا واحدًا ولذا استمر في أن يؤجر طائفة كبيرة من النساخين لينسخوا له الكتب التي يبتغي اقتناؤها.

ولقد واتت الطابعين الأولين فرص فريدة، إذ إن كتب العالم جميعًا كانت تنتظرهم. واستقرت الطباعة، بعد بدء اختراعها، في مدى خمسين عامًا في كل البلاد الغربية، وعندئذ أضحت الكتب متقنة الصنع. فاستعملت حروف جديدة واضحة حسنة الرسم. وطبع جوتنبرج الكتاب المقدس باللاتينية. وفي إيطاليا طبع ألدوس في البندقية سلسلة عظيمة من الكتب الإغريقية واللاتينية القديمة. وكان الرعيل الأول من الطابعين يختار من بين الكتاب والعلماء.

وقد حدث أن وليم كاكستون -وهو تاجر أصواف إنجليزي كان يقيم في بروج- تعلم الطباعة هناك وجاء بمطبعة إلى إنجلترا. وقد أقامها عند ساين أوف ذي ردبيل (أي دليل السور الأحمر) القريب من وستمنستر حيث اشتغل بتلك الصناعة المدهشة. وفي الإمكان الوقوف على وصف أول الكتب التي طبعها من «تقفيلته» أي من العبارة التي يختتم الكتاب بها.

وهنا ينتهي الكتاب - المسمى: أمالي وأقوال الفلاسفة- الذي طبعتُه أنا، وليم كاكستون، في وستمنستر في السنة الميلادية ١٤٧٧. ولقد ترجم هذا الكتاب أخيرًا، من الفرنسية إلى الإنجليزية، اللورد النبيل القدير: لورد أنتوني أيرل ريفرز.

وكان من بين الكتب العديدة التي طبعها كالكستون «أسطورة القديسين الذهبية»، و«قصص كانتر بيري» لـ (تشوسر).

وقد نمّت الكتب المطبوعة الرغبةَ في دراسة الكتب وبعثت في الناس الحمية لاغتنام المعرفة التي يمكن أن تصدر عن الكتب، ويسرت المطبعة الكثير من العلماء قراءة مؤلفات الإغريق والرومان، وبغير ذلك لم يكن التعرف عليهم ممكنًا. والطباعة في الواقع هي الاختراع الذي حفظ الكتب القديمة والذي يسّر كذلك المعرفة الجديدة ونشرها بمجرد ظهورها في أي بقعة من بقاع العالم.

ولقد جاء الورق والطباعة في الوقت المناسب لإنقاذ ما بقي من حكمة الإغريق. ومنذ أن طبع الطابعون الأولون كثيرًا من الكتب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية

والإيطالية بدأ الناس يدرسون لغتهم الأصلية وإلى جانبها اللاتينية والإغريقية. وقد بدأوا يؤلفون المزيد من الكتب بلغاتهم وإن استمر العلماء في استعمال اللاتينية بوصفها نوعًا من لغة دولية.

الأرض والسماء:

كان السواد الأعظم من الناس يعتقد أن الأرض مسطحة. على أن العلماء كانوا يعتقدون أن الدنيا كرة تدور الشمس حولها. وقد صور الشاعر الإيطالي دانتي، في قصيدته العجيبة «الملهاة الإلهية»، صور الجحيم حفرة ذات تسع طبقات تحت الأرض. وصور الأعراف (أو المطهر) على أنها جبل وعر الانحدار يطلع من البحار الجنوبية. وصور الفردوس على أنه مكان أعلى من منازل السماء التسعة. وكانت تلك المنازل تحاكي كرات ضخمة شفافة يلف كل منها في قلب الأخرى.

وقد زعم كل العلماء تقريبًا أن الشمس تدور حول الأرض. غير أنه كانت هناك قلة تعتقد أن الأرض تدور حول الشمس. وهذا ما زعمه واحد من فلاسفة الإغريق القدامى. وزعم ليوناردو دافينشى أن الأرض إن هي إلا كوكب كالكواكب الأخرى. وكان الرجل الذي أثبت أن الأرض تدور حول الشمس، وتلف حول نفسها وهي تسير سيرها، هو: نيقولا كوبارنيكوس، وهو بولندي وقسيس كاثوليكي سابق درس في جامعات كراكاو، وبولونيا، وبادوا. ولقد كتب عنها بعد أن درس الرياضيات والفلك.

وذاعت أفكاره ذيوعًا بطيئًا. واستأنف آخرون عمله وبرهنوا على صحة ما ذهب إليه وبدأوا يرسمون عالم الكواكب والنجوم.

ويصح أن يقال بحق إن رحالة النهضة العلمية وباحثيها وفنانيها وعلماءها قدموا للناس دنيا جديدة ومعرفة جديدة ومعنى جديدًا للجمال وسماء جديدة.

الباب الخامس

ممالك الغرب الكبرى والدنيا الأمريكية الجديدة

الإمارات والدول:

«شخصيات هذا الجزء من الحكاية: ممالك ودول. وكانت ممالك الغرب الكبرى هي إسبانيا وفرنسا، وإنجلترا... التي أصبحت بريطانيا العظمى في عام ١٦٠٣ وقتما ورث الملك جيمس الإسكتلندي عرش إليزابيث الأولى الإنجليزية، وكانت لهذه الممالك الثلاث شواطئ طويلة على المحيط، وقد كافحت ضد بعضها البعض من أجل التجارة وأملاك ما وراء البحار، وكانت هي الممالك التي حققت أكبر الثراء من استكشاف أمريكا ومن فتح باب التجارة مع أفريقيا والهند والشرق الأقصى.

وكذلك اشتغلت دولتان، أصغر شأنًا، بالتجارة والمستعمرات، وهما مملكة البرتغال وجمهورية هولندا، وتقعان على شواطئ أوروبا.

وكانت في داخل أوروبا، بلا شواطئ، دولتا النمساويين والأتراك القويتان وحوت كل منهما شعوبًا متعددة.

وكان حكام النمسا -البالغة الصغر في حد ذاتها- يلبسون تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ذلك أنهم ورثوا الأبهة والصولة والجلال عن أباطرة القرون الوسطى الذين زعموا أنهم الخلفاء المسيحيون لأباطرة الدنيا القديمة «الرومان».

وكان أباطرة الرومان النمساويون المقدسون هم السادة الأعلين لمجموعة الممالك الألمانية وإماراتها ولولاياتها ومدنها، غير أنه تعذر عليهم إقرار النظام فيها: إذ إن ولايات ألمانية قوية -مثل بافاريا وسكسونيا وفوتمبرج- كانت تتصرف على هواها إلى حد كبير. ومع ذلك كان للإمبراطور الروماني المقدس سلطان شرعي عليها. وكان الأباطرة - بالإضافة إلى أنهم حكام ألمانيا التقليديون- كانوا كذلك ملوكًا على هنجاريا حيث عاش المجريون. وتحتم عليهم -نتيجة لذلك- حماية أوروبا من الأتراك المسلمين. ولقد تملكوا كذلك على البوهيميين الذين نعرفهم الآن باسم التشيك.

وقد حاول سلاطين تركيا أن يهيمنوا على إمبراطورية ضخمة كانت تمتد من نهر الدانوب إلى الفرات وإلى النيل، إمبراطورية أسست على الأنقاض المتعددة الأشكال لمدنيات قديمة أخذت الآن تتحطم وتتعفن وتصبح فلاة أو هباء.

وفي الناحية الشرقية كانت ينتشر - على السهول الأوروبية الكبرى- البروسيون وهم شعب تخومي من الفرسان الشجعان ومن ملاك الأرض نشأوا على حب الحرب، على غرار أمراء ويلز العسكريين لهذه الجزيرة في القرون الوسطى. وكان من خلف البروسيين: البولنديون الكاثوليك الشجعان يحكمهم ملك خاص بهم. وعلى مبعدة منهم، على مسافة جد طويلة، وجدت حول موسكو مملكة الموسكوف التي كانت بداية روسيا الحديثة. وقد أخذ تجارنا يتاجرون مع الموسكوف، وذلك عقب مغامرتين. فلقد أبحر ويلوبي وتشانسيلور إلى البحر الأبيض ومنه رحل تشانسيلور برًّا إلى قصر إيفان الرهيب الفخم.

وظلت إيطاليا بلادًا، تسعى كل مدينة فيها إلى حظها من الثراء، بلادًا لا يحسب أهلها أنفسهم إيطاليين بل رومانيين أو بندقيين أو فلورنسيين أو جنويين. وكان يحكم قلب شبه الجزيرة مندوبون من قبل البابا.

وقد أسمينا هذه الأمم والممالك «شخصيات» وكأننا نكتب تمثيلية. وقد نستطرد

إلى القول بأن للتمثيلية مشهدين أساسيين: المشهد الأول، أوروبا حيث كان الملوك يحاربون ابتغاء السلطان والبقاع: النمسا ضد تركيا، والنمسا ضد فرنسا، وفرنسا ضد إسبانيا، وبريطانيا ضد فرنسا إلخ. والمشهد الثاني، المحيطات والدنيا الجديدة حيث تسابقت إسبانيا وفرنسا وبريطانيا في مضمار التجارة والمستعمرات.

وكانت المملكة التي عقد لها التفوق في كلا المضمارين هي فرنسا. ذلك أنها كانت كأنها محور تدور حوله ثروات الدول الغربية. وكان الفرنسيون يقودون الدول المسيحية ضد المسلمين في الحروب الصليبية حتى إن العرب والترك كانوا يعدون كل غربي «فرنجيًّا» أو فرنسيًّا. وظل الفرنسيون يتزعمون المدنية الغربية في العصور الحديثة. وفي القرن السابع عشر كانت آداب السلوك الفرنسية والأزياء الفرنسية والأدب الفرنسي والعلوم الفرنسية، كانت كلها نماذج تحتذيها أوروبا بأسرها. وكانت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب بين الأمم المختلفة، لغة السفراء ومعاهدات الصلح، وقد استمر ذلك معمولًا به حتى القرن العشرين، بل إنها كانت اللسان المهذب المتمدن حتى لدى البلاط الألماني والنبلاء الروسيين. وكان احتذاء الملابس وآداب السلوك الفرنسية سمة... المرء تربى وتهذب.

مذاهب كنسية متعددة بدلًا من مذهب واحد:

وقتما أبحر كولومبوس إلى أمريكا -أول مرة- على ظهر سفينة إسبانية كان يحكم إسبانيا: فرديناند حاكم أراجون وإيزابيلا حاكمة قشتالة. وبزواجهما أصبحت إسبانيا مملكة موحدة وقويت، وأثرت بالذهب الأمريكي. وبفضل التوفيق في زيجات أخرى لم يرث حفيدهما -شارل الخامس- إسبانيا والممتلكات الإسبانية في أمريكا فحسب به ورث أيضًا تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فحكم النمسا والمجر والدويلات الألمانية (بما فيها ما نسميه الآن: بلجيكا وهولندا) وإسبانيا وأمريكا الإسبانية. ولم يسبق لملك قط أن ظفر بمركز قوي كهذا أو تعرض لمتاعب شديدة كتلك؛ ذلك أن محاولة حكم إسبانيا والإمبراطورية جميعًا، دفعة واحدة، لم

يكن بالأمر السهل إطلاقًا حتى في الآونة العادية. ومن سوء حظ شارل الخامس - الذي كان واسع الأفق- أن قامت، في حكمه وفي أملاكه، ثورة على تعاليم الكنيسة. وبما أنه كان إمبراطورًا فقد أصبح -بطبيعة الحال- حامي الكنيسة.

و«الشقاق الديني» -حسب مدلول التعبير الإغريقي- يفيد الخروج أو الانشقاق على الشريعة المتبعة. ولقد كان الشقاق الديني- الذي حدث في القرن السادس عشر والذي عرف باسم: الإصلاح الديني -كان، بصفة أخص، من عمل رجلين شهيرين هما مارتين لوثر وجون كلفن.

وكانت حال الكنيسة سيئة. فلقد كثر، بين الرهبان، المستهينون والمتوانون، كثرة فاحشة. ووجدت بين كبار رجال الكنيسة أغلبية ضخمة تتهالك على اقتناء الأرض والأموال لأنفسهم ولذويهم. وتاق الناس الطيبون في كل مكان إلى أن يروا تحسنًا في أمور الكنيسة، وأجريت إصلاحات صغيرة هنا وهناك. ففي إسبانيا كان الكهان يحكمون حكمًا شديد التحفظ. وفي إيطاليا ضربت جماعات من الناس الصالحين مثلًا طيبًا للحياة المسيحية وذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعيادة المعوزين والمرضى.

وفي إنجلترا حوّل قليل من الأديرة التالفة إلى مدارس. ولكن أكبر الاضطراب كان في روما نفسها. فالباباوات لم يكونوا دائمًا على ما ينبغي لهم أن يكونوا. فلقد حاكى بعضهم، كل المحاكاة، الأمراء العاديين، يكدسون الثروات لأنفسهم ولبني إخوتهم، ولأولاد أولئك في بعض الأحيان. ولربما كان بعضهم علماء صالحين، ولكن كنسيين طالحين. وبطبيعة الحال: إذا لم يبلغ البابا ورجال الكنيسة مستوى الصلاح الذي وجب أن يكونوا عليه فإن أمراء أوروبا ونبلاءها كانوا مثلهم فاسدين. وأمسى الكثيرون من الناس مهملين أو قل: دنيويين. وكان هناك فعلًا -قبل عهد شارل الخامس بوقت طويل نوعًا- باباوان متنافسان: واحد في فرنسا وواحد في روما. وكان ختام هذه الحالة المؤسفة عقد مجالس كنسية. وتحسنت أحوال

الكنيسة تحسنًا يسيرًا، إذا كانت قد تحسنت أصلًا. ولكنها ظلت مع ذلك سيئة إلى حد قلق معه الناس الطيبون من أمثال سير توماس مور كبير قضاة إنجلترا وصديقه إيراسموس، ذلك الهولندي الذي كان واحدًا من العلماء الأعلام في زمانه.

وكانت الكنيسة، منذ وقت سحيق، قد عملت على أن يشعر جميع الشعوب، التي استقرت في بقاع الإمبراطورية الرومانية القديمة، بأنها أعضاء في مجتمع مسيحي كبير واحد على الرغم من اختلاف لغاتهم وتعدد ملوكهم. أما الآن فقد بدأ الناس يشعرون بغير ذلك. قال رجل من البندقية يومًا: «دعونا نكن بندقيين أولًا ثم مسيحيين بعد ذلك». ولقد أذنَ الوقت بأن نقول عما قليل «دعونا نكن فرنسيين أو ألمانًا أو إنجليزًا أولًا ثم مسيحيين بعد ذلك». فلقد كانوا يفكرون في أن يكونوا وطنيين أكثر مما كانوا يفكرون في أن يكونوا مسيحيين.

وبفرض أن الحال لم تكن على هذا المنوال، بل بفرض أن الكنيسة كانت على حالٍ طيبة فإنه لم يكن بدّ من حدوث مجادلات ومشاحنات في شؤون الدين. ذلك أن اختراع الطباعة قدم الكتاب المقدس إلى كل الناس ليقرأوه وما فهم الكتاب المقدس بالأمر اليسير، وإن الناس المختلفين ليفسرون تعاليمه تفاسير مختلفة.

هكذا إذن كانت الحال وقتما كان شارل الخامس يبذل ما وسعه من جهد في حكم نصف أوروبا.

ولد مارتن لوثر – وهو ولد معدّن ألماني– في أيزليبين عام ١٤٨٣. وكان مجتهدًا فتلقى دروسًا في النحو والصرف مصحوبة بكثير من الضرب بالسوط كي يُكب على كتبه. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل جامعة إيرفورت حيث نال، في سنة ١٥٠٥، درجة الأستاذية في الآداب وأمسى قسيسًا. ثم عين مدرسًا في جامعة فيتنبرج الجديدة حيث لفتت الأنظار غيرته وتفوقه في اللغة. وكان قانتًا غيورًا على الكنيسة.

وحدث أن أمرين غيرا حياته وغيرا –تبعًا لذلك– حياة ملايين غيره:

الأمر الأول أنه رحل إلى روما عام ١٥١١ وأفزعته قلة الصلاح والاحتشام بين أسراب رجال الكنيسة.

والأمر الثاني أنه خاصم راهبًا اسمه جون تيتزل(١).

كان تيتزل يجوب البلاد ليبيع الغفران ويحصل من ذلك على أموال للبابا... تمامًا كما صنع بائع الغفران الذي تحدث عنه تشوسر. نعم إن الرجل الذي يندم حقًّا على ذنوب ارتكبها لا يضايقه أبدًا تقديم أموال للكنيسة. ولكن صكوك الغفران تلك كانت تطرح للبيع أمام الناس جميعًا بشتى أنواعها كالأدوية الرخيصة أو الفطائر المحشوة. ولم يكن عليك إلا أن تقدم نقودك وتتسلم غفران سيئاتك.

لقد كانت الفكرة حسنة ولكن طريقة تنفيذها كانت سيئة.

كان تيتزل يدق طبلة ليستجمع الناس حوله. فقال لوثر: «سأحدث ثقبًا في طبلته بإذن الله» وعمد إلى كتابة خمسة وتسعين من التقارير أو البحوث ضد المتاجرة بصكوك الغفران وإلى تعليق الرقوق على باب الكنيسة، وهي المكان المعتاد لإعلان الإشعارات، كما هي الحال الآن، في أغلب الأحيان. وقد ترتبت على هذا مجادلات عنيفة. وانحاز الكثيرون إلى رأي لوثر.

وكان لوثر ماهرًا أمينًا. وظل زمانًا طويلًا تساوره الشكوك والمخاوف حتى تنبه إلى النص الوارد «أما البار فبالإيمان يحيى» وكان هذا كالنور بالإنجيل العظيم بدد ظلام حيرته. وفكر: أي حاجة بنا إلى هذه الغفرانات ومخلفات القديسين الأثرية والحج والآبهة والمظاهر ولثراء رجال الكنيسة الفاحش؟ وفي سنة ١٥٢٠ وجه نداء إلى نبلاء ألمانيا حمل فيه على ادِّعاء البابا رياسة الكنيسة، قال فيه: «في وسع كل مسيحي أن يعرف دينه وأن يقدره قدره». وعلى هذا لا يحل لأن يقف القساوسة بين الله والناس إذ إن الناس يسعهم أن يسترشدوا بكتابهم المقدس وبضمائرهم.

---

(١) يوحنا تيتزل.

وكان هذا تحديًا للبابا وللإمبراطور تبعًا لذلك. وفي سنة ١٥٢١ استدعى لوثر لحضور «مجمع عام» أو اجتماع للمجلس الإمبراطوري في ورْمس ليجيب عن سلوكه. فلما مثل أمام شارل الخامس والنبلاء وأساقفة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في كامل أبهتهم وجلالهم، أبى أن يسحب كلمة واحدة مما سبق له قوله، فقد أوتي شجاعة فائقة. وتوقع السجن والموت: الموت حرقًا. وعلى أي حال فقد قضوا بخروجه على القانون وحرمانه من حمايته إياه، أي أن دمه أهدر لدى من يريد قتله. إلا أنه وجد ملاذًا بحصن حاكم سكسونيا، وكان من النبلاء الذين أحبوه كما كان قويًّا إلى حد لا يخشى معه شارل الخامس. وفي هذا الحصن بدأ لوثر ترجمته العظيمة للكتاب المقدس عن النسخة اللاتينية إلى اللغة الألمانية، تلك الترجمة التي أصبحت الآن أحد كنوز الأدب الألماني.

وكان لوثر شاعرًا ومتفقهًا في اللغة، وقد حدا كتبُه المقدس بمئات من الناس إلى الأخذ بتعاليمه.

واستمرت أفكار لوثر تنتشر في ألمانيا وهولندا وفي إنجلترا. غير أنه لم يكن زعيمًا يستطيع أن يؤسس كنيسة جديدة. وإلى أن جاء ذلك الوقت وجد كثيرون يبشرون ضد روما والباباوات. وكان من بينهم واحد بزَّهم جميعًا وهو جون كلفن.

كان كلفن أصغر من لوثر بكثير. ولد في ١٥٠٩. وهو ابن محام فرنسي وقد تمرن ليصبح محاميًا مثله. ودراسة القانون تشحذ الفطنة وتزيدها مضاء. وكان كلفن لا يزال شابًّا عندما طبع في سنة ١٥٣٦ «مجامع الدين المسيحي» وهو كتاب ممتاز أرسى أسس مشروعٍ مكتمل لحكم الكنيسة ولمعتقداتها. وأصبح هذا هو الأساس القوي لكنيسة كلفينية جديدة، كنيسة يحكمها رعاتها وشيوخها، كنيسة صارمة دقيقة، أدق بكثير من كنيسة روما القديمة. وقد زعمت المجامع الكلفينية أن رجالها هم رجال الله المختارون. وعندما اضطهدهم «الكاثوليك» –حسب الاسم الذي كان يطلق إذ ذاك على رجال الكنيسة القديمة– عمدوا هم إلى اضطهاد الكاثوليك.

وكان كل هذا، في الواقع، عنيفًا فظيعًا غير أن الناس عندما يبدأون في الانحياز إلى هذا أو ذاك يكره بعضهم البعض -في أغلب الأحوال- دون مبرر.

وقضى جون كلفن سنين عديدة في حكم كنيسة في جنيف إلى حيث انتقل عشرات وعشرات من الرعاة ثم انطلقوا يبشرون بتعاليمه. وكانوا -في فرنسا- يعرفون باسم «الهوجنوت» وفي إنجلترا باسم «البرزبيت» أي المشْيخيين.

ولربما كان الباباوات ورجال كنيستهم قد تطلعوا إلى أن يردوا، يومًا ما، بعض اللوثريين إلى الدين القديم. غير أن الكالفينيين قوبلوا في كل مكان بالسيف والبارود، وكانوا هم كذلك، يحسنون استعمالهما، وقد خبر الكاثوليك ذلك.

وكان باباوات روما وكالفينيو جنيف خصومًا ألداء.

وكانت نتيجة هذا كله أن جزءًا كبيرًا من الشعبين الألماني والهولندي أصبح لوثريًّا، وما يزال كذلك. وأصبح جمهور كبير من الفرنسيين كالفينيا أو هوجنوتيا. وحدثت في ألمانيا وفرنسا حروب ضارية بين الكاثوليك والبروتستانت، حروب لم تزد على أن أججت مرارة كل فريق ضد خصمه.

ومن أسف أنه كان في كل من الفريقين أناس طيبون صالحون مخلصون وأن مذاهب المسيحية المختلفة تأثرت بأوطان الناس. ففي اللحظة التي خرج فيها الأوروبيون -أول مرة- ليلاقوا الشعوب الأصيلة في أمريكا وأفريقيا وآسيا، عندئذ ذهبوا شيعًا مسيحية مختلفة بدلًا من أن يذهبوا على أنهم إخوان في المسيحية.

الملك هال المخادع:

انتشل هنري السابع الإنجليزي -وهو «الملك الحزين الوقور ذو الأفكار الجياشة» الذي كان يحكم عندما استكشف كولومبوس أمريكا- انتشل هنري السابع مملكته من شغب الأمراء ومن معارك حروب الورد ووصل بها إلى بر السلام والرخاء. واستمتع الإنجليز، في مدى أربعة وعشرين عامًا، بحكمه الحازم الرحيم.

فلقد كبح قوة الأمراء ونشط التجارة الخارجية. وبما أوتي من الاقتصاد والتدبير ترك الخزانة الملكية عامرة بعد وفاته، على غير عادة الملوك بصفة عامة. وعند وفاة ذلك الملك الرمادي العينين المتحفظ الحذر ورث عرشه ولده في سنة ١٥٠٩م باسم هنري الثامن.

كان الملك الجديد في الثامنة عشرة من عمره، وكان مرحًا وسيمًا مغرمًا بالتنس وصيد الصقور ورمي السهام شغفًا بالموسيقى ميالًا إلى العلم. وكان محبًّا للمسرة والعشرة الطيبة ودودًا طيب السجية، كل ذلك ما لم يعترضه معترض. وظل بلاطه ثمانية عشر عامًا في فرح بالأعياد وألعاب الفروسية (البرجاس) والولائم والرقص التنكري وإضاءة المشاعل والشموع في رتشموند وجرينتش. وكان لهنري -في كبير مستشاريه الكاردينال وولزي- خادمًا أمينًا حكيمًا. ولقد كان وولزي حقًّا واحدًا من الأمراء العظام الأخيرين في الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية. كان يأوي في بيته خمسمائة من السادة واللوردات ومن الخاصة والخدم. وإذا نطق -مشمولًا بالرعاية الملكية- فإن صوته هو صوت إنجلترا. وبوصفه كبيرًا للمستشارين كان تلقائيًّا «الحفيظ على الضمير الملكي». وبوصفه كردينالًا كان يتطلع إلى أن يكون يومًا هو البابا. ومع هذا فقد بدأ حياته ابنًا لتاجر في إبسوتش. ولم يتأتّ لأحد من أي ملك رعايا إنجليزي مثل أبهته وترفه، كما لم يحدث لأحد منهم أن عمل لسيده يمثل هذا الكدح والعناء.

كان هنري شديد التعلق بالكنيسة، وقد كتب كتابًا ينكر فيه مارتن لوثر وتعاليمه، ولم يتقبل مشاركة الثوار من أي نوع في أي عمل. ومع هذا لم يمض القليل حتى أخذ يشهر بالبابا.

وكانت زوجته الملكة، أميرة إسبانية، هي كاترين من أراجون. ولم ينجبا غير طفلة وحيدة هي ماري التي كانت قرة عينيه. ولكنه تاق إلى أن ينجب مولودًا ذكرًا يرث عرشه. وأغرم غرامًا عنيفًا بـ(آن بولين) من سيدات البلاط. وسأل البابا أن

يمنحه الطلاق فأبى، فما كان من هنري إلا أن أنكر سلطان البابا. ذلك أنه لم يكن ليسمح لشأن من شؤون الضمير أو السياسة أن يعترض أمرًا متى صحت عزيمته على تنفيذه. فانقلب من فوره، من رفيق حسن السريرة إلى طاغية عنيد. ونادى بنفسه رئيسًا للكنيسة، وهيأ بنفسه ظروف طلاقه، وتزوج (آن) وطرد كاترين وماري التعستين لتعيشا في الريف عيشة العوز.

وولدت الملكة الجديدة بنتًا (إليزابيث) ولم يلبث أن أمر بضرب عنق الملكة بتهمة أنها أحبت رجلًا آخر.

وقد جلبت تلك الحوادث الخزي والموت لكثير من الرجال.

وعزل وولزي (مستشاره) وقبض عليه ومات حزنًا وكمدًا. ثم إن رهبان جرينتش الورعين ونُساك (دار الميثاق) الكرثوزيين بلندن –الذين اعترضوا على الطلاق– ألقى بهم في غياهب برج لندن حيث ماتوا وتعفنوا. وقطعت رأس سير توماس مور– أحكم مستشاري عهده وأنبل رجاله –لأنه لم يغير من ولائه للكنيسة الذي لازمه طوال حياته. وحكم بالإعدام كذلك على فيشر أسقف روشستر البارّ. وألقيت مقاليد الحكم إلى توماس كرمويل وهو مغامر كان يومًا في خدمة وُلزي وخُول سلطة وضع اليد على الأديرة وعلى أموالها وكنوزها وأراضيها. وقد فعل هذا وباع ممتلكات الأديرة لحساب الملك. وشنق بعض رؤساء الأديرة. وقد عوملت غالبية الرهبان معاملة معقولة. غير أن رجال البلاد الشمالية –عندما ثاروا على القضاء، في نزق وتهور، على بيوتهم الدينية القديمة– أبادهم هنري في قسوة لا تعرف الرحمة. فلقد كانت رغبات الملك قانونًا. ومن يعترض على الإرادة الملكية فهو ثائر. والثوار يستأهلون الموت. لقد كان الأمر، من أوله إلى آخره، بسيطًا إلى ذلك الحدّ!

وكان مصدر كل هذا العنت والاضطراب رغبة الملك في الطلاق وطبيعته الفاسدة العاتية التي –على حد قول وولزي– لم تكن لتسمح لأي شيء أن يعترض رغباته. وفي الحق أن هنري كان سيئ الحظ إلى حد منقطع النظير، وذلك في مغامراته

الزوجية بعد أن طرد كاترين لتعيش في الريف عيشة الخزي وبعد أن أطاح برأس آن بولين. ولقد تزوج بعد ذلك أربع مرات. ماتت زوجته الثالثة وهي تضع غلامًا ضعيفًا هو إدوارد: الابن والوارث الذي طال انتظاره. والزوجة الرابعة -وهي أميرة ألمانية بروتستانتية- ظهر أنها ساذجة بلهاء وأحيلت على المعاش توًّا. والخامسة -التي عرف سائر الناس أنها فتاة نزقة هوائية والتي أسرت هنري بشبابها وفتنتها- لم تلبث أن قطع رأسها لأنها أحبت رجلًا آخر. والسادسة أرملة تعهدته بعنايتها وعاشت بعده. وهنرى -زوجًا- يبدو عديم الهيبة والحكمة. ولقد ترك بعد موته أسرة غريبة التنوع، ثلاثة أطفال لأمهات مختلفات: الأميرة ماري الكاثوليكية، والأميرة إليزابيث والأمير إدوارد اللذين ربيا تربية بروتستانتية. على أن هنري لم يكن بروتستانتيًّا في شيء. وظل يكره لوثر وأعماله. لم يكن يهمه غير شخص هنري ولذا كان يقدر ما يراه هو في شأن دينه. لقد عاقب البروتستانت لإنكارهم حقيقة العقيدة الكاثوليكية، وعاقب الكاثوليك لإنكارهم رياسته للكنيسة. هنري وحده على حق. ولا سبيل إلى معرفة رأي السواد الأعظم من الشعب الإنجليزي إذ ذاك، إذ الزم أغلبه الصمت الحكيم. وأغرب ما في منازعات هنري للبابا هو توقيته. فلقد حدثت وقتما كانت تعاليم لوثر البروتستانتية تكسب أنصارًا من بين الكاثوليك في كمبردج وغيرها، وهذا ما زاد صعوبة التفاهم بين طريقتي العبادة: القديمة والجديدة.

وفي المدى القصير الذي فيه جلس على العرش الصبيُّ، الملك إدوارد السادس، بتوجيه بعض النبلاء البروتستانت، انتشرت تعاليم لوثر انتشارًا واسعًا وحدث مزيد من نهب الكنائس، ومن تمزيق الأستار المنقوشة عليها صور المسيح مصلوبًا، واغتصاب الأواني الثمينة والملابس الفاخرة، وحرق الكتب القديمة، والإتلاف الشامل للأشغال اليدوية الدقيقة التي تحلي الخشب والمرمر. وقد أثرى بعض الناس، وأسست مدارس قليلة العدد، ولم تعطَ الثروة المنهوبة إلى الكنائس البروتستانتية الجديدة. وعلى الجملة كابد الفقراء مثلما ما كابدوا عندما جرد أولئك

السادة أنفسهم صغار الفلاحين من أراضيهم، وذلك لينشئوا حظائر للماشية. إنهم سادة أوجز وصفَهم أحد النبلاء بقوله «رجال طلعوا من تحت كوم سباخ».

وعندما ورثت الأميرة ماري تيودور -الكاثوليكية المخلصة- عرش إدوارد عام ١٥٥٣ هتف لها الشعب وفرح بها مستبشرًا. فلقد تربت في الكنيسة القديمة (وقد يكون ذلك عيبًا بسيطًا في نظر البعض). لقد كانت أميرة ملكية أصيلة وابنة كاترين ملكة أراجون المحبوبة. غير أن شبابها الغض عصفت به قسوة أبيها. وكان يصح أن تصبح ملكة سعيدة خيِّرة ولكنها اُمتهنت ودفعت إلى العوز بل هددت أكثر من عشرين عامًا. ثم إنها لم تزد شعبية عندما تزوجت فيليب الإسباني في أبروشية ونشستر وعندما أمرت باضطهاد عشرات وعشرات من البروتستانت أحرقوا حول الخازوق. لقد كانت حقًّا امرأة دمثة طيبة القلب في كل أعمالها اللهم إلا في حرق البروتستانت. ولا مراء في أن الاضطهاد الذي أمرت به كان له تأثير كبير في تعرض قضية الكثلكة لمقت الكثيرين. ولما ماتت، دون عقب، في سنة ١٥٥٨ ورث عرشها أختها إليزابيث.

وإليزابيث الأولى هي ابنة آن بولين تلك التي تخاصم الملك هنري- بسبب حبه إياها- مع البابا. وقد اتخذت مكان أبيها في رياسة كنيسة إنجلترا، وأعادت إصدار كتاب الصلوات الذي وضعه أخوها إدوارد لينتفع به رعاياها. كانت إنجلترا في عهدها -من الناحية الرسمية- بلادًا بروتستانتية ولكنها أكثر من ملكة بروتستانتية. ولقد ثبت أنها -كجدها هنري السابع- «أعجوبة في نظر العقلاء»، لقد حكمت ٤٥ عامًا وسط مخاوف ومؤامرات، وساعدتها شخصيتها على جعل حكمها بالغ الغرابة كالأقاصيص.

كتب مقدسة للفلاحين:

كتابان من أجلّ الكتب التي كتبت باللغة الإنجليزية في أي زمن من الأزمان الماضية خرجا من بين كل مظاهر الشغب عندما كان ذوو العقول الخسيسة يحطمون النقوش الحجرية والخشبية وينهبون المزارات ويتلفون ما لن تسعف قرائحهم يومًا في صنع مثله.

ويرجع أكبر الفضل في وضع كتاب الصلوات إلى توماس كرانمار الذي نصبه هنري الثامن أسقفًا لـ(كانتر بيري). وكثير من تلك الصلوات تُرجم عن الصلوات الكاثوليكية القديمة في سلسبري. غير أن هذه العبارات الجديرة بالذكر لا تصدر إلا من مَلك أعنَّة الألفاظ:

«يا رب، يا من عندك كل إرادة طاهرة ومشورة حسنة وعمل صالح، امنح عبيدك السلام الذي من قِبلك وليس من الأرضيات. ولتتأصل فينا وحدانية القلب لنطيع أوامرك. وبحِفظك نجنا من قيام الأعداء لكي نكمل أيامنا بكل طمأنينة وسلامة».

ولقد أحِرق كرانمار المسكين عند الخازوق بـأكسفورد بأمر من ماري تيودور، ليس فقط لأنه بروتستانتي بل كذلك لأنه طلق أمها امتثالًا لأمر هنري. ولقد ملك كرانمار هبة البلاغة وهي هبة جعلت صلواته يتردد صداها منذ ذلك الوقت في كل مكان يتكلم فيه باللغة الإنجليزية.

وفي كل مكان يُتكلم فيه باللغة الإنجليزية يدخر الناس الكتاب المقدس الإنجليزي.

وقد تمت الترجمة النهائية عام ١٦١١ على يد جماعة من العلماء الذين يتقنون اللغتين الإغريقية والعبرية. وطُبعت على أنها الكتاب المقدس الذي صدر تحت إشراف الملك جيمس. وكان أغلب أولئك العلماء من الشيوخ الذين درجوا على الاستماع إلى لاتينية الكتاب المقدس القديم والذين نشأوا على البساطة السامية التي

كانت عليها اللغة في مستهل عهد أسرة تيودور. وقد استندت ترجمتهم إلى حد كبير على أعمال وليم تيندال الذي كلف نفسه -في عهد هنري الثامن- عناء القيام بترجمة تمسي في متناول فهم كل فلاح. وإليك ترجمته ليشوع في الفقرة الخامسة والثلاثين:

«تنشرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القصر ويزهو كالزنبق. يظهر إظهارًا ويبتهج ابتهاجًا ويرنم. يدفع إليه مجد لبنان وبهاء كرمل وشارون. هم يرون مجد الأب وبهاء آلهتنا. شددوا الأيادي المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها.

قولوا لخائفي القلوب تشددوا. لا تخافوا هو ذا إلهكم. الانتقام يأتي جزاء الله. هو يأتي ويخلصكم. حينئذ تتفتح عيون العمى، وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأَيَّل ويترنم لسان الأخرس».

هذا هو تيندال. وترجمة ١٦١١ هي اليوم بين أيدينا جميعًا. وفي الإمكان مقارنتها بتلك. وقد اضطر تيندال إلى أن يفر سرًّا إلى البلاد الواطئة ليستأنف عمله دون أن تزعجه الشرطة الملكية. هذا وإن يكن هنري الثامن قد أصدر، فيما بعد، كتابًا مقدسًا إنجليزيًّا ينتفع به رعاياه. وقد لقي تيندال حتفه بسبب عقيدته البروتستانتية، فقد خنق وأحرق عام ١٥٣٦ بأمر من الإمبراطور شارل الخامس.

أما تأثير الكتاب المقدس على اللغة الإنجليزية فيجل عن الوصف. ذلك أن ألفاظه وعباراته أصبحت جزءًا من اللغة التي نتكلمها. وأن السجية التصويرية الواضحة في العبرية وبساطة الإغريقية ووضوحها لم تنتقلا بمثل البراعة التي نقلتا بها إلى الإنجليزية. ولقد كان -في نظر جماهير غفيرة- الكتاب الوحيد الذي يستحق أن يقرأ. وقد وجد فيه الكثيرون تاريخهم وجغرافيتهم كما وجدوا فيه دينهم. وقد تشربوا تاريخ اليهود كأنه سجل أسلافهم الوثنيين.

مائة السنة الإسبانية:

في القرن السادس عشر كانت أقوى دولة في العالم هي إسبانيا. وكان تاريخها مغايرًا كل المغايرة للبقاع الغربية الأخرى. نعم إنها تماثلهم في أنها كانت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. غير أنه قبل ذلك بزمان طويل كانت مناجمها ومزارعها وموانيها يديريها القرطاجنيون من أفريقيا. وبعد تدهور روما فتحها العرب المسلمون والمغاربة من أفريقيا. وظل معظم تلك البلاد تحت حكمهم -بعيدًا عن تيار المسيحية العام- حتى تجمع ملوك النصارى وفرسانهم، من الشمال والشمال الغربي، وحاربوا حروبًا طويلة انتهت بمعركة غرناطة التي انتصروا فيها.

وفي ذلك الوقت أخذت إسبانيا تزيد ثراء فوق ثراء يذهب أمريكا وفضتها. ومردّ هذا إلى رحلة كولومبوس البطولية. وبينما كانت القادسيات (وهي السفائن الإسبانية الكبيرة) الفخمة تندفع، في كل عام، بشراعها عائدة إلى وطنها مع الرياح التجارية عبر الأطلنطي، كان نواب ملوكها يحكمون الأراضي الواطئة بمساعدة المشاة الإسبان المشهورين الحسنى التدريب، إذ إنه بفضل الزيجات الملكية السعيدة أمسى فيليب الثاني الإسباني يحكم كذلك الأراضي الواطئة. وكان فرسان إسبانيا وجندها يقومون بالحراسة على مصبات الراين وعلى طول شواطئ البحر الكاريبي.

وفي كل فترة من فترات القرن السادس عشر كان النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت الجدد يزيد في مرارته. لقد كان الإسبان من الكاثوليك، ولكن رعاياهم الهولنديين كان معظمهم من البروتستانت، تمامًا كحال شعبي إنجلترا وإسكتلندا. أما الإيرلنديون فقد ظلوا من الكاثوليك.

وفي ١٥٨٨ أرسل فيليب الثاني -الذي كانت جنوده تعسكر في الأراضي الواطئة- أسطولًا ضخمًا أو «أرمادا» ليغزوا إنجلترا ويحتلها. وكانت هذه الحملة خاتمة دراما وقعت فصولها الباكرة في إسكتلندا وفي الأراضي الواطئة وفي الدنيا الأمريكية الجديدة.

ماري ملكة الإسكتلنديين:

يتصل ملوك آل ستيوارت الإسكتلنديون -عن طريق المصاهرة- بآل تيودور الإنجليزي. وكانت إليزابيث -آخر أسرة تيودور- بلا عقب وعندما توفي جيمس الخامس، فجأة في سنة ١٥٤٢ -ترك طفلةً هي ماري التي نقلتها، عندئذ، أمها الفرنسية إلى فرنسا. وهناك، عندما بلغت السابعةَ عشرة، زوّجوها من الملك الفرنسي. فلما مات بعد سنتين من ذلك، أي في ١٥٦٠ عادت إلى إدنبرة وهي أرملة كاثوليكية في التاسعة عشرة، وكانت ابنة خالتها -إليزابيث الأولى- البروتسانتية الإنجليزية قد أمست ملكة قبل ذلك بسنتين. على أن قطرا إنجلترا وإسكتلندا الشقيقين كانتا -في واقع أمرهما- «مملكتين تحكمهما ملكتان».

ولقد كانت ماري -ملكة الإسكتلنديين- إحدى الملكات البئيسات في التاريخ. ولم تكن علاقاتها بلورداتها البروتستانت على ما يرام إذ كان يعْوِزها المستشارون القديرون الحسنو التصرف. وتزوجت مرة أخرى. وكان زوجها، هذه المرة، نبيلًا شابًّا طائشًا اسمه دارنلي، ولقد ملكت لورد دارنلي غيرةٌ جنونية من (سكرتير) ماري وهو إيطاليّ اسمه دافيد رِيزْيو، فأرسل جماعةً من السفاكين الأوشاب فقتلوا ريزيو في حضرتها. وفيما كان دارنلي قد أرْقده المرض -بعد ذلك بعام- في بيتٍ بالقرب من إدنبرة اسمه كيرك أو فيلد قائم على مقربة من إدنبرة، نسف بالديناميت ومات. وقد اتجهت شبهة القتل إلى إيرْلْ بوذويل: فلما تزوجته ماري اتجهت الشبهة إليها هي الأخرى وثار عليها اللوردات. فهربت إلى إنجلترا تنشد حماية إليزابيث، فحمتها فعلًا بوضعها في قلعةٍ تحت حراسةٍ مشددَة.

وإذ ذاك كانت ماري في الخامسة والعشرين من عمرها وقد أصبح جمالها أسطورةً تدور على ألسنة الجميع. وكانت كاثوليكيةً، وفي الوقت نفسه وارثة إليزابيث وفي الإمكان أن تصبح ملكةَ إنجلترا، ولم تدْرِ إليزابيث ماذا تصنع بها. وظلت ماري عشرين عامًا تحت الحراسة تنقل من حصنٍ إلى حصن على أنها سجينة، وفي الوقت

نفسه كان اللوردات الإسكتلنديون البروتستانت ينشؤون طفلَ ماري الذكر -جيمس السادس ملك الإسكتلنديين- تنشئة بروتستانتية.

واتسعت الانقسامات والخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت وزادت عمقًا، ونتيجة لأن البروتستانت بجميع طوائفهم كانوا يبشرون بالتعاليم على جميع أشكالها، عقد الأساقفة الإيطاليون والإسبان -وكلهم من الكاثوليك- في ترنت بالنمسا عقدوا مؤتمرًا ليصدروا لوائح في صدد العقيدة الكاثوليكية والعبادة الكاثوليكية. وأسست في إسبانيا محكمة التحقيق والاستقصاء الكنسية المسماة «محكمة التفتيش» للتحقيق مع الرجال والنساء الذين يعرف عنهم أنهم هراطقة (ضالون) أو يشك في كونهم يؤمنون بتعاليم غيرِ كاثوليكية. فإذا أبدى أولئك الناس العناد يسلمون إلى مندوبي الملك ليحرقوا، ولقد حُرِقَ فعلًا عن الخازورق آلافٌ من اليهود والبروتستانت، وكان أعضاء محكمة التفتيش لا ينون عن العمل حيثما سيطر الإسبان.

وقد أسس جندي إسباني -اسمه إيجناتيوس لويولا- جماعة عيسى وهي الجزويت (أي العيسويون) بقصد حماية الدين المسيحي من أعدائه. وكان الجزويت هيئة من الناس جديرة بالاعتبار يدربون وينظمون في أشد تزمت ويتعلمون أن يطيعوا، دون تردد، أوامر رؤسائهم. وقد خالف نظامهم أنظمة كل الجماعات الدينية القائمة إذ ذاك. فكانوا يعيشون في الدنيا لا في دير مقفل، ولا يتقيدون بلبس خاص يميزهم، على أن يسمح لهم أن يحترفوا المهن العادية في الحرف والتجارة. وقد درجوا على أن يجتذبوا إليهم أناسًا من الطراز الأول في الكفاية، شأنهم في ذلك شأن كل جماعات الرهبان. وكان بعضهم يلجأ إلى الغش والدسائس ليبلغوا مبتغاهم. غير أن من بينهم القديسين والأبطال كما أن من بينهم المتآمرين والسياسيين. وقد حرم عليهم دخول إنجلترا وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام، وقد أعدم بعضهم فعلًا. «كان الجزويت يوجدون في كل بلد وينبثون -مستخفين- بين صفوف كل مهنة: علماء،

أطباء، تجار، خدم، في البلاط السويدي المناجز، في البيوت القديمة بضيعات شيشير، في حظائر الماشية بـ(كونوت)، يجادلون ويعلمون ويستولون على قلوب الشباب ويشحذون شجاعة الجبناء ويحملون الصليب أمام عيون الموتى.... لقد انبثوا في أعماق مناجم بيرو وفي أسواق قوافل الرقيق بأفريقيا وعلى شواطئ جزائر البهار وفي مراصد الصين... ولقد كانوا يبشرون ويجادلون بلغات لم تكن أي أمة غربية تفهم منها كلمة واحدة».

وكان مجمع ترنت ومحكمة التفتيش وجماعة عيسى هي الوسائل التي توسلت بها الكنيسة الكاثوليكية لرد البروتسانت إلى ملتها. ولقد قامت حروب دينية، فيها اقتتل المسيحيون البروتستانت والمسيحيون الكاثوليك، وقتل بعضهم بعضًا. بدأت تلك الحروب في ألمانيا. وقبل عام ١٥٧٠ تحارب الكاثوليك والهوجنوت، الموجودون بفرنسا ثلاث حروب أهلية.

انقسمت المسيحية على نفسها ولم يكن هنالك ما يبشر بالسلام. غير أنها بقي لها، مع ذلك، أعداؤها القدامى. ففي الجنوب كانت أساطيلُ الأتراك العثمانيين تهدد بتطهير البحر الأبيض المتوسط من السفن المسيحية. ولقد غضب سلطان تركيا الكبير -سليمان العظيم- من هجمات فرسان القديس حنا بعد أن نهبت سفائنهم الكبرى التجار المسلمين فضرب حصارًا على جزيرة مالطة في سنة ١٥٦٥. وقد كابد الفرسان -أكثر من ثلاثة أشهر- الهجمات المتلاحقة غير أنهم احتفظوا بقلاعهم وأنقذوا مالطة عام ١٥٧١. ودمر دون جون النمساوي -الذي عقدت له قيادة سفن إسبانيا والبندقية- الأسطول التركي في نصر مدوّ بالقرب بين ليبانتو، وفقد سرفانتس -وهو الإسباني الذي ألف رواية دون كيشوت- فقد يده في تلك الموقعة الضارية. على أن الأمم المسيحية الأخرى كانت أكثر انشغالًا بشؤونها الخاصة من أن تشارك في محاربة تركيا.

وما كان عسى أن تصنع الملكة إليزابيث الإنجليزية بماري ملكة الإسكتلنديين التي

كان من أمرها ما قد يحمل السادة الكاثوليك على أن يتآمروا عليها ويثوروا ضدها؟ وكانت محكمة التفتيش والجزويت يدبرون هجومًا مضادًّا على البروتستانت، وكانت ماري هي الوريثة الكاثوليكية للعرش الإنجليزي.

وعلم البحارة الإنجليز الموجودون في البحار الضيقة بكل شيء عن ذاك الهجوم الكاثوليكي المضاد. وعلى بعد أميال قليلة من مصب التيمز كان نواب الملك فيليب الثاني الإسباني يبذلون قصاري جهدهم لتحطيم بروتستانتي البلاد الواطئة.

الهولنديون:

استعمر الأراضي الواطئة الواقعة بالقرب من نهر الراين العظيم ومن نهر الـ(ماس) الذي يصاحبه، استعمرها، في القرون الوسطى، الهولنديون الذين -على حد تعبير أحد المؤرخين- «اقتلعوا» أرضهم من البحر. ولقد استطاعوا -بالمصارف والسدود والقنوات- أن يتعلموا كيف يسيطرون على مسيل الماء العذب وماء البحر بين الملاحات وجزر شواطئها. ولقد كانوا رعايا الإمبراطور الروماني المقدس شارل الخامس، وبتنازله انتقلوا إلى تبعية فيليب الثاني الإسباني. وقد نجحت التعاليم البروتستانتية في اجتذاب كثير من الكاثوليك السابقين.

ولقد كانت تلك الفترة عصيبة، بسبب الخصومات الدينية والاضطهادات، ففي فرنسا قام الكاثوليك -تشد أزرهم الملكة الوالدة كاترين دي مدتشي- بمذبحة مفاجئة غادرة بين الهوجنوت الفرنسيين، عشية عيد سنت بارثولوميو من سنة ١٥٧٢. وفي إنجلترا خشيت إليزابيث الأولى أن يغتالها السادة الكاثوليك الذين رغبوا في إجلاس ماري -ملكة الإسكتلنديين- على العرش. وفي إسبانيا كانت محكمة التفتيش تفتش عن البروتستانت اليهود وتعدمهم، وأزمع فيليب الثاني على أن يمحق الدين الجديد من كل ممتلكاته.

فأرسل فرق مشاته المشهورة إلى الأراضي الواطئة لتقمع نواب المقاطعات

البروتستانتيين في المدن الهولندية المتجمعة حول مجاري الماء. وقد خربوا المدن ولكنهم، مع ذلك، لم يستطيعوا أن يقضوا على البروتستانت. وفي سنة ١٥٧٢ - عندما استولى بعض البحارة (من الملقبين بمتسولي البحار) على بريل، وهي مدينة ساحلية صغيرة- عندئذ انفجرت الثورة انفجارًا ضاريًا. وأصبح صيادو السمك وأصحاب الحوانيت وأرباب المهن والفلاحون والبحار، أصبحوا أبطالًا يحاربون -في وقت معًا- جيشًا كاثوليكيًّا وأجنبيًّا كذلك. وعندما حوصرت بلدة ليدن كسر حماتها السدود فردوا إلى البحر حقولهم التي كسبوها بكدهم. ونهب الإسبانيون أنتورب (أنفرس) وذبحوا من أهلها ثمانية آلاف.

وإلى أن حلت سنة ١٥٧٩ كان دوق بارما -وهو القائد العام لفيليب- قد تمكن، بإشاعة الرعب، من استرداد العشرين مقاطعة الجنوبية. واستغاث أهل الشمال بالفرنسيين لينجدوهم غير أن الفرنسيين كانوا مكروهين كالإسبان، وكابدت أنتورب (أنفرس) هذه المرة من الغضب الفرنسي المحطم. وتبددت آمال الهولنديين مرة أخرى في سنة ١٥٨٤ عندما أقدم مجنون على اغتيال وليم أمير أورانج الذي كان يقود المقاومة ضد فيليب.

وكان مصدر النجدة الوحيد المرتقب، هو إنجلترا حيث كانت إليزابيث الأولى ووزيرها الحذران سسيل ووالسنجهام يرقبون في اهتمام وينتظرون الحوادث. وكان مما كشفه جواسيس والسنجهام: مؤامرة ترمي إلى استخدام الجيوش الإسبانية في إجلاس ماري، ملكة الإسكتلنديين، على العرش. بل إن دون جون النمساوي -الذي انتصر في لبيانتو- عني بفكرة إنقاذ ملكة الإسكتلنديين التعسة.

ولما كان شعب الملكة إليزابيث شعبًا جزيريًّا كانت الحوادث متوقفة على ما يفعله البحارة الإنجليز.

رواد البحر الإنجليز ودريك:

كان لاستكشافات ما وراء البحار -على إنجلترا- أثر عميق. فلقد أصبح المحيط الغربي -الذي كان يومًا سدًّا من مياه لا تحد- طريقًا عامة للمغامرة تومئ إلى أبناء إنجلترا بالانطلاق. وأخذت السفن والبحارة، منذ ذلك الوقت، تملأ صدر صورة نشاطها، واعتلت البحر المجازفة والبطولة.

«النازلون إلى البحر في السفن العاملون عملًا في المياه الكثيرة هم رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق. أمر فأهاج ريحًا عاصفة فرفعت أمواجه ويصعدون إلى السموات ويهبطون إلى الأعماق».

وردت تلك الكلمات -المذكورة في المزمور ١٠٧- عن البحر الأبيض المتوسط. ووجد ملاحو عصر إليزابيث أنها تصدق على بحار أوسع مدى وأشد تعرضًا للعاصفة، بحار فيها:

... صفارة الملاح كأنها همسة في أذن الموت لا يسمعها أحد... وقد يمكن تقدير استجابة الملاحين من الوصف الذي قدمه سير همفري جلبرت في قوله: ما استحق أن يعيش على الإطلاق من يجافي خدمة بلاده أو شرفه خوف الخطر أو الموت، إذ إن الموت محتوم وذكر الفضيلة خالد.

أبحر جلبرت -في ١٥٨٣- على الـ(سكويريل) (وتعني: السنجاب)، التي تزن عشرة أطنان، في عاصفة على مبعدةٍ من جزائر الأزورز (وهي الجزر «الخالدات» في شمال الأطلنطي). وقد أخذ يصيح صيحة الفرح عندما غاصت سفينته في الماء المصطخب بين الأمواج، قائلًا: «نحن قريبون من السماء في البحر والبر سواء بسواء». وبعد أن انقضي على ذلك سبع سنوات قاتل سير رتشرد جرينفل بسفينته ريفنج (أي الثأر) -عند فلورز في الجزائر الخالدات -ثلاثًا وخمسين سفينة إسبانية كبيرة مدة خمس عشرة ساعة، ثم استسلم ومات على ظهر سفينة للعدو، وهذه أعجوبة أَدهشت أمراء الإسبان ذوي الوقار والتؤدة.

هذا أنموذج من ملاحي عصر إليزابيث. وأعظمهم قاطبة: سير فرانسيس دريك الذي أصبح اسمه لدى الإسبان أسطورة. وهذا الاسم «إل دراكي» كلمة فحواها الرعب. ولقد رأى -في إحدى زياراته للسفينة الإسبانية «مين» (ومعناها عرض البحر) رأى المحيطَ الهادي ونذر الإقلاع على ظهره، وأقلع -في سنة ١٥٧٧- من بليموت على الـ «بليكان» (أي البجعة) ترافقها أربع قربنات. سايرت الشاطئ البرازيلي وسلكت مضايقَ ماجلان، وكانت قد تركت قبل ذلك سفينتين صغيرتين على شاطئ أمريكا الجنوبية، وعندئذ غرقت «ماري جولد» بكل من عليها في عاصفةٍ هوجاء مِن الريح والمطر. واندفعت «إليزابيث» أدراجها صوبَ الوطن، وأقلع دريك وحده مغيرًا على المدينتين الأمريكيتين التابعتين لإسبانيا وهما فالباريزو وليما، واستولى على «كاكافويجو» وهي سفينة كبيرة تحمل النفائس، ومنها استخرج ملاحو ديفونشَير الشبان -والبشر يملأ نفوسهم- «١٣ صندوقًا ملؤها صحافٌ زنتها ٨٠ رطلًا من الذهب و ٢٦ طنًا من الفضة» وصعد شمالًا حتى أقر رجاله على شاطئ كاليفورنيا الذي أسماه نيو ألبيون. وعاد فأبحر غربًا إلى الـ (جزائر) ملقا (أي جزائر البهر) ثم استدار حول رأس الرجاء الصالح، وبعد رحيله بثلاث سنوات رأى أهل بليموث سفائنه تأتي لتلقي مراسيها، وفي تلك الليلة ذاعت قصص عديدةٌ في ميناء الإقليم الغربي.

وفي ١٥٨٥ جهز أسطولًا من ٢٥ سفينة وذهب به إلى إسبانيا، والمياه الإسبانية على فيجو وسان دومينجو وقرطاجنة، وأصبح دريك يحارب إسبانيا لحسابه الخاص.

الأرمادا الإسبانية[1]:

شارفت المأساة الطويلة على نهايتها، اتهمت ماري ملكة الإسكتلنديين، في سنة ١٥٨٦، بالتآمر على إليزابيث، وربما كانت بريئة، وحكم عليها بالإعدام، ونفذ الحكم في حصن فورذر ينجاي عام ١٥٨٧. وبهذا ضاع الأمل في أن يرث العرش الإنجليزي كاثوليكي، إذ إن ابن ماري -جيمس السادس الإسكتلندي- كان بروتستانتيًّا.

وفي ١٥٨٧ أيضًا رخصت إليزابيث لصفيّها -إيرل ليستر- في أن يقود قوة من المتطوعين الإنجليز ليخفّ إلى نجدة الهولنديين.

وقر قرار فيليب الإسباني على أن يغزو إنجلترا ويخضعها ثم يصفي حسابه مع ثوار البلاد الواطئة. وظل سنة يجمع السفائن والمؤن والمعدات من موانئ إسبانيا والبرتغال وإيطاليا ويبذل ذهب الدنيا الجديدة وفضتها في إسراف لا حد له. وقد عمد دريك -الذي لم ينقطع عن النظر إلى شواطئ الأعداء على أنها حدود إنجلترا- عمد إلى تحطيم ٣٧ سفينة إسبانية في ميناء قادس. على الرغم من هذه المحنة ظل فيليب يشغل ما عنده من أحواض السفن ودور الحدادة ومصانع الأسلحة ويثابر على الاستعداد لما كان يعده حربًا مقدسة. وكان رجاله من السادة تتحرق قلوبهم بحماسة محاربي الصليبيين، وقد أطلقت على سفن فيليب أسماء مريم والحواريين والقديسين. وأعد في دنكرك جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا من المشاة: الإيطاليين والألمان والفلمنك والإسبان وجهز له سفائن مفرطحة القاع تسهل نقلهم بمجرد وصول الأرمادا من إسبانيا.

أما إنجلترا وإليزابيث فقد عمدتا إلى المراقبة والانتظار. وعسكر في تلبوري الجيش الملكي بأمرة رئيس الحرس الملكي سير وولتر رالي. واتخذ الملاحون

---

(١) انظر شكل رقم ٨ -(محاولة أسبانية لغزو إنجلترا في سنة ١٥٨٨).

مراكزهم: ونتر و سيمور على مبعدة من كنت، وهووارد ودريك و هوكنز في بليموث.

وفي التاسع عشر من يوليو من سنة ١٥٨٨ رؤيت أرمادة فيليب على مبعدة من ليزارد -وكان قوامها ١٣٠ سفينة- مبحرة، على شكل نصف قمر واسع المدى، تسبح في ريح عاصفة. وأفلت أسطول بليموث وأصبح بمأمن من السفن الإسبانية، واستولى على اثنتين منها. وفي الثالث والعشرين والخامس والعشرين من يوليو حدثت اشتباكات على مبعدة من بورتلند، وجزيرة وايت نجم عنها هروب السفن الكبيرة واحتماؤها بالشاطئ الفرنسي. وبعد رسوها على هذا النحو طاردتها السفن الإنجليزية المقاتلة وأرعبتها. واستدارت شمالًا -وهي بعدُ أسطول كبير ولكنه غير منظم- فتعقبها الأسطول الإنجليزي فورًا. وقاتل الإسبان في شجاعة -وقد أقلَّ ذاك الأسطول كل فرسان إسبانيا ونبلائها- ولكن الجو والتقاليد الملاحية لم تسعفهم. وشحت ذخيرة الإنجليز فكفوا عن الملاحقة بعد شاطئ نورفولك.

فأين يا ترى يذهب الإسبان الآن؟ لقد تجادلوا فيما بينهم. لقد أجابت البحار عن هذا السؤال بالعاصفة العظيمة التي هبت. وبعد أن كابد الأسطول كربَ العواصف والأمراض والعطش أخذ أقل من نصف الأسطول يناضل حول آخر الصخور المخيفة: من بعد جنوب أيرلندا الغربي إلى إسبانيا. وقد غرقت -أو أسرت- خمس سفائن. وغرق ما بقي من السفن في البحار الشمالية أو طرح على الشواطئ الموحشة في إسكتلندا وأيرلندا. ومات من العطش بحارتها -الذين برّح بهم التعب- أو خاضوا إلى الشاطئ حيث ذبحهم الإيرلنديون. وتكومت الحطام، على شواطئ سيلجو، أكداسًا أكداسًا.

«أرسل الله رياحه ففرقتهم» بهذه العبارة أبدت إليزابيث شكرها. وكانت لفيليب الثاني الإسباني شجاعته، فقد قبل الهزيمة ولكنه أزمع في الحال على أن يحاول من جديد. والواقع أنه جهز أسطولين آخرين حطمتهما الأنواء قبل أن يبلغا البوغاز.

إنجلترا في عصر إليزابيث:

ظلت إليزابيث الأولى تحكم إنجلترا ١٥ سنة أخرى بعد تحطيم الأرمادا، وهي ملكة فذة حقًّا، عاتية، عالمة، ألمعية، غضوب، مختالة، نزقة، مدبرة، لم تزفّ إلى أي أمير بل تزوجت إنجلترا، وقد أضفَت اسمها على عصرها.

لقد كان عصر ملاحين عادوا إلى وطنهم بقصص عن: كهوف شاسعة، وصحاري متوخمة، ومحاجر وعرة، وصخور وتلال تطاول هاماتها السماء، والنمنميين (أكلة لحوم البشر) الذين يأكل بعضهم بعضًا، والناس الذين تنمو رؤوسهم تحت أكتافهم.

وقد جمع القس ريتشارد هاكلويت حكايات ومذكرات عن كل ما أمكنه جمعه من رحلات، وطبعها في سنة ١٦٠٠ في كتاب ينبض بالحماسة عن المغامرات البحرية اسمه «الرحلات البحرية والبرية والاستكشافات التي قام بها البحارة الإنجليز». وأقلع أحد أقرباء الملكة -إيرل كمبر لاند- بسفينته «ماليس سكوراج» مرات عديدة لينهب الشاطئ الإسباني. وذهب وليام آدامز -وهو مرشد بحري من لايمهاوس- مع السفن الهولندية إلى اليابان حيث عاش بقية حياته مستشارًا بحريًّا للميكادو.

وأمست مناطق من العالم كانت مجهولة، أمست مواضيع مألوفة على ضفتي التايمز. فكنت ترى في أي حانة من حانات لندن خليطًا من جوّابي البحار: ترى الرجل ذا المنديل المزخرف حول عنقه الذي عاد من الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط بعد أن احتكت سفينته بقرصان مغربي بعد جبل طارق. وترى الرجل الذي لوحته الشمس صاحب العيون المتغضنة وقد قضى سنة على سفينة نحاس بين غينيا وجزائر الهند الغربية. وترى آخر يعمل لحساب الشركة الموسكوفية العتية، ترقد سفينته في النهر وعليها زيوت وأخشاب. وهذا في استطاعته أن ينبئ عن انعكاس الأنوار الشمالية على الثلوج الروسية وعن الأراضي المدرجة الخشنة المكثفة، كأنها حزم من الفراء. وترى الرجلين الأصفرين يتكلمان بلهجات الأصقاع الغربية الناعمة -تلك اللهجات التي يستعملها سير وولتر رالي في البلاط- تراهما وقد جاءا من

سفينة توماس كافنديش، بعد رحلة حول العالم، تحمل غنائم كانت على ظهر سفينة إسبانية كبيرة. ويشتغل الباقون بالتجارة الساحلية، وربما يكون بعضهم قد أفلت أحيانًا وعبر إلى هولندا ليسعف الهولنديين. وما من شك في أن البحر كان يهيب بأهل الجزيرة أن يشدوا رحالهم. وقد شهد عصر إليزابيث محاولاتهم الأولى للمغامرات العظيمة التجارية منها والإمبراطورية.

وكذلك كان هذا العصر عصر كبار الشعراء ومؤلفي الروايات التمثيلية. كتب إدموند سبنسر قصيدته المشهورة «الملكة الحورية». غير أن كل رجل من رجال البلاط يسعه أن ينظم شعرًا جيدًا. وفي ملهى جلوب بـ.. سوثورك تيسر لأهل المدينة ولصغار الصناع ولطلبة الحقوق أن يشهدوا تمثيليات وليم شكسبير. لقد تيسر لهم أن يرقبوا شايلوك اليهودي يطالب أنطونيو «تاجر البندقية» برطل اللحم. أو بُوتوم النساج الأثيني –الذي يحوله السحر رأس حمار– ينتحب إلى تيتيانا ملكة الجن. أو فالستاف –الفارس البدين– يستخفي في سلة من كتان قذر ليفلت من غضب أزواج «زوجات وندسور الطروبات» أو يستمتع بالتمثيليات التي تظهر الأبهة والفخفخة الملكيتين اللتين سادتا حروب الورد. وحدث –مرات– أن مثل الممثلون رواية في بلاط الملكة كما صنعوا بتمثيلية «الليلة الثانية عشرة». وكثيرًا ما طوّفوا بالبلاد يشتغلون في دور كبيرة مثل ويلتون في سمرست.

وكانت لندن مكانًا صغيرًا. كان هناك بجع في التايمز، وحدائق ورد في ستراند، وبساتين كرز في بيرمَندسي، وكان ما نسميه إيست إند (أي الطرف الشرقي) خلاء تنمو فيه أشجار البلوط (الفرو) والمزارع. وكانت مركبات الدريس تتكدس يوميًا في السوق والسائمة تساق إلى المجازر (السلخانات). وكانت القرى الريفية –أمثال إسلنجتون –و– كامبرويل– تعد أنها على مسيرة قصيرة من المدينة. ولم يكن أهل المدن قط بعيدين عن أهل الريف: الحراثين والحصادين والدرَّاسين ومسقفي البيوت بالقش. وفي الصيف كانت تقام في القرى مراقص على المزمار والدف وملاعب

في دور الرقص الغربي الذي يقوم به تسعة رجال. وكانت تقام هنا وهناك حلقات للمصارعة ولسباق الأرانب. وكان هناك نوع من «كرة القدم المطاردة» تلعب طوال النهار عبْر رقع واسعة من الخلاء. وفيها يستطيع الناس أن يستعملوا الهراوات بل أن يتباروا على ظهور الخيل! والباعة المتجولون –مثل أوتوليكوس في تمثيلية شكسبير– يجولون بعروضهم. ولا مراء في أنهم كانوا يمرون على البيوت الجديدة في الضيعات، تلك البيوت المبنية بالآجر الأحمر والخشب والمزودة بمداخن ملتوية عالية تقوم في حدائق زخرفية ذوات شرفات وسياجات مقلمة ومرْجات ناعمة ومماشٍ مغطاة ومقاعد مظللة. ولا بد للسادة والسيدات أن يهيئوا وسائل تسليتهم كما قد يصنع القريون. وبعد العشاء تدار كتب الموسيقى على الجميع، لغناء الأراجيز والأنشودات الغزلية، بحيث تغنيها أصوات كثيرة في أجزاء كثيرة مختلفة. ويحق لإنجلترا في عصر إليزابيث أن تفاخر بموسيقييها العديدين من أمثال جون ولبي –ووليم بيرد اللذين كانت أغانيهما تغنى بمصاحبة المزْهر (أي الطنبور).

وبعد أن تنتهي الفرقة من الغناء تطفأ الشموع وينصرف الجميع توًّا إلى النوم ويسود البيتَ السكون. وفي بيت من هذا القبيل يدخل الملك أوبيرون والملكة تيتيانا، تتبعهم حاشيتهم من الجنيات، في «حلم ليلة من ليالي منتصف الصيف» لشكسبير، لتحرسه وتهندمه.

ومن خلال هذا البيت يظهر بصيص من الضوء:

من النار الهامدة الوسنانة.

لقد غنى الناس أغانيهم وذهبوا ليصيبوا قسطًا من الراحة. والجذوات في المصطلَى الكبير تنبض وتموت لتصبح رمادًا.

وفي عام ١٦٠٣ كانت السيدة الموجودة في هذا البيت الكبير –وهو إنجلترا– تقترب من نهايتها. لقد كانت ملكة ٤٥ عامًا وكانت آخر أفراد أسرتها. ولقد عمرت بعد أحبابها وأعدائها. وقد توفي وزيراها وولزنجهام –و– بيرجْلي. ومات فيليب

الإسباني. وفي الرابع والعشرين من مارس ماتت الملكة في رتشموند. ولم يكد سير روبرت كيتسبي يسمع الخبر في ستاتلي حتى امتطى صهوة جواده وخبّ حتى وصل إدنبرة ليحيّ الملك جيمس السادس ملك الإسكتلنديين بوصفه جيمس الأول ملك إنجلترا.

وانتهى عهد.

قرن جديد:

أصبحت إسكتلندا وإنجلترا - أول مرة في تاريخهما- مملكة متحدة تحت حكم ملك واحد من أسرة ستيوارت. غير أن جيمس الأول -الذي جاء راكبًا صوب الجنوب عام ١٦٠٣- لم يكن الملك الوحيد على المسرح... في فرنسا انتهت الحروب الدينية بانتصارات زعيم الهوجنوت هنري النافاري. وعندما أصبح -في ١٥٩٤- الملكَ هنري الرابع وتحول كاثوليكيًّا ترك للهوجنوت حرية العبادة. وفي إسبانيا جلس على العرش -مكان فيليب الثاني المتحمس المجتهد- فيليبَ الثالث اللين العريكة. وظل - هو وعظماء الدولة- يحكمون إمبراطوريتهم الأمريكية ويجنون منها أحمالًا من الذهب والفضة، كما ظلوا يحكمون الأراضي الواطئة الجنوبية («الأراضي الواطئة الإسبانية»). وكان هولنديو الأراضي الواطئة الشمالية قد ظفروا من إسبانيا بحريتهم ولم يلبثوا أن أبدوا مهارة وشجاعة وإقدامًا.

ولا مراء في أن بداية القرن السابع عشر كانت بداية عصر جديد من التجارة في المحيطات والحروب الدينية.

وقد برهن الهولنديون -وقد هدْهدَهم البحر الذي منه استخلصوا وحموا أراضيهم الشاطئية الخصبة- على أنهم أمة بحارة وتجار. طردوا البرتغاليين من جزائر البهار وأنشأوا مصانعهم ومستعمراتهم في جزائر الهند الشرقية حيث بقيت إمبراطوريتهم حتى ١٩٤٦. وقد استحقوا لقب «ناقلي بضائع العالم» لأنهم حملوا البضائع إلى

كل الشعوب، وأصبحت أمستردام ميناء لأوروبا. ونقلوا الرقيق من غرب أفريقيا إلى جزائر الهند الغربية كما نقلوا السكر من جزائر الهند الغربية. وأقاموا مستعمرة في نيويورك (التي كانت قبل ذلك تسمى: أمستردام الجديدة) واشتغلوا بتجارة الفراء الأمريكية. ونقلوا جالية صغيرة إلى رأس الرجاء الصالح كانت بداية لمستعمرة البوير في جنوب أفريقيا. وفتش مرشدوهم البحار الجنوبية واستكشفوا تسمانيا ولمحوا أستراليا، كل هذا فعلوه في خمسين عامًا. ونتيجة لتجارتهم، أيسرت مدائنهم وبنى نواب أقاليمهم لأنفسهم بيوتًا أنيقة. وانتعشت هولندا. وكان هذا هو العصر العظيم للفن الهولندي. وُلد الفنان الشهير رمبرانْت سنة ١٦٠٧. ومع أن صغر هولندا منع الهولنديين عن أن يصبحوا شعبًا من أقوى شعوب الغرب فقد قاموا بدور قيادي في مصاير الغرب.

وقد ملأ الهولنديون البحار بأرجوزاتهم (أي بسفنهم الشراعية التي تحمل بضائع ثمينة) غير أن الإنجليز لم يتلكأوا وراءهم على مدى بعيد. ففي عام ١٦٠٠ أرسلت جماعة من تجار لندن، إلى الشرق، قافلة من السفن عادت في ١٦٠٤ بحمولة عظيمة من الفلفل. ونتيجة لهذه المغامرة نمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ذات النفوذ العريض والسيطرة البريطانية على الهند. وغامر تجار إنجليز آخرون بالسفر إلى أفريقيا وجزائر الهند الغربية وإلى تركيا وشرق البحر الأبيض المتوسط وشمال روسيا. وقد تاجر الهولنديون والإنجليز -كلاهما- في البلطيق.

ولم يلبث الشعبان أن أصبحا في التجارة متنافسين غيورين. وفي القرن نفسه -فيما بعد- اشتبك أسطولاهما في ثلاث حروب، في البحار الضيقة، شكسة مروعة. ومن حسن الحظ أن ذلك لم يولّد أي مرارة مستمرة أو كراهة، إذ إن الدنيا كانت تتسع لهما كليهما.

وفي الحروب الدينية لم تقف المرارة والكراهية عند حد. والحادث الذي بدأ في ١٦١٨ -في الأراضي الألمانية- ظل قائمًا حتى ١٦٤٨: حرب دامت ثلاثين عامًا

فيها أتلف الكاثوليك والبروتستانت الريف ونهبوا البلدان وحطموا ودمروا. ولم يكن لكل هذا من مبرر لأن النزاع انتهى في ١٦٣٨ بمأزق ممضّ. فإن كل حاكم -كبيرًا كان أو صغيرًا، ملكًا كان أو دوقًا أو بارونًا -قد رخص له في أن يبت في أمور إقليمه الدينية. وقد نجم عن استمرار الحرب الضارية ثلاثين عامًا تعويقُ تقدم المدنية في كل أنحاء ألمانيا التي ظلت بلادًا تتألف من مئات الدويلات الخاضعة لسلطانٍ غير محدد المعالم من أباطرة آل هابسبورج في فيينا، أولئك الذين حكموا النمسا والمجر. وقد نجت إيطاليا من الحروب الدينية ولكنها ظلت منقسمة إلى دويلات. وكان البندقيون لا يزالون يهيمنون على تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط. غير أن تلك التجارة نقصت حجمًا بعد فتح طريق رأس الرجاء الصالح، فأخذت جمهورية البندقية تفقد، تدريجيًّا؛ القوة والثراء اللذين كانت تتمتع بهما في يوم من الأيام.

وكذلك كابدت مملكة بريطانيا العظمى المتحدة من حرب دينية. غير أن الخصومات الدينية في بريطانيا كانت دائمة التشابك بالخصومات السياسية التي كانت تنشب في صدد سلطات الملك والبرلمان. ومرت مملكة فرنسا أيضًا بمغامرة سياسية جديدة.

ومن يفهم الفرق بين هاتين المملكتين يفهم تاريخ الغرب في القرنين التاليين.

المقارنة: بريطانيا:

درج ملوك إنجلترا -منذ القرن الثالث عشر- على أن يعقدوا البرلمان، بين الفينة والفينة، ليمدهم بمشورته وليرخص لهم فرض الضرائب، وبذلك يتسنى لحكومة الملك أن تستمر في تسيير دفة الأمور. وكانت التغييرات في القوانين تسن بمقتضى قرارات برلمانية يقرها الملك واللوردات والأساقفة وفرسان المقاطعات والمنتخبون في المدن. وكان مقر اللوردات والأساقفة مجلس اللوردات. وكان مقر الفرسان والمنتخبون -الذين يختارون ليمثلوا أعيان الريف- ونواب النقابات

المهنية بالمدن، مجلس العموم.

ولقد كانت الخصومات التي تنشب بين آل ستيوارت - جيمس الأول وابنه شارل الأول- وبين برلماناتهم، خصومات بين ملوك آمنوا بحقهم المقدس في أن يتصرفوا وفق هواهم، وبين رعاياهم الذين آمنوا بأن الملوك ينبغي لهم أن يوفوا بعهودهم وأن يحافظوا على قوانين البلاد. وعندما عارض القانوني سير إدوارد كوك، جيمسَ الأول في بعض الشؤون صرخ جيمس قائلًا: «وإذن فأنا (تحت) القانون، وتقرير هذا المبدأ خيانة وطنية». فأجاب كوك الشجاع: «نعم يا سيدي، أنت خاضع لله والقانون» وكان جيمس وشارل ينازعان برلماناتهما في صدد المال. هل للملك أن يفرض الضرائب على رعاياه بغير رضاهم؟ وكان ملكا آل ستيوارت هذان سيئي الحظ؛ لأن قيمة النقد كانت -في عهديهما- في هبوط، وكانا يطلبان منها المزيد، ولم يكن أي منهما لبقًا في معاملة الناس أو أريبًا في اختيار مستشاريه. على أن النزاع الديني الذي أدى إلى الحرب الأهلية كان أكثر مرارة وعمقًا.

ولم يتحد البروتستانت اتحاد الكاثوليك. نعم كان يُرضي أغلب الناس أن يُخْلدوا إلى لوائح الأساقفة وأن يقرؤوا كتاب الصلاة الذي وضعته الكنيسة الإنجليزية غير أن أقلية - شديدة النشاط والقوة- لقبت بـ «المتطهرين» كانت تنكر الأساقفة وكتاب الصلاة كما كانت تنكر وسائل معينة من التسلية مثل: سارية مايو[(١)] والرقص الغربي والألعاب الرياضية والمسارح. وربما كان البعض -على حد قول لورد ماكولي- قد كره لعبة استدراج الدببة بالطعم أو الشرك لا على أنها تؤلم الدببة ولكن لأنها تسر المتفرجين. كان أولئك الناس «أحرار الفكر». كان كل منهم حرًّا في أن يفسر أسفار الكتاب المقدس على ضوء معلوماته وضميره. ولم يتيسر لهم هجر الكنيسة إلا بالهجرة إلى أمريكا، وهذا ما صنعه كثير منهم في ١٦٢٠ وفيما بعد. إلا أنهم لم يكن في مكْنتهم أن يعيدوا تشكيل الكنيسة على هواهم ما لم يلغوا الأساقفة.

---

(١) سارية تركز في رحبة وتكلل بالورد ويحتفل من حولها بعيد أول مايو.

على أن الأساقفة لم يكونوا رعاة رعاياهم فحسب بل كانوا أيضًا خدام الملك وموظفين في الكنيسة التي كان يرأسها. لقد كانوا رجالًا ذوي نفوذ. كان في سلطتهم أن يقبضوا على الناس ويحاكموهم في محاكمهم الخاصة وأن يغرموهم ويسجنوهم في سجونهم الخاصة. لقد قطعت أذنا أحد المتطهرين لأنه ألف كتابًا ضد الأساقفة. ووقع على آخر مثل هذا الجزاء لأنه أنكر التمثيل على المسارح. وكذلك أنكر هذا الرجل غير العادي -وكان من رجال القانون- الوثيقة الكبرى لا لشيء إلا لأن أسقفًا شارك في حمل الملك يوحنا على إمضائها. ولقد وجد بين المتطهرين بعض الشواذ، كما أن الأساقفة لم يكونوا كلهم ورعين. وكان من سوء الحظ أن شارل الأول -وهو الرجل الجاد المستقيم العطوف المنصف الذي أخلص للكنيسة أكثر مما فعل أي ملك إنجليزي آخر على الإطلاق- كان يعوزه تمامًا فن سياسة الرجال.

طلب السادة المتطهرون -الذين كانوا ذوي نفوذ في البرلمان- تغييرات في شؤون الكنيسة. وقد أنكر شارل هذا إلى حد أنه حاول أن يحكم البلاد، من دون برلمان، أحد عشر عامًا (١٦٢٩ -١٦٤٠)، وفي أثناء تلك الأعوام فرض جميع أنواع الضرائب دون مشورة أحد، وترك لود -كبير أساقفة كانتر بيري- يضطهد المتطهرين، ودفع لود - وهو رجل طيب ولكنه كثير اللغط- دفع الناس جميعهم إلى أن يتعبدوا وفق كتاب الصلاة، بل إنه تطلع إلى أن ينشر تعاليم كنيسة إنجلترا في كل مكان من العالم يتفق أن يعيش فيه رعايا مِلكِه. ولكن حدث أنه عندما فرض كتاب الصلاة على رعايا المِلك الإسكتلنديين في المملكة الشمالية قامت الفتن في الحال، فلقد كان الإسكتلنديون تابعين للكنيسة المشيخية (برزْ بيتيريان)، وكان لهم اتجاه خاص في العبادة سنّه جون كلفن، وكانت كنيستهم قوية متحدة، ثاروا وجيشوا جيشًا وغزوا إنجلترا.

ولم يستطع شارل أن يحمل لورداته على مساعدته، واضطر إلى أن يستدعي برلمانًا، وبعد عراك مرير دام سنتين حاول زعماء الآباء المتطهرين في البرلمان أن

يسيطروا على الجيوش المرابطة بالمقاطعة، فركب شارل إلى نوتنجهام وأهاب بجميع المخلصين أن يلتفوا حول رايته. وانقسم البرلمان فشايع بعض الأعضاء الملك، وخذله البعض. وأشفق الكثيرون من خوف الحرب، وبعض الذين كرهوا الأساقفة كرهوا -أكثر وأكثر- فكرة حمل السلاح ضد ملكهم الشرعي. كتب سير إدموند فيرني -وكان حامل العلم الملكي- «أنا لا أكنّ احترامًا للأساقفة الذين ينشب النزاع من أجلهم».

وكانت الحرب الأهلية التي تلَت (١٦٤٢ -١٦٤٨) في أول مراحلها أمرًا غير بالغ الحماسة، وكان من الجائز أن تنتهي بانتصار الملك، وذلك لولا أمران: (١) الجيش الإسكتلندي المشايع للكنيسة المشيخية. (٢) أوليفر كرومويل. انزعج برلمان المتطهرين من إخفاق الفرق التي جندوها على عجل من المعاطف الزرقاء والمعاطف الصفراء والمعاطف الخضراء والمعاطف الأرجوانية ضد الخيالة المشايعين لشارل فعقد حلفًا مقدسًا مع الإسكتلنديين وضموهم إلى صفوفهم ضد الملك. وبعد ذلك حولوا حملة البنادق وحملة الرماح التابعين لهم إلى «جيش جديد أنموذجي» تحت قيادة سادة ونبلاء تمرسوا بالحرب، وكان أوليفر كرومويل -الذي شكل فرقه الخاصة من الخيالة الغيورين الورعين في المقاطعات الشرقية- أحد الضباط الأنموذجيين الحديثين، ولم يلبث أن أصبح القائد العام. كان جنديًّا عبقريًّا. وقد حوى الأنموذج الحديث كثيرين من المتعصبين الغيورين الذين كانوا يتلقون النصح من قساوسة الميدان قبل أن يحملوا رماحهم إلى ميدان القتال، والذين كانوا يحسبون أنفسهم رجال الله المختارين ليحاربوا العمالقة والوثنيين، ولم يحدث قط أن وجد جيش كجيشهم لأنهم كانوا جنودًا لا سبيل إلى قهرهم، وقد وصفهم أحد أعدائهم بقوله: «جيش رفعته يقظته وأخلاقه وشجاعته ونجاحه فجعلته ذائع الصيت مرهوب الجانب في العالم أجمع»، ولما دحر الجيش النموذجي الجديد الجيش الملكي في نيسبي عام ١٦٤٥ استسلم شارل.

وكان يصح أن يضع هذا حدًّا للحرب. ولكن عندما حاول البرلمان تسريح الجيش، أبى الجيش أن يسرح، وطرد كروmويل غالبية أعضاء البرلمان ولم يترك في الجلسة غير «مؤخرة» من المستقلين المتطهرين. واضطلع كرومويل والجيش بشؤون الجزيرة. وعمد كرومويل إلى قمع الثورات الملكية وإلى قهر الإسكتلنديين الذين كانوا يكرهون المستقلين ويحبون حبًّا جمًّا ملكًا من آل ستيوارت.

وحكمت «المؤخرة» وضباط الجيش على شارل الأول بالإعدام. وقطعت رأسه في وايتهول (البهو الأبيض) وقد حرست صفوف من الرمّاحة المشنقة حراسة قوية.

وكانت إسكتلندا وأيرلندا من أنصار الملك. فشن كرومويل حملة على أيرلندا لا تعرف الرحمة ثم قهر الإسكتلنديين. وبيعت جماعات كبيرة من الأيرلنديين والإسكتلنديين بيع الرقيق في أمريكا وجزائر الهند الغربية. والتقت جموع غفيرة -وبخاصة من الإيرلنديين- بالجيوش الأجنبية في أوروبا.

تلك كانت أمور فظيعة ولكنها ليست شيئًا على الإطلاق إذا قيست بسفك الدماء والقحط والوباء والدمار التي حلت بألمانيا في حرب الثلاثين عامًا.

وقد نصب الجيشُ كرومويل حاميًا لحمى مجموعة البلاد التي حكمها بمساعدة بضعة عشرة ضابطًا برتبة لواء. وانتهت سلطة البرلمان في عهده! وفي الخارج حارب جيش كرومويل وبحريتُه إسبانيا «الخصم اللدود» واستولى على جاميكا، وغلب الجيشُ الإسبانَ بدفعهم بأسنة الرماح في دنكرك. وحارب أسطوله تحت إمرة «أميري البحر» مونك وبليك، الأسطولَ الهولندي الذي يحمل الكنوز تحت فوهات مدافع الشاطئ في تينيريف بالجزائر الخالدات.

وجاء دور كرومويل في أن يضمن إخلاد القسم المتعصب من المتطهرين إلى النظام ولكنه أيضًا لم يستطع. فالبرلمانات التي استدعاها للانعقاد كانت عديمة الفائدة فطرد أعضاءها من المجلس وبقي وحيدًا مخوفًا ممقوتًا. تآمر الملكيون على قتله. وتجمع غلاة المتطهرين. وحاول «الممهدون» (المجاهدون للتسوية

بين الناس) المنبثون في الجيش أن يلغوا الضباطَ فأُعدموا رميًا بالرصاص. وعمد «أنصار الملكية الخامسة» -وهم خيالة المملكة الدنيوية (مملكة الله) الذين لا يحترمون سلطان بشر- عمد هؤلاء إلى نشر راية يهوذا في أرباض لندن فأحيطَ بهم. ورغب البعض في أن يلغوا القوانين جميعًا وأن يستبدلوا بها سفْر تثنية الاشتراع (في التوراة).

واحتفظ كرومويل برأسه. ولم يكن هادم الملذات. وكان لديه رصيد من حسن الإدراك ومن الحكمة العملية وإلا لما استطاع أن يصبح قائدًا عظيمًا. وقد وصل هذا الرجل الثري -الذي جاء من البطاح- إلى مركزه العظيم بعبقرية الحربية على هدي «الإيمان والعزيمة التي لا تبارى». ولم يكن صيته في بلاده إلا صدى لصيته خارجها. ولما مات في هامبتون كورت عام ١٦٥٨ بملاريا حادة (كانت تعاوده كل يومين) وفاضت روحه في خلال عاصفة من الريح والمطر قال البعض إن تلك إشارة من الله، وقال آخرون إن الشيطان عاد إلى جسده. وليس في وسع الناس أن يمروا على تاريخ كرومويل مر الكرام. فلقد كان أول رجل من الشعب في أوروبا، رفع نفسه بعبقريته، إلى مصاف الملوك.

وفقدت الجزيرةُ الملك والبرلمان كليهما. وخلقت جيشًا محترفًا وبحرية قوية. غير أن غالبية الناس تعبت تعبًا عميق الجذور من حكم الجيش وحكم «القديسين». وفي ١٦٦٠ جاء الجنرال مونك بـ (شارل الثاني) إلى دوفر بوصفه ملكًا. جاء به على موجة من الفرح والتهليل الشاملين. وأعيدت البرلمانات والأساقفة وكتاب الصلاة. غير أن الخصومات الدينية كانت قد بدأت تفقد مرارتها تدريجيًّا. وكان شارل قد بلغ من المهارة ما ثبته في الحكم ٢٥ عامًا لم تعترضه في خلالها خصومات سياسية كبيرة. كان هنالك اضطهاد. كان محظورًا على المستقلين -أو المنشقين على الملة، كما كانوا يسمونهم- أن يعلموا في الجامعات أو يدخلوها أو أن يتعبدوا خارج دائرة الأسرة. وكان محظورًا عليهم كذلك تولي مناصب حكومية. غير أنهم -بمرور

الوقت- وجدوا سبيلهم إلى التغلب على تلك العقبات.

ومن الغريب أن جيمس الثاني -أخا شارل- عندما حاول أن يعطل مفعول قانون الأرض -لم تأت المعارضة من جانب المتطهرين بل من جانب سبعة من أساقفة الكنيسة. فقدمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ولكن قضائه برؤوهم. وفي ١٦٨٨ دعا لوردات البرلمان وليم (أورانج) صهر جيمس الثاني ليأتي ويعيد العمل بالقوانين. فهرب جيمس وأصبح وليم «وليم الثالث». وقد حكم بالاشتراك مع ماري الثانية (زوجته) ملكًا وملكة بعون الله «وبموافقة البرلمان».

المقارنة: فرنسا:

في القرنين السابع عشر والثامن عشر صارت بريطانيا العظمى ملكية برلمانية. وقد حكم هذه الجزيرة على التوالي ملكان من أسرة ستيوارت -وأوليفر كرومويل- وملكان آخران من أسرة ستيوارت- وملك هولندي متزوج بملكة من آل ستيوارت -وملكةٌ أخرى من آل ستيوارت (آن)- ثم أربع ملوك ألمان تَسمى كل منهم باسم جورج، ذلك أن لوردات البرلمان الأكابر -عندما توفيت الملكة آن- قدموا تاج بريطانيا إلى حاكم هانوفر. ولقد أسقطنا آخر أربعة تَسموا باسم جورج وذكرنا عشرة حكام. وفي خلال الفترة التي فيها حكم بريطانيا أولئك العشرة لم يحكم فرنسا غير ثلاثة ملوك: لويس الثالث عشر -ولويس الرابع عشر- ولويس الخامس عشر، وكلهم فرنسيون. وصارت بريطانيا ملكية مقيدة. أما فرنسا فقد صارت ملكية مطلقة في عهد الملوك الثلاثة من آل بوربون.

وعندما قتل مجنون -في سنة ١٦١٠- هنري النافاري كان ولده لويس الثالث عشر لم يتجاوز، بعد، الثالثة عشرة من عمره. وكان رئيس وزراء الدولة: الكردينال ريشليو، وهو رجل نشيط حازم جسور حاد الذكاء ملكي -في تصرفاته وأعماله- أكثر من الملك الذي كان هو يعمل في خدمته. وقد استهدف الكردينال شيئًا واحدًا

وهو أن يجعل لويس الثالث عشر أقوى رجل في فرنسا وأن يجعل فرنسا أقوى دولة في أوروبا. وقد هد القوى السياسية لكبار النبلاء وذلك بهدم حصونهم وبإرسال بعضهم إلى المقصلة. ولما وجد أن الهوجنوت يسيطرون فعلًا على المدائن والمقاطعات حاصر أقوى مدائنهم -لاروشل- واستولى عليها عنوة. وبث في كل منطقة موظفين ملكيين -يسمونهم «مديري الشؤون» -يكل إليهم تنفيذ الأوامر الملكية. وقد وفقت فرنسا تحت حكمه في الداخل والخارج: انتعشت الصناعات، ونمت أرباح المزارعين، وأصلحت ووسعت جامعة باريس، وأرسلت الشركات التجارية عمارات بحرية إلى مدغشقر والسنغال وجزائر الهند الغربية، واستوطنت ألوف من فلاحي نورمانديا وبواتو، استوطنوا كندا (حيث يعيش سلالتهم حتى الآن)، وزيدَ الجيش الملكي إلى مائة ألف، وأنشئ ميناءا برست -ولوهافر الحربيين وبنيت سفن حربية للمحيط والبحر الأبيض المتوسط. ولكي يدفع ريشليو قوات سيده الملكي إلى حدود فرنسا الطبيعية -وهي نهر الراين وجبال الألب وجبال البرانس- شن حروبًا على آل هابسبرج في النمسا وإسبانيا، ومات في ١٦٤٢، ومات ملكه لويس الثالث عشر في ١٦٤٣.

وورث العرش لويس الرابع عشر وهو -بعد- طفل في الخامسة. وحل محل ريشيليو رجل آخر من رجال الكنيسة هو الكاردينال مازاران الإيطالي. ولم يكن مازاران يطاول ريشليو في عظمته ولكنه، مع ذلك، كان حاذقًا نشيطًا متشبثًا برأيه قوي العزيمة. وقد تابع أعمال ريشليو رغم الشغب والثورات التي كان يشعلها النبلاء والمواطنون ورجال القانون. وقد عرفت هذه الثورات باسم «لا فروند» (أي المقلاع) وكان يعوزها قائد حقيقي وانتهت بالقحط والوباء. وقد تخطى مازاران -بصبره ودهائه- هذه الفترة واستعاد سلطانه. وترك - لدى وفاته- ملكَه لويس الرابع عشر حاكمًا بأمره في فرنسا. ولم يخضع لويس الرابع عشر لنفوذ وزير، ولكنه حكم بنفسه وأخذ يختار خدامه من بين الناس المتواضعين من التجار ومن أصحاب

الحوانيت وسواس الخيل. ولم يكن لكبار النبلاء نصيب في حكم فرنسا. وظل لويس الرابع عشر يحكم فرنسا – سيدًا مطاعًا- أكثر من خمسين عامًا: من ١٦٦٠ إلى وفاته في ١٧١٥.

وقد امتد حكم لويس الرابع عشر وابنه لويس الخامس عشر -مجتمعين- إلى أكثر من مائة عام، من ١٦٦٠ إلى ١٧٧٤. وخير وصف لتاريخ أوروبا طوال هذه الأعوام هو وصفها بأنها «قرن فرنسا».

لقد كانت فرنسا – بسكانها الذين بلغوا الثمانية عشر مليونًا، وبمزارعها الخصبة وبغاباتها وكرومها وبصناعها المهرة وبحضرييها الأذكياء -كانت زعيمة المدنية وحجَر العَقد في أوروبا. وكانت ثروة فرنسا وقوتها في يد رجل واحد «الملك». وكان لويس الرابع عشر: «الملك الشمس» التي تتحرك الحاشية والأمة حول عرشه المتألق. وكان من بين وزرائه: لوفوا الذي خلق جيشًا نظاميًّا عزيزًا، وفوبان الذي اشتهر بمقدرته في الهندسة الحربية، وكولبير الخبير بالشؤون المالية والتجارية. وقد غذى كولبير الصناعةَ عن طريق الترحيب بالفنيين الأجانب وتنظيم الحرف. وأنعش تجارة ما وراء البحار والمستعمرات بتأسيس شركتي شرق الهند وغربها. وقوّى البحرية إلى مدى كبير حتى إن السفن التي حشدها في سنة ١٦٨٠ بلغ مجموعها ٣٠٠ سفينة.

وكان أعظم ما شيده لويس الرابع عشر من الأبنية الأثرية: قصر فرساي الذي صرفت نفقات باهظة لبنائه بين سنتي ١٦٦٩ و١٧١٠. لقد شمخ بين بساتين البرتقال وحدائق الزهر والمرجات ومنابت العشب والبحيرات الصناعية والطرق الواسعة المشجرة والمماشي التي تزينها التماثيل والنافورات، لقد شمخ بين كل هذا، الصرحُ الفسيح الذي آوى الملك ووزراءه وموظفيه وندماءه وموسيقييه وممثليه وصياديه وحرسه وجيش الخدم والأتباع المكلفين بالصيانة. وفي أبهائه وأروقته المذهّبة المحلاة بالمرايا كان الأخصاء يقامرون بالمصائر ويخططون للحرب ويديرون شؤون الدولة

ويشهدون ملاهي (جمع ملهاة) موليير ومآسي راسين ويسمعون أوبرات لولي. وقد جعلتهم شعورهم المستعارة وستراتهم الحريرية الأطلسية وأطراف أكمامهم المزركشة بالدنتلة.. جعلتهم تلك الأشياء جميعًا أقرب إلى شكل الممثلين منهم إلى من يمارسون الحياة العادية.

ولم يغب عن ذهنَي فوبان وكولبير المستقبل المرموق الذي ينتظر التجارة والمستعمرات وراء البحار. غير أن لويس الرابع عشر آثر أن يستخدم قوته في محاربة آل هابسبرج لكي يستولي على حصونٍ تخومية مثل ليل وستراسبرج. وقد أضر بتجارة فرنسا وبصناعتها باضطهاده الهوجنوت الذين هرب منهم الآلاف إلى إنجلترا وبروسيا وأفادوهما بمهارتهم وذكائهم.

وفي عهد لويس الرابع عشر وخليفته لويس الخامس عشر دخلت الجيوش الفرنسية البلاد الواطئة وأراضي الراين حيث نازلت الهولنديين والألمان والنمساويين. غير أن أوروبا جميعًا اتخذت فرنسا قدوة لها. واستعملت المجتمعات المهذبة اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية في كل مكان.

وكان حتمًا أن تستمر المقارنة بين مملكتَي بريطانيا وفرنسا في الحياة السياسية. وقد اشتبكت المملكتان في حرب -أعوامًا طوالًا- في القرن الثامن عشر، وترتبت على ذلك نتائج هامة لهما وللدنيا جمعاء. ولكن ينبغي لنا -قبل أن نتتبع هذا المبحث- أن نلمّ بما كان يجري وراء البحار في الدنيا الجديدة وفي الشرق.

الاتجاه صوب الغرب:

كانت فرجينيا المسماة بـ «المستعمرة القديمة» أول مستعمرة إنجليزية في أمريكا. بدأ سير ولْتر رالي يرسل مستوطنين إلى شاطئ فرجينيا ولكن واحدة من تلك المستعمرات لم تدم. فتبنى فكرته بعض التجار وأرسلوا مستوطنين، في ١٦٠٧، إلى نهر جيمس. ولكنهم لم يحسنوا اختيار تلك الجماعة فكاد الكسل والجهل والنزاع

أن تضع حدًّا لتلك المستعمرة الوليدة. وكان مخلّصها الضابط جون سمث وهو جندي شهم مزهو موسر، فطن إلى ضرورة العمل الجدي وإلى تحسين العلاقات مع الهنود. وبعد فتراتٍ هزيلة شاقة بدأت فرجينيا تنتعش، وكان محصولها الرئيسي هو الطُّبّاق (الطمباك). وفي ١٦٣٥ بدأ عدد سكانها يرتفع إلى ٦٠٠٠.

وما وافت تلك السنة حتى كانت القارة الأمريكية -التي وجدت فيها قبلًا إسبانيا جديدة- تحوي كذلك إنجلترا جديدة وأراضي واطئة جديدة وفرنسا جديدة.

أسس إنجلترا الجديدة منفيون دينيون كانوا يبحثون عن أرض فيها يستطيعون أن يتعبدوا وفق ما يريدون. استأذن بعض أسر المتطهرين -من سكان شرق إنجلترا- تجارَ لندن في أن يسافروا ليستوطنوا شاطئ فرجينيا. ونزلوا فعلًا مكانًا بعيدًا شماليها. وعبر مائة منهم - وهم «الآباء المهاجرون»، تصحبهم أمهاتهم وأطفالهم، عبروا الأطلنطي على السفينة «ماي فلاوار» (أي زهرة مايو) وأنزلهم بحارتُها الشجعان في خليج بلايموث. حدث هذا في خريف ١٦٢٠. وفي خلال أول شتاء لهم مات نصفهم من المشقة والمرض، غير أنهم كانوا ذوي عزم. وأصبح الآباء المهاجرون -بقيادة وليم براد فورد، الذي حكمهم إلى أن توفي في ١٦٥٧ -أصبحوا مستعمرة مزارعين وسماكين وتجار فراء.

وفي سنة ١٦٢٨ أسست شركة خليج ماساتشوستس الإنجليزية في بوستن مستعمرةً أخرى، أعظم وأغنى، باسم نيو إنجلند (إنجلترا الجديدة) ولم يحل عام ١٦٤٢ حتى حوت مدنها وقراها أكثر من١٦٠٠٠ مستوطن من المتطهرين. وقد وسع هؤلاء أن يتعبدوا وفق مرامهم غير أنهم منعوا الصاحبين (الذين ينتمون إلى طائفة الأصحاب المهتزين) وغيرهم عن أن يتعبدوا على الطريقة التي يفضلونها. وعلى هذا يكون المكان الوحيد في أمريكا الذي يسمح فيه لكل المسيحيين بحرية العبادة هو «ماري لاند» وهي مستعمرة كاثوليكية أسسها لورد بلتيمور عام ١٦٣١ تمجيدًا لملكة شارل الأول، هنرينا مارية.

وكان التوأمان: فرجينيا في الجنوب وإنجلترا الجديدة في الشمال، هما أساس الولايات المتحدة التي تكونت فيما بعد. وقد نقل المستعمرون معهم -سواء أكانوا من زارعي الطباق الأغنياء أو من المزارعين المتطهرين- نقلوا اللغة والأغاني والعادات والقوانين التي كانت سائدة في إنجلترا في القرن السابع. وهذا هو السبب في أن الوثيقة الكبرى تتصل بالتاريخ الأمريكي بقدر ما تتصل بالتاريخ الإنجليزي، وفي أن المحاكمة -أمام المحلفين وبمقتضي القانون الإنجليزي العام- معمول بها في إنجلترا، وفي أن مأمور الأحكام (العمدة) ورجاله في الولايات المتحدة يتصرفون تصرف مأموري الأحكام ورجالهم في إنجلترا. وربما صح القول بأن التاريخ الأمريكي يبدأ بإنجلترا الأنجلوساكسونية ويعبر المحيط بعد سنة ١٦٠٠.

وكان في جنوبي إنجلترا الجديدة: البلاد الواطئة الجديدة، وفي شماليها -على بعد ٣٠٠ ميل وراء الغابات والجبال- فرنسا الجديدة.

وقد خطط الهولنديون مستعمرتهم -أمستردام الجديدة- على جزيرة مانهاتن في سنة ١٦٠٩. وبما أن الهولنديين مشغوفون بالتجارة فإن هذه المستعمرة سرعان ما أضحت واحدة من المراكز الهامة لتجارة الفراء الهندية، وبعد أن أدركتها تغييرات عظيمة كثيرة أصبح يطلق عليها الآن الاسم المألوف: نيويورك، أكبر مركز تجاري في الولايات المتحدة.

وتختلف فرنسا الجديدة عن سائر المستعمرات في أنها تقع على مسافة قد تبعد عن المحيط ٨٠٠ ميل. ومن الخريطة يتضح: أولًا، أن خليج نهر سنت لورنس يضاهي البوغاز الإنجليزي اتساعًا. وثانيًا، أن مونت ريال ميناء تقع على بعد ألف ميل من الأطلنطي. وفي ١٦٠٨ أسس صمويل تشامبلين -النورمندي الأصل- مستعمرة في كويبك. وهنا أنشئ من جديد أسلوبُ حياة الضيعات العتيق في فرنسا القديمة: يشتغل المزارعون في أرض السادة الملاك ويدفعون لهم المستحق نقدًا أو عينًا. وبطبيعة الحال كانت فرنسا الجديدة كاثوليكية. وقد أوغل تشامبلين في

رحلاته حتى تطرق إلى البحيرات الكبرى. وقد تودد أهل فرنسا الجديدة إلى هنود هيورون الذين قام الجزويت الفرنسيون بينهم بأعمال تبشيرية بالغة الأهمية. وأصبح كثير من المستعمرين خبيرين بتجارة الفراء في الشمال.

وهذه المستعمرات الإنجليزية والهولندية والفرنسية البالغة الصغر روعي في تأسيسها أن تكون على السواحل وعلى مجاري الماء في تلك البلاد العظيمة الاتساع التي لا يربط بين كثيف غاباتها التي تنبت الشيكران (وهو نبات مخدر) والبلوط والتنوب والسدر (أي الأَرز) والتامول -وهي تلك الغابات التي تمتد إلى مسافات بعيدة في داخلية البلاد- نقول إن هذه البلاد العظيمة لا يربط بين كثيف غاباتها تلك جداول ماء صامتة ودروبٌ هندية ضيقة. والغابات في كل مكان تشبه بحرًا أخضر. غير أن الشتاء يغيّر من المنظر فـ «يغلق النافورات ويكبل جداول الماء ويحوّل الغابات المتسربلة بالخضرة إلى فلاة عارية، فلا تسمع في تلك الدنيا الباردة المقفرة إلا «صفير الريح الشمالية الشرقية وصرخات الذئاب الجائعة».

وقد هام -في الزمن الغابر- ذوو الجلود الحمراء بحثًا عن مناطق للصيد ولاقوا صعابًا ممضة، فكابدوا وارتكبوا قساوات وحشية وإن قدّموا كرمًا بالغًا في بعض الأحيان. لقد كانوا أبناء الغابة ولهم دستور سلوك يختلف تمام المخالفة عن دستور ذوي الوجوه الباهتة. وقد كانوا يصغون الساعات الطويلة إلى الخطب الطويلة ويُقْعون في المجلس بصبر رزين يليق بشيخ من شيوخ مدينة قديمة ما. ولكنهم كانوا أيضًا مع ذلك، المتوحشين العارين المرعبين المطليين بالمغْرة (تراب حديدي) وبالهباب، كان الفرد منهم الخائن العديم الرحمة نازعَ جلود الرؤوس وكانت فؤوسه القاتلة وجمراته تستخدم ضد ضيعات الحدود المنعزلة.

وكانت في الغرب الكبير: براري تسرح فيها قطعان الجاموس، وأنهار تفيض على أودية فسيحة أو تضل في ممرات هائلة بين الجبال، وصحاري ينثر فيها نبات الصبار العجيب، وسلاسل جبلية شاسعة، وقبائل هندية متوحشة لم تعرف ولا يتوهم

وجودُها. وعلى هذا الجانب من المسيسيبي كان يحكم القارة الإيروكْو أو الشعوب الخمسة الذين كانوا يفترسون القبائل الأخرى والذين كانت بيوتهم -المصنوعة من لحاء الشجر وخشب التامول- تنتثر عبر مسالك البيض الوافدين من البحر.

وفي أخريات القرن -في حكم شارل الثاني- أسست جماعةٌ من السادة الفرسان: كارولينا التي أطلق عليها هذا الاسم تمجيدًا لـ (شارل). وأسس وليم بن -الصديق الصاحبي (أي الذي ينتمي لطائفة المهتزين) لشارل الثاني- أسس، في سنة ١٦٨٠، مستعمرته الصاحبية: بنسيلفانيا وجعل عاصمتها مدينة فيلادلفيا «موئل المحبة الأخوية».

وفي أخريات القرن امتدت المستعمرات الأوروبية في أمريكا إلى أبعد من ١٠٠ درجة من خطوط الطول، من نهر بلات إلى خليج هدسون.

وفي الجنوب كان آباء يسوعيون (جزويت) يحكمون هنود باراجواي ويحرصون على عدم اتصالهم بالخارج، وكانت هناك البرازيل البرتغالية بحقولها التي تنبت القصب والطبّاق والتي يشتغل فيها العبيد الزنوج، وكانت هناك المستعمرات الإسبانية القديمة تحكم كلها من إسبانيا عن طريق نائبي ملكها في بيرو والمكسيك، وكان لزامًا عليهما أن يبعثا بالمعادن الثمينة إلى مدريد، وأن يتلفا غياضَ الزيتون وكرومَ العنب لكي لا تنافس نظائرَها في إسبانيا.

وكانت في البحر الكاريبي جزائر الهند الغربية الغنية الآهلة بالسكان، والإنجليز والفرنسيون يُثرون من التجارة ومن تهريب السكر والعسل الأسود والروم والقطن وخشب البقَم الأحمر. وكانت هناك أيضًا مساكن قراصنة البحر الذين تجمَّع بحارتهم المختلفو الأجناس وعملوا -عام ١٦٧١- في خدمة هنري مورجان لينهبوا مدينة بناما الإسبانية.

وعلى الأرض الأمريكية -شمالي فلوريدا الإسبانية- وجدت المستعمرات الإنجليزية: (١) زارعو الجنوب يعيشون في بيوت فسيحة، وعبيدهم يكدون في حقول الأرز بـ«كارولينا» أو في حقول الطباق بـ«فرجينيا». (٢) مزيد من العبيد يأتون

تباعًا من غير انقطاع من غرب أفريقيا وقد برّح بهم الخوف من الألم الشاحب المبرح الذي كانوا يعانونه في الطريق الأوسط عبر الأطلنطي. (٣) مهربون من جزائر الهند الغربية يتسربون في هدوء إلى ميناء تشارلستون. (٤) بروتستانتيون ألمانيون «ألمان بنسلفانيا» من بلاد الراين. (٥) لاجئون من الهوجنوت الفرنسيين في نيويورك جنبًا إلى جنب مع أغنياء الـ «ماينهير» (أي النبلاء الدنماركيين) أو تجار الفراء الهولنديين تصحبهم حاشيتهم من العبيد السود وصاحبيون سذج مسالمون في مستعمرة بن ونيو جرزي. (٦) جماعات دينية للمتطهرين في بوستون مستغرقة في مطاردة السحرة. (٧) مزارعو إنجلترا الجديدة الكادحون المقتصدون المستقلون. (٨) بحارة كنّكتيكات وصيادو الحيتان من جبهة نانتوكيت. (٩) سماكو نيو فاوند لاند الذين يفدون، في المواسم فقط، من بسكاي وغرب إنجلترا. (١٠) جماعات من أقاصي البلاد المعمورة تطأ أول الدروب التي تصل بجبال ألليجاني والأبَلاش. (١١) في كل مكان من الغابات الهنود الحمر: الموهوك حلفاء الهولنديين، التوسكاروا والياماسي على تخوم كارولينا، الهيورونيون يغِيرون على ضيعات الـ. مين وهامشاير الجديد ويحالفون الفرنسيين في كندا.

ولم يكن الفرنسيون يقصرون نشاطهم على كندا. فقد استكشف لاسال -أحد حكامهم- الأنهار ومجاري الماء على طول الطريق الواقع بين البحيرات الكبرى وبين خليج المكسيك وأعلن تبعية منطقة «لويزيانا» للويس الرابع عشر.

أما عن أقصى الشمال فقد أعطاه شارل الثاني إلى سادةِ جمعية خليج هدسون الذين يحكمهم ابن أخته الأمير روبرت. وقد كان وكلاء الشركة يعيشون عيشة العزلة في الأراضي الشمالية المتجمدة يتقاضون المدافعَ والسكر والشاي والبطاطين والغلايات والبلط لقاء فراء السمور والراقون (وهو حيوان من اللواحم) والقضاعة (وهو نوع من كلب البحر) والثعالب التي يجيء بها، سنة بعد سنة إلى مصنع نيويورك، صائدو الحيوان الهنود على قواربهم.

وكانت الدنيا الأمريكية الجديدة التي- تُنقل كلها من أوروبا- في سبيلها إلى البروز إلى عالم الوجود بكدّ أيد مجهولة لا حصر لها.

السلطان والقيصر:

تعدّى الإسبان والهولنديون والفرنسيون والإنجليز الحدود البحرية الغربية التي تحد البلاد المسيحية، وانطلقوا يجازفون -في سبيل مصالحهم- وراء مياه الأطلنطي الواسعة. وكانت شعوب أخرى تشكل مصاير أوروبا من ناحيتها الشرقية أي من جانبها اليابس حيث كان سلاطين الأتراك -من قصورهم القريبة من القرن الذهبي- يحكمون الألف مدينة العتيقة المخربة. كان الأتراك يحكمون مناطق سبق للفرسان الألمان أن أقاموا فيها حصونهم وحكموا مزارعهم التي انتزعت من قفار بروسيا المقفرة وقتما كانت تلك الأراضي «سِمة» أو تخومًا محصنة ضد الوثنيين. كان الأتراك يحكمون مناطق سبق لنبلاء بولندا الكاثوليك أن حكموا فلاحيهم المنتشرين في القرى على السهول ومعهم جماعة من اليهود كبيرة العدد. كان الأتراك يحكمون الأودية الواقعة على هذا الجانب من جبال الكربات والذي سبق أن آوى الهنجاريين الذين يتكلمون اللغة المجرية الغريبة كما آوى الفلاحين والنبلاء الذين كان ملكهم إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكما آوى -على مدى مئات من الأميال شرقًا- أميرًا مسيحيًّا درج على أن يقيم بلاطه في موسكو.

كانت الإمبراطورية التركية تضم مجموعة كبيرة من الشعوب المختلفة كل الاختلاف، تجارها من الأرمن والإغريق، وعلماؤها من العرب واليهود، وبحارتها من الإغريق، وعلْمها وشِعرها مستعاران من الفرس والعرب، وجنودها فلاحون أناضوليون من آسيا الصغرى... كان الأتراك سادة على أولئك وعلى كثيرين غيرهم، ويتقاضون منهم الضرائب... ويشمرون سواعدهم للحرب، وكان اعتمادهم على إرادة الله يجعلهم أقوياء الشكيمة في الحرب ويمدهم بالتفوق في حرب الهلال والصليب الطويلة الأمد.

وبسبب فرقة الشعوب المسيحية بسط الأتراك سلطانهم على شعوب البلقان وعلى الرومانيين والبلغاريين والعرب واكتسحوا المجر. وفي ١٦٨٣ بلغ جنودهم أبواب فيينا. ولم يتحرك ملوك الغرب. غير أن حظ المسلمين خانهم نهائيًّا في هذه الغزوة إذ إن جون سوبيسكي -على رأس نبلائه البولنديين وحشودهم- أجلاهم عن فيينا وأنقذ المدينة. وفي ١٦٩٧ أحدق الأمير النمساوي أويجين بجيش تركي في زنتا. وثبت البندقيون والهنجاريون حتى تنازل السلطان في ١٦٩٩ عن كل مطمح لحكم المجر. ومنذ ذلك الوقت ظلت الإمبراطورية التركية في حالة دفاع. غير أن وجود الأتراك في البلقان ظل مسألة قائمة «المسألة الشرقية» في أوروبا.

ومنذ ذلك الوقت أيضًا كانت هناك دولة جديدة تنافح عن المسيحيين والشعوب السلافية التي كانت لا تزال تحت حكم الأتراك. وقد نهضت تلك الدولة الجديدة على سهول بلاد الموسكوف وكان يحكمها قيصر الروس، ويتبع شعبها الكنيسة الإغريقية. وكان سياح شركة الميكرف اللندنية وتجارها يعرفون أسواقها. وقد أرسل القيصر -إيفان الرهيب- سفراءه، ذوي الأحذية العالية واللحى المرسلة، إلى بلاط الملكة إليزابيث الأولى. ولقد بقيت وقتًا طويلًا تتعرض لهجمات خيالة التتر وتدفع الإتاوات لزعيم تلك العشائر الآسيوية. وإذ ذاك أيقظها -على صورة ما، من تأخرها ورخاوتها- جبارٌ صغير السن وهو القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٩ -١٧٢٥) مجدد بلاد الموسكوف.

وكان بطرس قد زار هولندا وإنجلترا حيث اشتغل عاملًا في أحواض السفن بـ(تساندام) و(دبتْفورد) وحيث تعلم كل ما وسعه تعلمه من عادات الغرب وحرفه. فلما عاد إلى روسيا أخذ -في نشاط هائل يكاد يبلغ حد الجنون- يغير جميع أساليب حياة الروس وأساليب عملهم. واستقدم مستشارين وخبراء أجانب ليساعدوه. وبنى عاصمة جديدة «نافذة على الغرب» في سنت بطرسبرج (ليننجراد) وهي مدينة جديدة ذات طابع جديد في مستنقع كلفت خسائر باهظة في أرواح العمال. وبنى

سفنًا وصب مدافع. وأدب المعارضة والعصيان بالجلد والتعذيب وضرب العنق، وكثيرًا ما ضرب بالفأس بنفسه ودفع قضاته على أن يحذوا حذوه. وكان الحاكم المطلق على أهل ممتلكاته جميعًا. وقد رمى إلى جعل روسيا دولة أوروبية.

وبعد وفاته أخذ العمل يزيد توانيًا. وقد بدأت روسيا تسهم بقسط في سياسة أوروبا الشرقية. واشتبكت مع الأتراك على شواطئ البحر الأسود ومع السويديين على شواطئ البلطيق. وكان هذان البحران منفذيها. غير أن البحر الأسود يستطاع إغلاقه بالقلاع التركية الرابضة في القسطنطينية. ثم أن البلطيق يتجمد شتاء. ووراء روسيا تترامى -إلى جبهة الشرق- غابات وسهول سيبيريا التي لا تقف عند حد، وتترامى -إلى جبهة الجنوب- مدرجات التركستان وصحاريها وجبالها. وكانت الأصقاع الشرقية والجنوبية المجهولة في الدولة الجديدة تعدُل في مساحتها ما كان يوجد غرب المستعمرات الجديدة في أمريكا. وقد ظلت روسيا في عهد القيصر تحكم حكمًا استبداديًا وظلت شعوبها تعيش في مجتمعاتها القروية تحت حكم ملاك الأرض. وكان أهل البلاد والأشراف الروس في العاصمة الجديدة يتخذون أساليب حياة الأرستقراطيات المثقفة في فرنسا وألمانيا.

ولكن الروس لم يتعلموا ولم يفهموا أفكار الغرب السياسية عن الحرية والحكم الذاتي. وكذلك لم تفهمها الدويلات البروسية الدائمة الاعتداء، تلك الدويلات التي أخذت قواتها تزداد في تلك الفترة من الزمان.

وقد احتفظ أمير البروسيين البروتستانْتي -فريدريك فيلهلم (١٦٤٠ -١٦٨٨)- بجيش عظيم ودعم سلطانه باستدعاء كثيرين من الهوجنوت الفرنسيين، الذين طردهم من فرنسا لويس الرابع عشر، ليستوطنوا بلاده واتخذ ابنه لقب ملك بروسيا. غير أن حفيده -الملك فريدريك فيلهلم (١٧١٣ -١٧٤٠) هو الذي حوّل بروسيا إلى دولة مسلحة. وكان محاربًا متهوّسًا فظًّا غير مثقف. فاحتفظ بجيشٍ عامل قوامه ثمانون ألف رجل كان كثير منهم من الأجانب المخطوفين

الذين جلدوا حتى استسلموا. وقد عمر خزانته نتيجةً لصهر الأواني الفضية الملكية وبيع الجواهر الملكية وإلغاء البلاط وقطع مرتبات خدَمه الخصوصيين، ولم يبق لهم غير الكفاف. وكان كل ما يهم في مملكة بروسيا: المال والسكان والجنود -الجنود بصفة أخص.

بريطانيا تعادي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر (١٦٨٩-١٧٤٨):

وقتما ولي وليم الثالث مُلك بريطانيا العظمى في سنة ١٦٨٩ -بشرط أن يحافظ على القوانين وعلى الملة البروستانتية- كان الملك لويس الرابع عشر هو الحاكم بأمره في فرنسا. وفي سنة ١٧٨٩ كانت المقارنة بين الملكين تناسب هذا الوضع: كان صاحب الجلالة البريطانية جورج الثالث يحكم عملًا بنصيحة أعضاء مجلس اللوردات وأعضاء مجلس العموم في برلمانه، بينما كان لويس السادس عشر يتصرف وفق هواه. الواقع أن المقارنة ذهبت إلى أعمق من ذلك. كان لإنجلترا قانونها الخاص وكان لإسكتلندا قانون آخر: قانون وستمنستر أو قانون إدنبرة. كان في فرنسا تنوّعٌ في القوانين كبير يتناسب مع تنوع المقاطعات بينما الحكومة الملكية هي الوثاق الذي يربط البلاد بعضها ببعض. ولا عجب إذا كان الكثيرون من الفرنسيين قد عدُّوا أسلوب الحكم في بريطانيا قدوةً تُحتذَى أو إذا كان أحدُ البابوات قد علّق بأن استمرار قيام الملكية الفرنسية معجزة.

ولقد ظلت الدولتان تتحاربان أكثر من سبعين سنة (بين ١٦٨٩ و ١٨١٥).

وكانت فرنسا أقوى دولة برية كما كانت بريطانيا أقوى دولة بحرية. ولم يرَ عصر من العصور قط -منذ روما- همة حربية مدعمة كهمة جيوش فرنسا التي بلغت ذروتها بانتصارات نابليون. كما أن أي عصر من العصور السابقة لم يرَ إطلاقًا قوة تستحق الفخر كقوة بريطانيا التي أتاحت لها أن تحتفظ في البحار بـ ١٥٠ سفينة حربية كبيرة والتي بلغت ذروتها بانتصارات الأميرال نلسون وعقدت لواء السيطرة

على المحيطات على بريطانيا طوال القرن التاسع عشر.

وعلى هذا كانت بريطانيا في حروبها مع فرنسا تنشد عون أحلاف في القارة أشدّاء في الحرب، غالبًا من النمساويين الذين كان ملوكهم (من آل هابسبورج) ينافسون، من قديم، ملوك فرنسا من البوربونيّين.

وقد تُوِّج وليم الهولندي ملكًا باسم وليم الثالث غير أن الكثيرين -وبخاصة من الإسكتلنديين والأيرلنديين- وقفوا ولاءهم على جيمس الثاني، وقد حارب وليم حروبًا قاسية ليهزم «اليعقوبيين» (أنصار يعقوب الثاني) في أيرلندا. وقد التحق آلاف من الأيرلنديين بخدمة جيوش فرنسا حيث شكلوا ألوية أيرلندية ووفوا المقام حقه ببأس شديد. وقد استبقَى جيمس الثاني وابنه جيمس إدوارد (جيمس الثالث) وحفيده شارل إدوارد (شارل الثالث)، استبقى هؤلاء «بلاطهم» في فرنسا ضيوفًا على ملوكها وظلت الفرصة سانحة طوال نصف قرن، لاحتمال إثارة متاعب في بريطانيا من جانب أتباعهم. فلقد ظل وكلاء يعقوبيون سرّيون يجيئون ويذهبون ولم يكن لامرئ أن يوقن إلى أي مدى في داخلية البلاد تستطيع صيحة «طير بدي» فوق مستنقع رومني أن تنتقل قبل بزوغ الفجر -إلى بيت ضيعة ناءٍ إيذانًا ببدء الغزو أو الثورة! وكان وليم الثالث ندًّا لمثل هذا الموقف وأحرص من أن يؤخذ على غرة. فلقد كان يعرف أن كبار اللوردات الذين أجلسوه على العرش لا يستغنون عنه. وكان على جانب كبير من الشجاعة والعزم والصبر وإن كان يبدو في الظاهر أنه بارد رخو. وقد قنع بأن يكون ملكًا برلمانيًّا ما وسعه أن يحرز مساعدة بريطانية يستعين بها على كبح قوة لويس الرابع عشر. ولقد ضم فرق الجزيرة إلى فرق جيشه الهولندي وقادهم -في سبع مواسم متوالية- حارب في خلالها مشيري (مارشالات) الملك الفرنسي في البلاد الواطئة. وكان جنديًا محنكًا عنيدًا متثبتًا برأيه، بل لقد كان بطلًا في عدم اكتراثه بالربو المزمن الذي انتابه، وتحمل في رباطة جأش، محن المعسكر والميدان. وهو -وإن لم يكسب قط معركة فاصلة- لم يكابد قط نكسة

شديدة الوطء. ومعركة نيرفندن أنموذج حظه: انتصر المشير زاكس ولكنه خسر في المعركة ١٠,٠٠٠ جندي.

وفي سنة ١٦٩٧ عُقد صلح، غير أن الحرب قامت من جديد عندما ارتضى لويس الرابع عشر عرش إسبانيا لحفيده. ولسوء حظ لويس أن وليم مات وقتما كان هو يجهز للحرب. ذلك أن الملكة (آن) -التي ورثت وليم- عينت جون تشرشل، دون مولبرا، قائدًا لجيشها.

كان مولبرا جنديًّا عبقريًّا. وقد استطاع بالصبر والحصافة أن يبقي حلفاءه متماسكين. وكان ذا خيال وبصيرة في شؤون الحرب، يشتد في إقرار النظام وإن عني أشد العناية براحة رجاله الذين يثقون كل الثقة بقائدهم «الأومباشي جون» (قائد الاثنى عشر). وفي ١٧٠٤ زحف سرًّا، وفي أقصى سرعة، إلى الدانوب حيث التقى بالقائد النمساوي الأمير أويجين ودمر الجيش الفرنسي في بلينهايم. وكانت هذه المعركة، بالإضافة إلى انتصاراته الشهيرة في راميليس وأودينار ومالبلاكية، ذروة فخار في مجموعة كاملة من التحركات العسكرية المتألقة التي دفعت لويس الرابع عشر إلى عقد الصلح. إلا أن الأمور لم تسر على هذا المنوال الطيب في إسبانيا حيث قهر الجيش الفرنسي -بقيادة دوق بيرويك الإنجليزيّ المولد- جيش الحلفاء الذي يقوده إيرل جولوي الفرنسي المولد، في ألمانزا سنة ١٧٠٧. ولم يكن الحلفاء محبوبين في إسبانيا. ولهذا فإن حفيد لويس الرابع عشر احتفظ بها (أي إسبانيا) في صلح ١٧١٣. وتعويضًا عن هذا أعطيت الأراضي الواطئة الإسبانية للنمسا ابتغاء متابعة كبح قوى فرنسا.

وفي البحر كان الأميرال روك قد دمر أسطولًا فرنسيًّا على مسافة مِن لاهوج وأسطولًا آخر عند فيجو حيث تقاضى أحد عشر مليون قطعة نقدية -من ذات الـ ٨ بزتياس- من سفائن الكنوز الإسبانية. وروك هو الذي استولى على القلعة المغربية القديمة، جبل طارق، في ١٧٠٤. وفي الحربين حافظ الأسطول البريطاني على أمن

البحار لضمان حرية نقل الجنود.

وماتت الملكة (آن) ولويس الرابع عشر وتغير المشهد. ذلك أن اللوردات الكبار بايعوا أمير هانوفر الجرماني البروتستانتي -جورج- ليكون جورج الأول ملك بريطانيا. وفي ١٧١٥ كان الملك الفرنسي لا يزال صبيًّا: لويس الخامس عشر. وهنا حلت فترة سلام طويلة مداها خمس وعشرون سنة نتيجة لسياسة نبيل نورفولك المخادع سير روبرت وولبول الذي كان أول رئيس وزارة في بريطانيا ولسياسة الألمعي المسن الكردينال فلودي الذي حكم فرنسا لحساب لويس الخامس عشر. وكان كل منهما ديدنه السلام وتشجيع التجارة والصناعة، ولا ينتظر من الحرب إلا كسبًا قليلًا، وقد أثرى بلداهما وانتعشا تحت حكميهما.

ورث جورجُ الثاني جورج الأول، وبلغ لويس الخامس عشر الرجولة وتسلم مقاليد الحكم. وتوفي الكردينال فلودي وطرد وولبول من منصبه نتيجة ضجة تطالب بإشعال الحرب ضد إسبانيا لم تلبث أن انقلبت حربًا على فرنسا. وفي ١٧٤٠ مات الإمبراطور النمساوي وترك عرشه لابنته مارية تيريزا. وفي ١٧٤٠ أيضًا مات الشيخ المتوحش ملك بروسيا وترك تاجه وجيشه الحسن الإعداد لولده النابه فردريك الثاني الذي استولى من فوره على مقاطعة سيليزيا النمساوية الغنية من المملكة الصغيرة السن. وخف الفرنسيون إلى مساعدة فردريك ضد النمسا بينما أخذت بريطانيا جانب مارية تيريزا، فعلت ذلك بطبيعة الحال عن طريق هجومها على الفرنسيين.

ولم تلبث القارة أن عجت بالجيوش وشوهدت في تلك الحرب، حرب «الوراثة النمساوية»، الفرق البريطانية والهنوفرية تحت إمرة جورج الثاني تشق طريقها للخروج من محنة في ديتينجين عام ١٧٤٣ . وشهدت القارة بعد ذلك دوق كمبرلاند، العديم الكفاية، ابن جورج، ينهزم أكثر من مرة أمام مارشال زاكس الذي ضم جيشه الفرنسي فرقة اليعقوبيين الأيرلندية الجبارة. ومن الصعب معرفة: هل كسبت بريطانيا من الأيرلنديين الكيّسين الذين حاربوا من أجلها أكثر مما خسرت من الأيرلنديين

الذين يعدلونهم كياسة والذين حاربوا ضدها. قهر أميرا البحر الإنجليزيان، أنسون وهوك، الأساطيل الفرنسية وجرت مقارعات بين قوات الفرنسيين والإنجليز في الهند وفي أمريكا الشمالية، ولكن -بعد تكرار الزحف والزحف المضاد في النمسا وبوهيميا وسيليزيا وبلاد الراين والبلاد الواطئة-انتهت الحرب بالموقف البالغ الحرج، سنة ١٧٤٨. وقد ردت الفتوحات كلها ما عدا فتح سيليزيا المخزي على يد فردريك البروسي.

على أن ثورة سنة ١٧٤٥ اليعقوبية، أهميتها المباشرة تربو في نظر الإنجليز والإسكتلنديين.

وبينما كان بلاط سنْت جيمس يصغي إلى «تسبيحة الشكر»، لناظمها هاندل، حمدًا لله على النصر الملكي في ديتينحجين، كان عملاء آل ستيوارت مشغولين بالاستعداد لغزو إنجلترا. وقد تبين أن ذلك يمسي بالغ الصعوبة ما لم يشارك فيه الفرنسيون بقدر كبير. غير أن شارل ستيوارت الظريف الطيب -شارل إدوارد الفارس الصغير- أبحر إلى إسكتلندا حيث نزل إلى البر في صحبة سبعة من أتباعه. ولم يمضِ أسبوعان إلا وهو على رأس ألفين من الجبليين غالبهم من عشيرة ماكدونالد. واستمرت العشائر تتجمع حوله، ودخل إدنبرة، وتُوّج باسم شارل الثالث، وتغلب على جيش من جيوش الأغوار (أي الأراضي الواطئة تحت منسوب البحر) وسار جنوبًا. وعبر ٨٠٠٠ من رجال العشائر الحد الغربي. وتطرقوا في بسالة إلى كارليل وصعدوا (شاب فيل) التي يشتد فيها الريح فرحبت بهم لانكشَير «الموالية لهم». وتقدم شارل ولبس الصوف الإسكتلندي المخطط والصدرة الزرقاء المزدانة بالدانتلا الفضية، والطاقية الإسكتلندية. وفي الرابع من ديسمبر -عندما بلغ الجبليون دربي- بدا كأن المغامرة تتخذ سبيلها إلى النجاح. وكان شارل يتحرق شوقًا إلى الذهاب إلى لندن غير أن اللوردات الإسكتلنديين -الذين خيب أملهم إحجامُ نبلاء الإنجليز عن مد يد المعونة إليه- نصحوا له بالانسحاب. فاستداروا وعادوا أدراجهم على الطريق التي أتوا منها.

وتجمعت قوات جورج الثاني الإنجليزية والألمانية في داخلية البلاد بقيادة كمبرلاند وتبعته. وبعد ثلاثة أشهر التقى الجيشان في عاصفة ثلجية على كالودين مور (السبِخة).

وزحزحت فرْقةُ أثول رجالَ ماكدونالد عن مراكزهم الممتازة المعتادة الواقعة على يمين خط القتال فوقفوا بمعزل إلى أن فني الماكينتوش (أصحاب معاطف المطر المشمعة) وغيرهم نتيجةً لهجماتهم الشهمة اليائسة على خطوط المشاة الثلاثية التابعة لـكمبرلاند. وكان نجاح غارة الجبليين يعتمد على هجومها الأول. فلما هجمت عشائر ماكدونالد كان وقت كسب المعركة قد فات. وأخذ آخر جيوش اليعقوبيين يتفتت تفتتًا سريعًا. ونأى ضابطان إيرلنديان وشارل عن الميدان. وبقي الميدان في حوزة رجال كمبرلاند.

ونجا الأمير شارل بفضل ولاء أصدقائه: الرجال والنساء الجبليين الفقراء. وتمكن كمبرلاند - بمساعدة آل كامبيل من أرجيل- من القبض على الثوار وإعدامهم ومن حرق الأكواخ والمحاصيل ومصادرة الماشية. وألغى البرلمان السلطات الإقطاعية التي كان يتمتع بها زعماء العشائر، وحظر لبس القماس الإسكتلندي المربع النقوش والعباءة الصوفية المخططة. وقضى على اليعقوبية. وعاش شارل إدوارد حتى ١٧٨٨ ولا عمل له غير شرب الخمر. وصار أخوه الصغير هنري -«هنري التاسع» في نظر اليعقوبيين- قسيسًا كاثوليكيًّا وكاردينالًا، ومات في ١٨٠٧ وهو آخر شجرة آل ستيوارت السيئة الحظ.

ومن الغريب أن إحدى نتائج ثورة الـ «٤٥» هذه كانت تقوية الجيش الملكي البريطاني. ذلك أن الحكومة ساعدت على تجنيد الفرق الجبلية. ولا محل للكلام في تحية ذكراهم المجيدة منذ ١٧٥٠. والحق أن الجيش لم ينتعش وحده من معاضدة الإسكتلنديين، ولكن الحياة الوطنية البريطانية انتعشت كذلك منذ أواسط القرن الثامن عشر.

وفي خلال الحرب الكبرى -التي فيها كانت الـ «٤٥» حادثًا شائقًا- أعلت البحرية البريطانية مكانتها ثانية بتأمين البحر للنقل والتجارة. نعم لقد وسع البحرية البريطانية أن تقرر مصاير حوادث ما وراء البحار في الشرق وفي الدنيا الجديدة ولكنها عجزت مع ذلك عن وضع قراراتها موضع التنفيذ في أوروبا دون أن تعتمد هنالك على حليفة ذات قوة برية عظيمة[١].

حرب السنوات السبع:

والآن استطاع خيل الملك جميعًا ورجال الملك جميعًا في فرنسا وبريطانيا أن يعودوا إلى ثكناتهم: الحرس، فرسان الدراجون، حملت القرابيتات (وهي نوع من الأسلحة النارية)، حملة البنادق، رماة القنابل اليدوية، وسائر الرجال.... يعودون إلى التدريب والعرض العسكري، لابسين أحذيتهم الطويلة والأحذية يغطي وجهها القماش وجلود الدببة أو الطواقي ذوات الريش الثلاث وضفائر الشعر الطويلة تزينها الزهور والأدهنة أيما تزيين. فلقد انتهت الحرب في أوروبا.

ولكن الحرب لم تقف في الهند حيث كانت شركات الهند الشرقية المتنافسة تتاجر في أمريكا التي فيها كان المستعمرون يتسابقون إلى استعمار القارة.

ولم يكن لأهل الهند نفوذ كبير فيها. ولذا أتيحت لـ.. دوبلكس -حاكم بندتشري الفرنسي- فرصة تنمية نفوذه، وذلك بالمشاركة في السياسة المحلية في الولاية الهندية المسماة «كارناتيك» (أي القرنفلة). وفي ١٧٥١ حاول أن ينصّب على العرش حاكمًا هنديًّا جديدًا يلقبونه «النواب» فحاصر جيش من الهند تريتشينو بولي التي كان النواب القديم قد التجأ إليها. وأزعجت تلك الأحداث رجال الشركة البريطانية في مدراس. فجمع كاتب صغير اسمه روبرت كلايف حفنة من الجنود الوطنيين (أو الجنود الأهلية المجندة في جيش أوروبي). واستولى على آركوت

(١) انظر شكل رقم -٩- (إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة ١٧٥٥ -١٧٦٣).

العاصمة القديمة. وكانت تلك خطوة موفقة لأنها تسببت في سحب الحشود التي كانت تحاصر تريتشينو بولي. وحافظ كلايف على آركوت خمسين يومًا تعرض في خلالها لاحتمالات شديدة وطرد بعدها الهنود. وفي ١٧٥٢ استولى على تريتشينو بولي وأعاد النواب القديم. وعلى أثر ذلك رجع دوبلكس وكلايف إلى وطنيهما. عاد الفرنسي بالخزي، أما كلايف فقد عين عقيدًا في جيش جورج الثاني.

وكانت هذه العمليات -التي أخضعت الحصون الجنوبية بجنوب الهند- تافهة إذا قيست بالأحداث التي وقعت في الغابات الأمريكية. كان الفرنسيون المقيمون في كندا قد استكشفوا مجاري الماء. وكان قناصتهم -الذين يصيدون الحيوانات لبيع جلودها- وضباطهم ينشطون على طول الأنهار التي تجري بين كندا والبحيرات الكبرى وبين المستعمرة الفرنسية في لويزيانا، وكان نشاطهم يقابل بالاستنكار الشديد في المستعمرات البريطانية في الولايات الساحلية.

وفي ١٧٤٩ نصّبت جماعة من رواد مونتريال لويس الخامس عشر ملكًا على المناطق التي تحيط بنهر الليجاني وفي ١٧٥٤ شيد الفرنسيون حصن دوكين حيث يلتقي نهر الليجاني ومونونجاهيلا. ونتيجة لهذا التهديد المتوغل في داخلية البلاد جاء الرائد جورج واشنطن -مع من جندهم في فرجينيا- إلى فلاة غرب بنسلفانيا حيث أوقعوا فصيلة فرنسية في كمين. وبددت مباغتة إطلاق النار دفعة واحدة، الصمتَ الذي يسود الغابة، وبدأت حرب في سبيل الاستيلاء على قارة.

وفي ١٧٥٥ انطلق القائد برادوك ليستولي على الحصن فمهد كشافوه دربًا في الغابة سعته ١٢ قدمًا وتقدم رجاله وجيشه المرابط -وكانوا ألفين- ١٠٠ ميل في شهر واحد. وخاضوا، في روح عالية نهر مونونجاهيلا على أنغام المزامير والطبول. وعندئذ وقعوا في كمين كان قد أعده لهم الفرنسيون والهنود. ووقع نصفهم صرعى طلقاتِ أعداء اختبأوا في مكان لم يروه، وجرح برادوك جرحًا مميتًا. وأثرت تلك الكارثة أسوأ تأثير في سمعة ذوي المعاطف الحمر، بين المستعمرين

والهنود الحمر. ورغم المباغتة التي قام بها، في الشمال، الهنود الموالون لسير وليم جونستون ومجندي إنجلترا الجديدة، كان الموقف سيئًا. فلقد ظل خطر عزل الفرنسيين للمستعمرات البريطانية ماثلًا، وجاهد واشنطن بغيةَ إيقاف زحف الجنود الحمر الذين أطلقوا العنان لوحشيتهم على طول مزارع الحدود من نيويورك إلى ولايات كارولينا.

وفي تلك اللحظة بالذات اشتعلت الحرب في أوروبا من جديد. ذلك أن مارية تريزا -التي صح عزمها على استرداد سيليزيا- تآمرت مع فرنسا وروسيا وبافاريا، على مهاجمة فردريك البروسي. وتنبه فردريك إلى هذا فسبقها بتسيير جيش كبير إلى قلب سكسونيا التي ظل يتصرف إزاءها كما لو كانت من أراضيه. وفي هذه المرة انحازت بريطانيا -بوصفها عدوة الفرنسيين الذين كان أبناء بريطانيا مشتبكين وإياهم فعلًا في حرب بأمريكا- انحازت بريطانيا، راغبة أو كارهة، إلى جانب فردريك.

وكانت بداية الحرب في غير مصلحة بريطانيا، وأمرت زمرة السياسيين الخائنين في وستمنستر، بإعدام أمير البحر (بنج) رميًا بالرصاص لأنه لم يصدّ الأسطول الفرنسي عن الاستيلاء على مينورقة. ولم يؤثر قط هذا الحادث على العدو. وكادت الأمور تتردى في حمأة الارتباك لولا أن الجمهور أكره جورج الثاني على أن يسلم مقاليد الحرب إلى وليم بيت... لم يكن بيت يؤمن بأنصاف الحلول فأهاب بالقوى المحاربة أن تتخذ خطة الهجوم وأعد ١٥٠ سفينة للعمل. وقد رمى إلى غرض واضح وهو أن يهبط بفرنسا إلى دولة من الدرجة الثانية ويبيد أساطيلها ويستولي على جميع ممتلكاتها الواقعة وراء البحار. وخطط لحماية هانوفر ولحماية الأراضي الواطئة، وذلك بتأدية أموال طائلة إلى فردريك وبإرسال فرق بريطانية إلى القارة، وكان أكبر همه أن يسيطر على البحار وعلى ما وراء البحار.

واكتسب سيادةَ البحار الضيقة أمراء البحر: هولمز وأنسون وهوك. وأقفل أوسبورن البحرَ الأبيض المتوسط وأسر أمير البحر الفرنسي دوكين في سفينة قيادته.

ودفع بوسكاون جيش القائد جيفري أمهرست إلى لويزبرج وهي القلعة التي كانت تذود عن مدخل كندا البحري وحمل عليها واستولى عليها.

ثم بدأ الهجوم على كندا. تقدم ٢٠,٠٠٠ رجل، بقيادة آبرو كرومبي، في طريق (هدسون -موهوك) وهبطوا بحيرة جورج. وتحركت العمارة البحرية الصغيرة المنتشرة -بمجاديف لا حصر لها تغطس في المياه الهادئة- تحركت شمالًا بين غابات أديرو نداكس والجبال الخضراء. فلما نزلوا من السفن قام آبرو كرومبي بهجوم أماميّ على تيكونديروجا حيث أحيط بخنادق جنود مونتكالم على جرف بين المستنقعات مستتر وراء حاجز من الأشجار المقطوعة. وحصد الحماة بطلقاتهم النارية المباغتة، حصدوا المهاجمين العشرات تلو العشرات. وقد كابدت خسائر جسيمة فرق الجبليين الذين جندوا حديثًا من بين رجال العشائر المتكلمين بلغة بلاد الغال، فلقد كان الهجوم جسارة تبلغ حد الحماقة. وفي الوقت ذاته كانت الجنود البريطانية -بقيادة فورْبز- تسير في حذر إلى حصن دوكين على الدرب القديم، الذي أنشأه برادوك، وكانت الطبول تدق ليلًا ونهارًا لتحافظ على وحدة (طابور) الجنود الطويل. بلغوا المكان فوجدوه مهجورًا. فحرسوه وأسموه: حصن بيت. وبمرور الوقت تطور وانتعش حتى أصبح مدينة بتسبورج الصناعية العظيمة.

وكانت ١٧٥٩ سنة النصر. فلقد دمر بوسكاون أسطول البحر الأبيض الفرنسي في لاجوس. وضرب رودني الـ.. هافر بالقنابل. ودمر هوك أسطولًا فرنسيًّا في مياه خليج كيبيرون الضحلة. وفي أمريكا اشتعلت موقعة -في مكان تسمع منه سقطات مياه شلالات نياجارا الهادرة- موقعةٌ جعلت البريطانيين سادة طريق بري يوصل إلى كندا. وثمة طريق ثالثة -هي طريق البحر- توجت انتصاراتهم. فقد نقل أمير البحر سوندرز، نقل القائدَ جيمنس ولف وجيشه إلى أعالى الـ.. سنت لورنس: وشق وثابو شاطئ التيمز -الذين يشتغلون بالتعبئة والنقل- طريقهم عبر المياه غير المدروسة بمهارة فائقة إلى أن فاجأوا مواطني كويبك بالرسو أمام عيونهم.

وعندما أزمع وولف على أن يمر بجيشه في درب بالغ الضيق من شاطئ المياه إلى المرتفعات العالية اضطلع البحارة بجر المدافع والذخائر. وعلى المرتفعات التقت الجيوش الفرنسية والبريطانية للفصل في مصير كندا. وقتل مونت كالم و(وولف) في المعركة التي ضمنت استيلاء البريطانيين على كوبيك. وعندما وصل أمهرست في ربيع ١٧٦٠ استسلمت مونتريال وأصبحت كندا كلها بريطانية.

إلى هذه النتيجة وصلت الحرب وقتما أمر جورج الثاني -الذي كان يزور هانوفر- بشوكولاتة الصباح الساخنة وشربها وسقط ميتًا.

وكان هذا حدثًا فاصلًا، إذ إن جورج الثالث -الذي كان يكره وليم بيت- أحل محله وزيرًا سارع إلى عقد الصلح. وقد ظلت خطط بيت تكلل بالنصر حتى بعد استقالته. فعندما دخلت إسبانيا الحرب استولت البعوث البريطانية من فورها على الأملاك البريطانية في هافانا والفلبين وهي الأملاك التي أعيدت بمقتضى صلح ١٧٦٣. وتنازلت إسبانيا لبريطانيا عن فلوريدا. فإذا أضفت كندا إلى تلك البقاع وجدت أن بريطانيا تملك، إذ ذاك، كل شمال القارة الأمريكية شرقي المسيسي. وفي جنوب الهند -التي كانت الدولتان ترسلان إليها الأساطيل والجنود- هزم سير أيركوت الفرنسيين في واندواش -وبندتشري عام ١٧٦٠. واحتفظ الفرنسيون بمحطاتهم التجارية الواقعة على السواحل الهندية ولكنهم فقدوا كل أمل في السيطرة على الولايات الأهلية. وبدلًا عن ذلك أصبح تجار لندن سادة البنجال نتيجة لانتصارات كلايف على الجيوش الأهلية وفي بلاسي عام ١٧٥٧ وانتصارات مونرو وباكستر عام ١٧٦٤.

وهكذا فقد الفرنسيون إمبراطورية وكسب البريطانيون إمبراطورية.

تركْنا فردريك البروسي مع جيشه في سكسونيا عام ١٧٥٦. لقد أنهى الحرب مع مملكة خربت تخريبًا محزنًا ولكنه ظل، مع ذلك، يضع يده على مقاطعة سيليزيا، وهي البلد الذي اشتعلت حرب القارة بسبب التسابق إلى امتلاكها. كان فردريك قد حقق انتصارات: على النمساويين في براج، وعلى الفرنسيين في روزباخ، وعلى

الروس في لويتين، ولكنه كذلك مُني بهزائم كثيرة. لقد أمضى ست سنوات لم ير في خلالها عاصمته برلين التي كان أعداؤه قد استولوا عليها. وكان العمل الذي قام به ضد الدول الكبرى بالغ الصعوبة. نعم، لقد ساعدته أموال بيت فاستطاع أن يوجه الهجمات الهانوفرية والبريطانية في الغرب ضد قوات لويس الخامس عشر ولكن هذه المساعدة كانت هينة، إلا أن خلاصه جاء، آخر الأمر، نتيجة لوفاة الإمبراطورية إليزابيث الروسية. ولم تناوئه وريثتها -كاترين- بل سحبت قواتها من ميدان القتال.

كان فردريك جنديًّا عظيمًا هادئًا لا سبيل إلى قهره، وقد أكسبته شجاعته -في مواجهة احتمالات بالغة الخطر- إعجابَ العالم. وكان يؤمن كل الإيمان بالهجوم المركز الذي يوجه إلى جناح ضعيف، الهجوم الذي يقوده مشاته المنظمون والذي ينقض فيه حشدٌ من الخيالة. لقد كان مثل هذا الهجوم -في أغلب الظروف- يكتسح كل ما أمامه. غير أن كل شيء، في بعض الظروف، كان يبدو خاسرًا حتى في نظره هو. وكان يستهين بالأرواح، وبروحه هو بوجه أخص. وكان مظهره يشير إلى أنه قوي العزم إلى درجة الغلظة في بعض الأحيان، ولكنه كان ذو طبيعة حساسة يتفانى في خير أمته. وكان يوحي بالثقة والإخلاص لشعبه حتى استحق -جزاء وفاقًا- لقب «العظيم»، لا بسبب حذقه الحربَ فحسب بل بسبب الجهد الذي بذله بعد الحرب في إعادة الرخاء إلى الأرض التي خربتها الحرب. لقد أعاد بناء البلاد التي خربت، وشجع التجارة والصناعة، وأعاد تعمير المزارع المهجورة، وذلك بتوزيع الماشية عليها. ولقد حث شعبه على الكد وحماه، مع ذلك، من جشع ملاك الأرض، وبدأ خطة التعليم النظامي، ونظم مملكته كأنها جيش، وفرض الطاعة والنظام والعمل الجدي ولكنه حرص على العدل والتسامح وأداء الواجب.

كانت النمسا -قبل تلك الفترة- هي صاحبة الكلمة العليا بين الدويلات الألمانية. ولكن منذ ذلك الوقت وجدت مملكة منافسة حسنة التنظيم والإعداد هي بروسيا.

الإنسان والكون:

وسيلتنا الأولى في الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا هي التطلع إلى شيء حقيقي نرجو وجوده هناك، كالذهب مثلًا. وطالما أمضى الكثيرون من الرجال حياتهم ابتغاء مواد سحرية كـ «حجر الفلاسفة» (حجر الكيمياء) الذي يكفي أن يلامس المعادن فيردُّها ذهبًا أو كـ «إكسير الخلود» (ماء الحياة) الذي يمد مالكه بشباب دائم. ولقد كانوا يسخنون كل أنواع الأمزجة (جمع مزيج أو مزاج) ويغلونها ويجففونها ويفتتونها ويستقطرونها ويستكشفون، اتفاقًا في بعض الأحيان، أشياء نافعة. وكان أولئك يطلق عليهم اسم «السيماويين» (أي الكيمياويين الذين يحولون المعادن إلى ذهب) فكانوا كمن يبحث عن مدينة خرافية ولا يرى الأزهار تحت قدميه.

والوسيلة الثانية في الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا -وهي التطلع إلى ما هو موجود هناك فعلًا- هذه اتَّبعها آلاف الناس البسطاء كأهل الريف الذين عرفوا أسماء كل النباتات البرية والخلائق كما اتبعها أرباب المهن والحدادين ودباغو الجلود ونافخو الزجاج وصانعو السكاكين والآلات القاطعة والساعات والبيرة وهلم جرا، وهم أولئك الذين استكشفوا كل أنواع الحقائق النافعة والشائقة التي تتصل بمهنهم. وكثيرًا ما استكشف هؤلاء أيضًا أشياء بطريق الصدفة. وقد تيسرت الحياة المتمدنة بفضل حذقهم ومعلوماتهم المتعددة النواحي. ولم يكن أغلب التعليم (وهو وسيلتنا في استبقاء الحياة المتمدنة) غير تدريبٍ في إحدى تلك المهن التي تحتاج إلى مهارة.

ومعلومات العلماء أساسُها معلومات الصناع المهرة. والعلماء يعمدون في بعض الأحيان إلى تقصّي شيء بعينه كإيجاد علاج للملاريا. ولكن الذي يشتغل بالعلم لذاته إنما يبحث بدافع الفضول. وترد معلوماته إلى تعقبه الحقيقة لذاتها، وهذا ما قد يسمى بحق ثمرة الكسل، كالفائدة التي قد تأتي من مراقبة العناكب بدلًا من تفليح الحديقة، أو من العكوف على التفرس في السماء ليلًا بدلًا من التوفر على قدر من النوم يساعد على إتقان عمل الغد. إنه المتفرج على الكون. إنه لا يهتم: هل

تفيد معلوماته أو لا تفيد! إنه لا يهتم إلا بتشكيل صورة الكون. وهو بتقصياته (التي يطلق عليها عادةً الاسم الفخم: اسم «البحوث العلمية») يبدأ في التعرف على أن الدنيا مكان أكثر روعة وإثارة للدهشة مما قد يستطاع تصوره في حلم سحري.

والحقائق التي تستكشف على هذا النحو ينبغي ربط بعضها ببعض في نسق أو مشروع، هذا إذا قدّر لها أن تفهم وتبقى في الذاكرة.

والمعرفة العلمية تنظمها نظريات وفروض. وتبدو دلائل النظام... (وإذا استعرنا وأسأنا استعمال كلمة من كلمات الساسة) نقول: وتبدو سماتُ «القانون» في تعاقب الفصول وفي حركات الأَجرام السماوية «جعل القمر لمواقيت. والشمس تعرف مقرها». ولقد عرف قدامى حكماء الكلدانيين وكهان مصر الكثير عن الفلك. وتعلم الإغريق من الكلدان ومن مصر الفلك والعلوم الرياضية. وقد حقق الإغريق أكبر تقدم -سُجل قبل زماننا- في صدد المعلومات الخاصة بالكون. ووجوه التقدم في زماننا مصدرها الطفرة في المعلومات التي نشأت عن بعث الحكمة اليونانية في عهد النهضة العلمية.

والرأي الإغريقي الذي يقول بأن الكواكب والنجوم مثبتة في أجسام كروية غير مرئية يدور بعضها من داخل البعض -انتقل هذا الرأي إلى العلماء المسيحيين: بيت المقدس مركز الكرة الأرضية، والكرة الأرضية مركز نظام سير الكواكب، والإنسان مركز الكون. وإبان نهاية القرون الوسطى كان الكثيرون من ذوي الذكاء الحاد غير مقتنعين بهذا. وفي سنة ١٥٤٣ طبع كاهن بولندي -وهو نيقولا كوبرنيك (كوبرنيكوس) الذي تدرب في بعض الجامعات الإيطالية- طبع كتابًا عنوانه «الدوران حول المركز». ويوحي هذا الكتاب بأن الأرض تبرم حول محورها كالنحلة الخشبية المدوِّمة وتدور -في الوقت نفسه- حول الشمس تصاحبها الكواكب. وقد توصل كوبرنيكوس إلى هذا الكشف باستخدام ثلاثة أعواد خشبية شُد بعضها إلى البعض بحيث تشكل آلة للرؤية. وإنه لعبقري ما في ذلك شك. وقد أيد كشفَه هذا

جاليليو (١٥٦٤ -١٦٤٢) وهو الإيطالي الذي حسن التلسكوب الذي كان قد أُخترع حديثًا والتي به رأي صورة القمر والكواكب الدائرة في فلكه التي تدور حول كوكب المشترى. وقد أيد بحوثه في صدد الأجرام السماوية -مرة أخرى- راصدو الليل المثابرون العاملون مع الدانمركي تيشوبراهي وكذلك الألماني يوهان كيلر صاحب الدراسات العميقة المتواصلة في الرياضيات. والعلم لا وطن له.

والحقائق والنظريات -في الفلك والعلوم- لا سبيل إلى تعريفها دون الاستعانة بالرياضيات التي هي نوع من أنواع اللغات المضبوطة المحكمة. ومن حسن الحظ أن تقدمًا كبيرًا في الرياضيات تحقق في القرن السابع عشر على يد أربعة فرنسيين من ذوي المواهب السامية وهم: ديزارج -وديكات- وفيرما- وبسكال. والعلوم الرياضية لا وطن لها.

وتوج جهودَ أولئك الرجال جميعًا، في القرن السابع عشر، إنجليزي اسمه إسحاق نيوتن (١٦٤٢ -١٧٢٧) وهو ابن فلاح من لينكو لنْشير دخل ترينتي كولدج (كلية الثالوث) وكمبردج وفيها تخرج وأصبح «زميلًا» عام ١٦٦٧. وقد حول ذهنه إلى الرياضيات كتاب عثر عليه اتفاقًا في أحد الأسواق الموسمية بستوربردج وفي ذلك الوقت -الذي بلغ فيه الثالثة والعشرين من عمره- كان قد استكشف النظرية ذات التسمية الثنائية التي تتطلب البرهان وكان قد أخذ يشتغل في إيجاد طريقة للعد عرفت، منذ ذلك الوقت، باسم «حساب التفاضل والتكامل». وقد قضى كثيرًا من وقته في دراسة الضوء. وكان عديم العناية بالشهرة إلى حد أن تحفته «الأصول» (أي المبادئ الأولية -التي كتبت باللاتينية لكي يتيسر للعلماء قراءتها!) لم تنشر إلا بعد إلحاح صديقه الفلكي: هالي.

وكانت عبقرية نيوتن توفيقًا فذًّا بين الرياضيات والمقدرة العملية الفائقتين. وقد ربطت نظرية الجاذبية التي وضعها بين كل الحقائق المعروفة في هذه الدنيا المحيرة، ربطتها جميعًا في نهجٍ واحد جليل يشمل كل ما يتحرك من ذرة التراب إلى النجم

المذنب ومن النحلة الخشبية المدومة إلى الكوكب السيار... ألق بالك إلى تواضعه إذ يقول عن نفسه: «لست أعرف كيف أبدو في نظر العالم ولكني -في نظر نفسي- يلوح أنني لا أزيد على صبيّ يلهو على شاطئ البحر أسلّي نفسي بالعثور، بين الفينة والفينة، على حصاة أملس من المعتاد أو محارة أجمل. هذا بينما خضم الحقائق العظيم يظل جميعه مجهولًا أمامي» وقد لخص الشاعر إسكندر بوب آثار نيوتن في بيت من الشعر فحواه: (الطبيعة وقوانين الطبيعة تستخفي في الظلام. فقال الله «فليكن نيوتن!» فأضاء كل شيء). إلا أن عبارة نيوتن أنبل العبارات فهي تصف العالم الذي يعرف ضآلة معلوماته.

وماذا عن الأرض وكل ما عليها؟ قال أرسطو إن الأشياء جميعًا تتكون من أربعة عناصر: التراب والهواء والنار والماء، وإن كلًّا من تلك العناصر قد يكون ساخنًا أو باردًا، رطبًا أو يابسًا. وقد ظلت الطبيعة الحقة للمادة سرًّا غامضًا حتى في عهد نيوتن. فالشمع والحديد والرمل والكبريت والملح... أي نهج يستطيع أن يسلك هذه وملايين الأشياء الأخرى في أي نوع من أنواع التبويب؟ وكانت مئات من الحقائق معروفة وكان المغنطيس (حجر المغنطيس أو الحديد الخام الممغنط) موضع بحث، وبه كان وليم جلبرت -طبيب الملكة إليزابيث- يجري تجاربه. وقد بحث فان هلمنت المولود في بروكسل (١٥٧٧ -١٦٤٤) في الأبخرة وصاغ كلمة «الغاز» التي شاع استعمالها في البيوت منذ ذلك الوقت. وجمع جلوبر (١٦٠٤ -١٦٦٨) طائفة كبيرة من الحقائق في صدد مواد شتى. وأثار روبرت بويل (١٦٢٧ -١٦٩١) في كتابه «الكيميائي المرتاب» ظلالًا من الشك في رأي أرسطو وفي كثير غيره من التخمينات الحديثة كما قد يفعل كيميائي مرتاب. وهو أول من أوحي بالطبيعة الحقة لأي جوهر. إنها مادة -مهما تشعب تفتيتها- تظل كما كانت ولا يمكن استخراج مادة أخرى منها، ولا يتأتى أن تنقلب إلى مركب أو مزيج. وبرهن كافندش (١٧٣١ -١٨١٠) وبريستلي (١٧٣٣ -١٨٠٤) ولافوازييه (١٧٤٣ -١٧٩٤) على أن الهواء

والماء ليسا جوهرين وعلى أنهما يتركبان من مواد أخرى. وأثبت لافوازييه بالدليل أنه مهما عظم تغيير أي مادة لشكلها (أي مهما تحولت إلى غاز أو سائل) فإن وزنها يظل في كل الحالات كما كان، وفي ١٨٠٨ لخص جون دالتون -وهو أحد أتباع مذهب الصاحبين من كمبرلاند- كل مظاهر التقدم تلك، في النظرية الذرية للمادة التي ابتكرها والتي فحواها: أن كل مادة تتركب من ذرات، وأن كل ذرات الجوهر الواحد تتماثل أوزانها وطبائعها، وعندما تتجمع العناصر لتكون مركبات -كالملح المعروف مثلًا- بالشكل نفسه، وبالنسبة نفسها فإن ذراتها تتجمع دومًا. وقد صَنعت نظرية دالتون بالمادة التي تحيط بنا ما صنعته نظرية نيوتن بالقوة غير المرئية التي تحيط بنا وأخذ الكون سبيله إلى النظام.

أما القوى أو الطاقات غير المرئية التي تعرف بالكهرباء فقد فحص عنها العديدون من العلماء الذين عرفوا كيف يتحكمون فيها ويسلكونها في الأسلاك ويقيسونها ويسخرونها للاستعمال. والأسماء التي تقترن بهذا التقدم المتواصل هي: بنيامين فرانكلين -جلفاني- فولتا -أمبير- فاراداي -أوم- كلارك مكسويل -لورد كُلْفين.

وماذا عن الإنسان نفسه والكائنات الحية؟ طبع العالم بالتشريح أندير شاسبليوس -(١٥١٤ -١٥٦٤)، الطالب في لوفان وباريس والأستاذ في المدارس الشهيرة بـ.. بادوا- طبع في بازل (بال)، عام ١٥٤٣ بعد ظهور كتاب كوبرنيكوس، كتابًا هامًا عنوانه «كيف يعمل جسم الإنسان». وبعد ذلك ظل علماء الأحياء والجراحة يحرزون تقدمًا راسخًا ولكنه وئيد وذلك إلى أن طبع وليم هارفي -(١٥٧٨ -١٦٥٧) الذي درس في بادوا كذلك- كتابه الذي صنع عصره: «حركة القلب» الذي وصف فيه الدورة الدموية. وقد أرسى هذا الاستكشاف أساس كل بحوث المستقبل. وكما أفسح التلسكوب مجال البحث في شؤون السماوات بوضع اللانهائية في دائرة إبصار الإنسان هونًا ما، كذلك فتح اختراع الميكروسكوب -في شمال إيطاليا حول ١٦٥٠- آفاقًا جديدة ولا سيما في علم الأحياء، وذلك بوضع لا نهائي الصفر في دائرة إبصار الإنسان إلى حد ما.

ووضعت الكائنات الحية جميعًا في نسق واحد بفضل نظرية التطور والانتقاء الطبيعي التي قدمها شارل داروين عام ١٨٥٩ في كتابه «أصل الأنواع».

وثمة تعريف آخر بـ «الإنسان» أورده جون لوك عام ١٦٩٠ في كتابه «مبحث عن الإدراك الإنساني» الذي كان محاولة لمعرفة كنه العقل الإنساني. وهذا بدأه الإغريق، وما يزال علماء علم النفس المحدثون يبحثون فيه.

وتاريخ العلوم وحده هو الذي يستطيع أن يقص القصة الكاملة للاستكشاف الذي لم ينقطع منذ النهضة العلمية. وتعكس تاريخه في بريطانيا -إلى درجة كبيرة- سجلاتُ الجمعية الملكية التي أسسها شارل الثاني بميثاق عام ١٦٦٢. ويشمل الرعيل الأول من أعضائها: بويل - برن- نيوتن. وقد انخرط فيها منذ ذلك الوقت كل مشاهير علماء بريطانيا على وجه التقريب.

الثورة الأمريكية:

حدَّت حرب السنوات السبع من الخطر الفرنسي على المستعمرات الأمريكية وكبحت هزيمة بونتياك -وهو زعيم هندي تزعم مؤامرة اشتركت فيها قبائل عديدة ضد وحدات الحاميات البريطانية- كبحت خطرَ الهنود الحمر. ولكن الحاجة مست -مع ذلك- إلى وحدات من جنود الحاميات وإلى أموال لسد نفقاتهم. وأقنع وزير إنجليزي -هو جورج جرنفل- برلمانَ وستمنستر، في سنة ١٧٦٤ -أقنعه بإصدار لائحة لطوابع الدمغة تقضي على المستعمرين أن يبتاعوا طوابع يلصقونها على الوثائق الرسمية، وكانت تلك طريقة مألوفة بسيطة لزيادة الدخل. فلما احتج المستعمرون وطاردوا محصلي الضرائب سحبت اللائحة. غير أن ضرائب أخرى تقررت على الزجاج والورق والشاي. فلما أبى المستعمرون أن يشتروا تلك البضائع ألغيت الضرائب عنها جميعًا فيما عدا الشاي. وقد استغرقت هذه الحركات -بين التقرير والإلغاء- ستة أعوام.

اعترض الأمريكيون على إلزامهم بدفع ضرائب دون أن يكون لهم رأي في إدارة الحكومة. وهذا مبدأ نقدسه في الوقت الحاضر إلى حد أنه يصعب علينا أن نفهم أولئك الرجال الذين حكموا بريطانيا وأمريكا في القرن الثامن عشر. ولقد كانت حكومة بريطانيا البرلمانية حكومة مظهرية درج فيها الرجال العريضو الثراء على أن يبيعوا ويشتروا مقاعد في مجلس العموم. وكان الأمريكيون في نظر رجال كجورج جرنفل وزملائه -ولم يكن أي منهم بالغ الذكاء- كانوا رعايا جورج الثالث كمزارعي سسكس أو نوروفولك سواء بسواء. أما المستعمرون فكانوا رجالًا بلغوا من الحرية شأوًا لم يكن ليستطيع بلوغه عمال المزارع البريطانية. فلقد كان المستعمرون يتنفسون حرية بلاد جديدة شاسعة غنية. وكان في وسعهم أن يجوبوا الغابات دون أن يكون لواحد من ملاك الأرض أي حق عليهم. وعلى أي حال -بينما يكون معقولًا دفع ضرائب لملك- لا يعقل إطلاقًا دفع ضرائب لبرلمان ينتخبه غيرهم.

وكانت هنالك خصومات أخرى في شأن التهريب، بين الإنجليز القادمين حديثًا، حاول البريطانيون وقفها. غير أن التهريب كان شائعًا بين الإنجليز الجدد بقدر ما شاع بين سكان إنجلترا القديمة. وفي سنة ١٧٧٢ ذهب أهل جزيرة رود إلى حد حرق سفينة حربية بريطانية تعمل في منع التهريب.

وحلَّت الكارثة النهائية في سنة ١٧٧٥ عندما سمح لورد نورث لبعض سفن الشاي بأن تبحر إلى أمريكا وقد خفض ثمن الشاي ولكن مع إبقاء الضريبة عليه. وقد بدا هذا الإجراء وكأنه خدعة تجارية خسيسة، إذ إن شركة الهند الشرقية البالغة النفوذ كانت في أمسّ الحاجة إلى أن تصفي بالبيع القدرَ الكبير المختزن من الشاي الهندي. فاستخفت جماعة من أهل بوستون في زي عصابة هندية وتسلقوا سفن الشاي وألقوا بحمولتها في الميناء. فأجاب سياسيو وستمنستر بإقفال ميناء بوسطن وبوضع مستعمرة ماساتشوستس تحت الأحكام العرفية.

وعندئذ كان أمريكيون من كل المستعمرات يتشاورون فيما بينهم إذ إن النزاع

كان قد تلكأ مدى أحد عشر عامًا. وفي مؤتمر بـفيلادلفيا رفعوا أمرهم إلى الملك جورج الثالث وإلى شعب بريطانيا مطالبين بأن يعاملوا على أنهم رجال راشدين قد يكون لهم رأي في إدارة حكومتهم.

وكان الرأي عند خير رجال وستمنستر، لورد تشاتام وإدموند بيرك وتشارلز جيمز فوكس، أن يستجيبوا إلى الاسترحام. ونادى بيرك بأنه إذا أحسنت بريطانيا معاملة مستعمراتها فإن «أي قوة تحت السماء لن تقوى على أن تنتزعهم عن ولائهم». قال هذا وكأنما كان يخاطب جماعة من البربر المتوحشين رغم كل ما في كلماته من خير.

وجر النزاع إلى حرب، لا إلى حرب حقيقية بين شعبين ولا حتى إلى حرب أهلية، بل إلى حرب بين طائفة من سياسيي وستمنستر ومستعمري أمريكا.

بدأت الحرب في لجزنجتن حيث رصد رجال من الجيش المرابط الأمريكي -في ١٧٧٥- لبعض الجنود البريطانيين وأوقعوهم في كمين. وبعدئذ أمر الجنرال جيدج عساكره بالاستيلاء على مرتفع اسمه تل بنكر (هِل) نفذوا أمره في أكثر ما وسعهم من دقة وذلك بالهجوم على الجبهة مباشرة، وفي ذلك خسروا ألف مقاتل.

وقد اختار المؤتمر جورج واشنطون -وهو سيد من فرجينيا- قائدًا أعلى. وقد اقتضت مهمته البغيضة أن يشكل جيشًا من بين متطوعي المستعمرات الثلاث عشرة المنفصل بعضها عن البعض وأن يطعم هذا الجيش ويعمل على أن يدفع مرتباته ويزوده بالذخيرة ويوفر له الغذاء والكساء والتدريب والنظام والضباط الأكفاء ثم يستخدمه بعد ذلك في محاربة بعض الجنود النظاميين بقيادة ضباط شجعان اكتسبوا خبرة في الحروب الأوروبية. وهذا رغم البرد والجوع وعدم التعاون وعدم وجود الضباط والذخيرة. واستطاع واشنطون أن يخلق جيشًا ويحتفظ به مما دل على نبوغه. وتلقى الجيش البريطاني إمدادًا قوامه ثلاثون ألفًا من المترزقة الألمان الذين استؤجروا ليحاربوا. ولكن واشنطون ورجاله كانوا يعرفون البلاد ويحسنون إصابة الهدف.

وفي اليوم الرابع من يوليو من سنة ١٧٧٦ أصدر مؤتمر القارة (الأمريكية) إعلان الاستقلال الشهير. ويرجع أكبر الفضل في صياغته إلى توماس جفرسون، وهو أرستقراطي فرجيني:

«ونحن نستمسك بأن هذه الحقائق بيّنة لا تحتاج إلى إيضاح، وأن الناس كافةً قد خلقوا سواسية، وأن بارئهم حباهُم حقوقًا ثابتة لا سبيل إلى التحول عنها، وأن من بين تلك الحقوق: الحياة والحرية والبحث عن السعادة. وأنه لِكفالة هذه الحقوق تقوم الحكومات بين الناس وتستمد سلطاتها المشروعة من رضاء المحكومين، وأنه عندما يكون من شأن أي شكل من أشكال الحكومة أن يهدم هذه الأهداف فإن من حق الشعب أن يغيره أو يلغيه وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مثل هذه المبادئ وتنظم سلطاتها في وضع يرجح معه جدًّا أنه يحقق أمن الشعب وسعادته.

وليس في هذا من شيء يأباه الرجال الذين عزل أجدادهم جيمس الثاني عن عرشه لأنه أساء الحكم.

ولقد تكلم هذا الإعلان بلغة الحرية. أما الرجال الذين حكموا بريطانيا العظمى فلم يفعلوا، لا ولم يعرفوا الكثير عن ممارسة الحرب.

ولإخضاع أمريكا –حتى ولو كان هذا مرغوبًا فيه– كان ينبغي التوفر على ثلاثة أمور: السيطرة على البحار «في جميع الأوقات»، وقواعد حربية قوية على الشاطئ الأمريكي، وقوات ضخمة من الجند لتكبح شعبًا متفرقًا. وكانت الحرب –في واقع الأمر– يمجها الشعب في بريطانيا إلى حد جعل التوفر على المجندين أمرًا عسيرًا.

وكانت الخطة التي رسمت لسنة ١٧٧٧ تقضي بالتقاء الجنرال بورجُويْن (من كندا) والجنرال هووي (من نيويورك). فانطلق بورجوين عبر الغابات. وكذلك انطلق هووي. ولكنه –وهو لم يعرف شيئًا عن الدور الذي يطلب منه القيام به– أبحر جنوبًا إلى فيلادلفيا! وكانت النتيجة اضطرار بورجوين إلى التسليم للأمريكيين تلقاء عيون ساراتوجا وقد قل جنوده عنهم عددًا وأحيط بهم وشحت ذخائرهم.

وقد شحذ هذا الخبر من عزم الرجال الذين كانوا عندئذ يرصدون هووي بقيادة واشنطون وقد كانوا في حاجة إلى ما يشدّ عزائمهم. وقد حل الشتاء التالي وهم معسكرون في أكواخ خشبية في فالي فورج تعوزهم البطاطين وقد حفيت أقدامهم وتهلهلت ملابسهم. ولم يبق على تضامنهم إلا همة واشنطون وروحه الوثابة العالية. وقد شاركه هذه الروح في الناحية الأخرى من الأطلنطي لورد تشاتام الذي قال: «لو كنت أمريكيًّا -بقدر ما أنا إنجليزي- ووطئت جنود أجنبية بلادي فإنني لن ألقي السلاح أبدًا، لن ألقيه أبدًا أبدًا أبدًا!».

وبعد سنة ١٧٧٧ تلقى الأمريكيون مساعدات جمة. فلقد أعلنت فرنسا وإسبانيا وهولندا الحرب على بريطانيا العظمى. وقد قامت البحرية الإنجليزية بأعمال ضخمة ضد أولئك الأعداء. فحطمت أسطولًا إسبانيا على مسافة من سنت فنست وأسطولًا فرنسيًّا في جزائر الهند الغربية. على أن الأسطول الوحيد الذي اقترب من الشاطئ الأمريكي -عند وصول لورد كورنووليس وجيشه إلى (بلدة) يورك تاون وحاصره جنود الأمريكان ومتطوعو الفرنسيين -كان هذا الأسطول أسطولًا فرنسيًّا. وعلى هذا اضطر إلى الاستسلام وانتهى أمره.

وقد أعاد الصلح الذي وُقع في فرساي عام ١٧٨٣ تنظيم استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ١٧٨٣ كان هناك أكثر قليلًا من ١٣ مستعمرة، يغلب عليها الميل إلى المعركة يتزعمها ويحفزها نفر من الرجال البالغي الاقتدار. وفي ١٧٨٧ سن أولئك الرجال دستورًا سلكهم جميعًا في اتحاد «فيديرالي» له رئيس منتخب وسناتو (مجلس شيوخ) منتخب يمثل الولايات كلًّا على حدة. وله مجلس نواب يمثل الشعب تمثيلًا إجماليًّا بوصفه وحدة. وكان هذا شيء بالغ الجدة في السياسة. وكان أول الرؤساء: جورج واشنطون، وثانيهم: جون آدامز (من ماساتشوستس)، وثالثهم: توماس جيفرسون.

وهكذا أسس أكبر أبناء بريطانيا بيتًا، وبدأت مغامرة كبيرة جديدة. وإلى هنا يجدر بنا الآن أن نترك الكلام عن كل ما مضى، نترك المجتمعات الصغيرة في نيويورك الصاخبة، وبوسطن موئل العلم، وتشارلستون العصرية، وفيلادلفيا الصاحبية (أي التي تنتمي لطائفة الأصحاب المهتزين) نترك صاحب المزرعة وعبيده الجنوبيين، والفلاح الشمالي، وسماك نيو إنجلند (إنجلترا الجديدة) والهوجنوتي الفرنسي، والبروتستانتي الألماني، ومتطهر ماساتشوستس، نترك قاطع الأخشاب المتخلف يعمل فأسه في الغابة، وقناص الحيوانات بقصد بيع جلودها، والصياد، والمرسل للتبشير بالدين، والهندي الأحمر في كوخه المخروطي الشكل. ولكن ينبغي لنا -قبل أن نترك كل هذا- أن نُرجع البصر كرّةً إلى مركبات النقل، تلك المركبات البطيئة الحركة المغطاة التي تسير على الدروب مصعّدة وعابرة الجبال لتدخل كنتاكي وأوهايو وإلينوي وإنديانا. إنها طلائع الغرب.

وفقدت بريطانيا أول إمبراطورية لها عبر البحار، الإمبراطورية القديمة التي ترجع أصول أساليب لغتها إلى الإنجليزية التي كانوا يتكلمونها في أيام شكسبير. ومن غريب المصادفات أن هذه الخسارة ترتبط بميلاد إمبراطوريتها الثانية وراء البحار.

وفي خلال الحرب الأمريكية هاجر ألوف من الأمريكيين -الذين لم يرغبوا في الانفصال عن بريطانيا- هاجروا برًّا وبحرًا ودخلوا نوفاسكوتشيا ونيو برنزويك وشبه جزيرة كنجزتون بين البحيرات الكبرى. وهناك أسسوا المستعمرة الإنجليزية: «كندا العليا». وبمجيئهم تغيرت كندا من مستعمرة فرنسية خالصة إلى مستعمرة ثنائية من الفرنسيين والإنجليز. وكانت تلك بداية مستعمرة كندا المستقلة التي تأسست فيما بعد.

والواقعة الثانية بهيجة ولكنها لا تبعث الاحترام. لقد كان من عاداتنا أن نرسل إلى أمريكا المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام. ولم يكن مستغربًا، بطبيعة الحال، أن الولايات المتحدة لم ترتح كثيرًا إلى مضينا في هذه الفَعلة. وكان الكابتن كوك قد

استكشف حديثًا، الشواطئ الخصبة لـ(نيو سوث ويلز)، فاقترح إرسال المجرمين إلى هناك، على أمل أن يسهم جمال المكان في جعلهم أخيارًا. وعلى هذا أبحر الكابتن فيليب -في سنة ١٧٨٧- مع ٧٠٠ مجرم إلى البحار الجنوبية وهبط بهم (سيدني) في يناير من ١٧٨٨. وكانوا أول من استوطن أستراليا من البريطانيين.

ولم يصبح المجرمون المنقولون أسلافًا للأمة الأسترالية. غير أن استقرارهم حوّل القارة الجنوبية إلى مستعمرة بريطانية كما أنه أظهر حاجة البلاد القاصية إلى الرجال الأحرار المغامرين.

ثروة الأمم:

يجب أن لا تحدونا حكاية الحروب في القرن الثامن إلى الظن بأن ذلك العصر كان عصرًا صاخبًا. فلقد كان جندي الحرس الطويل القامة وفارس الدراغون الجسور -في زيهما الأنيق- من الجنود المحترفين الذين علمتهم شريعة أخلاقهم أن يحترموا حياة المدنيين وأملاكهم. وكان الجيش يحارب الجيش ولم تكن الأمة تحارب الأمة كما هي الحال في عصرنا هذا. كانت الحروب تفصل في مصائر الشعوب فتحول -على سبيل المثال- الكنديين الفرنسيين إلى رعايا بريطانيين. غير أن الحرب لم تكن لتحوّل حياة التمدن إلى خراب. وكان العصر عصر آداب السلوك حتى في الحرب. وقد قرأنا حكاية رئيس فرقة فرنسي بلغت به المجاملة إلى حد أنه عند بداية الاشتباك تضرع إلى خصومه أن يبدأوا هم بإطلاق النار. وكان الفرنسيون والإنجليز يتاجر بعضهم مع البعض، والحرب بينهم قائمة. وكانت المعارك في الواقع من الأحداث القليلة الوقوع، وأغلب البقاع تستمتع بالسلام الوقت كله.

وكان من شأن استكشاف الأراضي الجديدة وتقدم الفنون والحرف أنها أفادت الجنس البشري إلى حد جعل المدنية الغربية تزيد انتعاشًا وتنوعًا عما كانت عليه في أي فترة منذ قياصرة روما. ولو كانت هناك -بطبيعة الحال- شوائب وآلام

مروعة، وجزاءات قاسية توقع على المجرمين، وتجارة في الرقيق الأسود كريهة، ولكن ذلك كله لم يبلغ من الوحشية مثل ما بلغته المذابح العلنية التي ألفتها ساحات المجالدات في الدنيا القديمة، مع أنه لم يكن هناك همج يخشى بأسهم يهددون بأن يغِيروا بحشودهم من الغابات غير المطروقة الواقعة وراء الحدود. وكانت قرون عديدة من القوانين وحياة المدن والتقاليد والعادات السلمية تؤتي أُكُلها. وانتهت حروب الدين الضارية. وتوافرت ضرورات الحياة ورفاهاتها بفضل التجارة. انظر إلى سفن نقل الفحم التي توسق به من شاطئ (نهر) التاين تزحف منحدرة من بحر الشمال إلى (نهر) التايمز، أو إلى سفن السكر الفرنسية الفاخرة تتدافع إلى (ميناء) بوردو من (جزائر) جوادا لوب، أو إلى رجال الهند الشرقية واسقين لنا أحمالاً كبيرة من البهار والشاي والسلع الشرقية، أو إلى أهل الشرق الأدنى مصعّدين من البحر الأبيض المتوسط بألوان الفاكهة والخمر والحرير. لقد كان رخاء العالم يتدفق على الغرب. وكانت حشود غير ظاهرة للعيان تكدح تحت سماوات استوائية وشبه استوائية من أجل رخاء الأمم الغربية.

وارتفع الصناع في الغرب بمصنوعاتهم إلى ذروة عالية من الإتقان، وهذه المصنوعات معروضة الآن في متاحف ودور قديمة أو بين أيدي التجار: مصنوعات زجاجية وخزفية دقيقة من درسدن وليموج، وأقمشة جوبلان (للمفروشات) من باريس، وحرير من ليون، وأقمشة مزركشة بالدنتلة موشاة بالخيوط الحريرية أو الذهبية أو الفضية، وأدوات ذهبية أو فضية للمائدة: أقداح وأباريق وصينيات وطاسات وسلطانيات وأدوات تناول الطعام كالشوك والملاعق والسكاكين، ومصنوعات من الحديد المطروق والحديد المسبوك كالقضبان والمواقد من سسكس، وساعات للحوائط في صناديق خشبية طويلة وساعات مذهلة الضبط والإتقان، وأثاث من طراز لويس الخامس عشر والملك جورج، قمطرات (تصان فيها الكتب والأوراق) وخزانات لثياب وأرائك (أي كنبات) وكراسي تشينديل وشيراتون وكلها من خشب

الماهوجنى (أو الكابلي) مطعمة ومنقولة عن نماذج فريدة، ومراوح ومساعط (علب نشوق) ومشابك (أي أبزيمات وتوكات) وصور مصغرة (على العاج أو ما شاكله) وحلي ومصوغات من كل نوع. وقد رسمت أنواع من الحروف المطبعية الدقيقة (مثل الكاسلون والبارسكرفيل والبوردوني) ليستعملها الطابعون في طبع الكتب التي ينشرونها... كتب مجلدة تجليدًا كاملًا بجلد العجل. وقد تضاعفت الكتب والمكتبات أضعافًا تفوق كثيرًا الأمانيَّ المبرحة التي كان يحلم بها أولئك الرهبان الذين أسلموا -في انعطاف فائق- أسلموا كتبهم في القرون الوسطى. وكان «تصميم» الأثاث -حتى في بيوت المزارع البسيطة- بديعًا وعلميًّا مثل: الأسرّة ذوات أربعة الأعمدة (بلدكان) والمضاجع والأرائك وكراسي وندسور وخزانات أدوات المائدة (درسوار) والسلطانيات المصنوعة من النحاس الأحمر والأقداح المصنوعة من الزنك وأدوات المطبخ الحديدية. وكانت تبدو على مركبات الفلاحين لنقل البضائع عناية صادرة عن طواعية ورغبة في إتقان صنعها وكانت حقًّا تسر الناظرين. وربما كان أروع ما صنعه الرجال بأيديهم سفينة المحيطات الكبيرة العالية ذات الساريات الثلاثة التي كان كل جزء منها ثمرة أجيال من التجربة بين صانعي السفن.

ولقد كان القرن الثامن عشر -حقًّا- قرن العمل المتفوق الممتاز نتيجة لميراث من المهارة الصناعية بعيد الأصول، قبل اختراع الآلة.

وبدأ الناس الآن -أول مرة منذ عهود الإغريق الذين استهدفوا أن يحيوا حياة راضية في مدائن جميلة -بدأوا يخططون لأحياء من مدائنهم ويزينونها بأنصاب تذكارية استرضاء للعين وكرامة الحياة، إذ لم تعد ترضيهم مدن أسلافهم البسيطة المزدحمة المشوشة المرتبكة. لقد فكروا في فن المعمار على أنه أرفع الفنون التي يحتاج إليها فن تشييد المدن، الذي نسميه الآن تخطيط المدن. ونتيجة لهذا ظهرت شرفة برايتون، وميدانا الكونكورد وفندوم بباريس، وميادين بلومزبري، ومراسي السفن في بوردو، وأهلّة باث وتشلنرنهام. وما يكون لكل هذا أن يثير دهشتنا إذا

تذكرنا أن كل مثقف قد نشأ على تعلم الدراسات الإغريقية والرومانية القديمة وأن كل النقوش المشهورة كتبت باللاتينية. ومن دواعي الأسف أنها لم تصل إلى مثل الدقة التي نراها على الآثار الرومانية. ولقد استلهم المعماريون من المباني العتيقة المخربة. أما رأى الإغريق في الشعر المستعار الذي كان يلبس في القرن الثامن عشر -لو كانت أتيحت لهم رؤيته- فلا نعرفه إلا تخمينًا.

وفي فرنسا أمر وزراء الملك بالطرق العامة الكبرى فأصلحت لكي يتسنى للمركبات الكبيرة أن تسافر سفرًا مريحًا منظمًا. واحتفروا قنوات تربط الأنهار الهامة بعضها ببعض وتسهل نقل البضائع بالملاحة المائية من الأطلنطي إلى البحر الأبيض المتوسط. وفي بريطانيا أيضًا بدئ في إصلاح الطرق واحتفار القنوات. وستُقص قصتُها على نحو أكثر ملاءمة فيما بعد ضمن حكايتنا كما سنقص قصة بداية الاختراعات الآلية. وفي مدى طويل من الزمن لاقى السفر من الصعوبة حدًّا جعل كل مدينة كبيرة عاصمة إقليمها على صورة ما. فكانت إدنبرة حقًّا مركز الأراضي الواطئة الإسكتلندية وأهم مدنها، ونورتش مركز صناعة الصوف في أنجليا الشرقية، وبرستول ثانية كبريات الموانئ في البلاد. وازدحمت باث -بعد أن أعيد بناؤها وإنعاشها لتكون ملاذًا صحيًّا- ازدحمت بحشدٍ حاشد من الأغنياء الذين سعوا إلى الاستشفاء من النقرس (أي داء المفاصل) بالمياه الطبية وإلى التسلي بالمقامرة بلعب الورق. وكانت إجْزتر -ويورك مركزين للمجتمعات الراقية المحلية. وكان عدد ما نعرفه من البلدان الصناعية قليلًا. وقد تابعت شيفيلد تخصصها القديم في صناعة أدوات المائدة. ودوّت ببرمنجهام دقات المطارق على السنادين تصنع سلعًا حديدية ونحاسية صغيرة. ولم تعرف مدلزبورا وبيكنهد، بل إنهما لم تكونا موجودتين إطلاقًا.

وفي القرن الثامن عشر وجدت «الحاضرة الكبرى» للبلاد، على النحو الذي نعرفه الآن. فكان المزيد من الناس يستمر في التزايد، العام تلو العام تدفعهم جاذبية تشبه

المغنطيس. وأخذت باريس -التي كان يسكنها نحو ٧٠٠,٠٠٠ نسمة -تبدأ فعلًا في السيطرة على فرنسا بقدر يزيد كثيرًا على سيطرة لندن على بريطانيا. وكانت هذه السيطرة المتزايدة -المتمَرْكِزةُ في حاضرة كبرى- علامة تشِير إلى سلطان الملكيات وحكوماتها الآخذ في الزيادة. ومنذ ذلك الوقت اطَّرد تضخم هذه السيطرة إذ إن الأمم أخذت تزداد شبهًا بالجيوش التي تتلقى جميعًا أوامرها من قيادة عليا واحدة فقط لأنها أضحت في الواقع «دولًا كبيرة».

ولقد بادت لندن التي عرفها شكسبير، بادت في حريق سنة ١٦٦٦ الكبير في عهد شارل الثاني. فتسعرت كجهنم، البيوتُ المسقوفة بالخشب أو الغاب وأمست خرائب يكتنفها الدخان. ومن ذاك الرماد ولدت مدينة جديدة من القرميد والحجر تزينها الأبراج العديدة لكنائس السير كريستوفر رِنّ الجديدة التي تتوجها جميعًا قبة تحفته وهي كنيسة (سَنْتْ بول) القديس بولس.. في ذاك الوقت أصبحت المدينة الجديدة -مع جارتها وستْمنْسْتر- أصبحت عاصمة. وبفضل وجود البلاط الملكي في كِنزنجْتون، والبرلمان في وستمنسْتر، ونُزُلِ دار العدالة التي كان يدرَّب فيها رجال القانون، وبيوت النبلاء بالمدينة، والمكاتب التجارية لشركات الهند الشرقية والغربية وروسيا وأفريقيا وخليج هدْسون وبنك إنجلترا والبورصة الجديدين، بفضل هذه جميعًا صارت لندن مركزًا للمجتمع الراقي والحكومة والتشريع والسياسة والتجارة والشؤون المالية والعلم والأزياء المستحدثة والأخبار والفنون. وفي عهد الملكة آنْ وسعتْ عشر مجموع السكان وغص نهرها بسفن تحمل ثلاثة أرباع تجارة المملكة.

وحتى في القرن الثامن وصف الراهب (بيد) لندن بأنها «سوق لأمم كثيرة لاذت بها عن طريق البر والبحر». وكذلك كانت بعد أن مضى على هذا ألف عام: فلقد رأى دانيال ديفو -في سنة ١٧٢٤- في نهر التايمز «نيفًا وألفي شراع من كل الأنواع التي تعبر البحر حقًّا». وكانت راتكليف هابواي -التي عاش فيها البحارة- عتبة مدخل الدنيا. كان رجالها يهبطون النهر بالسفن العظيمة الارتفاع للقيام برحلات تستمر

مواسم كاملة لتعود مع تيار الفيضان محملة بسكر الهند الغربية وعسلها الأسود، وشاي الصين، وطبّاق (تمباك) فرجينيا، والعاج وخشب الماهوجنى الأفريقيَّين، والفراء الروسية، والموسْلين (قماش قطني رفيع) والقهوة من الشرق.

وتجارة كهذي لا يمكن المضيّ فيها بدون عملة نقدية قوية ونظام مصرَفي متين. ففي كل من بريطانيا وفرنسا ألغيت العملة القديمة المضعضعة التي انخفضت قيمتها بالاستعمال وحل محلها -في بريطانيا- الشلنات الفضية والجنيه الاسترليني الذهب الفاخر، وفي فرنسا: الريال الفضي (الدرهم) والليرة الفرنسية (البِنْتو). وكانت الصِّرافة المالية -وهي عملية إعارة الأموال واستعارتها لقاء ربح- كانت فنًا قديمًا جدًّا يجري على يد الصياغ والمرابين. وقد ساعدت المصارف المالية (البنوك) الجديدة، التجار بإصدار أوراق النقد وهي تعهد بدفع قدر معين من المال عند الطلب، ووسع التجار أن يتداولوا هذه الأوراق، بدلًا من العملة، ما بقيتْ ثقتهم في (البنوك) والواقع أن العجز في الذهب والفضة المطلوبين لِسَكّ العملة، جعل المضي في الأعمال المالية صعبًا بدون أوراق النقد. وقد أخذ الناس -منذ عهد ديفو- يبيعون ويشترون أسهم الشركات التجارية ويتجرون بها في أسواق الأوراق المالية (البورصات) وفق قواعد مقررة. وما زلنا نفعل هذا إلى اليوم. وقد دفعت «تجارة الأوراق الضخمة» -على حد تعبير ديفو- في بدايتها، المئات من الناس في بريطانيا وفرنسا الذين اشتروا أسهم شركات مزيفة أو أسهم مشروعات رعناء طائشة، دفعتهم إلى الخراب. أما في عصرنا فإن أثمان الأسهم تعلن يوميًّا في الصحف.

بدأ صدور الصحف في القرن السابع عشر: وظهرت أولى الصحف اللندنية اليومية -»أخبار اليوم»- عام ١٧٠٢. وما هو إلا القليل حتى ظهرت أفواج من الصحف باسم «بريد...» أو «ربطة...» أو «سجل...» أو «رسول...» حظيت واحدة من الفوج الأخير بأوسع انتشار في زمانها. وكانت تلك صحيفة مركوردي فرانس (أي رسول فرنسا) وهذا برهان على نفوذ فرنسا في ذاك القرن الذي أشار إليه فردريك الأكبر

بقوله: «باللغة الفرنسية يستطيع المرء أن ينتقل إلى كل مكان». وقد بدأت أشهر صحف العالم «التايمز اللندنية» في الظهور عام ١٧٨٥.

والأخبار والتجارة جديرة بالبحث. درج الناس في أيام الملكة إليزابيث على أن يلتقوا في حانات كحانة ميرميد التي كان يجتمع فيها شكسبير وأصدقاؤه. وفي أيام الملكة (آن) كان المستمسكون بأبهة المظهر يستعملون المحفّات في تنقلاتهم بينما كان القساوسة أو العلماء -الأكثر تواضعًا- يمشون إلى مقاهيهم المفضلة، وكانوا يُعَدُّون بالعشرات والعشرات. وكان ذوو الفطنة والعلماء يلتقون في محل وِيلّي، والقساوسة في محل تشايْلد، ومقامرو الأرستقراط في محل وايْت أو محل ألماك. وذاع صيت مقهى لويد في العالم أجمع ففيه كان يلتقي وسطاء (سماسرة) السفن. وما يزال الكثيرون من أعضاء الجمعيات الطائفية والنوادي يلتقون في الحانات. مثال ذلك: أعضاء جماعة رفقاء كهنة الأبرشيات الذين يحتمل أنهم درجوا على التحادث -عن علم- في ترانيم المزامير وتسابيح الحمد وفي دخْل رجال الدين وذلك في أثناء إخلادهم إلى شرب الجعة أو تدخين الغليونات (أي البيبات) الطويلة التي يستعملها كبار الكهان.

وكان هناك -من سوء الحظ- مباءات أقل بعثًا للسرور. وتوجد المئات منها في الأزقة والعطفات: (حانات ادرجن) حيث يفرط المتبطّلون والمتشردون في الشراب حتى يفقدوا وعيهم، لقاء دراهم معدودات. وقد يتسقط المرء منهم أخبار الأوباش الذين قطعوا الطريق على مركبات إسلنجتون الكبيرة المعدة للبريد والركاب، في الليلة السالفة. ولم يكن هناك رجال شرطة. وكان نظام الحراسات المتعاقبة (النوبتجية) قد انقضى وحل محله فقط قليل من الحراس المسنين يعلنون الوقت. ثم حدث في سنة ١٧٥٠ أن هنري فيلدنج -قاضي شارع (بو) الفطن -ألف فرقته (عدّائي شارع بو) ليلاحقوا المجرمين ويقبضوا عليهم. وكان دهماء لندن -أو دهماء باريس- شيئًا مروعًا لا يستساغ. والأحياء القذرة، التي تغص بالمساكن الوبيئة، لم

تكن جديدة. إلا أنها في القرن الثامن عشر -كما حدث في روما القديمة- كانت وفيرة العدد مكتظة بالسكان إلى حد شائن.

وكان في وسع المواطن المستقيم الأخلاق -الذي يبتغي الزحام والبيئات المسلية- أن يصغى إلى دافيد جاريك وهو يمثل روايات شكسبير على مسرح دروري لين، أو إلى أوبرات هاندل في كوفنت جاردن، أو لعله يستمتع بألحان أوبرا المتسولين المبهجة لجون جاي، في لنكولن إن فيلدز. وكان في وسعه -في أمسية صيفية صافية- أن يستقل زورقًا موسّدًا عبر التايمز ويجول في حدائق التسلية المضاءة بالمصابيح بـفوكسهول ويسلم نفسه إلى أنغام الموسيقي، في ليلة مشهودة، أنغام موسيقى هاندل النارية احتفاء بذكرى صلح عام ١٧٤٨.

ومع هذا كانت لندن صغيرة في نظره إذا ما رغب في أن يتجول على قدميه في الخلاء.. في بادنجتون أو في مروج تشيلسي أو في أزقة كمبرول المورقة. وعلى مقربة من الشمال والشرق غابات إنفيلد وإيبنج.

وكانت غالبية الناس -في الأراضي الغربية قاطبة -من الفلاحين ولم يكن تأثير الوقت والتقدم سريعًا فيهم. غير أن أساليب زراعية جديدة ومحاصيل جديدة جربت في هولندا ونجم عنها تغير كبير في نواحٍ من بريطانيا. ولا شك في أن حرّاثي بعض المناطق ظلوا في العهود القديمة يسوقون أزواجًا من الثيران في الحقول. غير أن تجاريب على المحاصيل وتربية الماشية بدأت ثورةً حقيقية في الزراعة. وقد أخذ كثير من الأغنياء في القرن السادس عشر، عندما كانت تربية الغنم تدرّ ربحًا أكثر من زراعة الحبوب -أخذ كثير من الأغنياء يقيمون السياجات حول أراضيهم ليكسبوا من بيع صوفها. وفي القرن الثامن عشر أخذت إقامة السياجات والأسوار تتكاثر تدريجيًّا، لا لتربية الغنم بل لزرع نخبة من الحبوب وتربية سلالات مختارة من الماشية- ابتغاء الإكثار من محصول الغلال والثمار الجذرية الجديدة ولزيادة حجم البهائم -وتلك أمور كان من المستحيل التوفر عليها أبدًا مع نظام قطع الأرض

الصغيرة، المختلط بعضها بالبعض. وكان الأغنياء من ملاك الأرض يقدمون أموالًا لإصدار لوائح برلمانية ترخص لهم أن يقيموا سياجات حول الأراضي القديمة، ومعها -في أغلب الأحيان- المروج والروضات القروية والحظائر العامة والأراضي البور. وكثيرًا ما كان فقراء المستأجرين يغصبون على أن يصبحوا أجراء لا يملكون أرضًا. وحتى لو سمح لهم باستبقاء الفضلات الصغيرة فعليهم أن ينجلوا عن الحظائر العامة التي درجوا على أن يحفظوا فيها أبقارهم وعن الأراضي البور التي يطعمون فيها خنازيرهم. وقد توسل أغنياء المزارعين بعزْق الأرض عزقًا مستمرًّا وبالتسميد وبصرف الماء عن الحقول وبإنفاق مقادير كبيرة من المال، توسلوا بهذا كله إلى صنع الأعاجيب، بدأوا تربية سلالات الماشية التي اشتهرت بها المملكة وحولوا الخلاء إلى منظره الحالي المألوف الذي يشبه رقعة لعبة الدام (الضامة) فتبدو صفوف من السياجات والحقول تميزها عن خلوات الحقول المفتوحة القديمة الطراز التي شاعت في القارة. واستمرت العملية على وجه مُرْضٍ إلى بداية القرن التاسع عشر. وكان اختفاء صغار ملاك الأرض نكبة. فكانت الثورة الزراعية -ككل الإصلاحات- شيئًا نافعًا نفذ بطريقة ضارة.

وفي طول الأراضي الزراعية وعرضها قامت بيوت الضيعات المبنية بالطوب الأحمر التي أصابتها الرطوبة بمضي السنين. ووجدت أيضًا أماكن أحدث، لأغنياء من نبلاء القرن الثامن عشر، لا تقع تحت حصر. وجدت أماكن مثل قصر بلنهايم وستو وحصن هووارد. وفي هذه الأماكن كانوا يستمتعون بساعات فراغهم ويجمعون مجموعات كبيرة من الأثاث والكتب واللوحات والخزف ويحتفظون بجيوش من الخدم. ولقد عبست حصون النبلاء الباكرة الخربة في وجوه تشبستو وبوديام وعشرات وعشرات من الأماكن الأخرى وأبدت تباينًا رومانسيًّا للملاط (المونة) والعمُد وواجهات البناء التي أقيمت في المباني القديمة (الكلاسيك). وما تزال بقية من آثار روما معروضة في يورلكونيوم ولنكولن وغيرهما.. وتدارست

جمعيةُ العاديات التي تأسست حديثًا، المتاريسَ الترابية التي أقامها إنسان ما قبل التاريخ، وإبادة قليل من الجدران المتعفنة هنا وهناك عن موقع منسك بناه أسلاف الرجال والنساء الذين عاشوا في القصور الفاخرة والذين عاشوا في عشش القرية.

أهملت الأبرشيات والكنائس وغطاها الغبار، وكان كثير منها مقصورات تفرشها الأسر الكبيرة وفيها يستطيع السيد النبيل أن يحتفظ بمنضدته وأريكته (كنبته) بل بموقده، وأن يغط في النوم في أثناء القداس، وكلبه المختار عند قدميه. ولم تمسِ الكنيسة في حالة مُرضية فهي لم تسترد قط ثرواتها التي سلبها إياها الملك والأمراء، وفي القرن الثامن عشر لم يبد أساقفتها وقساوستها حماسة فائقة. وقد ظل بعض الأسقفيات بدون رعاة، وامتنعت طائفة من الأساقفة عن زيارة أسقفياتهم إلا في مناسبات نادرة. وتركت الأمور على عواهنها بدون عناء أو همة.

وعادت الحميّة مع جون ويسلي وهو عالم تخرج في أكسفورد وقسيس آمن برسالة الإنجيل والوصايا.. سافر آلاف الأميال، على متن فرس، إلى كل مناحي البلاد مبشرًا وواعظًا منبهًا الناس إلى إصلاح حياتهم. وقد حرمت عليه منابر الكنائس وبدا له الاحتقار من رجال الدين. وقد نظم أتباعه في مجتمع مسيحي. وبما أنه كان منظمًا عظيمًا فقد بقي ذاك المجتمع إلى الآن واستطاع مع أخيه شارل -وهو ناظم ترانيم عبقري- أن يستعيد للدين شيئًا من الحمية التي أعوزته منذ القرون الوسطى.

ولم تترك تعاليم الكنيسة البروتستنتية قط تأثيرًا عميقًا في حياة الغرب الذي تطلع أهله إلى ملةٍ أخصب. وعندئذ أقيمت في قرى ويلز، التي أسميت بأسماء قديسي ويلز في العهود المظلمة، كنائس صغيرة جديدة: بيتيل وسالم وإيبينيز، وانتعشت حولها حياة الناس. وتركت مواعظُ ويسلي تأثيرها على المملكة كلها. وكان لها من النفوذ في كورنوول وويلز ما كان لتعليم الكنيسة المشيخية (يبرزبيتريان)، التي سنها جون نوكس، على إسكتلندا.

ولقد أتاح ويسلي للكثيرين من الفقراء المتضعين كرامةً جديدة وهدفًا معنويًّا

جديدًا يقومان على قيم أبقى من السياسة والتجارة. وكان هناك آخرون، يحفزهم العقل أكثر مما يحفزهم الدين، أرادوا أن يرفعوا مستوى الجنس البشري. وقد كتب العلامة جوزيف بريستلي، سنة ١٧٩١، يقول: «سوف يكون عهد إمبراطورية العقل أبدًا، عهد أمن وسلام».

وحوالي آخر القرن كان الناس في حاجة قصوى إلى كل من العقل والدين. فقد بدأت عندئذ ثورة في أسلوب حياة الرجال والنساء. فقد نشأت مصانع جديدة فوق مناجم الفحم في ويلز وداخلية البلاد وشمالها على طول جداول الماء في منطقة جبال الـ (بيناين) وأخذت القرى تتحول إلى أماكن وبيئة مزدحمة وكانت هنالك أفران لافحة تصبغ السماء ليلًا بلون أحمر. وأخذ الكادحون، الذين لا يملكون أرضًا، يتزاحمون على الصناعات الجديدة ليعيشوا عيشة وبيلة في الشوارع الغبراء القذرة. وتلك عيشة تبعد كل البعد عن العيشة الطبيعية، مدى الحياة، في الريف الذي يستطيع أهله جميعًا أن يجدوا السعادة والصحة حتى الذين يعيشون منهم من سرقة الصيد. وإن العالم لفي أشد الحاجة إلى كل حكمة رجال السياسة وكل حكمة المؤجرين ورجال الدين وذلك لحفظ ثروة الأمة الحقة التي هي حياة الناس ورخاؤهم.

وقد كانت الأقدار تقدم للناس عطايا جديدة، إذ أخذ الطب ينبثق من السحر، والعلم من السيميا واليازرجه (أي التنجيم)، والهندسة -التي بدأت تغير وجه الأرض- من الحرف اليدوية، وأخذت المعرفة والاختراع- اللذين تطورا في مدى عشرة أجيال منذ النهضة العلمية- يتيحان الفرص لتحسين حياة البشر. ثم إنه لم يسبق قط من قبل أن تحمس الكثيرون لإصلاح القوانين وتحرير العبيد ومساعدة الفقراء وتعليم الجهال وإحلال النور والحياة في كل الأماكن المظلمة.

ومن سوء الحظ أن العالم قليلًا ما أبدى استعداده للاستفادة من مستكشفات حكمائه. فهنا استعدّ المخترعون وهنالك وجد المصلحون الذين أزمعوا على العمل

باسم العقل والرحمة. غير أن إعصارًا أهوج من الحماقة والكراهية هب واكتسح مطمح العقل. وقد بدأ كل شيء يعمل باسم الحرية المقدس، بدأ يعمل في فرنسا سنة ١٧٨٩ وهز أوروبا والعالم خمسة وعشرين عامًا.

❊ ❊ ❊

الباب السادس

الثورة الفرنسية

الثورة:

فيما كان مجرمو فيليب يستوطنون جانب الدنيا الآخر في الوطن الأسترالي الغريب الجديد لقيت الملكية القديمة في فرنسا نهاية عنيفة وهزت العالم بسقوطها.

كانت الحكومة والقوانين والضرائب -في فرنسا- خرقاء جائرة. وهكذا كانت في الدويلات الألمانية والإيطالية. فلقد حدث أن بعض الحكام الألمان باعوا -بالفعل- شبابهم ليصبحوا جندًا لملوك أُخر. وكان بعضهم أحمق بشكل لا يتصوره العقل. إلا أن فرنسا تقدمت العالم إلى طريق المعرفة والفنون والعلوم وأساليب الحياة المتمدنة، وأن الملك الفرنسي لويس السادس عشر كان رجلًا أديبًا طيب القلب.

ومن الجائز أن تكون دولة ما، غنية موفقة وأن يكون الكثيرون من أهلها، مع ذلك، فقراء معوزين. وهكذا كانت فرنسا، ففيها عاش الفلاحون على منوال أجدادهم في القرون الوسطى. درجوا على أن يدفعوا ضرائب باهظة إلى الملك وإلى ساداتهم أصحاب الضيعات الكبيرة، وكانت غلالهم التي يكسبونها بكدهم طعامًا لحمامه وأرانبه التي حرم عليهم صيدها.. كانت غلالهم تطحن في مطحنه وأعنابهم توطأ في معصرة العنب التي يملكها. ولم يكن لهم أن يبيعوا سائمة أو أن يتزوجوا دون أن يدفعوا له جُعلًا. كانوا عبيدًا وُجِد الكثير من أمثالهم في البلاد الأخرى.

ونحن -في بريطانيا- لنا أن نعد أنفسنا سعداء بأن غزانا وحكمنا ملوك نورمانديون وزراع أقوياء كانوا سادة العالم وفرضوا على كل الناس واجبات يؤدونها، ملوك استدعوا برلمانات تعينهم على أمور الحكم، ملوك كانت شريعتهم -شريعة الملك- يطبقها في طول البلاد وعرضها قضاة اتصفوا بالشدة والجهامة والجرأة، تخور في حضرتهم عزائم «الجميع». وكما أنه لا يزال في فرنسا -في ١٧٨٩- أقاليم لها قوانينها الخاصة. تصور أنه وجد في إنجلترا القرن الثامن عشر إقليم اسمه ميرسيا أو وسكس يطبق قوانينه الخاصة! ولقد أعجب الكثيرون من الفرنسيين بنظام الحكم في بريطانيا، واستثار الكثيرين أيما استثارة إعلان الاستقلال الأمريكي الذي صنعه المواطنون البريطانيون الذين آثروا أن يثوروا على أن يدفعوا ضريبة زهيدة. ذلك لأنهم أرادوا أن يكونوا أحرارًا في إبداء رأيهم في شؤونهم الخاصة. وكذلك قضى الفرنسيون عمرهم في النيل من سلطان الكنيسة وثروتها في فرنسا. ومقت البعض الكنيسة ورجال الدين مقتًا ضاريًا متقدًا.

حكم لويس السادس عشر فرنسا من فرساي وكان سلطانه مطلقًا. كان يختار وزراءه وفق مرامه. ولم يكن هناك برلمان أو جمعية وطنية. ولم يكن لواحد من النبلاء أو السادة -الذين فرض فيهم أن يصبحوا زعماء فرنسا- أي رأي في الحكم. ولكنهم -بدلًا من ذلك- أخلدوا إلى الكسل وأضاعوا وقتهم في منادمة الملك أو لبثوا في قصورهم ومع ذلك كانت لهم امتيازات. فلم تطلب منهم واجبات ولو أنهم لم يؤدوا ضرائب. وقد تمرس كل الناس في بريطانيا -قرونًا- على أن يمارسوا فن الحكم: حاكمين «أو محكومين».

أما الفرنسيون فلم يكتسبوا تجارب من هذا القبيل.

وعندما أفلس لويس السادس عشر -في ١٧٨٩- إفلاسًا لا رجاء في تغلبه عليه استدعى مجلسًا مشتركًا منتخبًا من النبلاء ورجال الدين والشعب وهذه هي الأركان الثلاثة القديمة أو الأركان العامة لمملكة فرنسا التي لم تجتمع منذ ١٨٠

عامًا. اجتمعوا، إذ ذاك، في فرساي حيث قام النبلاء ورجال الدين (في حللهم) ومندوبو الشعب (في أكسيتهم السوداء الوقورة) بمظاهرة باسلة عند افتتاح الاحتفال يحدوهم جميعًا أمل عظيم في إصلاح الضرائب والحكومة إصلاحًا جديًّا. وحفزت المشاحنات والمحاجّات الطويلة في شأن طريقة التصويت، حفزت الركن الثالث (مندوبي الشعب) إلى أن يجتمعوا وحدهم ويحولوا أنفسهم إلى جمعية وطنية مهمتها إعادة النظر في شكل الحكومة وصياغة قوانين الدولة. وطالت المجادلات وبخاصة ممن لم تسبق لهم خبرة بتلك الشؤون. وبينما كانت الجمعية تتكلم أخذ الشعب الفرنسي يصنع ما يحلو له.

وفي كثير من الأقاليم عمد الفلاحون إلى مهاجمة القصور وحرقها، وفر إلى خارج فرنسا نبلاء كثيرون مع أُسرهم. وفي باريس اقتحم فريق من الغوغاء معقل سجن الباستيل القديم. وبما أنهم من الدهماء فقد أطاحوا برؤوس الجنود الأبرياء الذين كانوا في حراسته واستعرضوها على أسنة الحراب. ولزم كثيرون من الباريسيين الهدوء والسلام، إلا أن جماعة من الدهماء، قد تبلغ الألوف، مالت إلى الشغب دون أن تلقَى مقاومة. وقال أحد القدماء للويس إن هذه الحركة ليست فتنة ولكنها ثورة، وكان قوله الحق. وكان جورج الثالث في لندن قد قمع جمهورًا من الغوغاء، السكرى الصاخبين، بفرقة من الحرس الراجل في حين أنه لم يوجد في باريس رجل حازم سريع التصرف. وأقام المواطنون غير المحكومين حكومة مدينتهم وألفوا فصائل من الحرس الوطني شعاره علامة بيضاء وحمراء وزرقاء، وتلك هي الشارة المثلثة الألوان، رمزًا للثورة. ولم يُعْوِز الغوغاء أنصار أقوياء من بين الأغنياء والمتعلمين. فقد كسب دوق أورليان لقب «أورليان المساواة» نتيجة لتشجيعه أبسط عناصر العامة.

وفي خلال مجادلات لا حد لها عن كل شيء أصدرت الجمعية الوطنية إعلان حقوق الإنسان الذي يؤكد أن الجميع أحرار متساوون. وأصبح كل امرئ «مواطنًا»،

ولا شيء غير ذلك. وتقاطر جمع غفير إلى فرساي وجاء بالملك وأسرته ليعيشوا في باريس بقصر التويلري. وتبعته الجمعية وواصلت مجادلاتها بين الصخب الثائر والهياج في العاصمة حيث عجت الأندية السياسية بالخطباء وحيث أخذت الأحزابُ والناس على اختلاف ألوانهم تصدر صحفًا. ومن ذاك الوقت بدأ جمهور الشعب ومتحمسو باريس يقودون المملكة.

واجتمع النبلاء والمنفيون الملكيون (المهاجرون) في بلاد الراين وسألوا ملوك أوروبا الضربَ على أيدي الثوار. وعندما أمرت الجمعية رجال الدين جميعًا بأن يصبحوا موظفين مدنيين تحت سلطان الحكومة الفرنسية أبت غالبيتهم. وقد أساء هذا الهجوم على الكنيسة إلى الكثيرين من المعتدلين أيما إساءة. وشرع لويس السادس عشر -الذي كان إلى ذلك الوقت، قد بدأ يتقبل أكثر الأمور -شرع في الهرب سرًّا مع أسرته إلى الحدود الألمانية، ولكن شخصيته كُشفت عن كثب من الحدود. ولما وصلت الأنباءُ باريس ضج الكثيرون من الثوار بطلب الجمهورية. لقد أزمع الملك هجر شعبه -ألم يفعل ذلك؟- وإذن فلتسقط الملكية! وليحي الشعب صاحب السلطان!

وعندما خططت الجمعية الوطنية، آخر الأمر، لنظام الحكم حلت نفسها بعد أن حرمت على أعضائها أن يتقدموا للجمعية التالية. ومعنى هذا أن أحدًا ممن له أي دراية بالحكم، ما يكون له أن يشارك في الحكومة التالية وأن كل شيء يجب بدؤه من جديد. وأتاح هذا القرار البالغ الغرابة لأعضاء النوادي الباريسية المتهوسين فرصتهم. وأعلنت الجمعية التالية الحرب على النمسا.

وزادت الإباحة والفوضى. وأنذر دوق برانشفيج الألماني - الذي عسكر في بلاد الراين- أنذر الفرنسيين بأنه سيدمر باريس إذا مُسَّ لويس السادس عشر بسوء. فأقام غوغاء باريس حكومة مدنية جمهورية اسمها حكومة العامة ودعا زعماؤها الشعوب إلى أن تهب وتحطم الملوك. وزحف أهل مرسيليا وهم ينشدون نشيدًا

جديدًا: المرسيّين. وهاجم جمهور من الغوغاء حراس الملك السويسريين وقتلوهم ونهبوا قصر التويلري. وسجن لويس. وعبر برانشفيج الحدود. وطافت عصابات من الأوباش حول السجن يقتلون الملكيين الذين حشروا فيها. وتصادف -في ذاك النوع البطي من الغارات في تلك الأيام، في مناجزة بالمدافع بـفالمي -تصادف أن البروسيّين ردوا على أعقابهم وأخذوا في الانسحاب؛ فأمر الثوار باقتراع عام بين أقوياء الأبدان وشكلوا منهم جيوشًا جديدة وعجلوا بإرسالهم إلى الحدود. واستعاض هؤلاء عن نقص تدريبهم ومرانهم باندفاعهم وحميتهم. فبلغوا الراين ودهموا البلاد الواطئة (النمساوية) الجنوبية.

وفي باريس بلغت مأساة الملك نهايتها فلقد حُوكم وأدين وأطاحت المقصلة برأسه في يناير من سنة ١٧٩٣. وأهاب الثوار بالشعوب في كل مكان أن يثوروا على ملوكهم وشجعوهم بإعلان الحرب على بريطانيا وهولندا وإسبانيا.

وفي مدى أربع سنوات تحولت أقدم مملكة في أوروبا إلى شعب ثائر يحارب سائر الممالك جميعًا، ويحارب أيضًا حربًا أهلية. فقد تبع الهجوم على الكنيسة وقتل الملك، تمردات ملكية في الأقاليم ضد الحكومة الجمهورية في باريس. ولم يكن سهلًا قمع فلاحي بريتانيا -ولافانديه بزعامة ساداتهم وقساوستهم. وأدت هذه المخاطر والمنازعات والشكوك المجنونة المرة بين الأحزاب في باريس، أدت إلى حكم إرهابي. وأرسلت لجنة الأمن العام، إلى المقصلة، الآلاف من الرجال والنساء من الأشراف والقواد والملكيين، وجواسيس، وأعداء شخصيين وشى بهم جيرانهم، و -في الواقع- أي فرد قضى عليه سوء حظه بتوجيه تهمة إليه. وكانت غالبية الضحايا من الفقراء. وكانت من بين من كابدوا غالبية زعماء الثوار -مثل دانتون- الذين وقعوا في أحابيل مؤامرات الريبة واسعة النطاق، وكذلك شخصيات ذائعة الصيت مثل لافوازييه الكيميائي -وشينييه الشاعر. ومن بينهم أيضًا الملكة ماري أنطوانيت التي لقبت بـ «المرأة النمساوية» احتقارًا لشأنها. لقد كان الأمر كابوسًا

من القبض والإعدام المعجل. لقد كانت مركبات النقل ذوات الدولابين، في كل يوم، تنهب الشوارع وهي تحمل أنصباءها من المحكوم عليهم بالإعدام. وفي كل هذا كان الشخص المتسلط هو روبسبيير الذي لبث في السلطان سليمًا معافى بينما مُنِي قرناؤه بالإعدام ولم يتوقف الإرهاب حتى هاجمته شرذمة من الرجال وأسقطته وأوثقته وعجلت به إلى المشنقة.

كانت هناك كثيرون يتعطشون للدماء تعطش روبسبيير، نقعت روحهم المتعصبة باريس في الدم. ولكن كان هناك أيضًا كثيرون، من أمثال كارنو، يعملون نهارًا وليلًا لتجنيد الجيوش الجديدة وتسليحها وتدريبها.

ولكن جنود هذه الجيوش -التي تؤلَّف من المقترعين للخدمة العسكرية والتي نواتها رجال الجيش الملكي الممتاز القديم الذي كانت مدفعيته خير مدفعيات أوروبا- كان أولئك الجنود أبناء تلك الثورة العنيفة العجيبة. وكان جيش الشمال (المسمى جيش سامبر وموز) جيش جمهور من الرجال يتعلم الترتيب والنظام في ميادين القتال في مواجهة الخطر. وهذا هو الشيء الوحيد المرتب المنظم الذي تمخض عنه خبال فرنسا. وكان طبيعيًّا -في ظروف صارمة كتلك- أن تجد الجيوش الجديدة قوادًا من الشباب الأكفاء، رجالًا من أمثال هوش وجوردان ومورو الذين الذين اعتادوا على أن يفرضوا على جيوشهم الولاء والنظام والطاعة، وتلك الفضائل افتقدتها باريس منذ زمن مديد.

نابليون والبحرية البريطانية:

وكان من بين عشرات ضباط القيادة الذين تولوا القيادة، والذين عينتهم الجمهورية الفرنسية: شاب كورسيكي هو نابليون بونابرت أحد ضباط مدفعية لويس السادس عشر الذين تمرسوا جيدًا بمهنة استعمال السلاح. وعندما ثارت الغوغاء في الشوارع، بعد سقوط روبسبيير، نسفهم بقنابل مدفعه، فكان بذلك أول من فض حشدًا من

غوغاء باريس منذ ١٧٨٩. وكان نابليون -على خلاف سائر الفرنسيين في أيامه- يحسم الأمور كلما واتته السلطة. وقد أتاحت له الجمهورية القوة بخلق جيش عظيم بعدما أعلنت بداية حكم السلام!

وكان نابليون نفسه إحدى القوتين الجسيمتين في تاريخ الثورة. وكانت الأخرى: البحرية البريطانية.

وقد اكتسبت البحرية -منذ أيام دريك- القوة والمهارة والتجربة، فقد علمها بليك كيف تناور وتحارب في مجموعات. وقد زادتها خبرة واجباتها في البحار السبعة وأكسبتها الصلابة حتى بلغت ذروة الكفاية في البحرية والنظام. ولم تكد الجمهورية الفرنسية تعلن الحرب حتى خف الأسطول البريطاني إلى العمل. وفي ١٧٩٤ هزم اللورد هووي أسطولًا فرنسيًّا في الأطلنطي في «غرة يوليو المجيدة». وكانت الجيوش البريطانية، التي هبطت الأراضي الواطئة، عديمة النفع. ومهما يكن من أمر فقد كانت قوة بالغة الصغر، غير أن الأسطول محا تجارة فرنسا من البحار واستولى على ممتلكاتها الواقعة فيما وراءها، واستولى كذلك على ممتلكات هولندا عندما غزاها الفرنسيون. وهكذا آلت ترينيداد وسيلان ورأس الرجاء الصالح إلى بريطانيا.

وفي ١٧٩٦ عقدت على نابليون قيادة «جيش إيطاليا» وأظهر عبقريته الحربية في حملة باهرة. وفي مدى ستة أسابيع من بداية الحملة عبر جبال الألب في سافوي وطرد النمساويين من لومباردي، فكانت مأثرة حربية ميّزته، إذ إن زميليه القائدين مورو وجوردان أخفقا في محاربة النمساويين في بلاد الراين وألمانيا. وقد صنع نابليون ما يفوق على هذا كثيرًا: نقل الحرب في علٍ إلى ممرات التيرول ودخل النمسا. وكان على بعد ستين ميلًا من فيينا عندما أكره الإمبراطور على عقد الصلح ثم انطلق يعمل على تحويل شمال إيطاليا إلى جمهوريات تابعة لفرنسا، وأبان هذا المجهود عن طاقته العنيفة في العمل وبراعته في التنظيم. ولم تظل البندقية -سيدة

الأدرياتي الأبية الذائعة الصيت- لم تظل البندقية دولة مستقلة بل أصبحت كقريناتها تابعة لفرنسا.

وفي البحر دمر الأميرال جرفيز أسطولًا فرنسيًّا إسبانيا موحدًا على مسافة من سنت فنسنت. وهزم الأميرال دانكان أسطولًا هولنديًّا على مبعدة من كامبردوان، وقد تحقق هذان الفوزان على حلفاء الفرنسيين على الرغم من التمردات الجدية التي أشعلها البحارة الإنجليز احتجاجًا على صغر المرتبات وقذارة المساكن ورداءة الطعام وقسوة المعاملة على يد بعض الضباط.

وعلى أي حال فقد حافظ المتمردون على حسن استعداد سفنهم الحربية وعلى أهبتهم للإبحار ليلتقوا بأعداء بلادهم، ونجم عن هذا تحسين شؤونهم إلى حد ما.

وفي الوقت نفسه انتصر نابليون، في بلاد قاصية. أبحر إلى النيل بعد أن أفلت من الأسطول البريطاني في صعوبة بالغة وتغلب (بعد عناء) على الجيش المصري في موقعة قرب الأهرام. وبعد هذا أرسل باحثيه وعلماءه ليمسحوا الأرض ويجمعوا آثارًا مصرية. وأرسى أسطوله في خليج أبي قير إلى أن أبحر الأميرال نلسون ونسفه نسفًا. وعندئذ سَيَّر نابليون جيشه الفرنسي إلى فلسطين حيث رُدَّ جنوده المشاة لدى هجومهم على أسوار عكا، وذلك بفضل المساعدة التي قدمها إلى الأتراك ضباط المدفعية البحرية التابعين للكابتن سيدني سميث. وهذا ما حدا نابليون إلى أن يقلع عن أي مشروع يكون قد أعده لإخضاع الشرق. وعندما عاد إلى مصر ترك جيشه وأبحر سرًّا إلى فرنسا. وهناك ألفى كل شيء مرتبكًا ووجدها مهددة، وكان ذلك في ١٧٩٩.

وكان حلف جديد -من روسيا والنمسا وبريطانيا- قد أخذ يتألف ضد فرنسا. فنصب نابليون نفسه قنصلًا أول، على الأسلوب الروماني القديم -وكانت الأساليب الرومانية القديمة محبوبة في أثناء الثورة- وأخذ يشتغل ١٦ ساعة يوميًّا، شهورًا طويلة متعاقبة دون انقطاع، واستحدث بعض النظام في الحكومة. ثم زحف مسرعًا

على ممر سنت برنار الكبير وأدرك جيشًا نمساويًّا في مارانجو وحطمه. وقهر مورو جيشًا نمسويًّا آخر في هوهنلندن، وأكرهت النمسا مرة أخرى على قبول الصلح.

وفي ١٨٠٢ أعاد صلح أميان تنظيم التعادل بين عبقرية نابليون الحربية وقوة بريطانيا العظمى البحرية.

ولم يكن الصلح غير مهادنة مسلحة. عاد نابليون إلى احتلال هولندا وسويسرا، وأرسل جنوده داخل مملكة هانوفر التي يحكمها جورج الثالث. وفي ذلك العام ذاته توج نفسه إمبراطور الفرنسيين، في أبرشية نوتردام في حضرة البابا، وقد جاء به إلى باريس ليجري الاحتفال. ثم أزمع على أن يغزو بريطانيا وانتظر جيش الغزو -الذي أعده- في بولونيا وأقيمت خمسة جيوش أخرى على طول شاطئ أوروبا من هانوفر إلى برست تحت إمرة أقرب قواده إلى ثقته. وسبحت أسراب السفن الحربية البريطانية، التي تسد الطريق في كل الأجواء شهورًا طويلة، بعيدة عن الموانئ الأوروبية سبحت بقيادة أمراء البحر البريطانيين المحنكين (كورنواليس وكولنجوود ونلسون) وعم النشاط المضيقَ بسفن صغيرة وبوارج. وخف متطوعو المملكة المتحدة إلى السلاح متأهبين إلى لقاء المغير بالرمح والغدارة. وقد وسع صيادي السمك، الموجودين على مبعدة من الساحل الجنوبي الشرقي، أن يروا الفرنسيين يتمرنون على الركوب والشحن في سفن مفرطحة القاع. وكدست الشمندورات (وهي مشاعل تثبت على الماء لهداية السفن على الخُبوات[(١)]) بعد أن أعدت لتشتعل على سبيل الإنذار. والإنذارات التجريبية تدفع الفلاحين والسائمة للتحرك إلى داخلية البلاد. وأصلحت قلاع الشاطئ أو شيدت. ولكن ظهر أن هذه العملية تدخل في اختصاص البحارة.

وتبعت ذلك واحدة من أشهر الحملات التي شنتها البحرية الإنجليزية وواحدة من أمهر الحملات البرية التي شنها نابليون.

---

(١) الخبت: ما اتسع واطمأن من الأرض.

وأعوزت نابليون سفن حربية تحمي جيوشه إذ تعبر البوغاز. وأخيرًا في ١٨٠٥، غافل أميراله فيلنوف، المحتمي بـطولون، غافل أسطول نلسون الذي كان يعترض طريقه وأبحر بعيدًا إلى جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية الفرنسية. وأخطأ نلسون وأبحر مشرقًا إلى مصر ظنًا منه أن فيلنوف ذهب إليها، ثم انثني راجعًا إلى جبل طارق، واتجه إلى مارتينيك فوجد أن فيلنوف عائد في طريقه إلى بحر المانش. وأسرع نلسون الإبحار إسراعًا أتاح له عاجلًا -اللحاقَ به وهو يحث السبح إلى المياه الإقليمية. إنها مطاردة طويلة يقينًا -وكان كيتس ربان «سوبرب» (أي الفخمة) يعلم ذلك علم اليقين -إذ إن سفينته كانت قديمة معيبة بطيئة: «بطة عرجاء تتثاقل في الطريق». وأنفذ نلسون، خفيةً، فرقاطة سريعة اندفعت إلى لندن تحمل الأخبار. وعلى هذا وجد فيلنوف -عندما بلغ المضيق- أسطولًا، تحت إمرة سير روبرت كالدر، يعترض طريقه فقفل راجعًا إلى كورونيا دون أن يشتبك في معركة.

ويهذا انتهى أمل نابليون في الغزو.

وإذ ذاك أبدى الإمبراطور الفرنسي عبقريته الحربية الفائقة: استعان ببراعة مساعديه ونقل جيوشه جميعًا -دون اختلال- إلى مكان داخل النمسا يبعد ٤٠٠ ميل بلغته بعد زحف معجل واحتشدت قبل أن يتنبه النمسيون تنبهًا تامًّا إلى ما يجري. وأسرت جيشًا نمسويًّا في أولْم وهزمت جيشًا نمسويًّا روسيًّا مشتركًا في أوسترليتز، لم يوجد قط جندي كهذا الكورسيكي! فلقد أكره النمسا مرة أخرى على الصلح، وأعطى هانوفر (التي كانت من أملاك جورج الثالث إمبراطور بريطانيا) إلى بروسيا. وكانت تلك هي الحرب البرية التي حطمت الحلف الثالث ضد فرنسا وقضت على آمال وليم بيت. كان بيت رجلًا مريضًا ومات بعد أوسترليتز بشهر واحد. غير أنه عاش حتى عرف أن كل خوف من الغزو قد زال[1].

وقبل أوسترليتز بستة أسابيع تعلم الإنجليز اسمًا جديدًا: اسم رأس الطرف الأغر

(١) انظر شكل رقم -١٠- (إمبراطورية نابليون الحربية ١٨١٠).

الواقع على الساحل الإسباني. وذلك أن فيلنوف -في أسطول فرنسي إسباني- أُحدق به وقُهر على مقربة من ذلك الرأس على يد نلسون و«زمرة إخوانه». اخترق نلسون وكولنجوود- يقودان، في صفين، سفنهما التي ألحق بها الجو ضررًا بالغًا -اخترقا خط دفاع مجموعات سفن العدو ومرًّا من بينها وأحاطا بها وحطماها.

وقد عظم سحر اسم نلسون إلى حد أن خبر النصر الكبير قد حجبه خبرُ موته على ظهر سفينته «فكتوري» (أي النصر). «فزع الناس عند سماع الخبر وامتقعت وجوههم كأنهم سمعوا بفقد صديق عزيز».

وبعد هذا لم تحدث مواقع بحرية أخرى وإنما حدث قدر كبير من النشاط البحري والنقل والمحاصرات وحراسة السفن. وأمر نابليون أوروبا جمعاء بأن تمتنع عن الاتجار مع بريطانيا. وحاصرت بريطانيا أوروبا كلها. وكانت الدول البرية والبحرية لا تزال عاجزة عن أن تضرب ضربتها.

واستمرت الحرب برًّا. ولما استأنفها البروسيون لحسابهم الخاص هزمهم نابليون في بينا ودخل برلين وعبرها راكبًا في موكب النصر، بمعاضدة البولنديين له بعد أن وعدهم بتحريرهم من روسيا وبروسيا والنمسا، وهي الدول التي كانت قد اقتسمت بولندا فيما بينها. وبعد هذا حارب الجيوش الروسية في إيلو وفريدلاند. ثم التقى بالقيصر الروسي في طوف على نهر نيمن وعقد وإياه ميثاقًا تواضع العاهلان على أن يقتسما أوروبا فيما بينهما: فيسيطر نابليون على الغرب ويكون القيصر شريكه في اقتسام العالم المتمدن وفي السيطرة عليه.

وفي سنة ١٨٠٨ كان نابليون يحكم إمبراطورية أوسع من إمبراطورية شارلمان. وكان إخوته ملوكًا على إيطاليا وهولندا ووستفاليا (بلاد الراين)، وصهره ملكًا على نابولي، وحكام بافاريا وفيرتنبرج وبادن أزواج نسيباته. وكان قد طلق زوجته الأولى وتزوج بابنة إمبراطور النمسا.

وبذلك أصبح ضابط لويس السادس عشر المدفعي الصغير المنطوي على نفسه،

أصبح إمبراطورًا وجعل من أصدقائه ومرشاليه الدوق والمركيز والكونت وغير ذلك وكون منهم طبقة الأشراف في إمبراطوريته الجديدة.

وقد فرض إرادته على الأمراء والشعوب بالمدافع وحراب البنادق، وأصبحت العروش والأسر المالكة ألعوباته. غير أنه لم يكن مجرد قاهر منتصر، بل كانت لديه كفاية فائقة في فن الحكم وولع بالقانون والتنسيق والنظام في الحرب والسلم. وقام مهندسوه وضباطه بتنفيذ هذه الأفكار في بلاد ألمانيا وإيطاليا المتخلفة، فمدوا الطرق وغذوا الصناعة والتجارة وأيقظوا الناس من عاداتهم العتيقة في الطاعة العمياء. وحطم مجموعة دول ألمانيا وإيطاليا الصغيرة المتداعية التي ضمها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكون من إيطاليا وهولندا جمهوريات، وأعاد تشكيل الأراضي الألمانية فصيرها دولًا كبيرة قليلة العدد. ويرجع إليه وإلى مساعديه الفضل في إزكاء رغبة الألمان والإيطاليين في جعل بلادهم أممًا حرة مستقلة. غير أنهم في عهده كانوا رعايا الإمبراطور الفرنسي، إذ كان سلطانه لا يحد.

نابليون وإسبانيا وروسيا :

ولم يستمر في الحرب غير بريطانيا العظمى بمفردها.. أخذت تأسر السفن التجارية الفرنسية وتحاصر شواطئ أوروبا، وهذه الأمور أنجزتها البحرية البريطانية المنقطعة النظير. غير أن بريطانيا العظمى لم تكن لتنتصر في الحرب بدون حلفاء في أوروبا. وهؤلاء أمدّها بهم نابليون وذلك بغزوه إسبانيا وروسيا.

وفي ١٨٠٨ عزل ملك إسبانيا وأجلس على العرش الإسباني أخاه جوزيف بونابرت. ولا يسع أحدًا أن يقول إن نابليون تغاضى عن مصاير أفراد أسرته... ولجأ الإسبانيون –وهم أمة أبية مستقلة– إلى السلاح بلدة بعد بلدة وقرية بعد قرية، وهزموا جيشًا فرنسيًا كبيرًا وأسروه. ثم سيَّر نابليون نفسه جنوده، الذين حنكتهم الحرب، إلى داخل شبه الجزيرة ودخل مدريد. ومن ثم اضطر إلى الانسحاب شمالًا حيث هددت

قوة بريطانية - بقيادة سير جون مور- هددت مواصلاته مع فرنسا. فأسرع بخيالته عبر الجبال المكشوفة القارسة البرد خلف فرق مور التي انثنت إلى الشاطئ تقطع ١٧ ميلًا في اليوم بين عواصف ثلجية باردة. وفي الوقت ذاته صدت الفرقة العسكرية الخفيفة ملاحقة الفرنسيين للإسبان. ثم حدث توقف نهائي في كورونيا قتل فيه مور ولكنه أتاح للبريطانيين الهرب في ناقلات كانت في انتظارهم. نعم كانت المعركة صغيرة نسبيًّا ولكنها تبين، في جلاء، مزايا القوة البحرية. وكان نابليون إذ ذاك قد عاد إلى فرنسا تاركًا إسبانيا لمشيريه العسكريين (مارشالاته).

ولم يكن على هؤلاء أن يتصرفوا فقط إزاء هذه الأمة العنيدة المناجزة التي تشبه صفاتها الحربية ما يرِد في الأساطير بل كذلك إزاء جيش بريطاني - يقوده ولينجتون- يعسكِر في ميناء لشبونة الباهر. وكان ولينجتون -حتى قبل أن يقهر مور في كورونيا- قد قاد تجريدة عسكرية إلى البرتغال وصد جيشًا فرنسيًّا في فيميرو. وعندئذ قهر ولينجتون الجيش الفرنسي مرة أخرى في تالافيرا سنة ١٨٠٩. ولا شك في أن المعركة كانت بسيطة بالمقارنة إلى الحرب الرئيسية بأوروبا التي استأنفها النمساويون والتي استمرت ثلاثة أشهر قبل أن يكره نابليون النمساويين -بعد معركتين ضاريتين (في أسبرن وفاجرام) على عقد الصلح مرة أخرى.

وظلت إسبانيا مسرحًا للبربرية والهول. شن فلاحو الإسبان حرب عصابات أو حربًا صغيرة قوامها هجمات صغيرة مباغتة على المراكز الأمامية والدوريات. واضطر نابليون -سنوات عديدة- إلى أن يُبقي هناك خمسة جيوش متفرقة بقيادة مارشالاته ببلاد فيها «الجيوش الكبيرة تهلك من الجوع والجيوش الصغيرة تهزم»، بلاد شعبها الغاضب يتصيد الفرنسيين المنقطعين عن زملائهم والآتين بالمؤن، ويعذبهم ويفتك بهم. وكان نجاح الإسبان عظيمًا إلى حد أن استُدعي مائتا فارس ليضمنوا لرسول فرنسي حراسة أمينة. وكثيرًا ما كان المارشالات في الأقاليم الإسبانية المجاورة يعجزون عن معرفة أخبار حركات بعضهم بعضًا إلا عن طريق باريس. ولم يكن

الإسبان يعرفون لهم حكومة، وقصارى ما عرفوه أن الفرنسيين ليس لهم أن يعيشوا في الوطن الإسباني وينهبوه. ولهذا أشعلوا الحرب بالطريقة الوحيدة التي يقدرون عليها: شيئًا فشيئًا، بربرية، انتقامية.

وفي تلك الفترة كلها أبقى ولينجتون جيشه البريطاني الصغير -الشديد المراس مع ذلك- معسكِرًا في لشبونة التي حماها بخطوط طويلة من المتاريس الترابية المحصنة والأشجار المقطوعة والمدفعيات. وتحتم على الجيش الفرنسي الذي يرقبه أن يعسكر في أرض مقفرة بينما ولينجتون ورجاله يستمتعون بالكثير الذي تمدهم به سفائنه. وعندما اضطر الجيش الفرنسي، آخر الأمر، إلى الانسحاب تبعه ولينجتون في ١٨١١ وكسب سلسلة من المعارك البارعة في فوونتيس - دونورو- ألبوئيرا- سيوداد رودريجو -باداجوز- وفي الثاني والعشرين من يوليو من سنة ١٨١٢، في سالامانكا.

في يوم سالامانكا كان جيش عظيم يقوده نابليون قد وصل فعلًا إلى روسيا يزحف شرقًا. وقد تقدم خيالته وعبروا (نهر) النيمن في الثالث والعشرين من يونيو. وتبعتهم المشاة والمدافع في غياهب من التراب فوق السهل الذي لا يحد، وكانوا نصف مليون من الرجال من فرنسيين وألمان وإيطاليين وبولنديين.

وارتد الروس تاركين للغزاة فلاة مقفرة. ثم وقفوا ليحاربوا على نهر بورودينو في السادس من سبتمبر. وفي ذلك اليوم ركب رسول إلى داخل المعسكر يحمل أخبار سالامانكا. وكان طرفا أوروبا يتأججان بحروب الإمبراطور! وزحزح نابليون الروس ولكنه بهذا خسر الآلاف من رجاله. واستأنفت الكتائب زحفها المديد. ودخل نابليون موسكو آخر الأمر. وكانت تلك المدينة قد هجرها أهلوها وصارت مدينة أشباح صامتة الطرقات. ولسبب ما تسعرت فيها النيران وأخذت بيوتها الخشبية تلتهب التهابًا عنيفًا فيما كانت جيوش الإمبراطور تنتظر جائعة واهنة مهلهلة فاقدة روابط النظام. وبعد انقضاء شهر على تلك الحال أمر نابليون بالانسحاب، وبدأ

أكثر من مائة ألف رجل الإياب البطيء المروع. وحل الشتاء قبل أوانه. وفي التاسع والعشرين من أكتوبر تجمدت الأرض وعمق الجليد وهرع فرسان القوزاق -الذين تعودوا على الجو البارد- إلى المنقطعين عن رفاقهم وإلى المراكز الأمامية. وقد خسر الغزاة -لدى عبورهم أحد الأنهار- عشرين ألفًا من رجالهم. وإلى أن حل ذاك الوقت نفقت أغلبية خيلهم. وركب نابليون مركبة جليدية استحثّ بها الزحف على الثلج على رأس من بقي من جيشه؛ وذلك لكي يعيد تنظيم الجيوش التي تركها لتحرس ألمانيا. وفي الرابع عشر من ديسمبر كافح من بقي من الأشداء المهلهلي الثياب المستيئسين «الشديدي التذمر»، كافحوا ليعبروا النيمن ثانية ويقفلوا راجعين. وقاد «أشجع الشجعان» المارشال (ناي)، قاد الرجال الأربعة الباقين من مؤخرة الجيش. وكان هو آخر من عبر.

وجيَّش نابليون جيوشًا جديدة في فرنسا ولكن أوروبا جميعًا هبت ضده وحدث في موقعه الثلاثة الأيام العابسة، التي دارت حول ليبزج، أن تغلب عليه الروس والنمساويون والبروسيون بسبب تفوقهم العددي ليس إلا. وفي الوقت نفسه كسب ولينجتون معركة أخرى في فيتوريا بإسبانيا وتعقب الفرنسيين عبر ممرات جبال البرانس إلى داخل فرنسا. وفي الشمال كان نابليون لا يزال يحارب في براعة ولكن الأحوال أكرهته على العودة إلى باريس. وفي الجنوب وصل رجال ولينجتون إلى طولون. فأذعن نابليون ونُفي إلى إلبا يحيطه التكريم.

وتهاوت إمبراطوريته -آخر الأمر- أمام وطنية فلاحي روسيا وإسبانيا الحَرون، وطنيةٍ لم يبقَها قط في حشود الدويلات الألمانية والإيطالية. ويرجع الفضل في مشاركة بريطانيا في قهره إلى جماعتين من «جماعات الأخوة»: رجال ولينجتون في شبه الجزيرة، وبحارة تلك السفن الحربية التي ألحق بها الجو ضررًا بالغًا والتي سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي.

واجتمع سياسيو أوروبا في فيينا ليبتّوا في شؤون أوروبا. وقبل أن ينتهوا من

مهمتهم أفلت نابليون من إلبا وهبط فرنسا، وقوبل بترحيب حماسي، وجيَّش جيوشًا جديدة، وعرض أن يحافظ على السلام ولكن الحلفاء لم يأمنوا له. فتحركت جيوشهم صوب التخوم الفرنسية: البروسيون يقودهم القائد المسن بلوخر، والبريطانيون والهولنديون والهانوفريون يقودهم دوق ولينجتون، والروس يجمعون قوة دافقة من بلادهم القاصية. وفي ووترلو ببلجيكا في يوم الأحد الموافق ١٨ من يونيو من سنة ١٨١٥ ثبت رجال ولينجتون النهارَ كله أمام الغارات الفرنسية المتكررة. وقد قال الدوق فيما بعد: («هجموا بالطريقة القديمة، وقهرناهم بالطريقة القديمة»). وبعد الظهر ظهر بروسيو بلوخر من الشمال الشرقي وحولوا الانكسار إلى اندحار. وخضع الفرنسيون أمام تقدم عام للحلف واستسلم نابليون. وفي هذه المرة أرسل إلى جزيرة القديسة هيلانة المنقطعة في جنوب الأطلنطي، وعاد الملك البوربوني لويس الثامن عشر إلى باريس، وتابع سياسيو مؤتمر فيينا مهمتهم وهي إقرار السلام في أوروبا بعد حروب دامت ٢٥ سنة.

وهكذا انتهت الحروب الطويلة المبدِّدة التي شنتها الثورة الفرنسية ونابليون، الحروبُ لا نتائجها، إذ إن مبادئ الثورة انتشرت في كل مكان. فالناس الذين كانوا يُحْكَمون حكمًا سيئًا طلبوا الحرية ليشاركوا في حكم أنفسهم، والناس الذين كانت تحكمهم أمم غريبة طلبوا الحرية كذلك. وانطلقت قوتان من عقالهما: الديمقراطية أو الرغبة في الحرية الشخصية، والقومية أو الرغبة في تحرير الوطن من السيطرة الأجنبية.

* * *

البَاب السَابع

اختراعات عديدة ومعارف جديدة

العالمَ اليوم

ثلاث مجموعات من الأحداث:

حكاية القرنين الأخيرين يمكن تلخيصها في ثلاث مجموعات من الأحداث: -أحداث السياسة، وأحداث الاختراع، وأحداث التوسع في أقطار الأرض.

بدأت السياسة فورًا وقتما استطاع رجل من رجال الكهوف أن يعقد اتفاقًا مع آخر. وبدأ الاختراع فورًا وقتما عرف الناس كيف يطقطقون الصوّان أو يفتلوا الصوف خيوطًا طويلة. وبدأ التوسع فورًا وقتما بدأت القبائل الأولى تجول في كل مكان لتعثر على مراع جديدة.

وجرت تلك الأحداث في سرعة متزايدة في خلال الأجيال الستة الماضية. ونحن -في مناهج الحياة والفكر، في أيامنا هذه نبعد- عن أهل عصر نابليون أكثر مما يبعدون هم عن أهل عصر روما القديمة. ومن المؤكد أن مدة السفر من لندن إلى روما كانت، في عصر نابليون، أطول منها في عصر القياصرة. أما الآن فنحن نطير هذا المدى في ساعات قليلة. وفي عصر نابليون كان الرجال والنساء فلاحين أميين يحكمهم الأشراف كأسلافهم أيام الرومان. أما الآن فكل امرئ يستطيع أن يقرأ، وغالبية الرجال والنساء حضريون ويشاركون بنصيب في حكم بلادهم. وفي

عصر نابليون كان مجمل تخطيط الكرة الأرضية لا يُعرفُ غير جزء منه. أما الآن فقد رسمت لأغلبها الخرائط، وأنجزت الرسوم البيانية لقيعان المحيطات، وكثرت المصورات الجغرافية، وأهِلتْ القارات الجديدة بالسكان، وأخذ الراديو يربط أقاصي البلاد بعضها ببعض في مدى ومضة.

ونحن نترقب ظهور اختراعات جديدة في كل وقت. ونحن نتحدث عن السفر إلى القمر، فهذا عصر رجال العلوم والهندسة. والناس تزداد معلوماتهم عما حولهم باطراد، كما تطرد مقدرتهم على تغيير ما يحيط بهم. وهذا مؤكد. أما الشيء الذي لا سبيل إلى التأكد منه فهو هل هم يتعلمون من الحكمة ما يحملهم على استعمال معلوماتهم ومقدرتهم لمنفعة الجنس البشري كافة؟

أحداث السياسة: ممالك وجمهوريات:

التاريخ غاصّ بالملوك. ومن قبل أن يطلب اليهود إلى صمويل ملكًا منهم يحكمهم، ومن قبل أن يمسح بالزيت شاؤول ليتملك عليهم كانت هنالك مدنيات أودية الأنهار يحكمها ملوك يتسمون بأسماء مثل سارجون وحامورابي. وقد جاء وقت كان فيه لكل مدينة في وادٍ ملك، اختص به يقيم العدل ويقود الرجال إلى ساحات القتال. وكان في مصر أمراء البيت الكبير، الفراعنة أمثال أمنحوتب ورمسيس وغيرهما، كان هناك أسر عديدة منهم. وكان هناك ملوك على الحيثيين وهم أولئك الناس المبهمون الذين تكشف اليوم بالحفْر مدائنهم المخربة. وكان هناك ملوك على صور وصيدا الغنيّتين. وكان لبلاد الفرس ملوكها. والإسكندر الأكبر الذي قهر بلاد الفرس، بدأ ملكًا على مقدونيا. ونصّب قواده أنفسهم ملوكًا. ومن قبل الإسكندر بزمان طويل كان للمدن الإغريقية الكثيرة ملوكها، ويظهر الأولون الذين عرفوا منهم في ملحمة هومر أجاممنون وأخيل وفي كل مجموعة الأبطال العظيمة الذين سيروا سفائنهم ضد طروادة.

وروما أيضًا كان لها ملوكها الأتروريين، وذلك إلى أن طردتهم روما وتحولت إلى «جمهورية» (أو حكومة للشعب) يدير شؤونها حكام يختارون في كل عام من المدن المتزعمة. والمدن الإغريقية -التي كانت أثينا حاضرتها الكبرى وزعيمتها- كانت هي أيضًا جمهوريات لها جمعياتها المشكلة من مواطنين يجتمعون ليسنوا القوانين. غير أن في تاريخ البشرية كلها كانت الملكية هي النوع المألوف من أشكال الحكومة. وكان العاهل عند الإنجليز يسمى «كنج» وعند الإغريق «باسيليوس» وعند الرومان «ركس». واستعملت شعوب أُخر ألقابًا أخرى مثل «سلطان. شاه. زاد. قيصر. مهراجا. ميكادو» وكل هذه الألقاب ترمي إلى معنى واحد وهو حكم الفرد.

وكان لروما وثرواتها المذهلة شأن آخر يختلف كثيرًا عما ذكر، فهي بعد أن صارت جمهورية قهرت العالم، وبعدما صنعت ذلك تحولت إلى إمبراطورية يحكمها «قيصر» أو «إمبراطور». وبما أن روما -التي صارت على التتابع جمهورية وإمبراطورية- هي أم أوروبا الغربية كلها فقد وجد منذ ذلك الوقت، نموذجان من الحكومة يحتذيهما الناس. فكان كل زعيم بربري يقود -إلى داخل أراضي روما- عصابة مسلحة من الإنجليز أو القوط أو الفرنجة أو اللمبارديين، يعدّ نفسه خليفة للقياصرة.

وكان يستعمل اللاتينية في قوانينه وفي «مقر عمله» و«رياسة حكومته» وفيما بعد -عندما تاق الناس إلى أن يعيشوا بدون ملوك- احتذوا النموذج الثاني لروما وشكلوا جمهوريات.

فمدينة البندقية التي طفقت سفائنها تحمل البهار من شرق البحر الأبيض المتوسط -كانت جمهورية تجارة. وكذلك كانت جنوا. وطالما حلم الناس بجمهورية رومانية تبعث أمجاد المدينة العتيقة. وعندما ظفر رجال البحار ونواب المقاطعات الهولنديون بحرّيتهم من إسبانيا، حولوا أنفسهم إلى جمهورية هولندية،

وتحول المستعمرون الإنجليز في أمريكا الشمالية -عام ١٧٨٣- إلى جمهورية للولايات المتحدة، وعندما أنشأ رجال الثورة الفرنسية جمهورية فرنسية، عند ذاك تسمى كثيرون منهم بأسماء عتيقة، حتى أن نابليون سُمي فترة قصيرة، بـ «القنصل».

ولقد يكون حكام جمهورية ما أقوى، فعلًا، من ملك من الملوك. والفرق الكبير هو أن تغيير الحاكم في حكومة جمهورية -بدون حرب أو ثورة- أسهل، فهناك تقاليد لتغيير الحكام تغييرًا سلميًّا.

ولكن هناك طريقة أخرى لتشكيل حكومة ما. وهي من وحي أرسطو، ذلك الإغريقي البالغ الحكمة الذي كان مؤدبَ الإسكندر. لاحظ أرسطو أن المدن قد يحكمها رجل واحد، أو رجال قليلون، أو المواطنون جميعًا. وأسمَى الأولى «حكومة ملكية»، والثانيةَ «أرستقراطية» (أي حكومة الأعيان)، والثالثة «نظام الدولة» التي نفضل أن نسميها «ديمقراطية». والديمقراطية هي ذلك النوع من الحكومة الذي فيه يتعاون الرجال جميعًا والنساء جميعًا ليسيّروا الأمور لمصلحة الجميع. (وهذا، بطبيعة الحال، أسهل في القول منه في العمل).

وعلينا أن نتذكر دومًا الفرقين الكبيرين بين السياسة عند الإغريق والرومان الأقدمين وبينها عندنا. في العهود البائدة كانت كل مدينة تحكم نفسها، وكانت الدولة دولة مدينة واحدة مثل أثينا وكورينتوس وروما. أما اليوم فالدول دول أمم مثل إسبانيا والدانمرك. وفي دولة المدينة لا يشقّ على كل الناس أن يقوموا بقسط فعلي في الحكم، ففي وسعهم أن يذهبوا جميعًا إلى المكان الكبير الذي تُعتمد فيه الاجتماعات العامة. أما في دول الأمم، في أيامنا، فلا سبيل إلى المشاركة في الحكم إلا بانتخاب ممثلين يحكمون باسم مواطنيها.

والفرق الثاني هو أنه -في العهود القديمة- كان العبيد يقومون بالعمل الشاق الدنيء. أما اليوم فيقوم به رجال أحرار. وواحدة من معضلات اليوم هي مَن الذي عليه أن يقوم بالعمل الشاق وما شروط ذلك؟

ووقتما سقط نابليون، وسقطت معه إمبراطوريته، كانت حال بعض الممالك الغربية قريبة الشبه بها الآن، مثل بريطانيا العظمى، وفرنسا، وإسبانيا، والبرتغال، وهولندا، والنرويج، والسويد، والدانمرك. وكانت هنالك أيضًا روسيا، وكانت لها حكومة ملكية قوية مركزها موسكو وسنت بطرسبرج (لينينجراد). وكانت بها أصقاع شاسعة لم تُستكشف تترامى في آسيا إلى مدًى بعيد.

وكذلك كانت هنالك إمبراطوريتان عظيمتان تلاشتا، هما: (١) الإمبراطورية النمساوية المكوَّنة من النمسا والمجر وبوهيميا، ومن بعض الأقطار السُّلافية. (٢) الإمبراطورية التركية التي ضمت البلقان (بلاد الصرب والبلغار والرومان واليونان) وآسيا الصغرى والجزيرة العربية والشام وفلسطين ومصر.

لم تكن هناك أمة ألمانيا المتحدة، ولم تكن هناك مملكة إيطاليا، إذ إن إيطاليا وألمانيا لم تكونا غير اسمين لمنطقتين.

وكان ملوك البرتغال يحكمون البرازيل، وملوك إسبانيا يحكمون سائر أمريكا الجنوبية. وكانت بريطانيا العظمى تُسيطر على البحار. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أمة فتية حرة وراءها قارة ضخمة تتطلع إلى الاستقرار والإنتاج.

وكانت غالبية الدول يحكمها ملوك بغير دستور أو تحكمها جماعات من الحكام لا تتبدل، كأولئك الذين يُسيِّرُون شؤون النوادي والجماعات التي تحتفظ بأعضائها دومًا. وعلى هذا كانت غالبية الحكام تعمل ما يروقها على صورة ما. وكان لإنجلترا دستورٌ غير مكتوب، دستور قوامه العرف والعادة. وللولايات المتحدة دستور مكتوب أو اتفاقية عقدها المواطنون فيما بينهم تنص على الأسلوب الذي يودون أن يُحكَموا بمقتضاه.

السياسة: الحرية:

اجتمع في فيينا الأباطرة والملوك والدوقات والكونتات من كل الممالك؛ لينظموا شؤون أوروبا بعد خمسة وعشرين عامًا قضتها في الحرب والجَلبة. وظل ذلك المؤتمر الجذلان المتألق سنتين -١٨١٤ و ١٨١٥- يبحث في تعديل خريطة أوروبا. وكانت المدينة الإمبراطورية مركزًا للولائم وحفلات التسلية والرقص والاستقبال وصيد الخنزير البري، وأخذ أهل فيينا يرون -اليوم بعد اليوم- صانعي السلام الأرستقراطيين الرفيعي القدر: إمبراطورهم ذا الشعر الأبيض الهش الواهن، وملك بروسيا الطويل، وملك الدانمارك القصير، وقيصر جميع الروس البهيج الهيئة، والوزراء: ولينجتون العسكري التصرف الحاسم الأمور، واللورد كاسلري المتباعد المتزمت الذي يثقله الهم، والكونت ميترنيخ الوسيم المجامل، وتاليران الرجل الفرنسي الذي يفوقهم جميعًا في الحذق والذي كان أسقفًا قبْل الثورة والذي انتصر على كل احتمالات السياسة الفرنسية وتقلباتها. ولهذا الحذق يرجع الفضل في أن المؤتمر عدَّ فرنسا المنهزمة دولةً كبرى وأعاد إليها النظام الملكيَّ تحت تاج لويس الثامن عشر أخي لويس السادس عشر. وكان لويس الثامن عشر -البدين المستهتر- منفيًّا بإنجلترا.

ولم يُثَر موضوع حقّ الشعوب في حكم أنفسهم أو في التحرُّر من حكم الأجنبي. وقصارى ما استرعى اهتمام القيصر إسكندر والكونت ميترنيخ هو أن أفكار ١٧٨٩ الحرة يُنظر إليها كأنما حدثت في القمر. غير أن الناس في كل بلد صبَوا إلى التحرّر من القوانين الجائرة والضرائب والاستبداد ومن خوف السجون المظلمة والمشانق ورغبوا في دستور يؤمنهم على حياتهم. وكانت الحرية تملأ هواء كل مكان إلا فيينا. فهناك أعاد الأرستقراطيون رسم الخريطة. ولم يتمكنوا من إعادتها إلى حالها في سنة ١٧٨٩، ولكنهم ساروا في تلك السبيل ما واتاهم الجهد وصنعوا كلّ ما وسعهم ليؤمنوها للملوك، أي لإمبراطوري النمسا وروسيا وعواهل بروسيا وفرنسا ويحولوا دون اشتعال ثورات جديدة.

وقتلوا بولندا. ذلك أن تلك المملكة الشهمة الشقية التي سبق لنابليون أن وعد ببعثها، دفنوها هم مرة أخرى تحت روسيا والنمسا وبروسيا. «كل امرئ له وطنه إلا البولندي فوطنه قبر». وهذه العبارة المرة التي قالها بولندي وطني منفي، لا تزال تصدُق حتى يومنا هذا.

ولكي يضع المؤتمر العراقيل دون حدوث أي متاعب من ناحية الفرنسيين أعطى منطقة بلاد الراين الغنية التاريخية إلى ملك بروسيا الذي خطا الدويلات الألمانيةَ -بناء على هذا- من الشرق إلى الغرب. وتجمعت الممالك والدوقيات الألمانية الأخرى -التي انخفض عددها إلى ٣٩- في «رابطة» أو اتحاد خاضع لتوجيه النمسا. تخلت النمسا عن أراضيها الواطئة (بلجيكا الحديثة) لهولندا، ولكنها كوفئت بالسيادة على شمال إيطاليا.

وبقيت «إيطاليا» اسمًا لشبه جزيرة. وفي الجنوب قامت مملكة نابولي وصقلية المحكومتين حكمًا سيئًا، وفي الوسط أملاك البابا -تحت أسوأ حكم في العالم-، وفي الشمال الغربي الدولة الصغيرة الواقعة في سفوح الجبال (بيدْ مونت) يحكمها ملك سردينيا وسافوي.

وتمت أعمال المؤتمر بنيّة استدامتها. ولم يكن ذلك من المرجح لأن نسمات الحرية كانت تهب في صدور الناس هبوب الرياح التي حركت الغابات التي فيها كانوا يلتقون ليتآمروا على إشعال الثورة وليشكلوا جمعيات سرية من الوطنيين، ومهروا عهودهم بطقوس دينية مقدسة. وكوّن طلبة الجامعات الألمانية جمعيات سياسية. وكان الوطنيون في إيطاليا يسمون أنفسهم: مشعلي الفحم «الكربوناري». وقد شاركهم المواطنون والعمال والأعيان والشعراء والجنود المرتزقة الخشنون. وكان مجرد الانتساب إلى جمعية سرية يعد جريمة، وكان العمال الزراعيون المقيمون في إنجلترا يُنْقَلون إلى أستراليا على أنهم مجرمون لا لشيء إلا لأنهم اجتمعوا سرًّا كي يتدارسوا كيف يحتمل أن يحصلوا على أجور أعلى.

ومهما يكن من شيء فإن الانتصارات الأولى التي كُسِبت باسم الحرية لم تُكسَب لا في إيطاليا ولا في ألمانيا وإنما كُسِبت في تركيا وفي الدنيا الجديدة.

وكان من بين رعايا السلطان المسيحيين: الصربيون الذين احتفظوا بنزعتهم الحربية في التلال البلقانية، وقامت أولى ثوراتهم عام ١٨٠٤. وبعد حرب طويلة الأمد، وإن تكن غير متتابعة، كسبوا حق استقلالهم وتملّك عليهم أمير من جنسهم. وفوق ذلك عطف عليهم الروس لأنهم إخوان في السلافية. وكان الروس جيران الأتراك ومنافسيهم في البحر الأسود، والقيصر يعد نفسه حامي مسيحيي تركيا جمعيًا. وكان هذا صدى النزاع القديم بين الصليب والهلال. وفي سنة ١٨٢١ ثار على السلطان شعب أكثر شهرة وهم الإغريق الذين علّم أسلافهم الناس كيف يجمعون بين الحرية وحياة التمدن. وشكلوا هم أيضًا -أسوة بوطنيي الغرب- جمعيات سرية عرفت باسم «أصدقاء اليونان». وشبت الحرب ضارية، إذ إن الإغريقي الحديث عديم الرحمة كأسلافه الأقدمين. فقتل في (شبه جزيرة) المورة أكثر من عشرين ألف تركي. واقتص الأتراك لأنفسهم باضطهاد اليونان، وبخاصة في (جزيرة) شيبوس. وحدث أن شهرة الإغريق سحرت الغربيين الذين تنسموا في صباهم حكايات ليونيداس وبركليز، وشارك متطوعون كثيرون من الغرب في حرب استقلال اليونان، تذكر منهم الشاعر لورد بايرون:

تطل الجبال على ماراثون[1]، وماراثون تطل على البحـــــر،
وبعد ما استغرقت هنــــــاك ساعة في التأمل -وحيــــدًا-
حلمتُ أن اليونـــــــــــان أيضًا قد تكسب حريتهـــــا.

وقد ظفر اليونانيون بأحلاف أقوى من المتطوعين. إذ إنه عندما أرسل والي مصر التركي جنوده إلى المورة ليخضعوا الثوار تصدت السفن الحربية الإنجليزية

(١) ماراثون اسم بلدة في اليونان. والماراثون سباق (مداه ٢٦ ميلًا و ٣٨٥ ياردة، أخذ به إحياء لذكرى العدائين الذي عدوا من ماراثون إلى أثينا يحملون نبأ انتصار عام ٤٩٠ ق. م.

الفرنسية -يقودها الأميرال كودْرينجتون- للبحرية المصرية، في خليج نافارينو، ونسفتها. وهجم جيش روسي من الشمال. وهكذا اضطر الأتراك إلى إعطاء اليونانيين حريتهم، وأصبحت اليونان مملكة مستقلة.

وعلى بعد آلاف من الأميال ولدت أمم جديدة... عندما احتل نابليون إسبانيا والبرتغال، قطعت المستعمرات البرتغالية والإسبانية الصلة بهما. وأصبحت البرازيل إمبراطورية مستقلة عن البرتغال واحتفظت باستقلالها وتحولت بعد ذلك إلى جمهورية. وثارت المستعمرات الإسبانية في الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٢٠ وحصلت جميعًا على استقلالها. وكان أعظم قوادهم: سيمون بوليفار، وكان أشهر متطوعي الإنجليز والفرنسيين الكثيري العدد الذين ساعدوهم: لورد دندونالد وهو بحار من صنف نلسون. وقد ظلت أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى إسبانيتين أكثر من ٣٠٠ سنة، وخلفت إسبانيا طابعها الثابت على القارة كلها من حيث الجنس والدين واللغة. وقد ظهرت في الوجود بعد ذلك جمهوريات: باراجواي وبوليفيا والأرجنتين وبيرو وشيلي وإيكوادور وكولومبيا وفينزويلا والمكسيك وجواتيمالا مقتسمةً فيما بينها قارة ذات ثروة ومساحة يصعب تصديقهما. وباستثناء كندا، تحررت الدنيا كلها من تبعيتها للممالك القديمة في أوروبا.

وفي الفترة التي فيها عقدت سيادة البحار لبريطانيا كانت الدنيا الجديدة أبعد من أن تصل إليها الحراب النمساوية والفرنسية. أما إيطاليا وإسبانيا فلم يكن هذا شأنهما: عندما ثارت الفتن في هذين البلدين دخل جيش نمسوي نابولي وجيشٌ فرنسي إسبانيا، وسحقاهما. وأطفأ النمساويون كذلك تمردات في لومباردي التي استثارها مشعلو الفحم والتي أُلقي بكثير من زعمائهم في سجون النمسا المظلمة.

وفي يوليو من سنة ١٨٣٠ ثار عصيان، فهرب الملك الفرنسي إلى إنجلترا وحل محله ابن عمه لويس فيليب الذي كان أكثر انعطافًا إلى الأفكار الديمقراطية. وقد أثار هذا العصيان الناسَ إثارة عنيفة في كل مكان. فقامت تمردات في البرتغال

وبولندا وألمانيا وإيطاليا، أخفقت جميعها. فلقد لجأت الفرق النمساوية في إيطاليا إلى منتهى القسوة في قمع الثوار وبخاصة في أملاك البابا. وكان من بين الوطنيين الكثيرين الذين نُفوا: جويسيي ماتْزيني الذي كرس حياته -منذ كان طالبًا- إلى قضية استقلال إيطاليا والذي أصبح نبي إيطاليا قوميةً، حريةً، ديمقراطية.

ولم يثمر العصيان إلا في البلاد الواطئة. فهناك ثار أهل الجنوب على الحكام الهولنديين وأذنت لهم الدول الأوروبية في أن يقيموا مملكتهم البلجيكية التي نعرفها الآن والتي استعارت اسمها من شعب «البلجي» الباسل الذي اشتهر في عهد قيصر.

وكانت الصرب واليونان وجمهوريات أمريكا الجنوبية وبلجيكا من ثمرات الحرية. ففي عهود أسَر أوروبا القديمة كان الكثيرون من الرجال البواسل لا يزالون يكابدون من ضياع حرياتهم، إذ إن الملوك كانوا يحرصون على نظام أملاكهم وأمنها لمنع الثورة. وقد مات لورد بايرون عام ١٨٢٧ ولكن كلماته تصلح للإشارة إلى السنوات القليلة التي تلت ١٨٣٠.

«ومع ذلك: فالحرية! ومع ذلك فإن الراية، وإن تمزقت، ستظل تقابل الريح بتيارات كالعاصفة الراعدة».

السياسة: أم البرلمانات:

شكل الرجال الذين أسسوا الولايات المتحدة الأمريكية، شكلوا حكومتهم على نموذج الحكومة البرلمانية البريطانية، وكانت في نظرهم خير حكومة أخرجت للناس. هذا وإن صح أن مجلس العموم البريطاني كان، عندئذ، في حاجة إلى الإصلاح بل ظل في حاجة إليه بعد ذلك بخمسين سنة. فكثير من المدن الانتخابية -التي تبعث بنواب إلى مجلس العموم- كان كُفورًا (أي قرى صغيرة) لا يعتد بها. مثال ذلك: كانت كل من أولد ساروم وجاتون ترسل نائبين ليمثلا حفنة من الناس. وكانت أماكن كهذي تسمى -على سبيل الفكاهة- «المدن الانتخابية العفنة». وكانت أماكن أخرى

-قليلة عدد الناخبين- مثل تافستك التي لا يتميز فيها أكثر من عشرة رجال -كانت هذه الأماكن الأخرى في «جيوب» كبار اللوردات الذين يؤجرون الناخبين ليرسلوا إلى مجلس العموم نوابًا يختارونهم هم من الأبناء والأقارب والتابعين. والنتيجة أن غالبية أعضاء مجلس العموم كانوا يعتمدون اعتمادًا كليًّا على «مناصرين» فخام في مجلس اللوردات.

إلا أن ذلك لم يكن كل شيء. فلقد تفكه كاتب روائي سنة ١٨١٧ بالكتابة عن (مدينة «لا صوت» الكبيرة الآهلة بالسكان الواقعة بالقرب من مدينة «صوت واحد» الانتخابية العتيقة المكرمة). وكانت هنالك طائفة كبيرة من مدن «لا صوت» نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مانشستر، هاليفاكس، ليدز، شفيلد، برمنجهام، وكانت تلك مدنًا تغص بالسكان وتنمو نموًّا سريعًا بفضل الصناعة والتجارة اللتين أخذتا تنموان في أواخر القرن الثامن عشر. وفيما بين ١٧٨١ و ١٨٣١ تضاعف عدد سكان الجزيرة، وكان أكثر الزيادة في مدن «لا صوت» تلك التي لم يكن لها -بناء على ذلك- أي رأي في حكم البلاد. ومن بين نحو الخمسمائة عضو من أعضاء البرلمان كان نحو سبعين ينتخبون عن بلاد لا تكاد تضم ناخبين على الإطلاق. وهذا النوع من الانتخابات الهازلة التي جرت في المدن الانتخابية وصفه دكنز في كتابه «مذكرات بكويك» عندما تكلم عن حوادث يوم الاقتراع في إيتانزويل.

ولكي ننصف أسلافنا يجب أن نقرر أن الكثيرين تنبهوا إلى تلك الأحوال السخيفة وطلبوا علاجها وذلك قبل شبوب الثورة الفرنسية. وقد دفع جنونُ دهماء الفرنسيين الوحشي، دفع حكام بريطانيا إلى التخوف من أن يعطوا أي امرئ أي قدر من السلطان. وبطبيعة الحال كان في تلك الجزيرة متهورون ممن يظنون أن النموذج الفرنسي يجب أن يحتذى. غير أن الحروب الطويلة سببت الكرب والتعطل بين العمال الزراعيين وغيرهم فارتفعت ضجات الشغب وحرقت أكداس الغلال ومخازنها ونهبت المتاجر، وتحتم على القوات المسلحة أن تفرق محدثي الشغب،

وأخذ رجال متوحشون يتحدثون عن «جمعية الأمن العام» وفيما كانت التجارة تستعيد رواجها تدريجيًّا تحول ذاك الهياج إلى المطالبة بإصلاح البرلمان. وفي ١٨٣٠ قامت طائفة من أعضاء البرلمان تحبذ الإصلاح. وفي ١٨٣٠ باتت البلاد مهددة باحتمال اندلاع ثورة. وفي تلك السنة حوكم ما لا يقل عن ٧٠٠ رجل في ونشستر بتهمة التمرد. عندما رفض البرلمان في ١٨٤١ مشروع الإصلاح الذي تقدم به لورد جراي تجدد الشغب في ضراوة بالمقاطعات الداخلية. وفي بريستول بدأت الدهماء تحرق المدينة. وفي آخر الأمر أذعن دوق ولنجتون وحزبه وأشاروا على وليم الرابع بأن يوقع اللائحة. وألغيت مدن «انتخابية» متعطنة ومدن بالغة الصغر عددها ١٤٣ ووزعت مقاعدهم من جديد بين المدن الصناعية الجديدة. وفي الوقت ذاته رخص لكل مدني يدفع إيجارًا سنويًّا قدره عشرة جنيهات أن يدلي بصوته. وكذلك أُجري إصلاح بالولايات الإقليمية.

وعلى هذا النحو، عندما كان وطنيو أوروبا يضجون بطلب التحرر من الاستبداد، أصلحت أمُّ البرلمانات نفسها، أو بعبارة أصح أخذت تصلح نفسها، وذلك لأن العملية استمرت. ووُفِق على لوائح إصلاحية أخرى (في ١٨٦٧ و ١٨٨٥) تعطى حق التصويت لأغلب من بلغوا سن الرشد من سكان المدن والقرى. والقيمة الكبرى لهذا واضحة، وهي أن أي حكومة لا يقبلها الجمهور يمكن تغييرها عندما يأتي وقت الانتخابات التالية.

والبرلمان الإنجليزي هيئة قديمة ترجع إلى عهد إدوارد الأول، وهو الملك الذي نادى بأن «ما يمس الجميع ينبغي أن يوافق عليه الجميع». ولكن علينا أن نتنبه إلى تبدل طرأ على فكرة التمثيل البرلماني. في القرون الوسطى كان فارس المدينة الانتخابية (أي عضو الإقليم) يمثل كل فرسان المدينة الآخرين أو المزارعين ذوي الأهمية، أي الرجال الذين يماثلونه تمامًا. وبالمثل كان المواطن (أي ساكن المدينة) يمثل كل المواطنين الأحرار في بلدته، ذوي المال أو المهنة، الذين يماثلونه. أما الآن

فنظرًا للنمو الكبير في عدد السكان فإن عضو البرلمان إن هو إلا رجل طيب يُختار ليمثلهم، لا أنه يماثلهم، بل يبذل جهده في الإسهام في حكم البلاد. فللمقاطعة أن تنتخب غنيًّا من أصحاب الأراضي، وللمدينة ذات الدائرة الانتخابية أن تنتخب غنيًّا من رجال المال.

كان القرن التاسع عشر عصر البرلمان الزاهر. ولم يكن من الأهمية بمكان أن قوة البرلمان كان يؤمن بها الجميع إيمانًا كبيرًا، وأن سمعته كانت بالغة العلو بل كان من أهم ما يستدعي اهتمام كل العمال هو الصوت فإذا تم لهم هذا اطمأنوا إلى أن كل ما يرغبون فيه آتٍ بعد ذلك. وهذا، يقينًا، مثَّل من الإيمان الذي لم ينفك يراود أهل الجزيرة في أن يجتمعوا ويناقشوا متاعبهم -بتعقُّل- دون أن يذهبوا بعيدًا في العمل على تحقيق مطالبهم ولكنهم على استعداد للأخذ والعطاء.

على أن إصلاح مجلس العموم تلاه إصلاح أكثر لزومًا وهو إصلاح الحكومة المحلية للحواجز والمدن ذوات الدوائر الانتخابية: الأول في ١٨٣٥ والثاني في ١٨٨٨. فبدلًا من أن تتصدى جماعات صغيرة من الناس -ينتخبون جزافًا أو ينتخبون على يد أنفسهم وأصدقائهم- لتسيير دفة الأعمال بدلًا من هذا ظفرت الحواضر والمدن ذوات الدوائر الانتخابية، بمجالس نظامية منتخبة.

الاختراع: المهندسون:

منذ البداية أخذ الناس يغيرون ما يحيط بهم، بالعمل الطويل الأناة. فمهدوا سفوح الجبال للكروم، وأزالوا الغابات، وصرفوا ماء المستنقعات، وعمقوا مجاري الأنهار، وبنوا أرصفة البحر، وأقاموا الأبنية الأثرية من الطوب والحجر، وشيدوا المدن، ومدوا الطرق عبر القارات.

ولم تتعرض الدنيا قط لتغييرات جارفة كتلك التي بدأت حول سنة ١٧٦٠ والتي يرجع الفضل فيها إلى المهندسين.

فالمهندس يبتدع اختراعات تستلزم الحذق والبراعة. وتبدو براعته -أكثر ما تبدو- في البناء، وإقامة الجسور (الكباري) واحتفار الخنادق، وشق الأنفاق، واستخراج محتويات المناجم، وصناعة المعادن. ولقد كان من أسلافه: كل أبناء الصنعة الدهاة، وبخاصة مقيمو الطواحين وصانعي الساعات وجيش الحدادين والسباكين والصياغ القدير؛ إذ إن عمل أولئك يعتمد على المقاييس الصحيحة وبالتالي على العلوم الرياضية. وهو يعتمد كذلك على طبائع المواد وبالتالي على الطبيعة والكيمياء. فأرباب المهن والمشتغلون بالرياضيات والعلوم، رواده. ذلك أنه يتلقى معلوماتهم وحذقهم ويهيئها للمزاولة العملية، فيطوّع الخشب والصخر والمعدن لتخطيطه. فهو إذن المهندس الأعظم لصناعات الإنسان.

وأدواته -هي نفسها- آلات بارعة. خذ مثلًا: المَنشر (معمل نشر الخشب) والمخرط الآلي (آلة ميكانيكية لخرط الخشب والمعادن) والمطرقة البخارية - وهذان تحركهما قوة سقوط الماء- والبخار المتمدد، والغازات المفرقعة، والدفع الكهربائي. وهذه الآلات وأشباهها أسرع وأقوى وأرق من الأدوات اليدوية، مائة مرة.

وقد قضى عمل المهندس على الطراز القديم من جمعيات الصناع والفلاحين، إذ إن آلاته تحتاج إلى تعاون دقيق منظم من الكثيرين، وكانت الدنيا القديمة تستخدم العبيد وليس في وسع المهندس أن يفعل هذا في مدنيتنا المبنية على حرية الناس جميعًا. ومع هذا فضمان المعاونة الصادقة من جموع المواطنين الأحرار تحير أحيانًا، إذ إن آلات كثيرة تحتاج إلى استخدام الرجال والنساء، كأنهم جزء من الآلة، ليكرروا بضع حركات عضلية بسيطة، المرة تلو المرة واليوم بعد اليوم: ومع هذا فقد يشعر المهندس نفسه -في العمل الذي يخصه- بنشوة صاحب المهنة اليدوية. غير أن الذين يهتمون بشؤون الآلة يقضون الأيام الطويلة في القيام بأعمال، إذا قيس بها تخريط الخشب ودهن الحوائط عد مثيرًا جدًّا.

الاختراع: الطرق والقنوات:

بعدما ألقى الفوج الروماني الأخير مجادفه، لم تحظ طرقات بريطانية قط بعمل نافع في مدى يزيد على الألف عام. وكانت قطعان من الماشية تطأ الدروب إلى الحمِئات (أي الأراضي الرخوة اللينة) وفي الصيف كان الحجاج والباعة المتجولون يسيرون على أقدامهم فوق الأخاديد أو على ظهور الأفراس الصغيرة والكبيرة. وفي الشتاء يقبع الناس في بيوتهم ولا شيء غير ذلك. وفي بعض النواحي لم يكن بد من استعمال أعمدة خشبية تحدد مسار الطريق العامة، إذ كثيرًا ما صعب التمييز بينها وبين الحقل المحيط بها. وكانت الرحلة بين يورك ولندن تستغرق أسبوعًا. ولئن كان سويفت نكس قد قطعها في يوم أو نحوه -في ١٦٧٦- فهو قاطع طريق متعجل. وقد قالت «مجلة الأماجد» (جنتلمانز ماجازين) في ١٧٢٥ إن الطرقات المؤدية إلى الغرب كانت «كما تركها الله بعد الطوفان»، تغطس الأقدام فيها، في الوحل السميك شتاء وفي التراب السميك صيفًا.

والمدنية تعتمد على طرق النقل الجيدة. وعندما بدأت لندن -بعد ١٧٠٠- تمتد وتتسع كانت الطرق تغص بالغنم والثيران والإوز، وهي جميعًا في طريقها لتطعم العاصمة. وبعد سنة ١٧٠٠ بفترة وجيزة أخذت الشركات المتحدة -المكونة من أفراد المواطنين- تصلح رقعًا مستطيلة من الطريق العامة وتنفق على العمل من المكوس التي تجبيها من كل الركاب عند بوابات المكوس المقامة عبر الطريق. وإلى أن جاءت سنة ١٨٢٧ وجد من تلك الجمعيات المتحدة ما يربو على الـ ١١٠٠٠، وقد تفاوتت كفاياتها في العمل، على أنها استخدمت فعلًا بعض مهرة مهندسي الطرق. وأكثر أعمال توماس تلفورد مدعاة للفخر: طريق هوليهد والجسر المعلق فوق بوغاز ميناي، اللذان شيدهما. وقد أطلق جون ماك آدم اسمه على نوع من الطرق سطحه من الحجارة الصغيرة المتعددة الزوايا ضغط بعضها إلى بعض ضغطًا قويًّا حتى صارت كتلة صلبة. وبسبب هذه التحسينات أفسحت المركبة

الثقيلة القديمة المدلاة على أشرطة جلدية، أفسحت مكانها لمركبات السفر العامة المركّبة فوق زمبركات من الصلب، وكانت أخف وأسرع. وفيما بين ١٧٦٠ و١٨٤٠ اتصلت أهم المدن -بعضها البعض- بعربات: التاليهو والنمرود وومضة البرق، وكلها ملونة بألوان زاهية وتجرها مجموعات من الخيل تتبدل عند كل مرحلة. وكان الشتاء -بطبيعة الحال- يسبب خللًا في المواعيد المحددة للقيام والوصول، ويسبب انقلاب العربات في بعض الأحيان. وعندئذ كان أقوى الركاب هم وحدهم الذين يستطيعون تحمل السياحة على المقاعد الخارجية. وهنالك حكايات بشعة عن ركاب مثل أولئك وجدوا -في آخر المرحلة- ميتين من البرد.

ودفع بطء حاملي البريد (٤٠ ساعة بين باث ولندن) شخصًا اسمُه جون بالْمَر إلى اقتراح تسيير مركباتٍ كبيرة للبريد والركاب تسييرًا منظمًا، وقد وصلت الأولى -في ١٧٨٤- إلى برستُول في ١٥ ساعة. وأصبحت مركبات البريد الملكي خبرًا يتحدث عنه: مركبة فاخرة -تقرقع عبر بوابات المكوس التي تفتح بمجرد سماع بوق البريد- تمر فتلوح لها القرى وتهتف.... «الدقة المطلقة في جميع مواعيد المركبات وفي عدة الخيل وقوتها ونظافتها وبساطتها الجميلة. ولكن ربما يكون الشيء الذي يسترعي الانتباه، أول الأمر أكثر من غيره، ربما يكون فخامة الخيل وأبهتها». هذا ما كتبه توماس دي كوينسي عن عرض مركبات البريد الفخم قبل أن تنطلق من شارع لومبارد إلى أهم مدن المملكة. وإلى أن حلت سنة ١٨٣٥ كان يقوم بالعمل أكثر من ٧٠٠ مركبة بريد وآلاف من المركبات التي تستخدم حشودًا من السواقين والحرس وصغار الخدم وسواس الخيل ممن يقومون على خدمة الإسطبلات في مئات من الفنادق.

وعهد مركبات الركاب والبريد كان كذلك عهد القنوات ١٧٦٠ -١٨٤٠.

والنقل المائي سهل رخيص. وفي مدى فترة طويلة كانت سفن الشواطئ -التي تنقل الفحم- تحمل الفحم من التاين والتايمز، وما زالت تفعل. وقناة لانجدوك

الطويلة -التي تصل ما بين خليج بسكاي بالبحر الأبيض- هي التي أوحت لدوق بردجوونر بفكرته في قناة تحمل الفحم من مناجم المعادن التي يملكها في وورسيلي -ومانشستر. وقد استعان بـجيمس برندلي - وهو من مقيمي الطواحين النابغين- في تخطيط مشروعه. وعندما انتهت القناة في ١٧٦١ هبط ثمن الفحم في مانشستر إلى النصف وحدث جنون حقيقي في احتفار القنوات، تصل نهرًا بنهر وبلدة ببلدة. والآن يستطيع جوسيا ودجوود أن يصنع ويبيع خزفه، المصنوع في ستافورد شاير، دون أن يخشى من عدم تسليمها سليمة. ولم يعد ملح نورذتش في حاجة -بعد- إلى أن يحمل على ظهور خيل النقل على طول «طرق الملاحات». ولقد ذهبت أقطان مانشستر وأصواف يوركشير رزمًا رزمًا على سفن النقل. وصلصال الصيني والطوب، والبضائع الحديدية، والخشب، والفحم أصبحت سهلة النقل، الآن بعد أن اتصل (نهرا) السفرن والتايمز بداخلية البلاد وبعد أن اتصل كل منهما بالآخر. وفتحت لندن -وهي أكبر الأسواق- لصناعات البقاع الوسطى والشمالية الآخذة في الانتشار. وقد حمل بعض القنوات (صنادل) الركاب. ونقلت الحكومة عليها جنودًا. وقامت البيوت والمصانع على طول شواطئها. وهناك انفتح الأمل بقيام مدنية قنوات: مدنية نشيطة غنية عامرة هادئة. وإلى أن حلت سنة ١٨٣٠ انزاح جنون الاحتفار، على أن أوسع طريق مائية -وهي كاليدونيان كانال (القناة الخالدة) التي خططها تلفورد- احتفرت ما بين ١٨٠٤ و ١٨٢٢. ومن سوء الحظ أن القنوات كثيرة الاختلاف عمقًا وعرضًا، وأن أصحاب السفن الذين استخدموها غلب عليهم الطمع، في الأجور، وعدم الدقة في المواعيد. وما زال أحسن القنوات يستعمل حتى الآن. والخرائب الجميلة المنظر التي بقيت، من القنوات الأخرى، تمكن رؤيتها في رقع طويلة من الماء الآسن، والعشب النامي ينتثر فيه الزنبق والسوسن وتأوي إليه الطيور الغربية.

وفي العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ -١٨٣٩) كان المهندسون

يجهزون لوسيلة أخرى من وسائل النقل السريع: قطار سكة الحديد البخاري الذي يعتمد على الفحم والحديد وتقدم الهندسة الميكانيكية.

الاختراع: الفحم، والحديد، وقوة البخار:

خير ما يصف الكيفية التي بدأ المهندسون بها تغيير هيئة حياة الإنسان هو بيان موجز لما نسميه «الثورة الصناعية» التي حدثت -أول ما حدثت- في بريطانيا والتي تركزت حول استخدام الفحم والحديد.

منذ ملايين من السنين نبتت غابات وتلفتْ في المستنقعات الراكدة، واختفت -تحت سطح الأرض- طبقات من الشجر المتعفن المهروس تحت ثقل البحار التي تكونت فيما بعد وثقل الصخور المترسبة. ومن هذه الأحداث الجسيمة البطيئة -في الزمن الجيولوجي- بقدر لا سبيل إلى تصديقه -جاءت عروق الفحم الذي اعتمدت مدنيتنا عليه.

واستخراج الفحم مهنة عتيقة. وقد ظلت مسألة محلية أجيالًا طويلة، فقد كانت المناجم قليلة الغور بسبب فيضان الماء. وكانت أحمال الفحم أثقل وأكبر حجمًا من أن تنقل إلى مسافات بعيدة. وكان فحم شواطئ (نهر) التاين ينقل إلى لندن في السفن التي تسبح على طول سواحل البحار ولهذا كان يسمي «فحم البحر». وعندما احتفرت القنوات سبحت فيها «صنادل» الفحم. وكثيرًا ما بنى أصحاب المناجم سككًا حديدية لمركباتهم التي تنقل الفحم لكي تجري في سهولة من المناجم إلى المرفأ. غير أن المناجم ظلت مقصورة على عروق الفحم القريبة الغور وطبقاته السطحية إلى أن أتيح لها الحصول على «طلمبة» جيدة تمكنها من العمل غير متأثرة بفيضان الماء.

وقد استخدمت قوة البخار -وكانت معروفة لدى قدامى الإغريق وموضوعًا للتفكير المتطلع إلى الاستقصاء بين ذلك النوع من الناس الذين يرغبون في «دفع

الأشياء إلى الدوران» (مثل: صناع الساعات وبناة الطواحين وصناع آلالات)- استخدمت قوة البخار، أول ما استخدمت، لتسيير طلمبة على يد الحداد نيوكومن في ١٧٠٥. وكانت ثقيلة تحتاج إلى صبي يفرج عن البخار بعد كل دفعة. ولكنها اشتغلت ودخل عليها التحسين وزادت المناجم عمقًا هونًا ما. وفي سنة ١٧٨٤ أضاف إليها جيمس وات -وهو صانع آلات علمي- مكثفًا مستقلًّا يفرج عن البخار الزائد بعد أن يؤدي وظيفته في دفع القضيب أو المدك (البستن). وأصبحت الطلمبة -على صورة ما- آلة بخارية، على نحو معرفتنا بها. وبحيلة ميكانيكية بسيطة أمكن، في يسر، تحويل حركة الصعود والنزول الأفقية إلى حركة دوارة. وبعبارة بسيطة: استطاعت آلة (وات) البخارية أن تدير عجلة. وحتى ذاك الوقت كان العجَل يديره الناس والكلاب والحمير والماء والريح.

واطردت الحاجة إلى مزيد من الفحم. فالمواقد الكبيرة التي كانت -في الأيام الغابرة- تغذيها كتل الخشب، وأساطيل السفن الخشبية، والأبهاء المبطنة بالخشب، والبيوت والأنبار (أي مخازن الحاصلات الزراعية)، والطواحين، وقطع الغابات لمقابلة مطالب الضيعات، كل أولئك استهلكت الأحراج في سرعة كبيرة. وشح نمو الغابات. وشح الوقود وبخاصة فحم الخشب. وإلى أن حل عام ١٧٦٠ لم يكن يشتغل من الأفران العاصفة إلا القليل. ثم طرح للبحث، السؤال: هل يستطاع إحلال الفحم المستخرج من المناجم محل الخشب في صهر الحديد الخام؟

ولقد كان كبار مستخرجي الحديد الأولون -في البقاع الشاجرة، مثل فلوات سسكس وغابة (دين) الملكية- يشتغلون عن كثب من منابع فحم الخشب الذي يملكونها. ومن أفرانهم -التي كانت تظل تتقد بحرارة عظيمة أيامًا متصلة بفعل منفاخ هادر بدائي- درجوا على أن يصبوا الحديد المصهور في قوالب كبيرة ترسل إلى المصهر (المسبك). وهناك يقوم ذوو السواعد القوية بصهرها وطرقها: أحذيةً أو إطارات أو قضبان أو صنارات أو فؤوس. وحول سنة ١٧٠٨ استكشف إبراهام

داربي -وهو صاحب مصنع حديد ينتمي (لطائفة الأصحاب المهتزين) استكشف أنه بإنضاجه الفحم أو بتقويمه، يتسنى له استخدامه في أفرانه العاصفة بدلًا من فحم الخشب. وقد حدث ذاك الاستكشاف إبان الحاجة إليه. وبدأ صاحب مصنع الحديد ينتقل إلى حقول الفحم بجنوب ويلز والبقاع الوسطى والشمالية، وقد ترك خلفه -في الغابات الأزلية- أكوامًا من الفضلات كالتي نراها اليوم في ويلد ودين (أي في المرج والوادي الضيق). وأخذت سلالات صانعي الحديد -الذين بدأوا العصر الحديدي- أخذوا في بيئتهم الجديدة، بين اللهب والبخار، يكدحون في خلق مدنيتنا الميكانيكية والحديدية الضخمة. وكان صناع الحديد هم يد المهندسين اليمنى. وأضافت سلسلة من الاختراعات والتحسينات معرفة إلى معرفة وحذقًا إلى حذق. وفي ١٧٦٧، في كولبروكديل، صبوا أول قضبان حديدية للسكك الحديدية التابعة لمنجم الفحم الحجري وأقيم جسر (كوبري) مصنوع من الحديد عبر منبع (نهر) السفرن. وخطط رجل فرنًا فيه «ينعكس» اللهب أو يرتد إلى أسفل على كتلة المعدن الخام والفحم الكوك بينما تثار الأوساخ وتستخرج منها. وكذلك عرف كيف يحصر قطع الحديد المتوهجة التي لانت وذلك بتمريرها في أخاديد أسطوانية متدحرجة، ليصنع قضبانًا لسكك الحديد وأسياخًا. وحمّى رجل آخر الحديد بفحم الخشب في بوتقات صغيرة ليصنع حديدًا مضاعف الصلابة بنسبة كبيرة -وهو الفولاذ أو الصلب- حديدًا يصلح للزمبركات وأدوات الطعام ويستخدمه حدادو النصال والشفرات في شفيلد. ولقد كان أصحاب مصانع الحديد الأولون ذوي عقول خصبة. فالدكتور جون روبك (من كارون بإسكتلندا) لم يقتصر على صب المدافع البحرية الشهيرة (المدافع الكارونية) بل توصل كذلك إلى صنع مقادير عظيمة من حامض الكبريتيك.

هكذا بدأت الصناعة الثقيلة. لاحظ كيف أن الفحم والحديد تأثر كل منهما بالآخر، وتفاعل كل منهما مع الآخر: فالفرن في حاجة إلى فحم، والمناجم في

حاجة إلى حديد لقضبان سكك الحديد والطلمبات والمحركات. وفيما بين ١٧٥٠ و ١٨٣٠ ارتفع مقدار الفحم المستخرج من المناجم من ٥ إلى ٢٥ مليون طن وارتفع إنتاج الحديد من بضعة آلاف إلى مليون طن.

وهذا التطور، في الحياة اليومية والعمل، حدث في البقاع الوسطى والشمالية. وكذلك حدث التغير الكبير في مهنتي الغزل والنسيج القديمتين.

وفي مدى قرون، في بيوت المزارع وفي الأكواخ في كل مكان، كانت النساء غير المتزوجات يسحبن الخيوط ويغزلنها كي تطعمن الأنوال المهمهمة ولتصنعن قائمة النسيج الصوفي التي لا تدخل تحت حصر: الصوف المغزول للحياكة (الشِّلل)، القماش القطني ذي الوبر، القماش الصوفي الخشن، الجوخ (وهو نسيج من صوف ناعم) وما إليها. لقد كانت صناعة يقوم بها أفراد الأسرة وإن حدث أن أغنياء التجار كانوا يقدمون الخامات ويجمعون الأقمشة المصنوعة فيها. وكانت ثروة الجزيرة قوامها الصوف. وبالمال العائد من بيع الأقمشة الجيدة، بني الورعون من التجار الكنائس الجميلة في أنجليا الشرقية وفي جلوستر شير. وبالضرائب على الصوف أنفق الملوك على حروبهم. وكان تجار الصوف أرستقراط التجارة. وفي ١٧٠٠ كانت قيمة الصوف المصدر تعادل ربع مجموع ثمن الصادرات جميعًا، وكانت أهم مراكز النسيج المقاطعتان الشرقيتان: جلوسترشير ويوركشير. أما الآلات التي بدلت صناعة النسيج فقد استخدمت -أول ما استخدمت- في تجارة القطن الأكثر استحداثًا، تلك التي جرت، بصفة خاصة، في لانكشاير والتي كان القطن يستجلب لها من الشرق. ولم تكن الصناعة الجديدة قد استقرت استقرار صناعة الصوف، فكان من السهل إدخال تغييرات عليها.

وكان النسَّاج الواحد يستهلك إنتاج غزَّالين كثيرين. وعندما خطط جون كاي (مكوكًا) طائرًا يزيد كثيرًا في سرعة المغازل كاد يتحتم على الغزَّالين أن يتخلفوا محزونين لو لم تسعفهم سلسلة كاملة من الاختراعات. وفي السنوات القليلة التي

تلت ١٧٧٠ و ١٧٨٠ اخترع جيمس هارجريف -وهو تاجر من بلاكبورن- دولابًا للغزل يدير طائفة كبيرة من المغازل في وقت معًا. واخترع ريتشاد آركرايت -وهو حلاق من برستون- هيكلًا تسحب فيه الخيوط بين البكر قبل أن تجدل، وكان هذا من دواعي تقويتها. وحول صمويل كرومبتون -وهو غزَّال من بولتون- أداة غزله الشهيرة إلى آلة غزل جمعت مزايا سائر الآلات. وهذه الآلات -التي تدور بالماء أو بقوة البخار- تضاعفت في سرعة مذهلة. وجاء الآن دور النساجين في أن يسايروا، في سرعتهم الغزَّالين، وهذا ما استطاعوا تنفيذه بفضل مغزل آلي اخترعه قسيس اسمه أدوارد كارترايت. وفي مانشستر وما حولها زاد عدد مصانع القطن من اثنين -في سنة ١٧٨٠- إلى ما يزيد على ٥٠ في سنة ١٨٠٠.

وهكذا خرج الغزل والنسيج من الكوخ وانتقل إلى المصانع، وكذلك انتقل إليها الرجال والنساء، وبدلًا من أن يشتغلوا كل الوقت في بيوتهم اشتغلوا كل الوقت في أحد المصانع. وإلى هنا كان النسيج عملًا اختص به الرجال، ولكن تبين الآن أن قدرًا كبيرًا من العمل البسيط الذي يساعد في المحافظة على الآلة يمكن إسناده إلى النساء والأطفال. وكانت تجارة القطن -التي تجمعت بوجه أخص في وست رايدنج بـيوركشير، حيث تكثر جداول الماء التي تدير العجلات- كانت تجارة القطن هذه أبطأ في استخدام الآلة. ولكن في ١٨٣٠ استعملت الآلة في صناعة الصوف، وفي مدى لا يزيد على حياة فرد تحولت الكثيرات من المدن ذوات الاستقلال الإداري إلى مدن للصناعات الصوفية والقطنية تعتمد على المصانع اعتمادًا تامًّا. على أن هذا التحول لم يمر بسلام، ذلك أن الاختراعات سلبت صناع الأكواخ رزقهم فحدثت مشاغبات فيها حطم النسَّاجون الساخطون الآلات. ولم يكن القتل غير معروف. فقد قُتل المشاغبون وعلقوا بأمر الحاكم. وفي الحق أن انتهاء عصر الناسج باليد كان حدثًا محزنًا. وفي الحق أيضًا أن الاختراعات الجديدة في صناعة الفحم والحديد كثيرًا ما دفعت في طريق النجاح مع التغاضي المطلق عن سعادة الناس وصحة العمال.

وكانت آلات جيمس وات البخارية يصنعها ماتيو (متى) بولتون في مصانعه بسوهو القريبة من برمنجهام. وما هو إلا القليل حتى أخذت آلات (بولتون ووات) تدير العجلات في مصانع البيرة والمطاحن ومسابك الحديد كما تدير مصانع النسيج - وفي واقع الأمر- في كل مكان تستخدم فيه الحركة الدوارة واستخدمت آلة واحدة لتسيير سفينة صغيرة على نهر هدسون في ١٨٠٧. واستخدمت جريدة التايمز آلة بخارية لتدير أسطوانات الطابعة، وذلك في ١٨١٤. وفي ١٨٣٠ كان هناك نحو ٣٠٠ آلة تشتغل في جلاسجو وما حولها.

وكانت هذه الآلات (تتطلب دقة متناهية في أجزائها العاملة. واعتمد صانعو المحركات الحديدية تلك الذين اطرد اعتمادهم على الآلات الميكانيكية اعتمدوا لا على اليد ولكن على الآلات.

وتعتمد الهندسة الحديثة جميعًا على تجارة الأدوات الميكانيكية التي بدأت في لندن مع يوسف براماه (١٧٤٨ -١٨٤٤). اخترع هنري مودسلي -تلميذ براماه-، في سنة ١٨٠٠، آلة لولبية لخرط الأخشاب والمعادن تستطيع أن تقطع ما عرضُه واحد على الألف من البوصة (البوصة = ٢,٥ سنتيمتر) اخترع آخر فأرة معدنية للنجارة ومطرقة بخارية. وفي سنة ١٨٣٤ خطط يوسف وايتورث لأحجام قياسية للمسامير اللولبية (ألاووظ) وللأجزاء الصغيرة التي تستعمل في الآلات. وهؤلاء الميكانيكيون الحاذقون كانوا جميعًا صناعًا على قدر طيب من البراعة. وقد وسعهم أن يخططوا وينصبوا أي آلة للصنع والقطع. تصور مدينة هندسية حديثة يصنع فيها باليد كل «ألاووظ» وكل «صمولة» وكل «محبس».

ولقد قام المهندسون المدنيون والميكانيكيون بتجهيز اختراع عظيم ، ألا هو سكة الحديد البخارية. وقد اشتدت الحاجة إليه ليساير تدفق البضائع المتزايد.

ولقد كان اختراعًا مزدوجًا: سكة الحديد ثم القاطرة البخارية.

والسكك التي عليها تسنى للحصان أن يجر أحمالًا زنتها ١٢ طنًّا بدأ استعمالها

في سنة ١٧٠٠. وتلك كانت قضبانًا خشبية مربوطة بعارضات وبينها دكات من الزلط تثبتها جميعًا. ولمقاومة الاستهلاك الناجم عن الاستعمال غطت طبقات من اللوحات، القضبانَ الخشبية بصفائح حديدية. ثم ظهرت قضبان الحديد المسبوك (الزهر) مشففة عند أطرافها الخارجية. ثم انتقل التشفيف (إضافة شفة) إلى عجلات مركبات النقل الكبيرة. وقد اقترح البعض تغطية الأرض بشبكة من تلك السكك الحديدية العامة تتركز في لندن وتنطلق منها. وفي ١٨٢٤ كان هناك أكثر من ١٠٠ ميل من تلك السكك في جنوب ويلز في خدمة حقول الفحم. وفي بعض الأحيان كان قطار بخاري يجر عربات نقل من أولها إلى آخرها بوساطة سلك يطوق بكرة ضخمة.

وإذا كانت قوة البخار تستطيع أن تدير عجلة فربما يمكنها أن تدير عجلات مركبة النقل نفسها. ذلك إذا أمكن صنع آلة كافية الدقة وإذا لم ينزلق العجل.

ولقد استغرقت القاطرة البخارية ستين سنة في تطورها منذ عام ١٧٦٩. في ذلك العام كانت مركبة نقولا كونيو البخارية تسير بسرعة ميلين في الساعة في شوارع باريس. ثم جاء اليوم الذي فيه جذب جورج ستيفنسون روكت مركبة قطار للركاب على سكة حديدية في رينزهيل بسرعة ٣٠ ميلًا في الساعة. وكان ذلك في ١٨٢٩. وصنع مخترعون كثيرون قاطرات بخارية ومركبات سكك حديدية ونجحوا نجاحًا لا بأس به. وكان خيرها ما صنعه ستيفنسون. وعندما افتتح خط سكة حديدية جديد في ١٨٣١، بين ستوكتون إلى دارلنجتون استخدمت قاطرته، وأصبح مهندس أولى السكك الحديدية التي مدت للقاطرات البخارية من مانشستر إلى ليفربول. وعلى هذا الخط سارت قاطرته بسرعة ٣٦ ميلًا في الساعة، وحملت ٢٥٠ ألف نسمة في الشهور الستة الأولى. لقد جاءت سكة الحديد البخارية في وقت كان الناس فيه بحاجة إليها. ذلك أن القنوات المائية لم تستطيع أن تساير أكداس البضائع التي تحتم حملها.

و ٣٦ ميلًا في الساعة سرعة تفوق أي سرعة سبق للناس السفر بها. لقد كانت سرعة مذهلة، مخيفة جدًّا لبعض الناس ولقد شكا رجل من أنها سوف تتلف كل

هدوء وجمال، ومن أن «عجيج الثيران وثغاء الغنم وقباع الخنازير (أي نحرها) حيث تمر القطارات سوف يديم هديرًا واحدًا يستمر طوال الليل» ومن أن الخلاء كله سيتلوث بالدخان. أما السيد المحترم سيدني سميث فقد كتب، في سنة ١٨٤٢، يقول: «الرحلة بالسكك الحديدية تطور بهيج في حياة الناس. لقد أصبح الإنسان طائرًا، وإنه ليستطيع أن يطير أطول وأسرع من إوز الأبحر الشمالية، وقد تكلف بناء السكك الحديدية البريطانية -نظرًا لسابق التحامل عليها- مبالغ خرافية: وفي بعض الأحيان كانت آلافًا مؤلفة من الجنيهات تدفع لبعض المشرعين لا لشيء إلا ليجهزوا مشروع قانون للترخيص بمد خط، كما أن بعض ملاك الأرض تقاضوا مبالغ ضخمة لقاء الرقع المستطيلة من الأرض المطلوبة، وعلى رغم هذا فقد وضحت فوائد النقل بسكك الحديد إلى حد جعل الناس يكتتبون بأموال طائلة لمد خطوط في كل مكان، وطبق الاختراع تطبيقًا سريعًا في كل البلاد المتمدنة.

أما تلك المئات من آلاف الغنم والثيران والإوز التي درجت على أن تزحف إلى لندن في أناة فهي تشحن الآن، في سرعة، في مركبات النقل. واختفت حركة مركبات الطريق العامة وأخليت النزل والاصطبلات. وفي ١٨٢٤ اختفى الـ ٢٥ حصانًا التي كان مقرها هونسلو وهي أول محطة للمركبات التي كانت تخرج مركباتها من لندن، وضاعت على (خان) واحد في نورفولك تكاليف وأرباح إيواء ٩٠٠٠ دابة في طريقها إلى العاصمة. وذاب سواس الخيل وخدم الإسطبلات والماشية والخوزية في البحث عن أعمال أخرى وكان لا يزال هنا وهناك مركبة بريد تحيي القرى الجانبية مثل مركبة بريد «كويسكلفر» التي بقيت تسير من فالمث إلى بليمَث حتى سنة ١٨٥٩ ولكن هدوءًا شاملًا حل على أغلب طرق المكوس، وخربت الاستراحات وهدأت بلاد الأسواق الصغيرة التي لا تمر بها القطارات حتى أصبحت كالغدران النائمة. وإلى أن حلت سنة ١٨٥٠ كان عهد الطرق والقنوات قد انقضى.

الاختراعات: الأرباح والخسائر:

عندما مات عم الأميرة فكتوريا -وليم الرابع- في وندسور عام ١٨٣٧، ركب فارسان -أحدهما رئيس أساقفة كانتربيري- ركبا فجرًا، إلى قصر كنزنجتون ليؤديا لها التحية بوصفها ملكة. وكانت تلك أسرع مواصلاتهم. وقد عاشت فكتوريا -التي أضفى حكمها الطويل (من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١) اسمها على عصر- عاشت فكتوريا فعلًا أجيالًا متعاقبة، هذا إذا جعلنا أساس الحساب الحشد الكبير من الاختراعات الحديثة التي بدلت الحياة اليومية. عندما ماتت فكتوريا كانت السكك الحديدية قد أصبحت فعلًا جزءًا من منظر الجزيرة الخلوي وكان أكثر من ألفين من السيارات الجديدة يثير سحائب من التراب على الطرق الكبيرة العامة. وعند توليها كانت سفائنها الحربية لا تزال هي «الحوائط الخشبية لإنجلترا القديمة». وقبل أن تموت كانت أساطيل من السفن التجارية العملاقة قد نقلت جيشًا قوامه نصف مليون من الرجال إلى جنوب أفريقيا. وثمة إيضاح للتغيرات أكثر لفتًا للأنظار يمكن أن يقدمه شاهد قبر من وست أف إنجلند (أي غرب إنجلترا) يسجل ميلاد أب في ١٧٧٥ ووفاة ابنته في ١٩٠٧. وقد طوت حياتاهما الأعوام التي خلالها تحولت حياة منطقتهما القروية والمنزلية إلى حياة مدينة ومصنع تعتمد على الحديد والفحم وقوة البخار. وتدانت ثمرات المعرفة مسرعة موفورة بين الناس حتى أنه عند التدافع بالمناكب للاستمتاع بها أهمل -في أغلب الأحيان- مراعاة السلوك العادل. ونحن ما زلنا نستوثق من أنها للإنسانية: أرباح لا خسائر.

وكان من بين الأرباح البينة: انهزام الظلام والإقلال من المرض. وقد درجت الدنيا على أن تضيء بالشمع أو تعني بتشذيب أشرطة مصابيحها الزيتية حتى القرن التاسع عشر. والمنارة الخشبية الأولى القائمة على إديستون، حتى هذه كانت تضاء بالشمع. ووسائل الإضاءة في الظلام مصدرها الفحم. وفي ١٨١٦ استخدمت مصابيح الغاز في شوارع لندن. وبعد ذلك عم استعمال الغاز بتسخير قوة غازية. وهذا في حد

ذاته مأثرة عظيمة. ونمت صناعة الغاز عظيمة غنية، شواهدها عدادات الغاز التي تزين الآن مدننا والتي كانت مصابيحها في الغسق فرحة أطفال العصر الفكتوري. وفي ١٨٨٠ وجد الغاز منافس في الإنارة وذلك بالمصابيح الكهربائية التي بدأت بداية بطيئة ثم لقيت إقبالًا كبيرًا إلى حد أنها، منذ ١٩٠٠، حلّت نهائيًّا محل الغاز. ومشعل المصابيح اليوم هو الرجل الواقف عند لوح مفاتيح التحويل (التابلوه) في محطة القوى الكهربائية. وسواء أكان يعنينا أن نستيقظ مع القنبرة أو لا يعنينا، فإننا لم نعد مضطرين إلى أن نرقد مع الحمل. وإطالة نهارنا بالضوء الصناعي زاد إنتاج عملنا وزاد وقت فراغنا زيادة عظيمة.

وتأنت محاربة المرض بتحسين وسائل الصحة، وبمصارف الماء، وبزيادة توفير صابون المصانع، وبزيادة توفير الملابس القطنية الرخيصة. وقد تجمعت المعرفة الطبية على يد أطباء المستشفيات، كما كسبت المستشفيات كسبًا عظيمًا مما صنعته فلورنس نايتنجيل ونساء غيورات أخريات أصررن على توفير مستوى تمريض أعلى وأرفع حذقًا. أما تجميع الأدوية والعقاقير وتحديد مقاديرها فقد حددها الصيادلة، وتقدمت المعرفة في استعمال العقاقير، كالكينين مثلًا. وعرف الأطباء كيف يستخدمون المخدرات، كالأثير والكلوروفورم في العمليات، ونشروا مسجلاتهم ليستفيد منها الغير. وانتهت الأيام التي فيها كان الجرحى يسقون (الروم) ويشدون بسيور من الجلد أو المعدن بينما «ناشروا العظام» (يقصد الأطباء الجراحين) يقطعون ويخيطون في أحد الأطراف المشوهة. وفي ١٨٦٥ علم لويس باستير الأطباء كيف يستكشفون ويحاربون الجراثيم التي تسبب المرض. وفي ١٨٦٦ علمهم يوسف لستر كيف يمنعون تعفن (الغرغرينا) في القطوع والجروح. وفي ١٨٩٥ استكشف رونتجن استعمال الأشعة النافذة (X) في تصوير العظام وأعضاء الجسم الداخلية. وهكذا حدث في القرن، من أوله إلى آخره، تحسين مطرد في الصحة. وتقاضت حمى التيفود والدفتريا والتدرن الرئوي، تقاضت ضريبتها من أعمار الناس. وتفشت

الكوليرا المرة بعد المرة، أما الجدري فقد تطامن إلى زوال، وأصبح الطاعون نسيًا منسيًّا. والجدري، من قديم، دائم الظهور. وكثيرًا ما أخذ يتفشى الوباء -الذي خرب مدنية الغرب في القرن السادس ثم في القرن الرابع عشر- كثيرًا ما أخذ يتفشى مددًا قصيرة حتى القرن الثامن عشر.

وكانت نتيجة هذا الكسب في الصحة والحذق الطبي زيادة في عدد السكان: نقصها في وفيات الأطفال وزيادة في عمر الراشدين. إلا أن الخسارة في المهاجرين الذين يبحرون إلى الدنيا الجديدة فلا بد من أنها زادت. وارتفع عدد سكان بريطانيا العظمى من ٨ ملايين في ١٧٨١، إلى ١٦ مليونًا في ١٨٣١، إلى ٣٧ مليونًا في ١٩٠١، ثم إلى ٤٥ مليونًا في ١٩٣١،.. أفواه بالغة الكثرة يتحتم إطعامها من مزارع الجزيرة، كانت الفلاحة تعطي ربحًا وفيرًا ثم زادت منتجاتها، وظلت الحبوب والمحصولات الجذرية والبهائم والأغنام من أحسن الأنواع في العالم وأفخرها غير أن تكاثر عدد السكان أخذ يعتمد على السفن التي تجلب الحبوب واللحوم من الخارج، عوضًا عن فحمها وحديدها وبضائعها وأصوافها وأقطانها وخزفها وآلاتها. واعتمدت بريطانيا العظمى في عيشها على الصادرات. وكانت (البنوك) ومكاتب شركات التأمين -التي أمدت مصانعها ومتاجرها بالمال- تقرض المال أيضًا في بلاد أجنبية، وتتقاضى عليه أرباحًا طائلة: كانت لندن محور تمويل العالم، واشتهر جنيه بريطانيا الذهبي اشتهار بيزنطا بيزنطة الذهبي أو بندقي (عيار الذهب) البندقية الذهبي في القرون الوسطى.

ولكن مبتدأ عصر الآلة جلب البؤس الفظيع إلى الآلاف من سيئي الحظ. فالناس القاطنون بعشش قروية قليلة عمتهم نعمة الهواء الطليق اليوم كله. والقاطنون بمجموعات من صفوف العشش في بلدة صناعية جديدة قضوا معظم أيامهم في مصانع يكتنفها البخار والضوضاء والقذارة. أما كيف نمت البلدان فيمكن تبينه من مسجل مدلزتبرا وبيركندهد، ولم يكن أي منهما على قيد الحياة في ١٨١٥. وقد تاق

أحدهما إلى استعارة عبارة -الدكتور جونسون الواضحة فقال: «تصعدت كما قد يتصعد الزفير من الأرض. تصور إغريقيًّا (يخطط لمشروع مدينة جديدة بمقاييسه المصنوعة من الحبال) يخطط لشيء كهذا. وإن أحدًا بطبيعة الحال- لم يخطط لها بأكثر مما يدبر رجال اليوم قتل الآلاف على الطرق. إنها حدثت فجاءة. والمؤجرون -في تكالبهم على جمع المال والسلطان- غالبًا ما ينسون واجبهم نحو رفاقهم من الرجال والنساء. كلا. ولم يكن هناك تخطيط سابق لبلدان القرن التاسع عشر القبيحة الصورة التي كبرت من دون جلال أو جمال. ولقد كانت الأرباح التي جناها الناس من تلك البلاد، تنفق في لندن أو في مدائن المتعة، في إنجلترا أو في أوروبا. وإن «أيدي» العمال لم تعرف أي شيء عن التمتع بالعيش في مدينة جميلة. فلقد كانت هندسة البناء في نظرهم فنًّا ضائعًا والاعتزاز بالتمدن فضيلة مجهولة. وهكذا عاش الآلاف عيشًا موحشًا على الكفاف ساعات طويلة من الاسترقاق، يكدحون لمصلحة صاحب مصنع حديد أو غزل أو منجم أو صانع كيماويات، وفي مدى قرون عديدة كدح الزراع والصناع ساعات طويلة في أعمال تتلف الصحة ولا تستلزم مهارة. وكانت حياة المصانع رتيبة، مضنية، وبيلة، لا تتطلب حذقًا أعلى من المعتاد، وذلك كلما أمكن استخدام أطفال أو نساء بسبب رخص أجورهم وكان بعض أصحاب المصانع «يشترون» الأطفال الصناع ويضربونهم ليحثوهم على العمل. وفي بعض المناجم درج النساء والأطفال -وهم أنصاف عرايا- على أن يجرّوا منكبين على أيديهم وأرجلهم، مركبات نقل الفحم على طول رواقات تحت الأرض كما قد تفعل دواب حمل الأثقال. وكان كثيرون من أصحاب المصانع رجالًا جهلة، وكثيرون رجالًا قساة، وكثيرون أوغادًا لا شك في سفالتهم. كما أن طائفة منهم كانت من المسيحيين المهذبين الطيبين الذين سارعوا إلى مشاركة غيرهم من المواطنين في الإهابة بالحكومة أن توقف مثل هذا الاستعمال السيئ لبني آدم.

ولقد وجد، منذ زمن طويل، رأي يقول بأن الناس ينبغي لهم أن يصنعوا ما يريدون

ما امتنعوا عن ارتكاب جريمة: كالسطو على طيور السيد أو على صيده، أو السرقة، أو التزييف. أو التزوير، أو الإتلاف، أو القتل، أو الافتراء. ومما قيل إن أحدًا لا يود إطلاقًا أن يلحق الضرر بنفسه. ولن ينسى أحد أبدًا أنه وجدت وراءه آلة سريعة التدويم، غير مسوّرة من خلفه. فلماذا يفصلها بحاجز؟ ومن الطبيعي أن كل امرئ يود اجتناب الخطر والفقر والجوع وأن كل امرئ حر في ترك عمله. ولم يكن هذا الرأي نافعًا -في القرن التاسع عشر- عندما كان الكثيرون من أصحاب المشروعات العظيمة يصعدون إلى الثروة والسلطان على حياة رفاقهم. وعيب هذا أن الرجال كلهم لم يبدأوا متساوين، وأن الكثيرين منهم أكرهوا على أن يشتغلوا في عمل مهين، لقاء شلنات قليلة في الأسبوع، لكي يحافظوا على حياتهم وحياة أسرهم. وقد فقد هذا الرأي أهميته تدريجًا بمثابرة الناس الطيبين على مطالبة البرلمان بسن لوائح تنظم حياة المصنع. وعملت البحوث، واستجوب العمال وأصحاب الأعمال، ونظمت المصانع: فنقصت ساعات العمل ونفذت احتياطات التأمين. وفي ١٩٠١ جمعت لائحة للمصانع شاملة لجميع اللوائح السابقة.

وعمل البرلمان كثيرًا ليلاحق ويساير التغييرات الدائمة في الحياة والعمل الاجتماعيين. وقد يتضح نشاطه من كشف عن بعض الأشياء التي عنيت بها لوائحهم الكبيرة: الطرق الكبيرة العامة، القنوات، سكك الحديد، التجار، السفن، البريد، الشرطة، الزراعة، جباية الأموال، (البنوك)، الشركات التجارية، التأمين، اتحادات العمال، الحكومة المحلية، المدارس، السجون، الصحة العامة، قوانين الفقراء، بناء البيوت... وللوثوق من تنفيذ تلك اللوائح تحتم تعيين المزيد من الموظفين المدنيين والمزيد ثم المزيد من المفتشين. وفي ١٨٧٠ أُخْلت الطريقة القديمة -في تعيين الموظفين المدنيين بالمحسوبية- مكانها للمسابقات في الامتحانات التحريرية العامة، على طريقة الصينيين. فإذا أضفنا إلى أولئك الموظفين المدنيين كل من يتقاضون أجورًا من المجالس المحلية، من الكناسين إلى موظفي البلدية،

خرجنا بأن الدولة هي إحدى كبار مؤجري العمل. ويهمنا أن لا ننسى أن العمال قاموا بدورهم الخاص في عتق أنفسهم من الاسترقاق والخطر والظلم. وفي مستهل القرن بدأ العمال يؤلفون جماعات لتحسين أحوال عملهم، وفي الوقت ذاته، لمساعدة بعضهم بعضًا، عند الضيق والمرض. وكان هذا بدء اتحادات العمال. وعارضتهم الحكومة أول الأمر، ولكن في ١٨٢٤ صدرت لائحة رخصت للناس تكوين اتحادات كهذي، نظمتها فيما بعد لوائح أخرى. ولقد كان فلاحو القرى، في الأيام السابقة على هذا، مصونين، إلى حد ما، من سادات الضيعات الأوغاد، بمقتضي العرف السائد فيها. أما المصانع الجديدة فلم يكن فيها عرف يحمي العمال الذين لا يملكون أرضًا. كان كل واحد يقصر سعيه على نفسه وكان الكليل منهم يقع في المحظور. ولهذا تحتم وجود اتحادات العمال. وهي تعد اليوم بين منظماتنا الصناعية الهامة. وعلى هذا فإن بعض الربح تولد عن كل ما جلبته الثورة الصناعية من بأساء. وليت الناس بعد ذلك يدركون وجه الصواب في مبادئ مشرعي الكنيسة القديمة، في القرون الوسطى: يجب أن لا يسمح لامرئ، بأن يستفيد من بلية غيره.

وفي الوقت ذاته سعي العمال أنفسهم، كذلك، إلى تحسين عيشتهم بوسائل أخرى. وفي ١٨٢٧، أسست جماعة -عرفت باسم: رواد روتشديل- أول «جمعية تعاونية». وتبعتها أخريات. وفي ١٨٦٤ تألفت الجمعية التعاونية العامة. وإلى هذا شكلت عشرات من الجمعيات الودية على يد العمال والموظفين والكنائس والمنتصرين للخير، شكلت بغرض تشجيع الاقتصاد والتأمين ضد العوز. وفي هذا أيضًا قامت شركات التأمين بدورها.

وهكذا -في وسط دنيا كدرتها وقبحتها الأقذار، دنيا ما فتئت تبرّح بها شهوة جمع الذهب اللعينة- هكذا بدأ الناس ينتعشون قليلًا، ويشاركون هونًا ما، في فوائد المعرفة والقوة الجديدتين. وكان كثيرون من الناس يتربصون بالظلم والعسف متأهبين لأن يستحثوا أي حكومة متوانية في العمل، واعتقد البعض أن تأمين رخاء الناس لا يتأتي

إلا بسيطرة الحكومة على كل الصناعات الكبرى، ودافعوا عن الاشتراكية. وقد ردت بعض صناعاتنا -الآن- إلى المبادئ الاشتراكية. وهب آخرون -كالدكتور برناردو- إلى العمل من تلقاء أنفسهم. ووجدوا، إذ صنعوا ذلك، ألف يد تمتد لعونهم: وبيوت برناردو للأطفال ليست إلا واحدًا من مئات المشروعات الخيرية التي فتحت المستشفيات والتكايا وملاجئ اليتامى للمشردين والمنبوذين. وثمة واحد من الأمور المرجوة التي حدثت في السنوات المائة والخمسين الأخيرة هو الإقبال المتزايد على التطوع لمساعدة الكسيح واليتيم والأيم (أي المرأة التي فقدت زوجها) وفي هذا قامت كنائس كثيرة بأعمال الخط الأول. وبعد عادات القرن الثامن عشر المستهينة هبت روح جديدة لأداء الواجب وتقديم الخدمات.

وثمة واحد من الاختراعات ارتكز عليه سائرها هو اختراع جوتنبرج الألماني القديم. فلقد جمعت الطباعة المعرفة وأذاعت المعلومات، واطرد تزايد قارئي الكتب... ومن الناس من كان يظن أن من الحماقة تعليم الفقراء القراءة خشية أن تمدهم بأفكار فوق مرتبتهم. ولكن في الحق أن تركهم جاهلين معناه وضعهم تحت تأثير أهل السوء. ومع ذلك فقد حدث أن جماعات كبيرة من الفقراء تعلمت القراءة بغير معلم.

وفي بداية القرن كان هناك، على وجه التقريب، نوعان من التدريب: التدريب الذي يقدم في المدارس الثانوية وما إليها، والتدريب الذي يقدم لتلاميذ المهن. وقد استهدفت المدارس تدريب الصبيان على أن يكونوا محامين أو كهنة أو أطباء أو تجارًا أو كتَبة. أما التدريب المهني فكان يستهدف تخريج صناع مهرة. ولم يساعد أي النوعين العمال الزراعيين أو العمال الذين لا أرض لهم ويعيشون في المدن الصناعية.

وتسنى للسياسيين -رويدًا رويدًا -ومع المعارضات والمصاعب- أن يهيئوا للأطفال القراءة البسيطة والكتابة والحساب. وفي ١٨٣٣ لم يحظ بأي نوع من أنواع

التعليم على الإطلاق غير نصف الأطفال. وفي ١٨٧٠ أُذنَ لكل ناحية من نواحي البلاد أن تجبر التلاميذ -إلى سن الثالثة عشرة (أي سن الإلزام)- على أن يواظبوا على الحضور إلى المدرسة. ومنذ ذلك الوقت رفع سن ترك المدرسة -على مراحل سهلة- إلى الخامسة عشرة. وفي ١٨٧٦ أجبر الأطفال جميعًا -حتى سن العاشرة- على المواظبة على الحضور إلى المدرسة. وكانت المصاعب كبيرة: نفقات المباني، ضرورة تدريب المدرسين، حرمان الوالدين من النقود القليلة التي كان يكسبها صغارهم من عملهم.. وقد قامت بعض الجمعيات بالكثير من العمل النافع.

ولقد بدأت المدارس الثانوية الأولى في القرون الوسطى على أبوب الكنيسة، وأنشأ الكهنة الجامعة. وفي القرن السابع عشر عندما حُرِّم على المنشقين على المعتقد دخول المدارس الثانوية والجامعات أسسوا لأنفسهم دورًا علمية عظيمة.

وفي خلال القرن التاسع عشر، فتحت أبواب الجامعات الإنجليزية على مصاريعها لليهود والكاثوليك والمنشقين على المعتقد. وأسست جامعات أخرى. وكان للندن دائمًا مدرستاها الشهيرتان -الحقوق والطب- ولكن جامعة قشيبة (جديدة) أنشئت هناك في ١٨٢٨. وتلتها درهام في ١٨٣٢، ومانشستر في ١٨٨٠، وتسلمت سائر الجامعات مراسيم إنشائها في خلال القرن.

أما طبع الكتب ونشر التعليم بين الجميع فأمران جديدان تمامًا في تاريخ الإنسانية. واليوم انتشر العلم بأنواعه انتشارًا عظيمًا إلى حدٍّ معه يستطيع المرء أن يرجح بأنه في حالة فقدان كل مؤلفات دانتي وشكسبير، مثلًا، فقد تعاد كتابتها من ذاكرة الناس. وقد يعاد بناء أهرام المعرفة العلمية نقلًا عن ذاكرات الناس. وإذا تذكرنا القدر الكبير من أدب الدنيا القديمة الذي افتقدناه إلى الأبد كان لنا أن نغتبط بحالنا اليوم. ونحن مطالبون كل المطالبة بأن نحتفظ بتراث الأجيال الغابرة، في مبانينا ولوحاتنا وتماثيلنا وأدبنا وموسيقانا. وليس في اليقين بعد: هل نشرُ التعليم يتمخض عن أعمال من مبتكرات الخيال في الدرجة الأولى؟ ذلك لأن الظروف

التي يظهر فيها النبوغ غير معروفة. فالموسيقى وحدها تحسب من الفنون التي تعدّ أحد مخلفات الستة القرون الماضية... المسجل منها على أقل تقدير. فالموسيقى التي وقعتها الصفارة -على حد تعبير السير توماس براون- يجب أن تظل غامضة. ولئن كنا قد فقدنا تلك المسجلات الموسيقية الباكرة -كما هو الواقع- فإنا نعلم علم اليقين أن تأثيرها كان بيِّنًا للإغريق الذين جاء في حكايتهم الشائقة أن مزهر (آلة للطرب كالعود) أورفيوس تسنى له أن يؤثر حتى أفلوطُن إله العالم السفلي والذي -في تأمله- تتحرك الكواكب جميعًا في تناسق. وإن حظنا لكبير بذخيرتنا الموسيقية التي لحنت في القرون الخمسة الماضية. ولولا المطبعة لما وصل حتى إلى القليلين المحظوظين، إلا القليل منها. والوسائل التي بين أيدينا اليوم والتي تمكننا من حفظ تراثنا الجمالي ومن إشراك الناس فيه ومن توفير المسرة ومن رفع شأن العقل، كل هذه الوسائل لا حد لها.

السياسة: عام ١٨٤٨ في أوروبا:

عندما أهدى جون كمبل كتابه التاريخي «السكسون في إنجلترا» للملكة فكتوريا لاحظ أنها حكمت بلادًا خالصة من الضجة التي ملأت أوروبا كلها في ذلك العام، عام ١٨٤٨.

والواقع أن الثورات والتمردات حدثت في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وبوهيميا. وقد انقضى قرابة ستين عامًا على إعلان الثورة الفرنسية حرية الإنسان وأكثر من ثلاثين على نقل نابليون في سفينة حربية بريطانية إلى منفاه الأخير: جزيرة القديسة هيلانة. ومع هذا ظلت شعوب أوروبا تكابد الظلم والعسف من حكام أنانيين، غرباء بعض الأحيان. وقد أعوزتهم جميعًا -حتى ذاك الوقت- الدساتير، وقوانين المساواة والعدل، والضرائب العادلة، وحرية الكلام والنشر. وبالمقارنة مع هذا تجد أن البرلمان البريطاني القديم المضمحل أصلح في ١٨٣٢، وانهمك في تفحص القوانين القديمة لتصحيحها وسن قوانين جديدة توائم النوع الجديد من

المجتمع الصناعي الذي خلقه استخدام الآلة.

وحكم الملك لويس فيليب فرنسا بمساعدة جماعات من الأرستقراط والأغنياء. وكان أقل من واحد في كل مائة لهم حق التصويت، كما كان ممكنًا منع الناس، بالأمر، من نشر آرائهم. وكان الأكثرون من الفرنسيين -إذ ذاك، كدأبهم الآن- فلاحين ولا يكلفون خاطرهم زيادة الاهتمام بالسياسة ما تركت لهم حرية الكسب من مزارعهم. غير أن المصانع الجديدة زحمت المدن، وباريس بصفة خاصة، بالآلات والعمال غير المهرة، وكانت أكثريتهم فقيرة متعطلة. وكان نوع جديد من مجتمع المدن -أو المجتمع المتحضر- في سبيله إلى التشكل... أناس حرموا ملاذ الريف أو سلوانه. وفي فبراير من سنة ١٨٤٨ اصطدام جمعٌ من غوغاء باريس بالشرطة. وكثر الشغب -على الطريقة الباريسية- وانضم للمشاغبين الحرس الوطني. وسارع لويس فيليب إلى الهرب، وأفلت في مركبة وأبحر، فيما بعد، إلى إنجلترا. وأعلن الباريسيون الجمهورية الفرنسية الثانية. ولكي تخلق الحكومة عملًا للمتعطلين أسست الحكومة الجديدة «مصانع قومية». وما هو إلا القليل حتى كان هناك مائة ألف رجل يتقاضون أجورًا لكي لا يقوموا بأي عمل في تلك المصانع. ولم يستطع أحد أن يجد لهم عملًا. وقد اقترح ماجن أن يصرفوا وقتهم في تعبئة مياه نهر السين في زجاجات.

وإلى ذاك الوقت كان ما كان أقرب إلى الهياج والبلبلة منه إلى المعارك الجدية. فلما حدث أن جمعية وطنية جديدة منتخبة (منتخبة في الأغلب من الفلاحين، كما حدد لها) أغلقت المصانع، عندئذ اشتعلت معارك ضارية في الشوارع، فقدَ فيها الآلاف أرواحهم. وكان هذا أسوأ مما حدث في بداية ثورة ١٧٨٩. وبعد هذه المأساة المروعة استقرت الجمهورية الثانية -بعض الوقت- مع لويس نابليون، ابن أخي الإمبراطور العظيم على أن يصبح رئيسًا لها.

ولم يضع لويس نابليون وقتًا طويلًا قبل أن يقلد عمه. فأنهى -في ١٨٥٢-

الخلافات الأبدية القائمة بين الأحزاب السياسية، وذلك بتنصيب نفسه إمبراطورًا باسم نابليون الثالث. وقد تقلب حظه كثيرًا بين الصعود والهبوط... غزا فرنسا من دوفر بأصحابٍ له ملأوا السفينة، وعانى السجن في معقل (هام) مدى ست سنوات. وأفلت من ذاك المكان إلى إنجلترا... كان جريئًا وأسعفه سحر اسمه. وفي الحق أنه كان يفيض أفكارًا ومشروعات نافعة لترقية بلاده. وكان ذكيًّا، ويهتم بالعلم، محبوبًا. وحكم سنين طويلة استقرت فيها الحكومة ونمت التجارة والصناعة وزادت ثروة فرنسا، إلا أنه لم يحل المشكلة الصعبة وهي إقامة حكومة شعبية ديمقراطية تتمتع بالحرية الحقيقية.

وقد حركت فتنة فبراير -التي قام بها الباريسيون- الألمانَ، فضجوا بطلب حكومات حرة، واضطر الحكام -في عشر دويلات- إلى منح دساتير، ومعنى الدساتير: الجمعيات البرلمانية، وحرية الكلام والدين والصحافة.

وكان أعجب العجب جميعًا الفتنة في فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية. وبسبب هذا التمرد سافر الأمير ميترنيخ على جناح السرعة، إلى إنجلترا (من الصعب تصوير ما كان عسى أن يفعله ملوك أوروبا وثوارها إذا لم تكن إنجلترا ملجأهم). وتبع هذا انتفاضات وطنية في الإمبراطورية النمساوية: من البوهيمين في براج، ومن الهنجاريين في بودابست، وبعد أن كثرت الحروب أطفأها القُواد النمساويون. وفي هنجاريا -حيث احتدم النزاع مُرًّا طويلًا- لم يخضع الثوار إلا بمساعدة جيش روسي كبير أرسله القيصر ليساعد «أخاه الإمبراطور» وعوقب الهنجاريون بقسوة على هذا التمرد. أما في النمسا وألمانيا فكانت نتائج تلك الثورات التي قامت في ١٨٤٨، قريبة من العدم. واستمر الملوك والأدواق يحكمون وفق هواهم. غير أنه حدثت محاولة عنيفة لتوحيد كل الدويلات الألمانية في برلمان مركزي، أي في نوع من «الولايات المتحدة» الألمانية غير واضح المعالم. وظلت فكرة الاتحاد الجرماني تراود أفئدة الرجال، ولكنها أخفقت بسبب المنافسة بين النمسا وبروسيا، وقد وافق ملك بروسيا

في ١٨٥٠، بعد أن حدثت في برلين حروب في الشوارع على دستور طيع يهيمن عليه موظفوه، وملاك الأرض في بلاده، وضباط جيشه -دستور له مجموعة قوانين وجمعية وطنية. ولم تكن هذه حكومة برلمانية لرجال أحرار كما في بريطانيا أو في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكنه أمد بروسيا بجهاز واضح منظم بقي طويلًا. وفي سنة ١٨٦٢ عين ملك بروسيا الكونت أوتوفون بسمارك مستشارًا له، ولم يكن بسمارك حي الضمير، ولكن عقله كان ثاقبًا ذا حيوية، ولم تشبه أي شائبة من الأنانية، لأنه كان يعيش بروسيا.

أما الإيطاليون فقد وضعوا نصب عيونهم واجبًا مزدوجًا، وهو أن يكسبوا حريتهم: من الحكم الأجنبي وأيضًا من الاستبداد. وكان من بين الكثيرين الذين صنعوا الأمة الإيطالية فكتور عمانوئيل، ملك سردينيا الشهم، والكونت كافور وزيره الحكيم الصبور، ويوسف ماتزيني الذي ألهم الثوار بأحاديثه الحماسية النبيلة، وغاريبالدي الجندي المحبوب.

أسس ماتزيني جمعية إيطالية الفتاة. وقد انضم إليها الآلاف من الوطنيين من كل الطبقات. وأقسموا على أن يجعلوا إيطاليا «أمة موحدة مستقلة ذات سيادة مكونة من أحرار أنداد متساوين». وكان ماتزيني نفسه يحبذ الجمهورية ولكن كان متأهبًا لأن يعاضد أي نوع من أنواع الحكومة يرتضيه الشعب. وتطلع آخرون إلى الباباوات لتوحيد البلاد، وبخاصة البابا بيوس التاسع (في ١٨٤٦) الذي بدأ في إصلاح دويلته البابوية التي اشتهرت بأنها تلقي أسوأ حكم في أوروبا.

وفي ١٨٤٨ قامت فتن في صقلية ونابولي حيث منح الملك دستورًا. وكذلك منح دستورين ملكُ سردينيا والبابا. وثار أهل لومبارديا والبندقية ضد ساداتهم النمساويين وتلقوا عونًا من السردينيين. غير أن أولئك جميعًا سحقهم ذوو المعاطف البيضاء من النمساويين بقيادة رادتسكي الجبار. وعقب هذا استقال شارل ألبرت ملك سردينيا وأسلم عرشه لابنه فكتور عمانوئيل. وكابد البندقيون -يقودهم البطل دانيال مانين-

حصارًا مروعًا قبل أن يستسلموا لجيش رادتسكي (النمساوي).

وانتهت الرواية المحزنة في روما. فهناك أعلن الشعب -ومعه ماتزيني- حكومة جمهورية. وهرب البابا. وعندئذ رغب نابليون الثالث في أن يظهر بمظهر حامي الكنيسة الكاثوليكية والمناضل عن البابا، وأرسل جيشًا يحاصر روما. وقاد غاريبالدي فرقة من المتطوعين من شمال إيطاليا لينقذ الجمهورية الرومانية وأشعل رجاله مواقع عظيمة بغية حمايتها. ولكن الفرق الفرنسية عصفت بقلب المدنية. وأعادوها إلى البابا. وكان إفلات غاريبالدي ورجاله، عبر (جبال) الأبينايين إلى الشمال، هو الفصل البطولي الذي ختم أول انطلاقة إيطاليا للظفر بالحرية[١].

السياسة: إيطاليا وألمانيا:

بدا أن ثورات الناس في سبيل الحرية، قد أخفقت إخفاقًا تامًّا. فقد رأى الوطنيون والديمقراطيون أمانيهم الحارة يحطمها القواد النمساويون والروس. ومع هذا فخلال ربع القرن الذي بدأ في سنة ١٨٤٨ أصبح الإيطاليون أمة حرة متحدة يحكمها الملك فكتور عمانوئيل، واتحد كل الممالك الألمانية والدوقيات، في إمبراطورية ألمانية موحدة يحكمها ولهلم الأول البروسي. وقد قامت فرنسا -أحيانًا عن طيب خاطر وأحيانًا على عكس ذلك- قامت بدور قيادي في تكوين إيطاليا. أما في تكوين الإمبراطورية البروسية فلم يكن دورها عن طيب خاطر إطلاقًا. ولم تقم بريطانيا العظمى بدور فعال لأن دلتا الراين والطرق التجارية في المحيطات لم يكونا في خطر. وكانت حروبها حروبًا صغيرة، قاصية في آسيا وأفريقيا، اللهم إلا حرب ١٨٥٤ التي فيها شاركت نابليون الثالث في حملة على روسيا كي تحمي تركيا، وإلا عندما أبحرت سفن الحرب والنقل إلى البحر الأسود لتنزل جيشًا إنجليزيًّا فرنسيًّا كبيرًا في شبه جزيرة القرم... وهنا تطوع الوطنيون من كل الطبقات. ولم يحارب أحد في

(١) انظر شكل رقم -١١- (توحيد إيطاليا).

شجاعة أكثر من الشجاعة التي حارب فيها ٢٥٠٠٠ إيطالي أرسلهم كافور وفكتور عمانوئيل ملك سردينيا ليحاربوا جنبًا إلى جنب مع الفرق الفرنسية والإنجليزية. وقد رفعت شجاعتهم مملكة سردينيا البالغة الصغر إلى مستوى دولة أوروبية كبرى، مما أثار نفوذ النمسا. ولكن حدث أمر صدم النمساويين صدمة أكبر بكثير. ذلك أنه في ١٨٥٩ أمر الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث -الذي تفاهم سرًّا مع كافور- أمر نابليون الثالث بإرسال جيش لغزو لومباديا وطرد النمساويين. وقد كفَت موقعتان حاميتان -في ماجنتا وسولفيرنيو- لتحقيق ذلك، وأضيفت لومبارديا إلى مملكة فكتور عمانوئيل. وهذا العمل المفاجئ المفزع -الذي قام به نابليون الثالث. بوصفه رائد الحرية الإيطالية- استنهض همم وطنيي توسكاني وبارما ومودنيا ودومانا الذين طردوا ساداتهم النمساويين ووضعوا أنفسهم تحت ملك سردينيا. ولكي يتمم غاريبالدي -قائد تحرير إيطاليا البطل- العمل النافع شن، مع فرقة متطوعيه ذوي القمصان الحمراء، معركة مفاجئة فاصلة وبمساعدة ماتزيني الأدبية وعون فكتور عمانوئيل الفعلي، أبحر من مسقط رأسه، مدينة جنوا، وسط حماسة عظيمة. وقد صمم هو ورجاله انتزاع صقلية من نابولي. وكانت إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى تحت الحكم الفعلي لفكتور عمانوئيل، وبقي عليه أن يضم إيطاليا الجنوبية.

وقد فعل... اكتسح قمصانه الحمر الأشداء المنطقة عبر صقلية ثم عبر البلاد الأصلية حيث دحروا أهل نابولي. وفي الوقت نفسه جاء الملك فكتور عمانوئيل راكبًا صوب الجنوب، ودخل هو وغاريبالدي، نابولي ظافرين في ١٨٦١.

وعلى هذه الوتيرة توحدت إيطاليا كلها في ثلاث سنوات. هذا بينما وزراء خارجية الدول الكبرى أخذوا يتابعون الأحداث -راضين، أو قلقين، أو منزعجين- تبعًا لما يحدوهم من آمال ومخاوف. قُضي الأمر وولدت أمة جديدة. ولم يفلت من سلطان الملك غير جمهورية البندقية القديمة ومدينة روما... الأولى يحكمها -بعدُ- ذوو المعاطف البيض من النمساويين، والثانية يحكمها البابا ويحميها جيش فرنسي.

وثبت في مصاير هاتين المدينتين: الحوادث التي جرت في شمال (جبال) الألب والتي كان العامل الأكبر فيها هو مستشار بروسيا الحديدي الكونت أوتوفون بسمارك.

وكانت بروسيا -منذ أن بدأت، بلادًا تخومية معادية للسلاف الوثنيين- وكانت دويلة حربية. وقد وجدت -وحدها من دون ممالك أوروبا- في فردريك الأكبر ملكًا جنديًّا عبقريًّا. وقام البروسيون بدور قيادي في حرب التحرير ضد نابليون. وكان جيشها يقوده المارشال المسن بلوخر الذي توج وصوله إلى أرض المعركة في ووترلو انتصار الحلفاء في ١٨١٥.

وكان بسمارك -وهو صاحب أرض بروسي ضخم جهم أضحى مستشارًا للملك ولهلم الأول في ١٨٦٢- رجلًا صلبًا، ثاقب الفكر، فذ العقل في السياسة، متفانيًا إلى أبعد الحدود في خدمة هدفه وهو جعل ملكه سيد الألمان جميعًا، وكان لا يؤمن بالبرلمانات ولا بالخطب وإنما يؤمن بالقوة وحدها. وكان خير الحجج التي يقدمها: عبارته البليغة: «الدم والحديد» ومعناها: الحرب. وكانت بروسيا على أتم استعداد لها. وقد هُيئ جيشه -تحت إمرة الجندي العظيم فون مولتكي- لأن يصبح آلة متقنة للهجوم، حسنة التدريب، حسنة الإعداد، يقوده أركان حرب بارعة حصين. ومثلما درس نابليون حروب فردريك الأكبر، درس فون مولتكي وضباطه حملات الكورسيكي العظيم. وتوفر بسمارك على المدافع والحراب التي تكفل تنفيذ سياسته. ولكنه التزم بأن يدخل في حسابه صداقة أو خصومة الدول الثلاث الكبرى وهي روسيا والنمسا وفرنسا.

وفي ١٨٦٣ أشعل البولنديون ثورة ضد روسيا. وتفضل بسمارك على روسيا بالسماح لجيشها باختراق الأراضي البروسية كي يسحق البولنديين الذين رُدوا فورًا، في صرامة وقسوة، إلى الخضوع.

وبعد هذا بسنوات ثلاث ضرب بسمارك ضربته، بغتة، في قوة عظيمة فاحتل،

أول الأمر، الدويلات الألمانية الشمالية، ثم حمل على النمسا. ودحر البروسيون النمساويين عند كونجواتز في سنة ١٨٦٦، وكانت هذه الهزيمة الواحدة كافية. ودامت الحرب سبعة أسابيع ليس غير. وأصبح البروسيون هم السادة المعترف بسيادتهم على هانوفر وكل شمال إيطاليا، وأصبحت مملكتا بافاريا وفورتنبرج الجنوبيتان حليفتين. وفي غزوة خاطفة اغتصب ملك بروسيا (الذي ينتمي إلى آل هوهنزولرن) زعامة الشعب الألماني من إمبراطور النمسا (الذي ينتمي إلى آل هابسبورج)، والذي حكمها أسلافه منذ القرون الوسطى. واستفادت سردينيا. ذلك أن بسمارك -في مقابل بضع هجمات، محدودة النجاح، على الجيوش النمساوية في إيطاليا- قضى عند الصلح، بأن تسلم النمسا إلى الملك فكتور عمانوئيل، البندقية وتوابعها.

وفي سنة ١٨٧٠ كشف بسمارك عن غاية مقصده وذلك عندما غزت فرنسا ثلاثة جيوش بروسية. وكان نابليون الثالث هو الذي أعلن الحرب بالفعل، غير أن بسمارك هو الذي هيأ الفرصة واستفز فرنسا، وحول مولتكي، وقواده البارعين، الحرب لمصلحتهم، وقد حارب الفرنسيون في شجاعتهم التقليدية. ولكنهم كانت تعوزهم القيادة الحازمة. وأظهرت هذه الحرب الفرنسية البروسية سطوة الجيش الألماني الذي حركته إرادة موحدة إلى النصر، إلى النصر الخاطف واستسلم جيش فرنسي في (سيدان) وآخر في متز وكان نابليون الثالث بين أسرى الرحب، وحاصر البروسيون باريس واستولوا عليها.

وفي ١٨٧١، في قصر فرساي، نودي بالملك ويلهلم الأول: أول إمبراطور (قيصر) للإمبراطورية الألمانية. وكان في فرنسا شيوخ دخلوا بروسيا تحت قيادة نابليون الأول، وشيوخ في ألمانيا قاتلوا نابليون الأول في حرب التحرير.

وأكرهت فرنسا على أن تسلم الألزاس واللورين إلى الإمبراطور الألماني الجديد. وأدت الحرب، مباشرة، إلى استكمال المملكة الإيطالية الجديدة؛ ذلك أن

نابليون الثالث اضطر إلى سحب جيوشه من روما، التي احتلها فورًا فكتور عمانوئيل، وأصبحت روما التي كانت، في مدى ١٨٠٠ سنة، العاصمة الدينية للمسيحية، أصبحت روما العاصمة الوطنية لإيطاليا. وبما أنه لم يكن في حيز الاحتمال أن يمس البابا من رعايا أي ملك دنيوي فقد انسحب بيوس التاسع إلى ذلك الجزء من روما المعروف بمدينة الفاتيكان التي ظلت تحت حكومة خارجة تمامًا على منطقة حكومة الملك.

وأدى كرب الفرنسيين وغضبهم بسبب الهزيمة، إلى ثورة الوطنيين والاشتراكيين في باريس. فوضعوا المدينة تحت إشرافهم واختاروا حكومتهم الخاصة. وشهد الجيش الألماني المنظم الجيش الفرنسي يحاصر العاصمة ويحارب ليدخلها. وفي سنة أسابيع من الكفاح المرير فقد الآلاف أرواحهم ونهب الكثير من المباني وأحرق. وبعد إقرار النظام وضع دستور برلماني اتفق عليه السياسيون الذين صاغوه -ما وسعهم الجهد- على غرار الدستور البريطاني. واتجهت نيتهم، أول الأمر، إلى استعادة الملكية القديمة، ولكن الفرنسيين استقروا، آخر الأمر، على رئيس جمهورية. وكانت تلك هي الجمهورية الفرنسية الثالثة.

كانت هذه هي الأحداث العابسة التي أذنت بدخول الإمبراطورية الفرنسية التاريخ الأوروبي والعالمي.

وفي السنوات الأربعين التالية (من ١٨٧١ إلى ١٩١٤) ظل الهيكل السياسي لأوروبا الغربية على حال لم يتغير... كان هناك الإمبراطوريات البرية العظمى الثلاث (روسيا بروسيا والنمسا) والمملكة الإيطالية الجديدة وجمهورية فرنسية جديدة. ولقد أخذ يتزايد فيها جميعًا باطراد: السكان والثروة والصناعة والتجارة. واحتفظت جميعها بجيوش كبيرة متأهبة للقتال. وعاشت في سلام وتأهبت للحرب. وكانت في الجنوب الغربي مملكتا إسبانيا والبرتغال لم تمسسها تلك الأحداث. وفي الجنوب الشرقي: أملاك تركيا المتأخرة التي ضيعها الإهمال والاستبداد والكسل

وعدم الكفاية. وانهمكت بريطانيا العظمى - سيدة البحار والتجارة البحرية- في الصناعة والتجارة عبر البحار وفي المستعمرات.

وتأججت أوروبا بالسلاح ولكنها لم تطلق، عند الغضب، طلقة واحدة... حدث في الإمبراطوريات البرية الثلاث أن الأرستقراطية -مالكة الأرض- حكمت فلاحي الريف، وأن أهل المدن أخذوا يجادلون في الاشتراكية ويتساءلون بأي حق تحكم شعوب شعوبًا أخرى، لا لسبب سوى وراثة الحكم أو الثروة. إلا أن تلك الأعوام الأربعين كانت عهد رخاء مطرد وتعاون مطرد بين الأمم. وبدا محتملًا أن الأمم الأوروبية -بالحكمة والمصابرة- قد تقاد إلى التقليل من أسوار التخوم ومن سوء التفاهم، وذلك إلى أن يتسنى لهم أن يعيشوا في سلام بوصفهم أوروبيين، تمامًا كما فعل مواطنو بلادهم الأولون تحت حكم خير أباطرة الرومان.

السياسة: روسيا والثورة:

خلافًا للبلاد الغربية، لم ترضع روسيا قط لبان أي مدنية قديمة. ولم تكن كنيستها -اليونانية الأورثوذكسية- تهتم قط بنشر العلم أو المدنية، ككنيسة الغرب اللاتينية الكبرى.

كانت روسيا مترامية الأطراف، وكان أهلها متأخرين، وكان أغلبهم عبيدًا يعيشون في مجتمعات قروية يدفعون مكوسًا للنبلاء مالكي الأرض. وكان هناك طوائف قليلة من التجار ورجال الأعمال والصناعة. وكانت الحكومة -فوق كل شيء- استبدادية، وقيصرها أكثر سطوة من قياصرة الرومان الذين حمل لقبهم. فلقد كان حامي الكنيسة المقدسة، وأبا الشعب، والحاكم المطلق على كل الروسيين، وكانت إرادته هي القانون.

ووالى خلفاء بطرس الأكبر -في هوادة- «تغريب» بلادهم، ونخص بالذكر منهم القيصرة -الألمانية المولد- كاترين الكبرى وقد تأثرت -أكثر ما تأثرت- بفرنسا

لأن فرنسا سبقت أوروبا في الفنون في القرن الثامن عشر وعلّمت نبلاء الروس كيف يتكلمون الفرنسية. أما انتماء روسيا للمجموعة الأوروبية أو «جوقة» الدول الكبرى فقد اتضح في عهد نابليون، من وجود جيوش القيصر تعمل في ألمانيا وإيطاليا. وزاد الأمر وضوحًا عندما حضر القيصر -الإسكندر الأكبر- مؤتمر الصلح في فيينا عام ١٨١٥، وأعان الإمبراطور النمساوي -بعد ذلك- على إخماد الفتن. وكانت روسيا متأهبة للأفكار الغربية.

ولقد كان للأفكار التحررية -الصادرة عن الرجال الذين صنعوا الثورتين الأمريكية والفرنسية- كان لها صدى في كل أوروبا خلال القرن التاسع عشر: ينبغي للناس جميعًا أن يتحرروا ليستمتعوا بالحياة والفراغ في ظل قوانين عادلة تسوي بين الناس، غير خائفين، معبرين عن آرائهم في صحافة حرة، مشاركين بعض المشاركة في حكم بلادهم... اعتملت أفكار كهذي في صدور بعض النبلاء والطلبة الروس وجسمت الفروق بين عيشة السادة الروس البهجة الفارغة وبين العيشة التاعسة للعبيد الروس الذين أعوزهم التعليم والذين كانوا مرتبطين بحقولهم، والذين كان لسادتهم الحق في جلدهم حتى لكأن روسيا كانت ملتقى القرنين التاسع عشر والتاسع. ولم تكن هناك طبقة وسطى كالتي نشأت في القرون الوسطى بفرنسا وإنجلترا لتصل ما بين طرفي المجتمع.

ولقد قام الفلاحون -قبل سنة ١٨٠٠- بثورات خطيرة كثيرة. وفي الثورة الأخيرة منها -التي قادها مغامر قوزاقي اسمه يوجاشيف ما بين ١٧٧٣ و ١٧٧٥- قتل ما لا يقل عن ألف وخمسمائة من ملاك الأرض. وعند تولي نقولا الأول العرش في ١٨٢٥ ثارت جماعة من ضباط الجيش ذوي الميول التحررية، وقمعت ثورتهم. وكشف نقولا عن أنه مستبد عنيد لا يلين يود أن يسيطر على بلاده كما قد يسيطر قائد عام على جيشه. واستمرت ثورات الفلاحين. وفيما بين ١٨٤٦ و ١٨٦٠ هبت في أماكن عديدة نحو ١٨٠٠ انتفاضة هلك فيها أكثر من ٣٠٠ من ملاك الأرض.

ولكي تقاوم الحكومة تلك الخلفية من الاضطراب والعنف نظمت شرطتها السرية وشبكتها من الجواسيس واستخدمت فيافيها في سيبيريا منفى لمثيري الفتن ولسيئي الحظ الذين يشي بهم عملاء القيصر. ثم حدث أن الأمر الذي قدر له أن يأتي بالخير العميم، قد خلف البلبلة والقلق. ذلك أن القيصر الإسكندر الثاني، الواسع الأفق، عندما أعتق العبيد- أي حررهم، في سنة ١٨٦١ أضحى خمسون مليونًا منهم أحرارًا بالفعل. ولكن النتيجة في الغالب أسفرت عن أنهم لم يستطيعوا العيش من الفدانين اللذين وزعتهما الحكومة على كل منهم. حقًّا لقد كانوا أحرارًا في أن يهيموا إلى البلدان حيث يصبحون عمالًا أو عاطلين لا يملكون أرضًا. وإذن فقد خلخلت لائحة ١٨٦١، هذا المجتمع الروسي من جذوره وأصلح الإسكندر الثاني كذلك المحاكم، وأنشأ مجالس محلية لتدبير الشؤون المحلية. غير أن دعاة الإصلاح، الذين يطالبون بما يفوق هذا كثيرًا، خاب أملهم في هذه التغيرات كما أن أهل الطراز القديم -بطبيعة الحال- أغضبهم أي تغيير، ثم إن قضية دعاة الإصلاح -الواسعي الأفق- لم تستفد من قتل الإسكندر الثاني في ١٨٨٤. فقد استمرت الفوضى طوال السنوات الأخيرة من القرن، وزادت الأحزاب الثورية وكثر عدد أعضائها. وكان من بين هؤلاء دعاة الإصلاح المألوفون المماثلون لمتطرفي بريطانيا الذين يطالبون بإصلاح جدّي وفقًا للمبادئ الحرة. وكان هنالك أيضًا نوعان من المتطرفين هما الفوضويون والشيوعيون.

فالفوضويون هم الذين يئسوا من إصلاح الحكومة أو من تحسينها إلى حد أنهم رغبوا في القضاء على كل الحكومات وكل الحكام. وعندهم أن أي قنبلة يُرمى بها أي حاكم أو أي صاحب سطان، أمر مستحسن. ولا ريب في أنه لو كان الناس جميعهم كاملين لما اشتدت الحاجة إلى حكومة. والشيوعية معناها جعل كل الأشياء على الشيوع وتوزيعها بالتساوي. إنها نوع متطرف من الاشتراكية معناه تمليك الأراضي والصناعات للشعب وإشرافه عليها، وذلك لضمان توزيع خيرها على الجميع

توزيعًا عادلًا. وقد نُودي بالاشتراكية في إنجلترا وفرنسا في عهد مبكر جدًّا، وكانت المشاركة في الملكية والعائد من الأمور المألوفة. وثمة مثل طيب للمشاركة في الملكية والعائد، تجده في الجمعيات التعاونية التي تملك وتدير متاجر كبيرة وتوزع الأرباح على أعضائها. غير أن كارل ماركس -وهو يهودي ألماني أتى ليعيش في إنجلترا- ابتدع نوعًا متطرفًا من الشيوعية، وبشر له بحماسة بالغة قائلًا بأن كل تاريخ الإنسان كان نزاعًا عديم الرحمة بين من يملكون ومن لا يملكون، وبأنه ينبغي لكل الفقراء أن يخلقوا الفتن والارتباكات ليعجلوا بتحطيم المجتمع كي يقيموا مجتمعًا لا طبقيًّا. قال: وعلى أي حال فلم يكن بد من مجيء هذا المجتمع اللا طبقي لأن ذلك النمط من المجتمع الذي فيه يستطيع الناس أن يصبحوا أصحاب ملايين، لا مفر له من أن يتحطم. وينطوي مذهب ماركس على كثير من الحقد وبعض الأفكار المشوشة. ومع ذلك فقد توجه بنداءين الأول -وذلك أمر طبيعي- إلى الموطوئين بالأقدام والمنكوبين. والثاني إلى ذوي الهمم الغيورة الذين أحسوا بأنه ينبغي لهم أن يضطلعوا بمطالب الأجيال جميعًا وأن يصبحوا رسل القدر، تدفعهم الحمية المقدسة إلى أن يصححوا أخطاء الإنسانية. ولكن من سوء الحظ أنهم اعتقدوا أيضًا أنه لا مانع من ممارسة الكذب والقسوة في سبيل الوصول إلى غاية مرادهم، وأن الغاية تبرر الوسيلة. والشيوعيون الماركسيون لا يأبهون للأخلاق المثالية. والمهم الذي يستحق الملاحظة هنا هو أن ماركس استثارته وأبلغت غضبه إلى مداه -على نحو ما حدث لأناس لا حصر لهم- آثام الثورة الصناعية في إنجلترا، وأنه علق كل آماله على عاطلي المدن الذين لا يحذقون مهنة ما. وهؤلاء المنكودون هم نتيجة من نتائج المدنية الحديثة. وكان هناك أناس من أمثال وليم موريس، تطلعوا إلى بناء مدنية جديدة أساسها عيش المواطنين عيشًا سعيدًا. وماركس ليس كذلك فهو لم يفكر في الفلاحين على أنهم مواطنون في دنياه المثالية، وقد رأى شيوعيته تبدأ في الغرب في المدن وفي الأوساط الصناعية الكبيرة.

وفي الوقت نفسه كانت البلاد التي اطّرد فيها التأهب للثورة هي روسيا. استمرت تمردات العمال وإضراباتهم. وكانت صناعاتها، طوال الوقت، تتزايد رويدًا رويدًا.. في بعض الأحيان بمساعدات مباشرة كتلك التي يقدمها أناس كجوون هيوز الذي أسس مصانع الحديد بـ(كريفوي)... وفي بعض الأحيان بقروض طويلة الأجل، مصدرها بوجه أخص، الفرنسيون الذين أعانوا الروس على بناء سككهم الحديدية وغيرها من المرافق العامة. وكانت هذه القروض إحدى نتائج التحالف التدريجي بين فرنسا وروسيا بعد الحرب الفرنسية البروسية (في ١٨٧٠) وذلك وقتما بدأت الدولتان تخشيان القوة الحربية الضخمة التي تملكها الإمبراطورية الألمانية.

وروسيا معناها الآن كل البلاد التي تحكم من موسكو، وهي المدى الممتد من التخوم الألمانية، إلى حدود الصين. إلى شواطئ المحيط المتجمد، إلى هضاب إيران وجبال القوقاز. وروسيا تمتد في قارتين. ولم يبدأ روس المناطق المحيطة بـكييف وموسكو في بسط سلطانهم في أوروبا وأفريقيا حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكما أن الأمريكيين استعمروا قارتهم متجهين غربًا من الشاطئ متابعين الحدود المضطربة صوب مغرب الشمس عبر الغابات والبراري والصحاري. كذلك استعمر الروس قارتهم مع فارق أنهم بدأوا من الداخل وتحركوا إلى الخارج، شمالًا وشرقًا وجنوبًا... أول الأمر، أهل الغابة: القناصون وصائدو الفراء وصيادو السمك، ثم الرعاة والفلاحون الذين قطعوا الأشجار على طول جداول المياه كي يربوا الماشية وغلة البراكة (وهي نبات كالشعير)، ثم المعدنون يتقصون عروق الحديد والرصاص، ثم موظفو القيصر يبسطون سلطانه على البلاد الجديدة. وكانت هنالك حروب. وربت روسيا -كما ربت أمريكا- قبائلها التخومية: جماعات من الخيالة مستقلة شديدة المراس ترتاد بعيدًا طولًا وعرضًا، وترعي سائمتها ويصعب ترويضهم على الحياة المستقلة. والتاريخ يعرفها جيدًا باسم قوزاق (نهري) الدون والفولجا.

وإلى سنة ١٧٧٥ لم يسطع القيصر أن يخضع البواسل تتار منطقة الفولجا الوسطى

الواقعة على هذا الجانب من جبال الأورال. كما أنهم -إلى ١٧٨٣- لم يستطيعوا أن ينتزعوا شبه جزيرة القرم من الأتراك... أعدائهم الذين حاربوهم إحدى عشرة مرة. ثم إنهم إلى الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٦٠ لم يتغلبوا على مقاومة رجال جورجيا والقوقاز. وأسسوا ميناء فلاديفوستك على ساحل المحيط الهادي، في ١٨٦٠. ولم يتم إنشاء سكة الحديد التي تعبر سيبيريا حتى ١٨٩٨، وحتى عندئذ كان جزء منها يعبر الأراضي الصينية. ولم يكمل خط روسيا كلها حتى ١٩١٦.

ولقد أزعج توسع روسيا في آسيا عساكر البريطانيين الذين هالهم احتمال مثابرة تدفق الجيوش الروسية -عبر أفغانستان- هابطين أودية الهند. والواقع أن الأسد البريطاني والدب الروسي كانا يتنافسان على محالفة الأفغان. وكان من نتائج التوسع الروسي في الشرق الأقصى: الحرب الروسية اليابانية في ١٩٠٥. ذلك لأن اليابان كانت، هي أيضًا، دولة استعمارية تسعى إلى مد نفوذها في أراضي آسيا الأصيلة. وقد مني جيش روسيا وبحريتها بكوارث فادحة على يد اليابانيين. فقد أبحر الأسطول الروسي المرابط في بحر البلطيق الطريق كله إلى الشرق الأقصى لا لشيء إلا لتفرقة البحرية اليابانية.

وهذه الهزيمة المهينة شجعت تمرد الساخطين، إذ ثبت -كما حدث في حرب القرم- أن حكومة القيصر كانت كليلة متعفنة مستبدة. ورمي بالرصاص مئات المتمردين في سنت بطرسبرج (لينينجراد الآن) وقامت في موسكو ثورة مسلحة وخرج -فيما بعد- ثلاثة ملايين من العمال مضربين عن العمل وأكرهت هذه القلاقل القيصر على منح دستور وبرلمان (مجلس الدوما). ورغم هذا قام الفلاحون -وكان عددهم عندئذ ٧٥ مليونًا- باضطرابات واسعة الانتشار في سنة ١٩٠٦. وظلت الإضرابات -والرمي بالرصاص- تنشط العام بعد العام حتى ١٩١٤. وكانت روسيا بلاد الاغتيالات والمؤامرات والشرطة السرية والقبض السري.

وكانت -بعد- في حالة قلق مزمن وعلى حافة الثورة عندما دخل القيصر

الحرب الأولى ضد ألمانيا حليفة لفرنسا. وأثارت الحرب حماسة الوطنيين من كل الطبقات: النبلاء، والعمال، والفلاحين. ولاح أول الأمر أن روسيا التي يساعدها الحلفاء الأقوياء قد تدرك -عن طريق النصر- عصرًا أحسن وأسعد.

التوسع:

ومن دواعي الأسف أن العالم -من الصين إلى بيرو- نزع إلى ارتداء الملابس القاتمة التي اخترعها الأوروبيون بعد الثورة الفرنسية. وإنا لنصدر عاداتنا في سهولة تفوق السهولة التي بها نصدر مزايانا الحضرية أو ديننا. وتحويل أحد سكان شبه جزيرة الملايو أو بلاد الزولو إلى ميكانيكي، يلبس كساء عمل قاتمًا أسهل من تعويده على اتباع الفضائل الدينية مع رفاقه. وكثيرًا ما نظن أن الرجل الذي يمسك بندقية أو الذي يلبس بذلة ذات سترة وسراويل يكون أكثر تمدنًا من رجل يمسك بخنجر ولا يكتسي غير مئزر. وكانت قوتنا العظيمة -بطبيعة الحال هي التي تركت انطباعاتها على غير الأوروبيين، وذلك منذ روع كولومبس سكان (جزائر البحر) الكاريبي ببندقيته. ويبدو أن هذه البندقية -وفي ترفنا وآلاتنا- سحر الرجل الأبيض. وقد يكون فيها سحرنا نحن أيضًا ولكن السحر الحقيقي للرجل الأبيض أعمق من هذا. إنه ينبع من حكمة الإغريق (ومن التوراة) ومن قوانين روما.

وقد قضى الأوروبي أربعة قرون في الارتحال بحرًا إلى كل أجزاء الدنيا، يتاجر ويبحث عن أسواق ويتسلط على قارات نصف فارغة وعلى جزائر استوائية ويعيش على الثروات الطبيعية للمناطق الاستوائية كالسكر والقطن والأرز والبهار والشاي والقهوة والمطاط. والحكاية منوعة، بطولية، فظيعة، قاسية كالحياة الإنسانية ذاتها. إنها حكاية أمم متفرقة، ومغامرات متفرقة، وشركات تجارية متفرقة، وكنائس متفرقة -عدائية في بعض الأحيان- كلها يكافح بعضها بعضًا. وهذه المغامرة المتعددة النواحي التي صنعتها الشعوب البيضاء مع الشعوب السمراء والسوداء والصفراء مبعثها دوافع من كل صنف، ابتداء من «الجوع اللعين إلى البحث عن الذهب»

إلى حمية نشر الدين الخالصة. لقد صدرنا حروبنا وضغائننا. هذا بينما أن الرومان عندما ملكوا إمبراطورية برية كبيرة، كانوا غالبًا ما يرسلون إلى الخارج خير رجالهم لحكم الأقاليم، بل إن أباطرتهم كانوا يعنون شخصيًّا بالمسائل الإقليمية. أما الأمم الأوروبية فقلما أرسلت سياسييها البارزين ليحكموا في الخارج. وكانت مغامراتهم البحرية -إلى حد كبير- عفوية تعتمد على المصادفات.

التوسع: قصة الإمبراطورية والسلم البريطاني:

كانت الأمم الخمس التي امتلكت إمبراطوريات عبر البحار هي:

البرتغال وإسبانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا. وفي ١٨٣٠ كان الموقف كما يلي:

فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية. والبرتغال فقدت البرازيل. وإسبانيا فقدت أملاكها في الأمريكتين الجنوبية والوسطى. والأمم الجديدة التي تحررت من سيطرة أوروبا بقيت تحمل طابعها السابق: لغة الولايات المتحدة وقوانينها بريطانية. ولغة البرازيل وقوانينها برتغالية. ولغة سائر جمهوريات أمريكا الجنوبية وقوانينها إسبانية.

وقد شملت الإمبراطورية البرتغالية في أوج سلطانها -فوق البرازيل- بضع عشرات من المواقع التجارية المحصنة على طول السواحل الأفريقية وفي مواضع متفرقة من المحيط الهندي، استولى الهولنديون على أغلبها ولم يتركوا للبرتغال غير محطات قليلة مثل ديو وجوا في الهند. أما الأملاك البرتغالية الحالية في شرق أفريقيا وغربها فقد تخلفت عن الأيام التي فيها كان ملوك البرتغال أرباب البحار الشرقية وسادة الطريق البحرية إلى الهند.

واستولى الإسبان على جزر غنية كثيرة غير أن جاميكا أخذها منهم البريطانيون في ١٦٥٥، وترينداد انتزعتها بريطانيا في ١٧٩٧، وكوبا (في جزائر الهند الشرقية) والفلبيين (في المحيط الهادي) استولت عليها بريطانيا في ١٧٦٢ ثم أعيدت إلى إسبانيا. وقبل هذا بكثير -في ١٧٠٢- استولى البريطانيون على الطرف الجنوبي من

إسبانيا نفسها، جبل طارق، الذي لا يزالون يحتفظون به على أنه حصن.

وكان الهولنديون، في يوم من الأيام، فقد أنشئوا مدينة باسم نيو أمستردام استولى عليها البريطانيون وأطلقوا عليها اسمًا جديدًا: نيويورك، وهي ميناء جميل ذهب مع بقية المستعمرات الأمريكية عندما ثارت في ١٧٧٦. وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية الشهيرة –التي طردت البرتغاليين من الشرق– كانت «دولة» في حد ذاتها: تعلن الحرب وتعقد الصلح، وتسك عملتها الخاصة، وتوفد ملاحين ذائعي الصيت ليرودوا البحار الجنوبية ويستكشفوا شواطئ أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا. بل إن الأسطول الهولندي كانت له أسطورته المرعبة –حكاية الهولندي الطائر– وموضوعها سفينة مجهزة أحسن تجهيز رؤيت تنساق أمام العاصفة، وقد مات ملاحوها جميعًا بداء الجرب. وهذا منظر يرتعد له البحارة الذين يتأثرون بالخرافات. وكان قلب الإمبراطورية الهولندية: جاوة وجزائر الهند الشرقية الاستوائية المليئة بالثروة الطبيعية. وهذا كلها أخذتها بريطانيا في ١٨١١ وأعيدت كلها إلى هولندا. أما المواقع الهولندية التي أخذتها بريطانيا واحتفظت بها فكانت: ملكّا في ١٧٩٥، وسيلان في ١٧٩٧، ورأس الرجاء الصالح في ١٨٠٩.

وقد طردت شركة الهند الشرقية الإنجليزية الشركة الفرنسية من أرض الهند الأصلية في حرب السنوات السبع واستبقى الفرنسيون مستعمرات ساحلية صغيرة مثل بندتشري –و– شاندرناجور. واستولت بريطانيا على جزيرة موريشيوس واحتفظت بها. وكذلك استولت على المستعمرتين الفرنسيتين الهامتين: نوفاسكوتشا وكندا. واستولت على جزيرتي السكر: الجوادلوب والمارتينيك، استولت عليهما وأعادتهما إلى فرنسا ما لا يقل عن ٤ مرات.

وعندما اتهم روبرت كلايف بأخذ نقود من الهنود دفع الحجة بأنه عندما فكر في الأمر ذهل من اعتداله. وربما جاز لإنجلترا أن تقول مثل هذا القول، ذلك أن الأملاك التي ردتها لأمم أخرى تساوي ثروات لا تحصى. وحتى إذا صح ذلك فإن

إمبراطوريتها في ١٨٣٠ فاقت كل أحلام الإمبراطوريات ولا معدَى عن أن نضيف إلى الأملاك التي سبق ذكرها: مالطة وبرمودا وجزائر البهاما وغيانا، ونيو فاوندلاند ومنطقة خليج هدسون -اللتين تمتدان امتدادًا لا نهائيًّا عبر البراري وشمال كندا المتجمد- وأستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا وجزر كثيرة في المحيط الهادي. وإلى هذه احتفظت بحصون على ساحل أفريقيا الغربي هي محطات قديمة لبيع الرقيق حررها الآن، من حسن الحظ، قانون ١٨٠٦ الذي حرم تجارة الرقيق. وفوق هذا كان تجار شركة الهند الشرقية سادة البنغال وأكثر من ذلك، سادة شبه جزيرة الهند.

ولم يكن البريطانيون المستعمرون وراء البحار بالغي الكثرة وإنما كانوا بضعة آلاف من الأمريكيين الموالين فيما نسميه الآن أونتاريو، وبضعة آلاف من الجنود السابقين في نيوبرنزويك وفي رأس الرجاء الصالح، وزراعا قليلين في جزائر الهند الغربية، ومستعمرة مجرمين في نيوساوث ويلز مع قليل من رعاة الغنم. وكانت غالبية رعاياها البيض، المقيمين عبر البحار، من الأجانب: هولنديي الكاب (البوير) في جنوب أفريقيا، وكنديين فرنسيين كاثوليكيين حول منتريال وكويبك.

وإمبراطورية بريطانيا -كإمبراطورية البندقية- خلقتها التجارة، وهي من عمل بحارتها وتجارها. وقد كتب تاجر بريطاني كتابًا أسماه «كنوز إنجلترا من التجارة الأجنبية»، وهذا عنوان يوضح ما وراءه. وأنذر نبيل إنجليزي مواطنيه بقوله «انظروا إلى خندقكم المائي: ينبغي أن تكون أول مادة في عقيدة البريطاني السياسية أنه يؤمن بالبحر». وكانت الكتب التي يقرؤها صبيانها: «رحلة حول الدنيا» للورد آنسون، وتلك الحكايات المثيرة عن جزر نائية مثل: «روبنسون كروزو» و«رحلات جلليفر».

وفيما بين ١٨١٥ و ١٩١٤ كان سلام بريطانيا فوق جميع البحار. فقد مخرت بحريتها لا يتحداها أحد. وأخذت سفنها التجارية وسفن بلاد أخرى تذهب وتجيء لا يمنعها أحد في الظروف المشروعة، ولم يكن لها منافسون، فقد استغرق الهولنديون نشاطهم في إمبراطوريتهم الخاصة المستكفية الغنية بالتوابل. وكانت

فرنسا لا تزال تنشد كيف تحكم نفسها. ولم توجد ألمانيا ولا إيطاليا قبل ١٨٧٠. وحكمت بريطانيا حكومة وطيدة الأركان، حكومة قادرة ومستعدة لتحسين حالها. وتمتعت بريطانيا -أجيالًا- بسلام داخلي حقيقي لأن الحروب الأهلية لم تضيعها. وكانت لها تقاليد قديمة في التجارة وقد جمع مواطنوها ثروات. وفي القرن الثامن عشر أبدوا المذهلات في النشاط والاختراع والصناعة التي جعلتها مصنع العالم. فلا عجب إذن إذا كانت إمبراطوريتها قد امتدت على بلاد متخلفة أو خالية.

أما كيف أصبحت مستعمراتها أممًا تحكم نفسها، وكيف نظمت وحكمت الهند، وكيف استولت على أراض شاسعة جديدة في آخر قارة أُميط اللثام عنها -وهي أفريقيا- فذلك أحد موضوعات البحث الكبرى في تاريخ القرن التاسع عشر.

التوسع: المستعمرات البريطانيا المستقلة:

حول كويبك ومونتريال وقعت المستعمرات الفرنسية التي أقيمت في القرن السابع عشر: فرنسا جديدة استوطنها فلاحون أشداء وحضريون من نورماندي، عاشوا عيشة بسيطة باسلة في تلك البلاد النائية التي تتوافر فيها الغابات والمياه التي تبعد مائة ميل عن عرض البحر. وهناك حموا قراهم من الهنود، وفلحوا الأرض كما فلح أسلافهم أرض فرنسا القديمة، وغنوا أغاني وطنهم المفرحة، ورحبوا بالمسافرين العائدين من فلوات البحيرات وجداول المياه في الغرب والشمال.

وفي شبه جزيرة نياجرا جاء المهاجرون الأمريكيون ليستوطنوا، وقد حدث ذلك خلال تمرد المستعمرات الأمريكية على جورج الثالث. وكابد أولئك الوافدون الجُدُدُ مشقّةً عظيمة، بادِئينَ الحياةَ مِن جديد فسكنوا العشَّ، واستَنْبَتوا الزراعات الشحيحة المحصول، وطحنوا غلالهم بالأيدي إلى أن وافَتْهم مؤَنٌ وأكسيةٌ وآلاتٌ مِن بريطانيا.

وقد اختلفت هاتان المستعمرتان -كندا العليا وكندا السُّفلى- اختلافًا بينًا في

اللغة والقوانين والدين والعادات. وبينما كانت الواحدة بلدًا مغلوبًا، كانت الثانية تدين بالولاء، إلى درجةٍ خيالية، إلى حدٍّ جعلهم لا يكادون يُرَحبون بأيّ جماعةٍ جديدةٍ مِن المستعمرين البريطانيين، وهذا يخالف الترحيب الحار الذي يلقون به «مواطني» كويبك الفرنسيين.

ولمّا بلغ التذمُّر في المستعمرتين إلى حد التمرُّد في ١٨٣٧ أبلغ اللورد ديرْهام- الذي أرسل ليستقصي الأمور- أنه وجدَ «أمَّتين تعتركان في حضْنِ ولايةٍ واحدة. وكان علاجه المقترَحُ هو أن يَتحدا في ظل حكومتهما المختارة لكي يَدْرُجُوا على الازْدهاء بقوميَّتهم وقد سُوِّيَ هذا، ونجح برغم كثير من العقبات، ويرجع أكبرُ الفضلُ إلى حصافة الحاكم. وكان الزمنُ يتغيَّر مسرِعًا.. أخذتْ بواخرُ خط (أَلَن) الجديدة تنقل مستعمرين جدُدًا في العَقدين السادس والسابع، وتضاعف السكانُ في فترةٍ وجيزة. وأنشئت سككٌ حديديةٌ تصلُ كنجزْتن وكويبك بالأطلنطي. ورأى بعضُ بعيدي النظر أنّ «الأمتين» الكنديّتين -ومقاطعتي نوفاسكوتْشيا ونيو برانزْوِيك، وأراضي شركة خليجِ هدْسون الغربية والشمالية الشاسعة المهجورة - ينبغي لها جميعًا أن تنتظم في اتحادٍ سياسيٍّ مُوحَّد وأن ترتبط كلها بسكة حديدية عبْر القارّة. وكانت الحرب الأهلية الأمريكية إنذارًا بالخطر، ذلك لأن الكنديين لم يُرْضِهم وجود دولة قوية التسلُّح على تخومهم الطويلة الموحشة. وفي سنة ١٨٧٠ انحدر الخيالة -الذين سبق لهم أن أخَمدُوا عصيانًا قام به أنصاف المولدين في منطقة النهر الأحمر- راكبين عبر البراري إلى سفوح الروكي (الجبال الصخرية)، في جولة استكشاف هامة. وقد صار أولئك الخيالة نواةً للشرطة الكندية الراكبة.

وفي ١٨٨١ -على طول الطريق الممتد بين البحيرات الكبيرة وساحل المحيط الهادي- أخذ نحو تسعة آلاف عامل يشتغلون في الخط الحديدي الكندي الباسيفيكي. وقد وجدت بينهم فِرَق لنحت المدرّجات وثانية لنحت الإنفاق، وثالثة لتسوية الدروب، ورابعة للديناميت، وخامسة لتشييد الجسور، تعيش كلها

في مخيَّمات وتَطْعَم على قطعان البهائم التي تمشي مشيًا وئيدًا مُصَعِّدَةً من السُّهول الأمريكية إلى مكان العمل ولم يحدث إخلال بالنظام ولا هجومٌ من الهنود، ويرجع الفضل في هذا إلى الشرطة الراكبة الكندية. وتقدّم العملُ -عامًا بعد عام- على طول السهول وفي الأماكن العالية الموحشة بالرُّوكي (جبال الصخور) حيث شارك آلافٌ من العمال الصينيين في تسوية الدروب وحيث طرحَ المهندسون جسورًا مصلبة على صقائل فوق الأودية الضيقة. وأخيرًا، في ١٨٨٥، تلاقت الخطوط الآتية من الشرق والغرب في ممر إيجل (أي النسر)، وكملت الشرايين الفولاذية للمستعمرة المستقلة الكندية الجديدة.

واحتلت البراري التي تنبت الحنطة وأخذت حقول الألبان والفواكه الواقعة على سواحل المحيط الهادي. وقد حدث ذلك على مهل أول الأمر ثم تدرج في السرعة. ولم تبق ثمةَ ضرورة للاستدارة حول رأس هورن (أي القرن) للوصول إلى فانكوفر. وقد تأسست مستعمرة كندا المستقلة في ١٨٦٧. وانضمت مانيتوبا في ١٨٧٠، وكولومبيا البريطانية في ١٨٧١... على شرط أن تمد السكة الحديدية. وكمل الإطار السياسي في ١٩٠٥ عندما أمست ألبرتا وسسكتشوان مقاطعتين. وامتدت الدولة الاتحادية الجديدة من المحيط إلى المحيط كما امتدت شمالًا عبر الفيافي المتجمدة إلى دائرة القطب الشمالي.

وفي الوقت نفسه -تحت نجوم نصف الكرة الجنوبي- أخذت قارة أخرى -كذلك- تأهل بالسكان وتفلح. إنها بلاد نائية جنوبية تتوافر فيها أنواع النبات والحيوان الغريبة وغابات الجبال المعتمة والأصقاع ذوات الألوان الدكناء والزيتونية والأرجوانية الهادئة. إنها أرض قلبها ليس من البراري ولكن من الوحشة والصحراوات. على أن الأرض التي ابتدأت هناك لتكون محلة للمجرمين، تستغرق الرحلة بينها وبين أوروبا ستة شهور، تلك الأرض نمت تدريجيًّا حتى أصبحت المقاطعات: (نيو ساوث ويلز وكوينز لاند وفكتوريا) أصبحت تدريجيًّا جنة الرعاة

تهيم بها أغنام المرينوس[1] في أراضي عشبية ومرجات شاسعة... قام الفلاحون الأحرار القلائل والمستكشفون بكشف المناطق الخصبة، وقامت البحرية بمسح الشواطئ. وتجدد في بريطانيا اهتمام بالاستعمار أدى إلى إنشاء مستعمرات حول بيرث في أستراليا الغربية وأديليد في أستراليا الجنوبية. غير أن الإعمار بالسكان تلكأ حتى ١٨٥١. وفي تلك السنة عثر رجل -من الذين شاركوا في التدفق على البحث عن الذهب في ١٨٤٩ - عثر على ذهب في نيو ساوث ويلز ولقط آخرون كتلًا من خامات الذهب في بنديجو -وبللارات بفكتوريا. وتدفقت جموع خشنة من الباحثين والمنقبين إلى داخلية البلاد. وأقفرت الموانئ وفر نوتية سفن كثيرة على أمل أن يجمعوا - في يسر- ثروات كبيرة. نعم. قليلون هم الذين أصابوا الثراء، ولكن التكالب على البحث عن الذهب رفع عدد السكان، في ١٨٥٨، إلى أكثر من مليون نسمة. وإلى ذاك الوقت كانت البواخر تنقل مزيدًا من المستعمرين في رحلات تدوم ستة أسابيع ليس غير. ولبث المستعمرون -الذين خاب فألهم- ليشتغلوا في عمل آخر. وانتعشت الموانئ واستخدم الذهب في استيراد رفاهات المدنية. وبقدر ما تزايد السكان زادت الزراعة والأعمال التجارية. وعلى هدى التجارب في كندا منح البرلمان البريطاني الولايات الأسترالية استقلالًا داخليًّا. وحدث فيما بعد، في ١٨٩٢ -هجوم جديد للبحث عن الذهب في أستراليا الغربية حيث فتحت مناجم في كالجورالي وكولجرادي. وفي ١٩٠٠ اشتركت الولايات المتفرقة وكونت الحكومة الأسترالية الموحدة ذات الاستقلال الداخلي.

وتقع على بعد ١٢٠٠ ميل من نيو ساوث ويلز جزائر نيوزيلندا التي عثر عليها الهولنديون وأطلقوا عليها هذا الاسم، والتي مسح أراضيها الكابتن كوك وارتادها صائدو الحوت وعجل البحر والمبشرون. ونحن مدينون لهؤلاء الأخيرين بكتابة لغة الماوري التي يتكلمها الأهلون. وكان الماوري نمنميين (أي أكلة لحوم البشر)

(١) المرينوس: أغنام جميلة الصوف إسبانية الأصل.

ذوي جاذبية وبنية مثالية وذكاء ومقدرة في القوى البدنية ويطربون لشن الحروب القبلية. وبعد نزول مجرمي الكابتن فيليب في أستراليا أضحت شواطئ نيوزيلندا نوعًا من الأرض المباحة حيث اختلطت حثالة البحار الجنوبية بالماوري وتاجرت في البنادق وبطاطين الجنازير والرؤوس الآدمية المخللة، التي تحمل الوشم.

وكان تجدد الاهتمام بالاستعمار هو الذي جعل نيوزيلندا المكان الذي نعرفه... وفي ١٨٥٤ مُنِح المستعمرون استقلالًا داخليًّا. ومنذ ذلك الوقت -إذا استثنينا حربًا عنيفة شنها الماوري في ١٨٦٠- كان تاريخ تلك الجزائر سلميًّا موفقًا، مع استقرار تدفق المهاجرين إلى داخلية البلاد وبخاصة من إنجلترا. وفي ١٩٠٧ نُودي بنيوزيلندا مستعمرة مستقلة تحت التاج البريطاني.

التوسع: الولايات المتحدة الأمريكية:

في سنة ١٨٢٨ غرقت السفينة الشراعية «جيمس» على مسافة من نيوفاوندلاند مع ١٦٠ مهاجرًا إيرلنديًّا كانوا على ظهرها. وقد غرقت فعلًا في تلك السنة ١٧ سفينة غاصة بالمهاجرين المتجهين إلى أمريكا، غرقت وفقد معها مئات من الناس المساكين الذين كابدوا -قبل غرقهم- بؤس اجتياز الأطلنطي. ولم تكد سنة تمر دون وقوع كوارث من هذا النوع، على أن الخسائر لم تكن دائمًا في آخر السياحة. وفي ١٨٤٩ تحطمت (السفينة) فلوريدا وغرق مهاجرون ألمانيون من أنتورب (أنفر) على مسافة من هارويك. وفي ١٨٥٠ هلك مائة أيرلندي عندما اصطدمت (السفينة) «إدموند» بصخور كاونتي كلير. وقعت تلك الأحداث خلال الهجرة الكبرى من الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة التي بدأت في السنوات القليلة التي تلت ١٧٨٠ واستمرت طوال القرن التاسع عشر. وإلى أن حلت السنوات القليلة التالية لـ ١٨٥٠ كان المهاجرون ينقلون في سفن شراعية دائمة التعرض للريح وتقلبات الجو. وكان أغلب المهاجرين من الفقراء، والكثيرون منهم معدمين يائسين. وكان من بينهم البستانيون الجبليون المطرودون من أراضيهم المستأجرة، والصناع الإنجليز؛

والنساجون بالأيدي، والميكانيكيون المتعطلون بسبب ركود التجارة الذي حدث بعد الحروب النابوليونية، والفلاحون الذين استولى ساداتهم على أراضيهم، وقبل كل شيء: الفلاحون الذين أفلسوا بسبب عجز محاصيل البطاطس وأخرجوا من أراضيهم المستأجرة لقصورهم عن دفع الإيجار. وقد أتى من أوروبا، وبخاصة من الدويلات الألمانية، الآلاف من المهاجرين الفلاحين والصناع المتلهفين على استئناف الحياة من جديد بمنأى عن مظالم أوروبا. وفي الحق أن بؤس الدنيا القديمة واليأس منها هما اللذان عمَّرا الدنيا الجديدة بالسكان. فلقد تدافعت عبر البحار ضحايا القحط في أيرلندا والتعطل في إنجلترا والثورة والعسف في أوروبا، وفي السنوات العشر -الواقعة بين ١٨١٥ و ١٨٢٥- زايل بريطانيا نحو سبعين ألفًا. وفي عام ١٨٥٠ ما لا يقل عن ١/ ٤ مليون، أغلبهم من الأيرلنديين. وكثير منهم هبط كويبك ورحل منها إلى الولايات المتحدة. وكانت أقوام كثيرة تهبط نيويورك في كل عام وعلى سبيل المثال: رحل في عام ١٨٤٨ من النساء والرجال مائة ألف، نصفهم من الألمان ونصفهم من الأيرلنديين وقد قلل من تعب الرحلة وطولها مجئ خط كيونارد البحري إلى نيويورك في العقد الخامس ومجيء بواخر أللان إلى كويبك في العقد السادس، وكان مجموع من عبروا المحيط في القرن المنتهي بسنة ١٨٩٠ لا يقل عن ١١ مليونًا، وصل منهم ٩ ملايين إلى الولايات المتحدة. ومع هذا فإن طوفان المهاجرين لم يقف عندئذ.

ووجد الوافدون الجدد أمة بدأت فعلًا في التحول صوب أرض (تنسي وكنتاكي -وأوهايو) الطيبة ومناطق (اللينوي وميسوري وإنديانا وألاباما والمسيسبي) التي تليها في البعد والتي صارت كلها ولايات في الاتحاد، قبل عام ١٨٢١. ورحل الخيالة وعربات النقل على طول البوابات الجديدة لدفع المكوس، خارج مقاطعة نيويورك أو على طول طريق الجيش القديمة (برادوك) خارج بنسلفانيا في اتجاه الغرب. ولم يكن أولئك هم الرواد بل كان أولئك تجار الفراء والصيادين نصف

المتوحشين الذين أخذوا، في كل وقت، ينأون عن المجتمعات المستقرة. إلا أن من جازفوا بالنزوح غربًا اضطروا جميعًا إلى الاعتماد، في كل شيء، على مواردهم الخاصة. وقد طرد الهنود من مناطق صيدهم بعد منازلات دموية كثيرة، وبعد غارات فجائية متعددة شنها جيش الولايات المتحدة المرابط، وبعد فخاخ ومذابح وسلخ جلد الرأس. ورحل المستعمرون وراء ذلك غربًا في دروب واضحة المعالم -زادها رجال الحدود وضوحًا- دروب تؤدي إلى سنتافي بالمكسيك (واسمها الحالي: نيو مكسيكو، أي المكسيك الجديدة)، وإلى كاليفورنيا وأوريجون. وكان رجال مسلحون بالبنادق يحرسون قوافل «سكونات» البراري (وهذا هو الاسم الذي كان يطلق على مركبات النقل الكبيرة المغطاة) وكانوا يعيشون، في الأغلب، على لحم الجاموس، وذلك في السهول التي تسود آفاقها أحيانًا بقطعان مسنمة الظهر جسيمة. وقد تلاشى الجاموس بسبب رصاص البنادق الذي يطلق عليه بلا رحمة. وقد درجت مركبات النقل على أن تتلكأ ليلًا توقيًا من غارات الهنود المباغتة. وفي هذه العملية -عملية الظفر المتلهف المأمول الجسور- بقارة تكثر فيها البراري والأعشاب والغابات الجبارة، في هذه العملية أدت الأنهار نفعًا كبيرًا. فلقد كان من السهل حمل مركبة النقل على طوف كي تسبح منحدرة في (نهر) الأوهايو. وكان المسيسبي في السنوات القليلة التي تلت ١٨٣٠ يستخدم فعلًا طريقًا عامة للسفن العريضة ذوات المجاذيف التي تدور بالبخار وذوات المداخن الطويلة.

وهكذا أخذ أحسن الأرض. وهكذا اجتيزت الصحراء وفلاة الصبار وممرات الروكي الجليدية التي قهرتها أمة جديدة من المغامرين. وعجل مجيء سكك الحديد بكل شيء. وفي ١٨٦٠ أكملت السكك الحديدية التي تعبر القارة، وقد دق آخر مسمار فيها في أوجدين (بوتا) وقتما التقى الجزءان الشرقي والغربي.

ولقد كان يوسف بريستلي -وهو أحد الإنجليز المتخصصين في العلوم وأحد الذين يؤمنون إيمانًا قويًّا بسلطان العقل- يتحمس غاية التحمس للجمهورية

الأمريكية حديثة الميلاد. وفي ١٧٩١ كتب يقول إنه ليس من المحتمل -في أغلب الظن- أن تشتعل، في أي وقت، في الولايات المتحدة حرب أهلية، وإنما الملكيات «القليلة الاعتدال» هي التي تكابد مثل هذا الشر. ولكن بعد ذلك بأقل من مائة سنة حدثت فعلًا حرب أهلية في أمريكا، حرب دموية ضارية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية. وفيما بين ١٨٦١ و ١٨٦٥ انسلخت: فرجينيا وولايتا كارولينا وجورجيا وتنيسي وأركانساس ولويزيانا وألاباما والمسيسبي انسلخت كلها عن الاتحاد وانتخب رئيسها الخاص بها وأعلنت الولايات الشمالية الحرب عليها لتكرهها على البقاء في الاتحاد. وقد يبدو هذا أقرب إلى الغرابة نظرًا لأننا نتفق، عادة، على أن الناس يجب أن يكونوا أحرارًا في اختيار حكومتهم. ولكن الواقع أنه كان هناك خلاف طويل بين الجنوب والشمال، إذ كان الجنوب بلادَ زراعة يقوم بها العبيد، والشمال بلادًا تجارية صناعية. ثم إن الجنوب كانت تكثر فيه بيوت زراعية أرستقراطية أصحابها ملاك يعيشون على أرباح القطن والطباق بينما الشمال بلاد تجار وصناع وزراع أحرار. وكان السبب وراء النزاع هو: استرقاق العبيد. وقد رغب الكثيرون من أهل الشمال في أن يحرروا العبيد، وفي أثناء الحرب أعلن الرئيس إبراهام لنكولن إلغاء الرق[1].

ولقد نشأ لنكولن في أكواخ من كتل الخشب في بلاده الأصيلة: في كنتوكي وإنديانا وعلّم نفسه بقدر كبير وأصبح محاميًا. وبقيادته الباسلة الصبور دفع الشمال إلى الانتصار على الجنوب، وذلك رغم أن الجنوب كان يتزعمه الجندي البالغ النبوغ (روبرت هـ. لي). ومن مآسي الحرب حقًّا أن رجلين كـ (لي) و (لنكولن) يرسلان ليحارب كل منهما الآخر. وهذه مأساة كان لها ما يماثلها في الحرب الأهلية الباكرة في إنجلترا. وكان لنكولن -كلما تقدمت الحرب- يزداد تقديرًا في عيون الناس، وذلك نظرًا لما يبديه من تفهم نادر للطبيعة البشرية ولتفكيره في آلام الناس، غير أنه

(١) انظر شكل رقم -١٢- (توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب).

رأى الأخطار تتهدد قارة مقسمة. وأنقذ حزمُه الاتحاد، بعد أن أزمع إنقاذه حتى ولو كان ذلك يعني الحرب والألم. وقد قال في خطبة جليلة بميدان القتال في جتزبرج في ١٨٦٣، منذ ٨٧ عامًا: «جلب أسلافنا على هذه القارة، أمة جديدة أحسنت إدراك الحرية وقدست فكرة أن كل الناس خلقوا متساوين... وإنا لنصمم تصميمًا جازمًا على أن أولئك الشهداء لم يموتوا عبثًا، وأن هذه الأمة -في رعاية الله- سوف تظفر بمولد جديد للحرية، وأن حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب لن يزول من الدنيا». وفي رأينا - نحن الذين رأينا الحرية يحدق بها أفدح الخطر في كل مكان بالدنيا خلال قرننا هذا- في رأينا أن خطبة لنكولن لها صدى كالبرق. وهذا هو الرجل الذي أتى من الكوخ الخشبي البسيط، والذي لم تكن لوالديه مزية غير تحرير أولئك الذين خاطروا بالذهاب غربًا، والذي وصل إلى أعظم منصب مشرف عن طريق الحرية. وحتى خصومه أكبروا «الأب إبراهام».

ولقد تركت الحرب الأهلية ذكريات سيئة ومرارة. غير أن جراحها لم تؤثر على أولئك الآلاف من المهاجرين الجدد والمتحمسين الذين ظلوا يتدفقون من البلاد الملكية القديمة في أوروبا. واستمر التوسع الأمريكي في نشاط متزايد؛ ولا يمكن القول بأن أمريكا استقرت. إنها لم تفعل ذلك قط. فلقد اشتغل الوافدون الجدد طوال النهار وطوال الأيام، وكدحوا من أجل الربح، واخترعوا، وتاجروا، وصنعوا، وزرعوا، عملوا كل هذا في همة ودأب. وجاهدوا في كل وقت ليتوفروا على نظام موحد للتعليم مستكمل من أصغر مدرسة بالقرية إلى جامعة الدولة. وأصبحت أمريكا بلاد زراع ومهندسين أصحاب ملايين. وخلق -على نحو ما حدث في الدنيا القديمة- نوع جديد من الرجال ألا وهو رجل الأعمال. وفي عشرات من السنين نشأت مدن عظيمة مثل شيكاجو، وبفلو، وسان فرانسسكو، ونيويورك التي بنيت على جزيرة وامتدت إلى أعلى بناطحات السحاب. وقد أظهر الأمريكيون في كل حياتهم وكل أعمالهم براعة مذهلة وتعطشًا للسرعة والابتداع، وهذه نتيجة

مغامراتهم الدائمة الحركة لتطويع إحدى القارات.

ولم تحلّ نهاية القرن حتى كان طوفان المستعمرين الأيرلنديين والألمان قد ثقل على المجتمعات التقليدية القديمة في نيو إنجلند وفرجينيا ونيويورك الهولندية، وقد فاتت أيام ربب فان ونكل (في الحجر الوسنان) وفاتت أيام ريفيي مسانشوستس. ومع هذا فقد أخذت هذه الأمة المعجزة تداوم الامتداد على يد منفيي الأمم الأخرى وتبرهن على صحة مبادئ مؤسسيها الذين بنوا ميراثهم على قوانين وعادات إنجلترا القرون الوسطى. وقد أخذ زعماء الولايات المتحدة على عواتقهم أن يحببوا تقاليدهم ويلقنوها لأكثر البيئات تنوعًا: الألمان، والأيرلنديين، والسلاف، واليونانيين، واليهود، والإيطاليين، بل الصينيين واليابانيين على سواحل المحيط الهادي حيث هبط كذلك إسبان منذ العهد الذي حكمت إسبانيا فيه كاليفورنيا. وقد أطلق كاتب على أمريكا بحق، لقب «بوتقة العالم» التي امتزجت فيها الشعوب جميعًا.

وقد ظلت الولايات المتحدة – في مدى ١٥٠ عامًا بعد إنشائها– تتابع طريقها، دون عقبات، بالاهتمام بشؤون أوطان سكانها الأصلية الكثيرة العدد في أوروبا... احتفظت بقوانينها ودستورها وامتصت تلك الملايين التي تطلعت إلى الحرية والعمل. ولا عجب إذا قل اهتمام مواطنيها بما يدور في العالم الخارج، إذ إن دنياهم كبيرة تستغرق كل تفكيرهم وأنهم لديهم أعمال تفوق طاقاتهم. ومهما يكن فقد زايل المهاجرون إليها، دنياهم القديمة بإرادتهم الحرة وأداروا ظهورهم نحوها ليصنعوا دنياهم الجديدة. فلماذا إذن يهتمون بشؤون أوروبا؟

التوسع: الهند:

إلى أن وافى منتصف القرن التاسع عشر كان تجار شركة الهند الشرقية قد حكموا الهند بأجمعها حتى جبال الشمال. وقد تأتّى ذلك بمقتضى معاهدة وأيضًا بالفتح في

البلاد التي لم توجد فيها الوحدة أو فكرة الوحدة، بلاد كان فيها الهندوس والمسلمون مختلطين متخاصمين؛ ولم يوجد فيها قانون موحد بل وجدت خرافات لا حصر لها وعادات همجية وحكومات لا تحصى. وقد نظم عملاء الشركة وجنودها – يعاضدهم ضباط الملكة وجنودها– قانونًا موحدًا أو سلطة موحدة. وزحف أكثر من جيش إنجليزي هندي إلى داخل جبال أفغانستان الوحشية بعد الحدود الشمالية الشرقية. وهذه المنطقة حربية تشبه ما كان عليه سور هدريان في بريطانيا القديمة أو تحاكي متاريس الجيش الروماني في بلاد الراين.

وقد أدى امتلاك الهند إلى إخضاع بورما وهي بلاد أدغال، كما أدى –بمقتضى معاهدات– إلى امتلاك ولايات الملايو في شبه جزيرة الملايو، وهي بلاد أثْرت ثراءً فاحشًا من صفيحها الخام ومن شجر المطاط الذي يكثر فيها. وفي ١٨١٩ أنشئ ميناء سنغافورة وأصبح مركزًا للتجارة الشرقية التي ولدتها بحار الشرق وملتقى الصينيين والهنود والعرب وأهل الملايو وتجار الهند الشرقية. وقد أمسى إنجليزي مغامر – اسمه بروك– أمسى راجا (أو حاكم) السرواك، وهي قسم كبير من جزيرة بورنيو الكبيرة. ولم يحل آخر القرن حتى كان نصف ملاك الجزيرة من أملاك بريطانيا. وأصبح المحيط الهندي –من رأس الرجاء الصالح إلى سنغافورة– بحرًا بريطانيًّا.

وإلى أن حلت نهاية القرن السابع عشر كان لشركة الهند الشرقية مصانع في كلكتا وبومباي ومدراس وكانت لها تجارة مع الصين. وبنى تجارها مرفأهم التجاري في بلاك وول (أي الحائط الأسود) على (نهر) التيميز، كما بنوا مراكب كبيرة انفردوا بها، وصنعوا حبالهم وأشرعتهم، بل صنعوا براميلهم الخاصة. وكانت سفنهم مجهزة بمدافع عديدة حتى أمست أقرب إلى السفن الملكية منها إلى السفن التجارية، وقد وسعها أن تُنازل وتغرق سفنًا حربية أجنبية. وكانت مصانع الشركة في الخارج –حيث تخزن البضائع وتعد للشحن– كالمدارس الكلية، فيها حاكم وقسيس وكنيسة صغيرة وقاعة للأكل، وقد جندوا فرقًا من الإنجليز وفرقًا من الهنود.

وكانوا يتصرفون في الواقع -وفي كل شيء- كما قد تتصرف سلطة ذات سيادة. وفي نضالهم مع الشركة الفرنسية، في القرن الثامن عشر، أرسلت فرق الملك كي تساعدها، وفي آخر ذلك القرن أرسل حاكم ملكي ليحكم إمبراطورية البلاد التي أحرزها التجار.

ولم يُرَ شبيه لهذا من قبل، وليس من المحتمل أن يُرى مرة أخرى.

وبعد التمرد الذي حدث في الفرق الهندية البنغالية، عام ١٨٥٧، انتهت الشركة. ومنذ ذاك الوقت آل حكم الهند إلى نائب ملك وإلى مجلس باسم الملكة. وكان ثلث البلاد يتكون من ٦٠٠ مقاطعة أهلية يدير شؤونها أمراؤها المختلفون في القوة والاعتبار، من نظام حيدر أباد (الذي يحكم مناطق تضاهي إنجلترا في سعتها) إلى زعيم قرية مفردة. وحكم الثلثين الآخرين، باسم الملكة، نحو ألف موظف من المختارين المخلصين، يدير كل منهم منطقته كما قد يفعل الحاكم المستبد. ويكون هذا الحاكم أحيانًا الرجل الأبيض الوحيد بين ربع مليون من الأهلين. وكان يعاضد هذه الحكومة المدنية العجيبة جيش لا يقل عجبًا، قوامه ربع مليون جندي، منهم ٧٥ ألفًا من البريطانيين. وكانت فرقة بريطانية تعسكر مع ثلاث فرق هندية، ويقودها جميعًا ضباط بريطانيون. وكان المشاة والخيالة الهنود يجندون من بين الشعوب البواسل مثل البنجاب والسيخ والمراتا والدوجرا والراجيوت، ومعهم باتان وجودكا من وراء الحدود. لقد كان جيشًا لم تر الدنيا شبيهًا له. وكان الأمر الثالث والأهم في شأن هذه الإمبراطورية الهندية العجيبة أن الرجل والمرأة العاديين في بريطانيا، معرفتهما بها قليلة واهتمامهما أقل.

وقد بدأت الهند -تحت الحكم البريطاني- تشارك في مزايا الهندسة الغربية: الطرق والسكك الحديدية، والتلغراف، والقنوات، والمنارات، والجسور (الكباري)، والخزانات. لقد أنشئ كل هذا. وأدخلت طرق للزراعة أكثر نجاحًا، وقُطعت بعض الأدغال. وأُخضعت الفيضانات والمجاعات والأوبئة بعض الإخضاع وحُدّ بعضُ

الحد من تأثيراتها المروعة. واستقرت مناجم الفحم والحديد، وزرع القطن والقصب والقنب (الجوت) وأقيمت المصانع، واحتفظ بالغابات توفيرًا للخشب، وتنفيذ هذه الأمور لا يتطلب وقتًا طويلًا، وهو الجزء من مجهود الإنسان الذي يقل في الأهمية. أما الجزء الأصعب فهو التوفر على وضع نظام طيب للتعليم أو الصحة العامة. ولم يكد القرن يشارف نهايته حتى كان للهند جامعاتها ومدارسها الطبية.

التوسع: الشرق الأقصى:

حكاية أوروبا أقل بكثير من نصف حكاية الإنسانية. فلقد كان هناك -وراء غابات أوروبا الوسطى وسهولها، وهضاب بلاد الفرس- منطقة مراعٍ شاسعة انحدرت منها قبائل خشنة من الهون والتستر، على الحدود الشرقية لأوروبا حيث كان يحسبهم سكانها سياطًا أرسلت للتنكيل بالأشرار أو كائنات صعدت من دنيا جهنم. وكذلك أغار أولئك الفرسان المتوحشون على الحدود الغربية لمدنية بالغة القدم في الشرق الأقصى، وهي الإمبراطورية السماوية للصين التي بنى حكامها الأولون السور العظيم، الذي يمتد ١٨٠٠ ميل، لكي يبعدوا المغيرين.

وترجع المدنية الصينية إلى عهد سحيق مظلم، إلى ثلاثة آلاف عام قبل المسيح. ولها تاريخها الطويل في صدر الإمبراطوريات والأسر والحروب والفتوح. وقد طورت طريقتها الخاصة في الكتابة على الورق وأساليبها في البناء والزراعة والتجارة. وكان لها أدبها وفنها الجميل وألعابها (بما فيها كرة القدم ذات الطرائق السبعين في ركل الكرة) وقصصها التمثيلية. وقد بقيت مجهولة للغربيين الذين لم يتصلوا بها قط اتصالًا مباشرًا كائنًا ما كان نوعه. اللهم إلا -على سبيل الاحتمال- بطريقة عابرة عندما زحف فرسان الإسكندر إلى داخل الهند ولقنوا الشعوب، التي تستوطن شمال شبه الجزيرة تلك، بعضَ العلم بالأساليب الإغريقية. وقد وصل رحالة انفراديون إلى الصين من الغرب، وجرى قبس واهٍ من تجارة أنواع الحرير على يد سلسلة طويلة من التجار. أما معرفة أوروبا بالصين معرفة تامة فقد بدأت عندما

رست سفينة برتغالية في كانتون سنة ١٥١٤، وقد وجد صينيون كثيرون في ملقا حيث كانت السفن الصينية شيئًا مألوفًا. وبعد أن حل الهولنديون والإنجليز محل البرتغاليين في المياه الشرقية تاجرت سفنهم في الموانئ الصينية. وقد أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية وكالة في ١٧١٥ في كانتون حيث كان وكلاؤها يتاجرون -مع أداء الشعائر المرعية- مع محال التجار الأجانب، فيبيعونهم رزمًا من الأقمشة الصوفية لقاء صناديق من الشاي.

والشاي -الذي هو الآن المنعش المألوف في بيوتنا- هو الهبة السامية التي قدمتها الصين. وزرعت الأصناف الهندية المختلفة -فيما بعد- لتمدنا بالمقادير الهائلة التي نتطلبها. وكان أحد صادرات الشرق الأقصى الشهيرة: الخزف وبخاصة خزف أسرة منج. ذلك أن الصينيين كانوا خزافين مهرة، زهرياتهم وتماثيلهم الصغيرة وأقداحهم وأطباق أقداحهم يكثر عليها طلبُ جامعي التحف. وإن مهارتهم لتخلدها، بحق، الكلمة التي نستعملها للتعبير عن أدوات المائدة: «الصيني» ومن هباتهم العظيمة الأخرى للشرق، المجموعة الكبيرة البديعة من الشجيرات والأزهار التي جلبها علماء النبات الذين حملوها إلينا، على مدى القرنين الماضيين، من أقاليم الصين كافة.

وكانت أفكار الصينيين -من حيث القانون والتجارة وآداب السلوك- تخالف الأفكار الأوروبية كل المخالفة، غير أن فهمهم للفضيلة والواجب يشابه فهم الأوروبيين كل الشبه. فلقد كانوا مرحين صخابين أوفياء كثيري العمل صبورين مجاملين. وهم لم يحفلوا بفروق طبقية شديدة متزمتة كما يفرق الغربيون بين الأرستقراط وعامة الشعب. ومن حيث المهن الأربع التي تفوق غيرها في الأهمية كانوا ينزلون العالِم أرفع منزلة ويليه المزارع، ويأتي بعده الصانع الماهر، ويحسبون التاجر في المؤخرة. (وهذا -في الجملة- يعاكس الترتيب الغربي على خط مستقيم). وقد درجوا على أن ينتخبوا حكامهم وموظفيهم من زمرة العلماء المتضلعين في العلوم الصينية القديمة.

ودراسة خير ما في المدنية الصينية هو رؤية حياتنا وعاداتنا على ضوء جديد. وحكمة فلاسفتهم -من أمثال كونفشيوس ومينيكوس- بوضعها ميراثًا يدخر للجنس البشري كافة- لا يقل عن ميراث حكمائنا. فلقد كانت الإمبراطورية الصينية أكبر مساحة من أوروبا وبقيت أطول من أي إمبراطورية أخرى في تاريخ العالم بمدة تقدر بأجيال. وأكثر ما يسترعي النظر في الحياة الصينية هو تماثلها في أثناء عصور الغرب المسيحية جميعًا. إلى أن فرض الغرب نفسه على الصين ونقل قلقه إلى الشرق الأقصى.

وحكاية التجارة الغربية مع الصينيين حكاية ليس في مقدورنا أن نفخر بها... في عام ١٨٣٤ حارب البريطانيون الصينيين ليكرهوهم على الترخيص باستيراد الأفيون الهندي، وفي حرب شنتها -فيما بعد- الفرق البريطانية والفرنسية أحرق -بطريقة هوجاء- القصر الصيفي الجميل الذي يصطاف فيه أباطرة المنشوري (وهو صقع في شمال الصين). ولكي تأمن الدول الأوروبية على تجارتها وعلى الربح الذي تدره، أكرهوا الصينيين على أن يعطوهم موانئ محددة -كانتون، أموي، فوشاو، ننجبو، شنغهاي- ليعيش فيها تجارهم وليرسلوا بضائعهم عن طريقها. وخص البريطانيون أنفسهم بـهونج كونج، ولا يدهشنا أن الكثيرين من الصينيين لم يحبّوا مجيء «الشاطين الأجانب» إلى بلادهم، ولنا أن نتصور إلى أي حد نغضب نحن إذا أرسل أباطرة المنشوريين تجارهم ليحتلوا أنتورب (أنفر) أو لندن. وقد حسب الأكثرون من تجار الغرب أنفسهم الناس «المتمدينين» الأعلين ونظروا إلى الصينيين على أنهم «أولاد البلد». ومن سوء حظ الصينيين أن الحكام المنشوريين كانوا ضعاف الشخصية في الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر، فقد نجم عن هذا اضطراب الصين بالحروب الأهلية والخصومات، سنوات طوالًا، أغلب الوقت في واقع الأمر وربما كانت تلك الحالة تشبه، بعض الشبه، ظروف أوروبا في السنوات الأخيرة للإمبراطورية الرومانية. وكان من سوء حظ الصينيين الفادح أن اليابانيين تحولوا إلى

دولة قوية مجهزة مسلحة بآلات الرجل الأبيض وأسلحته.. بالسحر الجائر.

وقد أيقظ اليابان تحرقُ الرجل الأبيض إلى التجارة مهما كلفه ذلك. فلقد أكره الأمريكيون اليابانيين على استقبال التجار في ١٨٥٤. وفي أعقاب هذا، برهن سكان تلك الجزائر صغار الحجم على أنهم تلاميذ مستعدون لتلقي الحذق الفني والعلم الغربيين، وما هو إلا القليل حتى تحولوا إلى أمة صناعية تملك بحرية وجيشًا قويين تقودهما أرستقراطية قوية. وفي ١٨٩٤ انتزعت اليابان كوريا من الصين، وأثار هذا غيرة الدول الغربية (بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا) وحفزها هذا على الاستيلاء على موانئ صينية.

وفي ذلك الوقت كانت الأصقاع المتمدنة في الصين -كالأصقاع غير المتمدنة في أفريقيا- تحت رحمة مزيد من أطماع الدول الكبرى وشهواتها ومنافساتها، فلما اتحد الوطنيون الصينيون (المعروفون باسم البوكسر، أي الملاكمين) وقتلوا المهندسين والمبشرين الأوروبيين ضمت الدول الكبرى قواتها وسلبت ونهبت بكين وغيرها، وتصرف الكثيرون من جنودها تصرفات بربرية (١٨٩٩ -١٩٠١).

وبعد هذا بسنوات قلائل -في عام ١٩٠٤- تنازعت روسيا واليابان على أيهما يحكم منشوريا. وأشعلا حربهما في الأراضي الصينية وفي المياه الصينية. وهزم اليابانيون الروسيين وأغرقوا أسطولهم.

وفي سنة ١٩١١ أصبحت الصين بالاسم فقط، جمهورية. ولكن كان الواقع أن إمبراطورية المنشوريين قسمت. ولم يستقر الوضع على حكومة موحدة، بل حدث أن حكومات وجيوشًا متنافسة زحف بعضها على البعض وحارب بعضها بعضًا. وكفلت معاهدة الموانئ -التي عقدتها الدول الغربية- القانون والنظام. غير أن هذه الدول، في مدى أربعة أعوام، اشتبكت في حرب شملت أغلب العالم.

التوسع: أفريقيا:

قلت متاعب الكنديين مع الهنود الحمر نظرًا لمجهود الشرطة الراكبة، ولم يلق الأستراليون معارضة من السكان السود الأصائل. والأمريكيون والزيلنديون حاربوا الهنود الحمر والماوري على التتابع، ولكنهم مع ذلك لم يستعبدوهم.

أما في أفريقيا فكانت الحقيقة مختلفة بشكل مروع. فإن هذه القارة الضخمة، التي كانت شواطئها الشمالية يومًا موئلًا لمدنية قديمة، احتفظت بأسرار هامدة أطول مما احتفظت الأخريات. فلقد حلّت عليها لعنة الرق، وكانت مجموعات لا تحصى من العبيد يعرضون للتجارة حتى على يد زملاء لهم من العبيد الذين باعوهم بيع السلع لتجار عرب الشرق أو لرباني سفن الغرب الأوروبية. ويمكن إجمال أغلب تاريخها في كلمات قليلة مروعة: الجهل، والفقر، والجوع، والمرض، والحرب، والخوف، والخرافة، والاسترقاق. وفي وقت باكر -قبل أن يعرف أي رجل أبيض أين تجري أنهار أفريقيا أو أين تطاول جبالها السماء فوق بحيرات كبيرة كأنها بحار داخلية- قبل هذا نقلوا بالقوة الجبرية أقوامًا بتمامها من السود ليكدحوا في زرع السكر والطباق والقطن والنيلة، بالدنيا الجديدة. لقد استبعد ما لا يقل عن ٦٠ مليونًا من المروَّعين، من قرابة أربعين محطة عبيد على طول الشاطئ الغربي الاستوائي حدث ذلك في القرن الثامن عشر. وفي آخر ذلك القرن لم يكن معنى أفريقيا، في نظر الأوروبيين، أكثر من المتاجرة في ذاك «العاج الأسود» وبكمية أقل، في سن الفيل والتبر (وهو تراب الذهب) والماهوجنى (أي خشب الكابلي). ووجد على طول الشاطئ الغربي بالجزائر قراصنة أو لصوص البحر. ووجد -على بعد ستة آلاف من الأميال، عند رأس الرجاء الصالح مستعمرة بالغة الصغر للهولنديين أو البوير. على أن شيئًا ما لم يكن يعرف عن المناطق الداخلية الاستوائية وشبه الاستوائية، لأن أفريقيا عندئذ كانت «قارة سوداء» بكل معاني الكلمة[1].

---

(١) انظر شكل رقم -١٣- (احتلال أوروبا لأفريقيا).

وبعد أن ضمت بريطانيا جنوب أفريقيا في ١٨٠٧ اختلف البوير وحكامهم الجدد في شأن الأهلين.. كان الأهلون -في نظر البوير- سلالة منحطة من بني آدم. أما بريطانيا العظمى فقد بدأت في ذاك الوقت ترسل عشرات من الشبان لينصروا وثنيي المحيط الهادي وأفريقيا. ولم يتفق المبشرون والبوير في الرأي في شأن الزنوج. فلما حرر كل العبيد بالممتلكات البريطانية حلت بالبوير -بسبب تصرفات خرقاء- خسائر تفوق كثيرًا الخسائر التي حلت بزراع الهند الغربية الأغنياء. والواقع أن هذه المعضلة ذات الأطراف الثلاثة -البريطانيين والبوير والبانتو (أي الأهلين)- كانت بالغة التعقيد، ولم تبسطها التهجمات والتهم التي كان يوجهها كل طرف إلى الطرفين الآخرين.

وحلت النتيجة في عام ١٨٣٦ والسنوات التالية عندما حزمت جموع غفيرة من البوير أمتعتها على مركبات بطيئة تجرها الثيران واتجهت شمالًا تبحث عن مواطن جديدة ومزارع في البراري التي كانت، عندئذ، مناطق صيد المحاربين الزولو ومراعيهم. وكانت تلك الهجرة الكبرى -في نظرهم- رحلة شعب مضطهد إلى الأرض الموعودة، رحلة اقترنت فيها الشجاعة بالمأساة. وقد قتل الكثيرون منهم بيد القبائل المتعطشة للدماء. أما أولئك الذين شقوا طريقهم بالقوة فقد أسسوا ولايتين جديدتين: إحداهما على نهر الأونج وثانيتهما في الترانزفال.

وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون يعملون في أقصى الشمال. فقد فتحوا الجزائر وركبوا البحر الأبيض المتوسط بحر القراصنة -ثم بدأوا يخططون مشروعات لوصل البلاد التي فتحوها حديثًا بمقرهم على نهر السنغال.

وفي منتصف القرن استكشف رحالة ومبشرون -وكان أعظمهم دافيد لفنجستون- الجزء الداخلي المعتم من أفريقيا الوسطى مترسمين مجاري أنهار: النيجر والنيل والزمبيزي والكونغو ومستكشفين البحيرات الكبرى. وقد أبانوا عن الوحشية المفزعة والفظائع المروعة لحياة القبائل وحروبها. وكذلك أبانوا عن

الثروات الطبيعية الضخمة التي تحتويها القارة. وكان ذلك تحديًا مزدوجًا للأمم الأوروبية، أولًا لنشر الدين المسيحي وثانيًا للاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض يمكن الاستيلاء عليها طلبًا للربح. وكانت النتيجة أن تدافعت الدول الكبرى لحيازة الأراضي الإفريقية في العقدين التاسع والعاشر.

وضم البلجيكيون -بمجهود مليكهم ليوبولد- الحوض الكبير لنهر الكونغو، حيث أخذوا يزرعون المطاط وحيث استكشفوا فيما بعد معادن كبيرة القيمة. ومدت بريطانيا نفوذها على أراضي النيجر وخلقت نيجيريا بعد أن استولت على نياسالاند وأوغندة. وكان البرتغاليون قد امتلكوا فعلًا أنجولا وشرق أفريقيا البرتغالي، اللتين خلفتهما لها أيام الاستكشاف البطولية في القرن الخامس عشر. ووضع الألمان -الذين تخلفوا في الإقدام على الغزو- أيديهم على الكاميرون وعلى مناطق كبيرة في شرق أفريقيا وغربها. ونجح الفرنسيون في مجهودهم الطويل المدى ليبسطوا سلطانهم على رقعة محبوكة من الأرض تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى شاطئ غينيا بما في ذلك الصحراء الكبرى. ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت أفريقيا كلها، باستثناء مملكة الحبشة (إثيوبيا) المسيحية وليبيريا الواقعة على الشاطئ الغربي (التي استوطنها عبيد متحررون)، قد قسمت بين الدول الكبرى.

وحتى مصر نفسها احتُلت.. وهناك -فيما بين ١٨٥٩ و ١٨٦٩- احتفر مهندس فرنسي، اسمه ديليسبس، قناة السويس ليقصر الطريق البحرية إلى الشرق، ووقتئذ أصبحت مصر، من فورها، ذات أهمية. فاحتلتها بريطانيا وحكمتها في ١٨٨٢ لمصلحتها الخاصة. وكانت نتيجة ذلك أن سيطرت على السودان. وأصبحت قناة السويس حلقة هامة في سلسلة المواصلات الإمبراطورية البريطانية، وبخاصة لوقوع مصر وسط المقتضيات التجارية والحربية لمصلحة بريطانيا.

وقد أعاد المبشرون تنظيم تدوين اللغات الأهلية المتعددة. وما يزالون يعملون بمساعدة الحكومة. ولكن الأحداث، في الجنوب الأقصي، تحركت صوب كارثة

كبرى. في عام ١٨٧٧ ضمت بريطانيا جمهوريات البوير. وفي عام ١٨٧٩ أباد الزولو قوة بريطانيا. وفي عام ١٨٨٢ أباد هولنديو الترانزفال، في ماجوبا، قوة أخرى من البريطانيين. ولكن فيما بعد، أخضع الزولو وضمت بلادهم. وقد تركت الحكومة البريطانية أهل الترانزفال وشأنهم ولكن المغامرين لم يتركوهم. وكان الماس قد وجد في كيمبرلي والآن وجدت -في ١٨٨٦- عروق من خامات الذهب على ويتواتر ستاند (الراند) في الترانزفال. فاندفع، في الحال إلى البلاد حشد كبير من الباحثين عن الذهب ليجازفوا بتحقيق مبتغاهم. ولم تمض سنوات قليلة على محلة جوهانسبرج الصغيرة حتى تحولت إلى بلدة غنية ومركز لصناعة التعدين في العالم. ولم يكن أولئك الأجانب أو «الغرباء» صفوة المدنية بالمعنى المفهوم. وكان رئيس الترانزفال -بول كروجر المسن- مزارعًا بويريًّا «طبق الأصل» شارك، صبيًّا، في الغارة الكبرى التي أشعلت لجعل تلك البلاد وطنًا قوميًّا.

وكان أحد الرجال الذين ربحوا الملايين من الماس والذهب: سل رودس وهو ابن قسيس إنجليزي. وفي عام ١٨٩٠ صار رئيس بلاد الكاب. وقد استخدم ثروته في تأليف شركة تستخدم أراضي الأهلين الواقعة شمالي الترانزفال. وكان الفضل في التنفيذ للتجريدة المسلحة التي أرسلتها الشركة. وأطلقت على البلاد التي دخلت في الحيازة حديثًا اسم روديسيا. وعندئذ أحاطت الأملاك البريطانية بالبوير من كل جانب.

ونظم رودس حملة مسلحة لتدخل الترانزفال كي تساعد أغراب الراند الذين كانوا -في الواقع- يلقون من البوير معاملة قاسية. وأخفقت الحملة إخفاقًا مبينًا. وفي عام ١٨٩٩ وصل سوء التفاهم بين البوير والبريطانيين إلى توتر حدا بفرسان الترانزفال وولاية الأورانج الحرة إلى أن حشدوا فدائييهم ودخلوا بخيلهم مستعمرة ناتال البريطانية. وقد جاؤوا بمدفعية مشتراة من أوروبا وكانوا يحسنون تصويب البنادق ويجيدون التحركات. وهذا يعيد إلينا، في وضوح، النبالة الخيالة الذين

أعدتهم بريطانيا في القرون الوسطى، وبدأت الحرب التي تلت ذلك بسلسلة من الهزائم البريطانية. ولم تكسب إنجلترا غير المعركة الأخيرة في عام ١٩٠١ بعد أن أرسلت إلى الميدان بربع مليون من الجنود بينهم ركبان كثيرون من مستعمراتها. وخسرت ستة آلاف قتيل، وعشرون ألفًا غيرهم ماتوا بالحمى وبالدوسنتاريا. ولم تقتنع سائر الدول الأوروبية لا بعدالة مقاصد إنجلترا ولا بذكاء قوادها. وسادت الحكمة في وستمنستر بصلح ١٩٠٦ الذي منح البوير استقلالًا داخليًّا كاملًا، داخل اتحاد كل مستعمرات جنوب أفريقيا.

وإلى أن حلت سنة ١٩٠٠ كان خلفاء دا جاما وكولومبس وكابوت وكارتييه وتسمان وكوك قد امتلكوا جميع الأراضي في جميع القارات. وبسط نسر روسيا الإمبراطوري جناحيه على إمبراطورية وصلت إلى منغوليا، وذرع نسر الولايات المتحدة الجمهوري، أمريكا، وأصبح العالم ملكًا للأوربيين، باستثناء الصين في فوضاها الكبرى العديمة التنظيم، واليابان الكاملة التنظيم والتسليح التي تعج بالسكان وتتطلع إلى أراض جديدة، وباستثناء مجموعة أراضي الشرق الأدنى المحطمة حيث يستمتع التركي براحة على حساب رعاياه البائسين.

وانتشر العالم حول أوروبا كما انتشر يومًا حول روما القديمة. إلا أن روما كان لها مجلس أعيان واحد وجيش واحد، أما أوروبا فلديها الكثير. وحكمت روما شعوبًا بيضاء كأبنائها. أما أوروبا فقد حكمت ملايين الشعوب الملونة المختلفة. وكان في مقدور خير الرومان أن يجلب السلام إلى إمبراطوريتها. أما السلام الأوروبي فغير موجود. وبدلًا من السلام أغرقت الدول الأوروبية العالم في خصوماتها المرة.

الأمم في جهادها من ١٩١٣ إلى ١٩١٨:

في وقت قصير أصبحت ألمانيا الجديدة إمبراطورية غنية صناعية تجارية وتطلعت إلى أن تستعمر. وفي زحمة التكالب على الأصقاع التي لم تحل في أفريقيا

استولت، في عام ١٨٨٤، على مناطق شاسعة في الجنوب الغربي لتلك القارة، وفي شرقها، كما استولت على توجلاند والكاميرون. وكذلك احتلت غينيا الجديدة. وكان مهندسوها وصناعها وعلماؤها حاذقين، وتجارها ذوي إقدام، وسفنها تتاجر مع كل أجزاء المعمورة، وسكانها موفوري العدد مطيعين شجعانًا محبين للعمل. وأخذ بعض أبنائها الزائدي الحماسة يبشرون بمبدأ أن الألمان شعب ممتاز قدر له أن يسيطر على جميع من دونه من الأجناس البشرية. وكان جيشها النظامي خير جنود أوروبا تدريبًا. وكان أركان حربها وضباطها يحتقرون الروس ويصغرون من شأن الفرنسيين كثيرًا ويصغرون من شأن البريطانيين أكثر من ذلك. ولم تكتف بحيازتها لأداة حربية عظيمة فبدأت تبني عمارة بحرية حربية تتحدى بها الأسطول البريطاني.

وقرب هذا التهديد بين فرنسا وبريطانيا فتفاهما وعقدا، في ١٩٠٤، اتفاقًا وديًّا. وكانت روسيا وفرنسا حليفتين، وألمانيا والإمبراطورية النمساوية حليفتين كذلك. ولإكمال دائرة الاتفاقات والمنافسات نقول إن روسيا والنمسا كانتا تتنافسان على النفوذ في البلقان. وهكذا وجدت مجموعتان من الدول الكبرى تتنافسان وتخشى كل منها الأخرى. إلا أن أوروبا استمتعت بأربعين سنة شاذة امتازت بالسلام والرخاء، وبدا أنه -إذا استثنينا النزق البشري- ليس هناك ما يمنع الدول من فض خصوماتها بالطرق الودية. والواقع أنه كانت هناك في لاهاي محكمة دولية يفصل مشرعوها العلماء في الخصومات التي تقع بين الأمم وينهونها بالطرق السلمية[١].

وفي يونيو ١٩١٤ قتل الأرشدوق فرديناند ولي عهد التاج النمساوي، في سرايفو بالبوسنة. ولما زعمت النمسا أن الحادثة قد بيتها الصربيون طلبت ترضية كاملة من الحكومة الصربية. ولكنها لم تترك مهلة للمفاوضات الهادئة، وأعلنت الحرب بدلًا من ذلك. وعاضدت روسيا أصحابها السلاف الصربيين. ورغم الجهود اليائسة التي بذلها الوزراء والسفراء لحفظ السلام أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وعلى

(١) انظر شكل رقم -١٤- (إمبراطورية آل هابسبرج ١٩١٤).

فرنسا. وواضح أن أركان الحرب النمساويين والألمان انطلقوا يحاربون. وأمل القواد الألمان -بغزوهم بلجيكا، وهي دولة صغيرة محايدة- أن يعجلوا بإرسال جيش جرار إلى شمال فرنسا من أيسر السبل، إلا أنه نجم عن فَعلتهم الغادرة أن أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا في الرابع من أغسطس من سنة ١٩١٤.

ورأى أناس قلائل -من فوق صخور (كِنت)- السفائن البريطانية المحاربة تتحرك، في صفوف طويلة، عبر المضايق، في اتجاه الشمال. وكان الأسطول في طريقه إلى المحطات الحربية في المياه الإسكتلندية. وعُوّق آخرون، من المستمتعين بالإجازات، فترة طويلة حتى تمكنت قطارات عسكرية طويلة من المرور. وكانت سبعة الفيالق الأولى من الجيش النظامي تتجمع في سوذامبتون كي ترحل إلى فرنسا. وترك الناس زراعتهم ومصانعهم ومكاتبهم ليحلوا محل الكتائب التي رحلت، وملئوا المعسكرات. وبذلك أصبحت بريطانيا -لأول مرة في التاريخ- أمة مسلحة. وهرع أبناؤها من جميع نواحي العالم ليلحقوا بإخوانهم. وقدمت الهند والمستعمرات المستقلة جيوشها وثرواتها. وكان الشعور العدائي لألمانيا قويًّا بصورة مذهلة. وحتى عندئذ، في البداية، حدث تصميم على المبدأ القائل: التجأت ألمانيا إلى القوة فلتقابل بالقوة، بل بنهاية القوة، وكأنما كانت حربًا صليبية، وبالنسبة للمجند الفرنسي الذي ذهب إلى معسكره دون تفكير.. وبالنسبة للاحتياطيين الذين ساعدوا في إشعال أفران السفن التي اتجهت إلى وطنهم من أمريكا الجنوبية.. وبالنسبة للمتطوع البريطاني الذي وثب لحمل السلاح... كانت الحرب هي المناسبة التي يهب فيها كل ذي أرب ليقاوم التهديد الذي لا يحتمل، الذي مصدره الاعتداء. لقد دخل الحلفاء الحرب لإنهاء الحرب.

وهذه الاستجابة خيبت قصد الألمان في شن حرب الصاعقة الذي استهدف قهر الفرنسيين أول الأمر ثم التحول شرقًا لهزيمة الروس.

وفي الحق أن هذا كاد يتم. ولكن لحسن حظ الفرنسيين، ولشجاعتهم أيضًا.

استجمع الفرنسيون قواهم ضد المغيرين وردوهم إلى (نهر) المارن. وصنع البلجيكيون ما وسعهم. وقام الجيش البريطاني بدوره الصغير الفعال. وتحولت حرب الصاعقة إلى لعبة شطرنج. فقد احتفر الفريقان خنادقهم على طول الخط من جبال الفوج إلى الشاطئ البلجيكي. ولبث الميدان الغربي أربع سنوات، حرب خنادق وقنابل جهنمية، حارب فيها الملايين من الرجال نوعًا من حروب الحصار. وأطلق العنان لجنون الإنسان ولشجاعته في حرب استدرجت معظم أوروبا. فلقد انضم الأتراك إلى ألمانيا في عام ١٩١٤ وأعلن الإيطاليون الحرب على عدوهم القديم، النمسا، في عام ١٩١٥.

وأصبحت ألمانيا والنمسا وتركيا حصنًا جبارًا أو كتلة من الأرض مسلحة محاصرة من جميع النواحي الممكنة. وقد هاجمتها الجيوش الروسية من البلطيق إلى البلقان. وكذلك هاجم الروس تركيا من جبال القوقاز. ونزل جيش إنجليزي هندي في دلتا دجلة بالعراق. ووقف جيش بريطاني آخر على قناة السويس. وتسلق الإيطاليون وحاربوا على طول (جبال) الألب النمساوية. هذا بينما -من سويسرا إلى الشاطئ البلجيكي- اشتركت جيوش الفرنسيين والبريطانيين (والبلجيكيين) في حماية باريس وموانئ المضيق.

وفي ١٩١٥ قامت جيوش البريطانيين والأستراليين والزيلنديين والفرنسيين -تعاضدها السفن الحربية- للاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي، وبذلك تفتح طريق بحرية إلى القسطنطينية وإلى الموانئ الروسية بالبحر الأسود. ولو نجحت الحملة لخرجت تركيا من الحرب ولوصلت إلى روسيا نجدات كانت هي في أشد الحاجة إليها. غير أن المحاولة أخفقت بعد مواقع ضاربة... وأنقذت تركيا مهارة ضابط تركي اسمه مصطفى كمال أتاتورك. وبقي الروس معزولين عن حلفائهم.

وعاش الناس في فرنسا وبلاد الفلاندر عيشة النمل في الأرض على أن يظهروا في بعض الأحيان لكي يهجموا في مواجهة نيران المدافع الرشاشة والبنادق والقنابل

المتفجرة، ثم يموتوا ليكسبوا أمتارًا قليلة موحلة، وقد لا يكسبون شيئًا على الإطلاق... هجمات وهجمات مضادة، غارات وغارات مضادة، خندق ضد خندق، تسلل ضد تسلل، لغم ولغم مضاد... كان هذا هو الشوط اليومي الذي يجريه آلاف الرجال. وقد استخدمت جميع وسائل التخريب: قنابل يد، وقنابل، ومدافع هاون، وشرابل، ومفرقعات عالية، وسحب من غاز السم الخانق (وقد أطلقها الألمان قبل غيرهم). وحوَّل هلاك المدافع مناطق زراعية كاملة إلى خراب موحل قاحل. وكانت الهجمات الطموحة تسدد بإحكام ثم تخفق وتترك أكداسًا من القتلى والجرحى والكسيحين، وتترك كذلك أسماء الأماكن المظلمة التي حدثت فيها: لوس -بيبر- نوف شاتل -شيمان دي دام- مسين -فردان- تتركها على أنها سجلات للجنون والبطولة اللذين يفوقان حد الوصف. وقد اشترك المتطوعون المتحمسون الذين انخرطوا في الجندية في عام ١٩١٤، اشتركوا في هجوم كبير -عام ١٩١٦، على طول (نهر) السوم- وفقدوا، في اليوم الأول، ستين ألفًا ما بين قتيل وجريح. ولم يتوافر لرجل على قيد الحياة من الحكمة والمهارة ما يكفي لتوجيه شجاعتهم توجيهًا مفيدًا. وقد طارت الطائرات وحاربت فوق الرؤوس وزادت من البلية والدمار. ولم تواتِ أي زعيم من زعماء الطرفين أدنى فكرة عن كيفية وضع حد لهذا الطمع المخيف، اللهم إلا بنوع بشع من حساب الموت، بطرح المزيد ثم المزيد من الرجال ضد خطوط القتال المحصنة. وقد استخدمت الدبابات البريطانية -أول ما استخدمت- على (نهر) السوم، ولولا أنها قليلة لاخترقت الخطوط.

ولم يكن الحلفاء ليستطيعوا متابعة الحرب إطلاقًا لولا أساطيلهم. فإن الطرادات وسفن الحراسة المسلحة هي التي حاصرت أوروبا، ومنعت وصول المؤونة إلى ألمانيا، وحمت الأساطيل التجارية التي حملت المعادن والأطعمة والمهمات الحربية من الدنيا الجديدة إلى دور الأسلحة وأحواض السفن التابعة للحلفاء، وحافظت على خطوط الملاحة البحرية الكبيرة التي عجت بالجنود. وقد أمضى أسطول حصار

بريطاني معظم وقته في أعمال الحراسة والعس، بين أيسلندا والنرويج. وفي عام ١٩١٦ عندما انفلتت سفن الألمان الحربية التابعة للقيادة العليا من قواعدها ودخلت البحر الشمالي لقيتها الوحدات الصغيرة التابعة للأسطول البريطاني الكبير، وراء جتلند، لقيتها لقاء عنيفًا جعلها تهرع إلى مرافئها حيث ظلت قابعة.

وفي عام ١٩١٧ لقي الحلفاء أسوأ حظهم: إلى هنا احتجزت الجيوش الروسية الضخمة جيوشًا ألمانية تعادلها ضخامة، على طول ميدان قتال يترامى من البلطيق إلى البلقان حيث كانت جيوش كاملة تتحرك إلى خلف وإلى أمام عبر بروسيا الشرقية وبولندا وجاليسيا. وكانت الخسائر الروسية فادحة ومواردها من المدافع والذخائر بالغة الشح. وكانت شجاعتها مذهلة. غير أنه في مارس من سنة ١٩١٧ قامت في روسيا ثورة شعبية. لعزل القيصر وقُتل بعد ذلك هو وأسرته، وقد بدأت الثورة الروسية -كالثورة الفرنسية- بزعامة رجال ذوي عقول حصيفة ومقاصد طيبة، هم الشيوعيون -بزعامة لينين- الذين سارعوا إلى عقد الصلح مع الألمان. وهكذا انسحبت الجيوش الألمانية في الشرق لتعين الجيوش الألمانية في الغرب.

وعندئذ ثارت الجيوش الفرنسية. وفيما كانوا يستعيدون نظامهم حارب البريطانيون حربًا طويلة موحشة باهظة النفقات، وقد حدث ذلك في أراضي بساتشنديل الموحلة. ثم ظهر جيش ألماني على الجبهة الإيطالية واكتسح الطليان وردهم إلى خلف، إلى داخل السهول. ولم يوقف ارتدادهم غير وصول الفيالق الفرنسية والبريطانية التي أرسلت من فرنسا.

وهذه الارتدادات والتعويقات وازنها دخولُ الولايات المتحدة الحرب بعد أن أغضب أهلها إغراق الغواصات الألمانية للسفن التجارية إغراقًا لا رحمة فيه بما في ذلك سفن الركاب. وكانت الموارد التي يحتاج إليها الحلفاء تنتقل -كلها- بحرًا. وفي عام ١٩١٧ كانت الغواصات الألمانية تغرق البضائع بمعدلٍ مدمر. ورغم نظام القوافل الذي اتبعه أمراء البحر في شيء من التردّد كانت الدلائل مخيفة. ولكن

بعد دخول أمريكا تحسن أفق الأمل. فقد هرعت الوحدات البحرية الأمريكية إلى العمل من فورها. وحولت أحواض السفن الأمريكية طاقاتها الهائلة لبناء السفن. وقد استقبلت بترحيب مماثل: فرق الطوارئ الأمريكية الكثيرة التي هبطت فرنسا والتي اطردت زيادتها حتى بلغت تعدادًا مذهلًا يقدر بربع مليون، شهريًّا. ولم يكن أولئك أول من وصل من الجنود عبر الأطلنطي، إذ، منذ أولى شهور الحرب، أرسل الكنديون جيوشًا ليحاربوا مع البريطانيين جنبًا إلى جنب.

وفي مارس من سنة ١٩١٨ هجم الألمان هجمة ناجزة أخيرة، وقهروا الجيش البريطاني الخامس، وردوا الجيش الفرنسي. وبعد فترة محفوفة بالأخطار ملئت الثغرات، فقد أمدهم وصول الأمريكيين. باحتياطي موفور. وإلى أن حل ذلك الوقت اضطرتهم هزائمهم المستمرة إلى الانضواء تحت القيادة العليا لفرنسي أوتي شجاعة وخلقًا، ألا هو المارشال فوش. وقد تولى القيادة بالفعل. وفي يوليو بدأ سلسلة من الهجمات المفاجئة الضارية -هنا، وهناك، مصعدًا تارة ومنحدرًا تارة أخرى- على طول الخط، دون أن يتيح للعدو مهلة ما وتوافرت لديه الإمدادات الطائلة. ووقفت المدافع، والعجلة تجاورها العجلة، على طول خطوط القتال. وتحرك الجيش تلو الجيش -الفرنسي والبريطاني والأمريكي- تشد أزره عواصف من نار المدفعية، وتلاحق قذف النيران إلى درجة أن الجبهة كلها كانت تتحرك. وترنح الدفاع الألماني تحت تلك الهجمات المتصلة وما هو إلا القليل حتى كان مدفعيو الحلفاء يصولون ويجولون في العراء، يطلقون نيرانهم من مواقع استحدثوها في الميدان، والمشاة يمدونهم بما يلزمهم من موارد. ولم يأت نوفمبر حتى كان الألمان يتراجعون تراجعًا عامًّا.

وتواردت أخبار النصر من جهات أخرى في ميادين القتال. فقد أعيد تنظيم الصربيين وتسليحهم في سلانيك وانطلقوا عائدين إلى بلادهم: وهي أمة من المحاربين. وحارب الجنرال اللنبي من مصر -الأتراك عبر تلال أرض الميعاد-

وقتما ذهب الفرسان المتطوعون في الجيش الإنجليزي وخيالة المستعمرات على طول فلسطين ليوقعوا العدو الهارب في الشرك. وسقطت دمشق. وفي العراق تقدم رجال الجنرال (مود) مصعدين الأنهار ليلتقوا برجال اللنبي وكان الإيطاليون يتعقبون النمساويين عبر الجبال.

وهكذا انتهت الحرب الكبرى بهدنة -أي بوقف إطلاق النار- في الحادي عشر من نوفمبر من سنة ١٩١٨. وثارت ألمانيا والنمسا. وكانت القسطنطينية في أيدي الحلفاء. ودقت الطبول البريطانية والفرنسية والأمريكية على الراين. وأوقفت الآلام والخسائر المفزعة، والجنون المخرب، والبطولة الفائقة. وبقى على سياسيي الحلفاء أن يعقدوا صلحًا مقيمًا.

الإمبراطوريات التي تهاوت:

قضت حرب ١٩١٤ -١٩١٨ بانتهاء إمبراطورية القياصرة الروس وإمبراطورية الترك العثمانيين وإمبراطورية آل هابسبرج النمساوية. أما محاولات التفاهم مع شرق أوروبا فكان نصيبها البلبلة والارتباك.

وتركت الثورة الروسية -التي قامت في سنة ١٩١٧، والتي فيها فقدت جموع من الناس أرواحها- تركت الحكومة المركزية في يد الحكم الشيوعي الماركسي، بزعامة لينين الذي أوتي براعة سياسية عظيمة. وأنشأ الثوار في كل مكان، «سوفييت» أو مجالس تحوّل القيصرية إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية تظلها راية حمراء رسم عليها مطرقة ومنجل لم تسبق الاستفادة منهما قبلًا. وكانوا يرمون إلى جعل روسيا بلاد مصانع وآلات وجرارات، وإلى تحويل شعبها إلى «بروليتاريا» أو كتلة من العمال لا تملك أرضًا، على أن يحل أعضاء الحزب الشيوعي محل الأرستقراط القدامى.

وما كان لهم -بوصفهم أعضاء حزب شيوعي دولي، يرمون إلى التخلص من

جميع الحكومات القائمة- ما كان لهم، بهذا الوصف، أن يتوقعوا الصداقة من الحكومات القائمة. وترتب على ذلك أن الروس لبثوا بمعزل عن العالم المتمدن، وهنا، مرة أخرى، لم يحدث تغيير ذو بال إذ إن الروس -بسبب مركزهم الجغرافي- كانوا دائمًا بمعزل بعض الشيء عن المجرى العام للحياة الغربية.

وإعادة النظام والعمل، إلى شعب يائس متخلف جاهل مغلوب لا زعيم له، صعبة على كل حال. إلا أن السوفيت رموا إلى أن يضعوا بالقوة الجبرية، جميع رعاياهم في قالب سياسي موحد وقد استهدفوا السيطرة على حياة الرجال وعقولهم، تمامًا كما قد تسيطر القبائل على حياة أفرادها وعقولهم بحيث يفكر كل امرئ ويتصرف بالطريقة ذاتها وفي الوقت ذاته. وحكم الناس على هذا النحو أسهل. أرادوا أن الدولة تملك كل شيء وتُوجه كل إنسان، وأن يصنعوا مجتمعًا كأمة إنكا القديمة (في بيرو) على أن تصير صناعية لا زراعية. ومن الغرابة بمكان أن الفلاحين لا يرضون كثيرًا عن الشيوعية السوفيتية. وقد وجد ثوار روسيا الماركسيون -كما وجد الثوار الفرنسيون في ١٧٨٩- أن أشد معارضيهم عنادًا هم فلاحوهم. وقد صيغت كلمة جديدة لوصف هذا النوع من المجتمع، هي «الجماعيون» (أي المتعلقون بالمذهب الجماعي في الحكم).

وكانت المآثر التي أنجزها الزعماء السوفيت -أول الأمر بزعامة لينين، وبعد موته بزعامة ستالين- مهمة إلى حد كبير. فلقد أنشأوا الطرق، وصرفوا مياه المستنقعات، واحتفروا المناجم، وأسسوا مدنًا صناعية جديدة، وأقاموا محطات للقوى الكهربائية، وابتكروا نظامًا لتعميم التعليم، ومحو الأمية، واستكشفوا موارد بلادهم الشاسعة، وأسسوا صناعات في الشمال السحيق المتجمد وفي الجنوب شبه الاستوائي. وكان لديهم، تحت تصرفهم، سدس مساحة العالم القابلة للسكنى يعج بثروة طبيعية من الزراعة والمناجم لا سبيل إلى تقديرها. ولقد صنعوا من الكدح والألم قصة بطولية.

ولم يخلف تفتت الإمبراطورية التركية المتداعية، للأتراك، غير مدينة القسطنطينية الجميلة وآسيا الصغرى وغير وطنية كمال أتاتورك الملتهبة وجهوده، ولولا هذا لكانت رقعة أرضهم أصغر. فأتاتورك هو الذي لم شعث قومه وطرد جيشًا يونانيًّا من آسيا الصغرى في ١٩٢٠، فهربوا لا يلوون على شيء... خلق أتاتورك تركيا الجديدة الحديثة، فجعل قومه ينهجون نهج الغرب في زيه وعاداته وأفكاره وحروفه الهجائية وتعلمه، وحول تركيا القديمة تحويلًا كاملًا إلى بلد زراعي تجاري مجد. نعم لا تزال هناك عجائز تلبسن النقاب (البرقع) حتى في أثناء كدهن في الحقول، إلا أن من تصغرهن سنًّا تلبسن كما تلبس أخواتهن في فرنسا وفي بريطانيا. وعلماء الحفائر الأتراك، في الوقت الحاضر، يحفرون ويدرسون خرائب الإمبراطوريات التي بادت في آسيا الصغرى. ويستخدم الأتراك في الوظائف، جامعيات. وكانت تركيا عدوة قديمة لروسيا في عهد القياصرة. وما يزال جنود الجيش الأناضولي الشجعان الأذكياء يقومون اليوم بحراسة مسلحة على طول التخوم الروسية السوفيتية في أرمينيا. ومن تناقض الأقدار الغريب أن التركي الحديث يحرس جناح الغرب المتمدن، تمامًا كما درج الفنيزيون على أن يحرسوها ضد الأتراك القدامى.

وبقي سائر الإمبراطورية التركية إربًا إربًا. ممالك وجمهوريات عربية: العراق، سوريا، لبنان، الأردن، المملكة العربية (السعودية). وفي أراضيها تقع حقول الزيت المؤجرة لشركات الزيت في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. ففي الشرق – الذي أُفقر وطال إهماله، والذي حكمه أناس لا خبرة لديهم، وسكنه أفقر الرعاة والرحل– يتدفق ذهب أمريكا والغرب لدفع ثمن الزيت الذي عليه وحده بتوقف استمرار المدنية حتى الآن. وإنك لتجد كل كتلة الشرق الأدنى هذه المكونة من دول صغيرة ضعيفة في حالة قلق وتبدل. وهي –كدول البلقان الصغيرة في القرن التاسع عشر– يزعم البعض أنها مصدر خطر على السلام العالمي بسبب التنافس بين روسيا والغرب.

وقد أخذ زعماء اليهود، منذ فترة طويلة، يسعون إلى عودة اليهود -يومًا ما- إلى بيت المقدس. وبدأت حركة «صهيونية» لتحقيق ذلك ووعد حلفاء حرب ١٩١٤ -١٩١٨ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وفي سنة ١٩٢٠ حدث هذا تحت حماية الجيش البريطاني.

وأشد ما يلفت النظر من نتائج الحرب: تفتت إمبراطورية هابسبرج النمساوية. فقد ضمت بعض شرائح مستطيلة من الأرض إلى إيطاليا وصربيا (التي أطلق عليها اسم: يوجوسلافيا). وقسم الجزء المهم من الإمبراطورية إلى ثلاث جمهوريات: النمسا، والمجر، وبوهيميا (التي أطلق عليها اسم: تشيكوسلوفاكيا). وكانت النمسا - وهي المنطقة التي تحيط بفيينا- أصغر من أن تعول نفسها، وكانت المجر سهلًا غنيًا يسكنه فلاحون يعملون عند سادتهم الملاك، وكانت تشيكوسلوفاكيا بلدًا به مجموعة من الصناعات وذوي الحرف والصناع المهرة. وكانت كل تلك الولايات يعتمد بعضها على البعض أما الآن فهي دول مستقلة[١].

وظهرت دول جديدة في الأصقاع التي ملكتها يومًا، ألمانيا وروسيا. فلقد كانت -على طول ساحل (بحر البلطيق)- الجمهوريات الصغيرة: إستونيا ولاتفيا وليتوانيا. وفي قلب سهول مملكة بولاندا الكاثوليكية القديمة العظيمة ظهرت من جديد الجمهورية البولندية.

وإذا أضفنا إلى تلك، ممالك البلقان الصغيرة -وهي رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان- وجد ما لا يقل عن ١١ دولة صغيرة كلها تتذمر وتحقد في صدد حدودها المترامية عبر كل أوروبا الشرقية من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت تكون حجابًا حاجزًا من الدول بين أمتي الألمان والروس القويتين.

ومنذ ١٩١٨ أخذ تاريخ أوروبا والعالم يدور حول هذه الحقيقة: كل الدول الإحدى عشرة، تسنى للألمان قهرها في يسر، بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥، وهي جميعها -

(١) انظر شكل رقم -١٥- (تفتيت شرق أوروبا).

باستثناء النمسا ويوجوسلافيا واليونان- خاضعة لجيش روسيا الشيوعية. وقد أدرك المؤرخ الإنجليزي الكبير اللورد أكتون -في سنة ١٩٠٠- خطر الجيوش الألمانية والروسية الكبير. غير أن السياسيين والرجال الذين صنعوا معاهدات الصلح في ١٩١٨ لم يستطيعوا أن يدركوا الآلام والمصائر الفاجعة لتلك الدويلات الصغيرة الكثيرة، بل على العكس: هللوا لمظهرها على أنه علامة تبشر بدنيا جديدة فيها تختار كل أمة حكومتها وتعيش بعد، ذلك، في وفاق مع جيرانها.

إحدى وعشرون سنة بين حربي ١٩١٨ و١٩٣٩:

كانت مهمة صناع الصلح في فرساي عظيمة شاملة ولكنها مستحيلة، إذا كان عليهم أن يعيدوا الاستقرار إلى دنيا منهوكة ممزقة جاهلة، وهم ليسوا عباقرة. وكان أمل واحد يشتعل اشتعالًا متوهجًا. ذلك أن مبدأ «الحرب لإنهاء الحرب» يجب أن يجيء في إثره ميثاق مهيب بين دول تنكر، إلى الأبد، فكرة الالتجاء إلى القوة. وكانت مشروعات على هذه الشاكلة، فيما مضى، حلم الكثيرين من الساسة والفلاسفة. وقد وجدت فعلًا هيئة للقانون الدولي ومحكمة العدل في لاهاي ونجحت في فض خصومات كثيرة بطريق السلام. والآن أسست -بتوجيه كثير من الرجال البارزين، ومنهم الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والفيلد مارشال سمطس (من جنوب أفريقيا) -أسست عصبة للأمم مقرها جنيف. وكانت تلك العصبة محاولة مثابرة كبيرة لحفظ السلام عن طريق المجادلات والمؤتمرات، وقد أنجزت لجانها المختلفة أعمالًا نافعة جدًّا في حمل الأمم على التعاون لتحسين شؤون العمل والمواصلات. غير أن العصبة أخفقت في منع الحرب بين الدول الكبرى. وسيستمر الخلاف طويلًا، بعدُ، في سبب إخفاقها. وقد يجوز أنها لم تبدأ، حقًّا على الإطلاق، بداية طيبة: فالولايات المتحدة الأمريكية لم تكن عضوًا، وكذلك روسيا وألمانيا حتى مضت على البداية سنوات. ولم يحدث في وقت ما أن شاركت فيها الدول الكبرى جميعها. وقد تخاصمت الدول في اجتماعاتها خصامًا علنيًّا. ولأمر

غريب ما، لم يكن ينظر بعين الاحترام إلى الأمم إذا اعتذرت أو تسامحت كما قد يصنع الأفراد.

وكانت لدى الفرنسيين رغبة ألحت عليهم، وهي أنهم رغبوا في أن يأمنوا الغارات الألمانية إلى أقصى حدود الأمان، وكانوا يخشونها. وحاول الألمان -وكانوا لا يزالون يفوقون دول وسط أوروبا عددًا وصناعة ومهارة- حاول الألمان أن يجعلوا جمهوريتهم الجديدة تقوم على قدميها. والأمة المغلوبة تجد من الصعب عليها دائمًا أن تتقبل نوعًا جديدًا من الحكومة. وقد أصر المنتصرون، في فرساي، على أن تلزم ألمانيا بالاعتراف علنًا بجريمتها في إشعال الحرب، وبالتجرد من السلاح، وبالبقاء فقيرة، وبالاستمرار -سنوات طويلة- في دفع غرامات تثقل كاهلها، نقدًا أو بضائع، تعويضًا عن كل خسائر الحرب وأضرارها. ومع هذا ظل الجنود الألمانيون -الذين تصدوا لجيوش العالم أربع سنوات، والذين عادوا في نظام عظيم إلى وطنهم- ظلوا يشعرون أنهم خير من الفرنسيين والروس.

وعندما أعلن الشيوعيون الروس أن هدفهم نشر الشيوعية في الخارج نشطت المنافسة القديمة الطويلة، بين روسيا وألمانيا، للسيادة على شرق أوروبا. وكان الخوف من سطوة الروس والرغبة في اجتناب المبدأ الشيوعي جزءًا من الخلفية المحزنة لكل نواحي السياسة الحديثة.

وانتشرت الشيوعية في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. فأضعفت قوة السياسة الفرنسية التي كانت ضعيفة بطبيعتها بسبب قصور الفرنسيين عن أن يتفقوا في شؤون الحكم، وأقلقت إيطاليا وهي بلاد فقيرة خسرت كثيرًا ولم تجن من المجد والمنفعة إلا النزر اليسير. وأدت حروب العصابات والقرصنة السياسية -بين الشيوعيين الإيطاليين ومعارضيهم- إلى اضطرابات خطيرة. وفي عام ١٩٢٢ قاد صحفي اسمه بنيتو موسوليني «قمصانه السود» في زحف إلى روما ليرد النظام والقانون إلى نصابهما. وأصبح موسوليني دكتاتورًا بلقب «الدتشي» (أي الزعيم)، وتصرف وفق هواه

وطبق طغيانًا قويًّا واتخذ الحزيمة[1] شعارًا وهي التي كان يحملها الأمناء الرومان، وهم الرجال الذين نيط بهم حفظ النظام في عهد قيصر. وقد أطلق على حزبه اسم «الفاشيين». وأخذ هو ورجال حزبه على عواتقهم جعل إيطاليا دولة حربية قوية ودولة استعمارية تحْيي عظمة روما. وساق الناس إلى العمل، ومنع الإضرابات، واقترع كل الرجال والصبيان في قوات مسلحة. وأنجز الشيء الكثير. صرف مياه المستنقعات، ومد الطرق، وقضى على اللصوصية. ومثل تلك الأمور يمكن دائمًا إنجازها باللجوء إلى القوة. ونجاح موسوليني مردّه إلى عدم نضج إيطاليا في الحكم البرلماني، وإلى جهل الشعب، وإلى مؤامرات الشيوعيين، وإلى انتشار الفقر والتعطل. وإيطاليا فيها سكان كثيرون وموارد طبيعية قليلة. ويرى موسوليني أن أهل الريف هم الوارثون الطبيعيون للرومانيين. ويرى الكثيرون من أولئك أن موسوليني هو «المخلّص». إنه، في الواقع، مزيج من اللصوصية والوطنية والطغيان.

وكثير من المتاعب التي تنشب بين الأمم والأحزاب -في كل مكان- اقتصادي. وموضوعها: الصناعة والتجارة ومن الذي يعمل العمل الفلاني وبأي شروط. وقد رفرف -بعد عام ١٩١٨- فيض من الإنعاش. ولكن في عام ١٩٣١ حدث كساد وهبوط في التجارة العالمية: أعمال كثيرة كان ينبغي إنجازها (والأعمال موجودة في كل وقت) مع عوز في الثقة تام، وبذلك أصبحت التجارة في حالة توقف تقريبًا. وانهارت أعمال البورصات المالية بين الدول. فلم يكن في طاقة امرئ أن يشتري البضائع التي تغص بها المستودعات، ورقدت -في الموانئ والمياه الراكدة- أساطيل من السفن التجارية الجميلة يعلوها الصدأ. ذلك أن أحدًا لم يملك أن يستأجرها. ووقفت العجلات في المصانع. وألقي البن البرازيلي في المحيط. واحترقت الحنطة الأمريكية، وسكب اللبن في المصارف. وتعطل عن العمل ملايين من الناس، حتى في الولايات المتحدة التي لديها طعام يكفي كل سكان العالم أجيالًا. وبدا أن العالم

(١) الحزيمة قضبان محزومة على فأس.

أصابه مس من السحر. وأصبح الموقف بشعًا غريبًا. ثم انتعشت التجارة وتناقص التعطل رويدًا رويدًا.

وقد نجمت عن محاولة المنتصرين الضغط على ألمانيا لتظل فقيرة ولتدفع غرامات الحرب -متاعب جسيمة زادها الكساد سوءًا. فأفلست ألمانيا وأملقت غالبية الطبقة الوسطى، وزاد التعطل زيادة فاحشة. ثم ظهرت عصابات سياسية ومنازعات تمردية، وتصدى منها أحد الأحزاب الطاغية وانتزع مقاليد الحكم وهو الحزب الاشتراكي الوطني أو «النازي» بزعامة أدولف هتلر، وكان قبلًا قائد عشرة (أمباشي) وأصله من عامة الشعب. وفي عام ١٩٣٣ أصبح هتلر: «الفوهرر» أي الزعيم الحاكم بأمره (الدكتاتور)، ونظم أتباعه كما قد تنظم فرق الجيش، وقمع كل معارضة، بوحشية دموية جامدة القلب. وكانت أهدافه بسيطة فظيعة: إكراه الناس على العمل والطاعة، والقضاء على كل الشيوعيين واليهود، وإخضاع الألمان -المقيمين في أي بقعة من بقاع الأرض- لصولته، وجعل الشعب الألماني، الذي كان في نظره شعبًا حاكمًا قدر له أن يسود العالم، جعله سيدًا في العالم، ورمى إلى غزو السهول الخصبة الواقعة في غرب روسيا وحقول الزيت في القوقاز. ورمى في الوقت ذاته إلى أن يكره صناع الصلح بفرساي على أن يعكسوا قراراتهم. ولم يخف أي شيء من كل هذا، وقد راقبته سائر أوروبا وهو ينفذه.

وترجع قوته إلى انهيار الحكومة الديمقراطية في ألمانيا وإلى يأس الشعب، وإلى مقت أغنياء اليهود والاعتقاد بأن كل المتاعب الاقتصادية مردها إليهم، وإلى الرغبة في الانتقام. وترجع قوته كذلك إلى أسباب خاصة: إلى تعود الألمان طاعة أي أمر، وإلى أن ضباطًا كثيرين كانوا يعاضدونه. وقد أمِلوا أنهم -بعد توحيده ألمانيا وتقويتها- يتخلصون منه، وكان هذا أملًا خاطئًا.

وكان طبيعيًّا أن يحالف هتلر موسوليني. فكلاهما معدوم الضمير، وكلاهما آمن بالمبدأ الشيطانيّ القديم -وهو أن الغاية تبرر الوسيلة. وقد أعلن فعلًا وفي صراحة

أن الأكذوبة إذا كانت كبيرة بقدرٍ كاف واستمر تكرارها بقدر كاف فسوف يصدقها الناس. وكان كلاهما ينشد طاعة فورية عمياء، وكان كلاهما يلبس مسوح الوطنيين.

وفيما كانت ديموقراطيات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، تعيش على الأمل، وتتنازع فيما بينها، وتترك جيوشها وبحرياتها تذوب، كانت ثلاث مجموعات من الناس تعرف ما تريد حق المعرفة وتتأهب لأخذه بالقوة: أدولف هتلر ونازيوه، بنيتو موسوليني وفاشيوه، وستالين ورفاقه. وكان طبيعيًّا أن يقف المئات من مواطني الديمقراطيات على هذه الحقائق. وعلى سبيل المثال: لا أحد ممن كانوا يرقبون أطفال المدارس يتدربون في ألمانيا تدريبًا عسكريًّا، يمكن أن تخفي عليه المأساة التي قد تحل.

وفي عام ١٩٣٤ هاجم موسوليني إثيوبيا. وفي عام ١٩٣٦ قهرها رغم الغضب الشديد الذي علا صوته في الديمقراطيات. وفي عام ١٩٣٦ قامت حرب أهلية عنيفة في إسبانيا وهي دولة نجت من حرب ١٩١٤ -١٩١٨. وحاربت قوات الشيوعيين والأحرار، أي الديمقراطيين -في ضراوة الإسبان المألوفة- ضباط الجيش «والمحافظين»، ونهبت الكنائس وأحرقت، وأطلقت القذائف على المدن، وأعدم الأسرى. وتدفق المتطوعون، من دول أخرى، ليساعدوا الإسبان على تخريب بلادهم بالاسم المقدس لبعض الأحزاب. فأرسل هتلر جنودًا في زي سياح، وأرسل موسوليني فرقًا تساعد القائد الإسباني ضد الشيوعيين. وفي النهاية انتصر الجيش الإسباني التابع للجنرال فرانكو، وأصبح دكتاتورًا في عام ١٩٣٩. وقد صوَّرت الحرب اضطراب التفكير في الديمقراطيات. وكانت الحالة السياسية في أوروبا مفزعة إلى حد أن أحدًا من الديمقراطيين لم يكن ليستطيع معاضدة مطلب شعبي من دون أن يحالف الشيوعيين. وإذا عارض مطلبًا شعبيًّا فلا معدى له عن أن يحالف النازيين والفاشيين.

ولسوء الحظ حدث اعتداء مقنع في الشرق الأقصى حيث أخذ اليابانيون -بزعامة

أرستقراطييهم الحربيين- يهاجمون الولايات الصينية ويخلفون دمارًا. وقد عارضت عصبة الأمم هذا الإجراء أشد معارضة ولكنها كانت قد فقدت سلطانها الأدبي، إذا انسحبت منها أمم كثيرة. وفي ديسمبر ١٩٣٩ طردت العصبة روسيا لأن الروس حاربوا فنلندا. وكان هذا آخر ما صنعته العصبة. وذلك لأن كل أوروبا شاركت، من جديد، في حرب. وقد بدا لأولئك الذين شاركوا فيها أنها استئناف لحرب ١٩١٤ -١٩١٨ بعد هدنة مشوشة مشحونة بالكوارث.

الأمم في جهادها من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥:

في عام ١٩٣٦ قذف هتلر بجنوده إلى بلاد الراين، متحديًا معاهدات الصلح. وفي عام ١٩٣٨ استولى على النمسا. وفي عام ١٩٣٩ استولى على تشيكوسلوفاكيا وكسب بذلك مصانع سكودا للسلاح. ولم تصدر عن فرنسا ولا عن بريطانيا أي محاولة لمنع هذه المظالم الفظيعة أو نقضها. إلا أن البريطانيين بدأوا يستأنفون التسلح، وعمدوا إلى التجنيد الإلزامي، وأعلنوا هتلر بأنه إذا غزا بولندا -كما هدد بذلك- فسيعلنون عليه الحرب. وهاجم هتلر بولندا، واحتل أوسع رقعة استطاع أن يحتلها منها، إذ إن ستالين كان قد أنفذ إلى معظمها،، خفية، فيالقه ليحميها من سطوة ألمانيا الآخذة في النمو. وهكذا قسمت بولندا التعسة، من جديد، بعد فترة قصيرة من الحرية دامت إحدى وعشرين سنة.

وقد بت في مصائر الحرب العالمية الثانية -التي بدأت في سبتمبر من سنة ١٩٣٩- ثلاثة اختراعات بُدئ في تطويرها وتحسينها من سنة ١٩١٨: قاذفة القنابل السريعة الثقيلة، والدبابة المحاربة المسلحة، والتلغراف والإذاعة اللاسلكيان.

وعجز الحلفاء عن إنقاذ بولندا وعجزوا عن عمل أي شيء آخر. وتوقف القتال ثمانية أشهر في ظلام وهمّ وخوف وغموض مرعب، توقف إلا في البحر حيث أخذت الألغام والغواصات الألمانية تغرق السفن. وانتظر الحلفاء أن يبدأ هتلر الاعتداء. وفي

مايو من ١٩٤٠ عمل في سرعة وغدر ونجاح باهر. فاستولت جيوشه وطائراته على الدنمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا. واخترقت فرقه المسلحة الجيوش الإنجليزية الفرنسية وقتما تحركت لحماية بلجيكا. وسقطت باريس، وسلمت فرنسا، وزحف مليون فرنسي ليقعوا أسرى. وأنقذت قوات الحملة البريطانية من شواطئ دنكرك حشودًا من الأطواف الصغيرة، والوحدات البحرية، وقوارب الصيد والسفن واليخوت (أي سفن السياحة الخاصة) وبواخر النزهة. كل هذا أنجزه الألمان في شهرين من حروب الصاعقة، وكانت خسائرهم تافهة بالمقارنة إلى خسائر الحلفاء.

ولم يكن لدى بريطانيا مدافع ولا دبابات بل ولا بنادق تستحق الذكر. غير أن الطائرات المقاتلة -من طراز سبتفاير (قاذفات اللهب) والهاريكين (الإعصار) التابعة للسلاح الجوي الملكي، يوجهها اختراع راداري جديد- حطمت قاذفات القنابل الألمانية التي كانت تهاجم الموانئ والمطارات، وبذلك منعت الألمان من محاولة الغزو. وقد أنقذ الموقف المئات القليلة من قواد الطائرات المقاتلة. وكان حريًّا بألف من أمثالهم -لو أنهم كانوا متأهبين- أن ينقذوا فرنسا. وبعد «معركة بريطانيا» هذه، كابدت لندن قنابل الطائرات، ليلة موحشة بعد ليلة موحشة، شهورًا دون انقطاع وترتبت على هذا خسائر فادحة في الأرواح والأملاك.

وحدث تقلب محزن في حظ بريطانيا. فقد تقدم مواطنوها مسلحين بالحراب وبنادق الصيد بينما كانت الفرق الناجية يعاد تسليحها. وليس في الإمكان وصف الحمية والجلد اللذين دأبت عليهما بحريتُها الشجاعة وسفنها التجارية، إلا في تاريخ مفصل.. وقفت بمفردها، وقدر أغلب الناس في العالم أجمع أنها مقضي عليها لا محالة. وكانت القوى المتجمعة في مستعمراتها المستقلة مستعدة لإمدادها بعونها على شريطة أن تتمكن من السيطرة على البحار. ثم إنها لم تكن لتأمل أن تنتصر في الحرب من دون حليف قوي في أوروبا. وبدأت مصانعها الحربية وغير الحربية تدريجيًّا، تصلح من شأنها وأخذت معدات الحرب تتدفق من الولايات

المتحدة الأمريكية التي كان فرانكلين روزفلت رئيسها. وكان أهم شيء -بالنسبة لبريطانيا- هو تغيير حكومتها. وتحت وطأة الصدمة والكوارث والخزي. نودي بونستون تشرشل رئيسًا للوزارة. وكان صديقًا حميمًا لروزفلت، وجنديًّا ورجلًا مجلو البصيرة لم يلبث إلا قليلًا حتى سيطر على الحرب بعزيمته وخصوبة عقله وبلاغته العظيمة الملهمة.

ضربت مدن بريطانيا بالقنابل، وأغرقت سفنها، وجُنّد سكانها وحُددت مقادير أغذيتهم. وأضاء الظلام نصرٌ واحد: في ديسمبر من سنة ١٩٤٠ تقدم الجنرال ويفل بفرقتين من مصر وأباد جيشًا إيطاليًّا في ليبيا قوامه ١٥٠,٠٠٠ رجل. وقبل مايو من سنة ١٩٤١ طردت جيوش بريطانية أخرى، الإيطاليين من إثيوبيا. غير أن حربًا خاطفة أخرى، أوقدها الألمان، عرضت كل الشرق الأدنى للخطر... احتلت جيوش هتلر: المجر ورومانيا وبلغاريا ويوجوسلافيا ثم هاجمت اليونان. وحارب اليونانيون متقهقرين تساعدهم قوة بريطانية وصلت من مصر، غير أن الدبابات الألمانية والطائرات اكتسحت أمامها كل شيء. وما هي إلا أيام قلائل حتى بلغ الألمان سلانيك وأثينا، ثم استولوا على كريت بهجوم مركّز من جنود المظلات. ومرة أخرى أنقذت البحرية الملكية قوات بريطانية كبيرة من اليونان وكريت. وفي مايو سنة ١٩٤١ كان هتلر قد استعبد كل مناطق أوروبا الواقعة غرب روسيا. وإلى هذا نزلت فرقة أفريقيا الألمانية، في ليبيا -بقيادة رومل- وردت البريطانيين على أعقابهم حتى حدود مصر. وكانت بريطانيا لا تزال واقفة بمفردها.

ثم أتاح هتلر لبريطانيا حليفًا في القارة.. في الثاني والعشرين من يونيو من سنة ١٩٤١ -في مثل اليوم الذي غزا نابليون فيه روسيا- انطلقت سبعة جيوش ألمانية في شرق بولندا وروسيا دون أي إنذار سابق. ولم يمض شهر واحد حتى كانوا قد بلغوا سمولنسك، ووصلوا قبل الشتاء أمام لييننجراد وموسكو، واحتلوا المنطقة الصناعية على حوض (نهر) دونيتز وآبار الزيت في القوقاز. وكما انكسر

الفرنسيون في ١٨١٢، انكسرت الجيوش النازية في شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ بسبب الجليد المدمر الذي أتلف كل مركباتهم المسلحة. والروسيون محاربون أشداء، وكان من خلف الألمان آلاف من المشايعين المدنيين نهارًا، المحاربين حرب العصابات ليلًا. وكانت الحرب ضارية مخيفة، وعمد هتلر إلى استعباد جميع سكان البلاد التي يغزوها. ونقل الروس المصانع الحربية التي لديهم، في كدّ لا يصدق، إلى (جبال) الأورال حيث تبقى في مأمن. وصدوا الغزاة بحرب دبابات جبارة أمام موسكو، صدوا الغزاة بينما كانوا هم، في الوقت نفسه، يشكلون ويحشدون جيوشًا في سيبيريا. ولم تكابد بلد في الحرب أكثر مما كابدت روسيا.

وشهد شتاء ١٩٤١ تبدلًا مباغتًا آخر في ديسمبر: دمرت قاذفات القنابل اليابانية -بدون أي إنذار حرب- قاعدةً بحرية أمريكية في بيرل هاربور بالمحيط الهادي، وغزت (جزائر) الفلبين. وفي مدى ثلاثة أشهر احتلت اليابان هونج كونج والهند الصينية والملايو وبورما. وأخذت كل جزائر الهند الشرقية الهولندية، واستولت على الحصن البحري البريطاني في سنغافورة، وأسرت سبعين ألف جندي.

وكانت الولايات المتحدة -عندئذ- تحارب إلى جانب بريطانيا العظمى ضد ألمانيا واليابان. ولم يكن مستقبل ديموقراطيات العالم يبدو أكثر كآبة، فلقد عُقدت المبادأة للألمان واليابانيين الذين كانوا يسيطرون على كل أوروبا وجنوب شرق آسيا، وكان جيش ألماني يهدد مصر. حدث هذا في ربيع ١٩٤٢.

ولكن قبل نهاية العام انتقل الحلفاء إلى الهجوم في ميادين الحرب الثلاثة. وفي مايو ويونيو أغرقت حاملة طائرات أمريكية، سفنًا حربية يابانية في بحر المرجان وعلى مسافة من جزيرة مدواي. وبعد هذا أخذت القوات الأمريكية، من بحرية وجوية وبرية، تغير على الجزيرة تلو الجزيرة، وتسترد رويدًا رويدًا السيادة على المحيط الهادي وتنسف القواعد الجوية. ولم يكن بد من أن تطول هذه المهمة. وجرت أعنف المعارك البحرية والجوية في البحار المحيطة بجزائر سليمان وبابوا

وغينيا الجديدة. وكان الجنود الأمريكيون والأستراليون يطهرون أدغال الجزيرة من حماتها الذين حاربوا حتى الموت. وفي الوقت نفسه أخذ جيش مكون من فرق بريطانية وإفريقية وهندية وصينية، في أراكان، يعمل كذلك في الأدغال الكثيفة إلى أن شق طريقه رويدًا رويدًا إلى بورما الجنوبية وبورما العليا وإلى ماندالاي.

وفي أكتوبر من سنة ١٩٤٢ حطم الجنرال منتجومري جيش رومل الأفريقي في العلمين بمصر وطارده عبر الصحراء الليبية إلى تونس. وفي الوقت نفسه نزل جيش إنجليزي أمريكي في الجزائر. ولما حوصر جيش رومل بين القوتين، استسلم في تونس، في مايو من سنة ١٩٤٣. وتحرر، الآن شمال أفريقيا وتناقصت مخاطر البحر الأبيض المروعة وأغيثت جزيرة مالطة الباسلة بعد سلسلة هجمات جوية. وفي يوليو استولى الحلفاء على صقلية. وفي سبتمبر هاجموا جنوب إيطاليا. وبدأوا -بقيادة القائد ألكساندر البريطاني- تقدمًا، في الجزيرة، بطيئًا باهظ الثمن. وسلمت الحكومة الإيطالية، ولكن الألمان استمروا يقاومون مقاومة بارعة. وفي مايو من سنة ١٩٤٤ كان الحلفاء لا يزالون في جنوبي روما.

وفي نوفمبر من سنة ١٩٤٢ أطبقت الجيوش الروسية على ربع مليون جندي ألماني، يقودهم فون باولوس في ستالينجراد على الفولجا. وفي يناير من سنة ١٩٤٣ أسروهم أو أبادوهم. وظلوا يتابعون الهجمات، بالجيش تلو الجيش، طوال صيف وخريف وشتاء ذلك العام وربيع ١٩٤٤ حتى ردوا النازي إلى حدود بولندا ورومانيا.

وأمسى حصن أوروبا الهتلري محاصرًا. ومنذ ١٩٤٢ أخذت قاذفات القنابل التابعة للحلفاء تقصف بلدانه في قوة متزايدة، بمئات من الطائرات تزداد أحيانًا حتى تربو على الألف، تعمل كلها في وقت معًا. وفي البحر أخذت بحريات الحلفاء وقواتها الجوية تتغلب، في اطراد، على أسراب الغواصات الألمانية التي ألحقت الدمار بقوافل السفن التجارية. وقد صارت الحياة اليومية للملايين، تحت نير النازي، كابوسًا من الطغيان والريبة والخوف والعذاب. فقد حول هتلر وعصبةُ

شركائه، أوروبا إلى مباءة عبيد من الشعوب المذعنة يحكمها الألمان «الأعلون» فقد عين لكل بلد حاكمها النازي العديم الرحمة وشرطتها السرية. أرغم الآلاف من الناس التعسين على العمل في المصانع الحربية والمعسكرات، يساقون -هنا وهناك- كالأنعام، ينتزعون من بيوتهم وأسرهم، ويعطون عملًا كثيرًا وطعامًا قليلًا. وكان الآلاف يلقون في معسكرات الاعتقال المروعة (مثل معسكر بوشفالد) ويعيشون أنصاف عرايا في القذر ليموتوا من المرض، ويجلدون ويعذبون ويرمون بالرصاص أو يخنقون بالغاز في الغرف المعدّة لذلك ويحرقون في محرقة القمامات. وكلما تقدمت جيوش الحلفاء في شمال إيطاليا وكلما اقترب الروس، زادت بربرية الألمان. وفي أوروبا المقفلة المفجوعة هذه، أخذ جنود المظلات يتساقطون من بريطانيا ليرشدوا المخربين ويشجعوا الوطنيين. وفي قارة الحزن واليأس هذه جاءت رسائل الأمل اليومية الإذاعية تترى من محطات الحلفاء.

وفي يونيو من سنة ١٩٤٤ تحرك أكبر أسطول سبق تنظيمه -وكان بقيادة الجنرال أيزنهاور -من موانئ بريطانيا العديدة إلى الشاطئ النورماندي حاملًا معه موانئه المادية الاصطناعية، تحميه قوات الخلفاء الجوية حماية تامة. ولم تكد فرق أمريكا وبريطانيا والمستعمرات المستقلة تنزل حتى انتشرت واشتبكت في حروب مبرحة وتقدمت، ونزل جيش أمريكي آخر على مقربة من مرسيليا ثم جاء من الجنوب. وقد اشتدت المقاومة الألمانية إلى حد أن التغلب عليها استغرق سنة كاملة. وبلغ الحلفاء الراين وعبروه في الجنوب. ورمى الروس بكل جيوشهم إلى الأمام وأخذوا يطهرون الأرض تطهيرًا شاملًا، متجهين جنوبًا ليحرروا البلقان. وألقى النازي القنابل على إنجلترا ترسلها الطائرات الخالية من القواد والصواريخ، وأغرقوا هولندا. وحاربوا -كما قد يحارب الشياطين- على طول الطريق منسحبين إلى مدائنهم المخربة التي ظلت، حتى ذاك الوقت، تستهدف لغارات ليلية.

وفي النهاية -عندما وصلت الدبابات والمدافع الروسية إلى برلين، وعندما

تحرك الحلفاء الغربيون مسرعين إلى ألمانيا الغربية نفسها- انتحر هتلر في مخدعه بمخبئه ببرلين. وفي مايو من سنة ١٩٤٥ دبر بعض الضباط الألمان استسلام شعبهم وجيشهم بلا قيد ولا شرط. وانتهت الحرب في الغرب. واستطاع المنتصرون أن يروا ذاك الذي فتحوه: قارة من ملايين اللاجئين والمدن المهشمة.

وإلى أن حل ذلك الوقت كان الجيش الألماني في إيطاليا -الذي سيق شمالاً إلى (جبال) الألب- قد استسلم، وكان بعض وطنيّ الطليان قد قتلوا موسوليني. وفي الشرق حررت رانجون وأعدت جيوش بريطانية وأمريكية كبيرة للهجوم على اليابان.

وأُهيب بسادة الحرب اليابانيين أن يستسلموا فأبوا. وفي السادس من أغسطس من سنة ١٩٤٦ فجرت قنبلة ذرية على هيروشيما، وقتلت النيران والإشعاعات ثمانين ألف نسمة دفعة واحدة. وبعد ذلك بيومين ألقيت قنبلة أخرى على نجازاكي وقتلت أربعين ألفًا. وكان اليابانيون قد كابدوا، قبل ذلك، ضربًا مبرّحًا من المفجرات القوية المعتادة. فأنهت الحربَ مذبحة هيروشيما ونجازاكي المخيفة. وسلم اليابانيون كل شيء ووضعوا أنفسهم تحت تصرف المنتصرين.

اختراعات لا حدّ لها وأناس كرمال البحار:

تسير مغامرة الاختراع بخطى مذهلة، فمهندسونا يصنعون آلات بالغة التعقيد تحتاج إلى قوى تدفعها، وعلماؤنا يستكشفون طوال الوقت حتى ليبدو في بعض الأحيان أنهم لن يقفوا حتى يفتّتوا الكون كسفًا ويعيدوه إلى وحدته مرة أخرى.

ويخترع المخترعون النظام الآلي ليشد ويدفع وليدور ويبرم ويلف، تتحكم فيه وتوقته توقيتًا دقيقًا، العجلةُ التي تتحرك هي نفسها في كل الاتجاهات في وقت واحد دون أن تتبع أيًّا من هذه الاتجاهات. وتأخذ الآلات، التي تنتمي إلى هذا النوع، ألواح خشب الحور الرجراج بأحد طرفيها ثم تطرح بالطرف الآخر علبَ كبريت، أو تأخذ

رصاصًا مصهورًا وتخرجه مقذوفات نارية صلبة، أو تزن وتغلف وتعنْوِن رزمًا من الشاي، وهكذا. والآلات تعمل لنا، وهي في حاجة إلى قوة، قوة يستطاع تحديد مقاديرها والسيطرة عليها، قوة تسقط مطرقة بخارية على زجاجةِ ساعة في مكان لا يكاد يفترق جزءًا من ألف جزء من البوصة.

ومنذ استكشف فارادي تفاعلَ المغنطيس والتيارات الكهربائية في سنة ١٨٣٢ أتقن المتقنون المولدات الكهربائية لتولد الكهرباء، وصانوها في محطات للقوى، يستخدم بعضها طاقة الفحم المحترق ويستخدم البعض طاقة المياه الساقطة. وإن محطات شلالات نياجرا لتوليد الكهرباء من القوى المائية لترسل تيارات كهربائية إلى جهات تبعد أكثر من ثلاثمائة ميل. والروس الآن في صدد إكمال مصانع لتوليد الكهرباء من القوى المائية، على الفولجا. والمهندسون في إسكتلندا مشغولون بإقامة خزانات لحجز المياه وبناء سدود التحكم في منحدر المياه بالأراضي الجبلية. ومهما يكن من شيء فإن القوى المائية التي يستطاع استخدامها في أنحاء العالم لم يستخدم منها حتى الآن إلا النزر اليسير.

وقد استكشف وقود ومصدر قوة جديدان –حول سنة ١٨٦٠ في آبار الزيت الكامنة تحت سطح الأرض ببنسلفانيا، وهو زيت يصفى ليحول إلى جازولين ويستنبط منه الكيمياويون البرّافين (أي زيت القطران) والبنزين ومئات من المواد الأخرى بينها الفازلين. وفي عام ١٨٨٦ استطاع جوتفريد ريملر –بتفجير بخار الجازولين في أنابيب– أن يصنع محركًا يدور بالجازولين. وهكذا ظهرت في الطرقات السيارة وهي رائدة النقل الميكانيكي جميعًا من الدراجة الآلية (الموتوسيكل) إلى المركبات الضخمة المرعبة. وإلى أن حل عام ١٩٣٣ تحسن المحرك، بفضل ألف من المخططين، وتحول إلى «مولين»(١) رولزرويس الذي دفع قاذفات اللهب (سبتفاير) البريطانية التي جابت آفاق السماء.

---

(١) المولين في قصص العصور الوسطى نبي وسحار في القرن الخامس الميلادي.

والواقع أن محرك الجازولين -الخفيف الوزن نسبيًا- جعل الطيران ممكنًا، وكان أول من استطاع أن يعلو سطح الأرض قليلًا هما الإخوان رايت، في أمريكا سنة ١٩٠٠، وفي ١٩٠٩ طار بليريو عبر المضيق. وفي عام ١٩١٩ طار ألكوك وبراون عبر الأطلنطي. وتجد مجمل سائر الحكاية في حرب ١٩٣٩ -١٩٤٥ الملتهبة وفي (طائرات) الفايكونت الجبارة وفي طائرات بريطانيا الحالية. وثمة دور مهم في الطيران قام به المتخصصون في استخراج المعادن وصناعاتها أولئك الذين عجلوا باستخراج الألومنيوم من خاماته (وكان مجموع ما استخرج عام ١٨٨٤ ثلاثمائة رطل وفي عام ١٩٥١ أكثر بكثير من مليون طن) أولئك الذين اخترعوا كل أنواع خليط الألومنيوم الصلبة الخفيفة التي تصنع منها الطائرات. ومنذ عام ١٩٤١ أخذت المحركات النفاثة تستخدم في الطائرات والصواريخ.

وبعد عام ١٨٨٠ بسنوات قليلة حدث تطور كبير في الهندسة الخفيفة، كالهندسة التي تنتج الدراجات ومكينات الخياطة والآلات الكاتبة والآلات الحاسبة، وهذه -كما هي الحال في السيارات والطائرات- لا يستطيع صنعها إلا عدد الآلات ذوات القوى الجبارة التي تكيف أجزاءها في القوالب وتقطعها وتدمغها وتطرقها.

وبدأت الفوتوغرافيا في عام ١٨٢٤، واخترعت آلة تصوير تصور على فيلم من الباغة[١]، بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ وحول نهاية القرن عكست الصور المتحركة على الشاشة وكثر الإقبال على الصور المتحركة قبل عام ١٩١٤، وظهر النوع المتكلم منها في عام ١٩٢٨. ويسهل الوقوف على مدى تأثير انتصارات فنون المصورين (بالفوتوغرافيا) في مدننا. ومن بين الانتصارات الأخرى: آلات تصوير (كاميرات) تزيد قوة إبصارنا وتوضح أشياء هي أصغر أو هي أسرع من أن تتبينها العين المجردة، كحركة جناح طائر أو كتركيب مادة كالصلب. ومن بين الانتصارات الأخرى كذلك: الفوتوغرافيا الهوائية التي وسعت معلوماتنا عن الكرة الأرضية

(١) الباغة: مزيج من الكافور وقطن البارود.

وعن الزمن الماضي. ويرجع إرسال الرسائل الرمزية (بالشفرة) بأسلاك كهربائية إلى السنوات القليلة التي تلت عام ١٨٤٠ وظهر التليفون في ١٨٧٦ وجرب ماركوني استخدام الأمواج السابحة في الفضاء أي «اللاسلكي» في عام ١٨٩٦ وإلى أن حل عام ١٩٠١ أرسلت رسائل عبر الأطلنطي. وفي عام ١٩٢١ كان مهندسو الراديو قد أتاحوا معجزة جديدة وهي الإذاعة باللاسلكي. وما هو إلا القليل حتى أخْلت أجهزة الاستقبال البلورية أماكنها للصمامات الترميونية[١] وفي السينما جاءت الصورة قبل الصوت، وفي الراديو سبق الصوت الصورة: وحلل هذا ونقل بالأمواج عبر الفضاء، ثم أعيد تأليفه على الشاشة في عام ١٩٣٦. ونحن نطلق على هذا اسم التلفزيون. ونقول هنا فوق ذلك إن تلك الأشياء إن هي إلا لعب إذ قورنت بالسيطرة على موجات الرادار لإرشاد الطائرات والسفن والقذائف، وإذا قورنت باستجلاء النواحي القاصية من العالم.

وجميع المادة والحيوان والنبات والمعادن طحنٌ لرحى علماء الكيمياء أو الطبيعة. وإنها ليتأتّى لها -كما قد تأتّى لسحر المشعوذين في غرف الضيافة- أن تغير وتحول كل شيء إلى شيء آخر، فهم يستخلصون من الفحم الأصباغ والروائح العطرية ويخلقون ألوانًا لم تشاهد قط في البر أو البحر وعطورًا تفوق عطور شبه الجزيرة العربية، ويحوّلون السلولوز[٢] إلى حرير صناعي، والبنزين إلى خيوط نايلون. وهم يعصرون أو يضغطون إثيلين[٣] الغاز حتى يتحول إلى بوليثين. وقائمة المواد الجديدة -من المساحيق المطهرة إلى أدهنة الزينة طويلة طولًا مملًّا. ثم إن المواد القديمة المألوفة تفصل وتوصل وتصهر وتبدل تبدلًا لا نهاية له ليخرج منها كل أنواع السبائك والصلب والمواد الصلبة والزجاج وألواح الكرتون وخشب الألواح (الأبلكاج). ومن الواضح أنه لم تخنّا البراعة التي ورثناها عن جدودنا المجتهدين

---

(١) الثرميون: دقيقة مشحونة بالكهرباء وهي إما سالبة وإما موجبة.

(٢) السلولوز: المادة المكونة للحويصلات أو الخليات النباتية.

(٣) الإيثيل: أصل العشيرة الكحولية.

الذين عاشوا في العصر الحجري والذين اخترعوا السنار والسلال والقماش.

وإن العلم ليزداد تعمقًا في طبيعة المادة نفسها. فمنذ بحثت مدام كوري في الراديوم سنة ١٨٩٨ لم تتوقف دراسة عناصر النشاط الإشعاعي قط. ومنذ أن استخدم روذرفورد، في عام١٩١٩، النشاط الإشعاعي ليفصل جزيئًا أو نحوه عن الذرة ظلت المطاردة ملحّة وكان هدف العناء والاستقصاء هو التحكم في الطاقة الذرية. فطبيعة المادة وطبيعة الكهرباء وطبيعة الجزيء غير المرئي الذي صنع منه الكون جميعًا... كل هذا موضوع تحت الفحص البالغ الدقة. وقد وصل البحث، حتى الآن، إلى القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ووصل -في آخر وقت من إذكاء الأمل- إلى محطة القوى الذرية مثل بهوكالدر. وربما تنتعش الدنيا، آخر الأمر، بسبب سيطرتنا على مصادر كل الطاقات حتى نملك قوى لا تدخل تحت حصر.

وإن العالم، اليوم، ليزيد مصاعبه بزيادة عدد سكانه زيادة سريعة. فهو يضيف، في الواقع، أربعين ألف مخلوق بشري في كل ساعة وهذا يعني ٣٥ مليونًا في كل عام. والأكثرون من هؤلاء يولدون ليكابدوا سوءَ التغذية، كما أن الأكثرين إنما يزيدون في عدد سكان الشعوب المتخلفة. وإذا تهيأ للجميع طعام جيد وتوافرت لهم طيبات الحياة فسنحتاج إلى حكمة تفوق كثيرًا الحكمةَ التي عرفناها عن الماضي، عندئذ سنكون في حاجة إلى التسامح والتفاهم بين الأجناس والأمم. وسنكون محتاجين، بطبيعة الحال إلى قوى تساس وتصرف في سبيل الخير العام.

دخول الحاضر في المستقبل:

إن التلغرافات السلكية واللاسلكية والنقل الجوي لنقرب بين بعض أجزاء العالم كله والبعض الآخر وتربط بينها جميعًا ربطًا مباشرًا، كما أن العادات والأفكار الغربية تنتقل إلى كل مكان بخطى واسعة. وما ينفك المهاجرون يتدفقون من أوروبا إلى القارات الجديدة، وما يزال بعضهم يكابد الشقاء في مهجره بوصفه لاجئًا. وترد

التقارير من القارات الجديدة ومن أفريقيا عن ثروات جوهرية من المعادن والزيت يستكشفها خبراء مسح الأراضي الجيولوجيون، وبذلك تفتح الآن حقول معدنية جديدة وصناعات جديدة. والروس -في داخل بلادهم المترامية- لا يزالون يمدون ويطورون مناجمهم وغاباتهم حتى دائرة المحيط المتجمد الشمالي. ولا ريب في أن المنطقتين القطبيتين موضوعتان تحت الحصار. وفي سنة ١٩٥٨ الجغرافية عسكرت بعثة أمريكية عند القطب الجنوبي، بينما كان عالم إنجليزي يستكشف المتجمد الجنوبي. وبدأ العلماء يستكشفون أغوار البحر ويرسلون آلاتهم تدفعها الصواريخ -من أمثال صواريخ «سبوتنيك» الروسية- تنهب أجواز الفضاء المحيط بالكرة الأرضية.

وقد أثار الشعور الوطني حربًا مريرة في الجزائر بين الفرنسيين وأهل البلاد. وقد استنزفت الحرب قدرًا كبيرًا من ثروة فرنسا. ويخلق الشعور الوطني في الشرق الأدني متاعب شديدة للأوروبيين. فالمصريون الذين أجلوا الحاميات الإنجليزية من أراضيهم، أمموا قناة السويس في ١٩٥٦، وكانت شركة إنجليزية فرنسية تضع يدها عليها. إلا أن أشد التغييرات استرعاء للنظر وأكبر مصادر القلق في الشرق الأوسط هو استفحال شأن دولة إسرائيل. فاليهود لا يزالون يستعمرون تلك المنطقة من أراضي غيرهم ويجمعون المال من اليهود المقيمين في سائر أنحاء العالم. وإسرائيل تكبر وتنتعش بعد حيازتها ذاك القدر الكبير من الأرض وبعد طرد سكانها العرب الذين لا يزال مليون منهم مهاجرين معدمين مشردين.

وإن انتشار علم الغرب وبراعته الفنية ليتقدمان بإطراد بين الأسيويين والإفريقيين الذين يتلقون هذا العلم وتلك البراعة في سهولة ويسر. وإنك لتجد الآن علماء الصين واليابان والهند في طليعة الحملات على طول تخوم معرفة القوى المجهولة والكائنات الطبيعية. غير أن الأكثرين من الأسيويين والإفريقيين فريسة للفقر والجهل وسوء التغذية.

وهناك مفارقات مفزعة: فدكتور الفلسفة الزنجي الذي تدرب في كلية إفريقية جاء من حظيرة مسقوفة بالبوص عاش فيها أبواه في وجل من الطبيب الساحر، والشيخ في جنوب شبه جزيرة العرب يسوق سيارة مقفلة فخمة وسط القبائل التي لا تختلف معيشتها عن المعيشة في أيام الحروب الصليبية وسط القبائل التي لا تختلف معيشتها عن المعيشة في أيام الحروب الصليبية إلا قليلًا.

وتستمر مغامرة السياسة في دنيا المتناقضات هذه، حيث يتزاحم العصر الحجري وعصر الذرة كي يدفع كل منهما الآخر. فالمثل الأعلى للديمقراطية في الغرب أساسه اختراع البرلمان في العصور الوسطى، وقوامه نظام التصويت. ومعناه -على قدر الإمكان-: أن الناس يحكمون أنفسهم بالوصول إلى اتفاق عن طريق تبادل الرأي، وأنهم سوف تتوافر لهم سلطة تغيير حكومتهم كلما رأوا ضرورة لذلك، وأن أحدًا لن يجور على رفاقه، وأن كل امرئ سيكون حرًّا في التعبير عن آرائه دون أن يتعرض لمكروه بسبب هذا الرأي. ويرتكز كل هذا على عادة وتقليد تأصَّلا في أوروبا منذ قرون.

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان يهيمن على مسرح السياسة ثلاثة رجال: ونستون تشرشل وروزفلت وستالين. وقد شكلوا مع مستشاريهم منظمة هيئة الأمم لتحل محل عصبة الأمم. وأهيب بأعضائها أن يحلوا مشاكلهم عن طريق تبادل الرأي وأن يتعاونوا على خير الشعوب. وقد أنجز قدر كبير من الحلول العملية -وما يزال بعض الحلول العملية الأخرى رهن الإنجاز- لإنقاذ الملايين من مهاجري الحرب وإعادة توطينهم ولمساعدة أهل البلاد الفقيرة بالمال والسلع. وفي هذا تتكاتف الشعوب مسرعة. غير أن الدنيا لا تزال تحمل السلاح.

ولكن -منذ ١٩٤٥- غشي مجلسي الأمم المتحدة أمران قاتمان، فشيوعيو روسيا، والديموقراطيات تقودها أمريكا وفرنسا وبريطانيا، يرتاب كل طرف منهما بالآخر أشد الريبة، ويسيطر على تصرفاته الخوف والحسد والشك. وهذه المشاعر

القاسية تزيدها عمقًا قوة القنبلة الذرية المخربة وقوة القنبلة الهيدروجينية المبيدة اللتين يملكهما الطرفان.

وأصبحت الكرة الأرضية ميدان قتال «باردًا» يقف فيه أقوى دولتين، وهما الاتحاد السوفيتي الروسي والولايات المتحدة الأمريكية، وجهًا لوجه. وفي نهاية الحرب، في سنة ١٩٤٥، قسمت ألمانيا بين روسيا وبين المنتصرين الآخرين. وهي لا تزال مقسمة. فالجيوش الروسية تحتل الشرق، والجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية تحتل الغرب. وعلى هذا النحو في الشرق الأقصى، بعد هزيمة اليابان، قسمت أرض كوريا الجميلة بين الشيوعيين (في الشمال) والأمريكيين (في الجنوب). وفي ١٩٥٠ -عندما انسحبت القوات الأمريكية- غزا الكوريون الشماليون الكوريين الجنوبيين «ليعيدوا الأمن إلى نصابه». فلم يتردد الأمريكيون في أن يدخلوا -من جديد- جنوب كوريا ودعوا الأمم الأخرى إلى أن تمد يد العون لتطرد العدوان. فأرسلت لهذا الغرض فرق من بريطانيا والمستعمرات المستقلة والنرويج وتركيا وغيرها. وبعد جهاد عنيف استردت الجنوب وعبرت إلى الشمال. وعندئذ تدفق جيش شيوعي صيني كبير. وغنيّ عن القول بأن كوريا -في هذه المجازفة الحربية- كابدت كل الأهوال المألوفة في حالات الجوع والقحط والهجرة.

والهوة التي تباعد بين الشيوعيين والديموقراطيات هوة عميقة. وكل من الطرفين ينكر أسلوب حياة الطرف الآخر وإخلاص الطرف الآخر، ويظل مدججًا بالسلاح محاولًا أن يدخل أفعل المحسنات على أبحاث الأسلحة للهلاك.

وتسيطر روسيا على كل أوروبا الشرقية باستثناء تركيا واليونان. وتستبقي الولايات المتحدة الأمريكية مدفعيتها وطائراتها ودباباتها في ألمانيا. ولها قواعد حربية في أوروبا الغربية. فقد تفتت الإمبراطوريات الأوروبية القديمة التي امتدت إلى ما وراء البحار. إذ فقد الهولنديون جزائر الهند الشرقية الغنية التي كانت تابعة لهم، وفقد الفرنسيون الهند الصينية كما فقدوا الجزائر بعد صراع عنيف. وأصبحت

الصين -بعد كابوس طويل من الفوضى- شيوعية ولفظت الغربيين والمبشرين.

وكابدت الإمبراطورية البريطانية تغيرات مفزعة. ولكنها لم تكابد خسائر مفزعة بمنحها الحكم الذاتي لأعضائها الأسيويين والإفريقيين. منحته -أول الأمر- إلى شبه القارة الهندية التي اختارت أن تنقسم إلى دولتين: الهند والباكستان (١٩٤٧). وإن لم تخل هذه الحركة من سفك دماء غزيرة ومن مرارة شديدة. ثم منحته إلى سيلان وبورما (١٩٤٨) وأخيرًا إلى ساحل الذهب الذي أطلق عليه اسم شاعري وهو غانا (١٩٥٧). وما تزال مشروعات من هذا القبيل في الأفق. وكل هذه البلاد حرة الآن في أن تتصرف وفق مرامها حتى ولو أرادت أن تنفصل عن الإمبراطورية. والحرية الكاملة وحدها هي التي تكفل حماية الحرية. وقد سنت كلها قوانينها ودساتيرها الخاصة بعد أن ارتبطت بجزيرة بريطانيا التي كان دستورها يعده آباء الجمهورية الأمريكية مثاليًّا. ولقد صدق مواطن من الجمهورية في قولته النبيلة: «تكمن الحرية في قلوب الرجال والنساء. وعندما تموت هناك فإنه ليس في مقدور أي دستور أو أي قانون أو أي محكمة إنقاذه. وهي في كمونها هناك، ليست في حاجة إلى أي دستور أو أي قانون أو أي محكمة لإنقاذها».

* * *

الباب الثامن

خاتمة: أخبار العالم

إن الفضول القلق في استقصاء واستكشاف ما يدور في كل ما يحيط بنا من عوالم -في السماوات، وفي أعماق الأرض، وفي المياه الغائرة تحت الأرض- ليطالعنا في كل عام بأخبار جديدة عن دنيانا. وإنا لنتعلم -عن طريق المجهر (الميكروسكوب) والمرصد (التليسكوب) والأجهزة الكهربية (الإلكترون)- أشياء لم يكن أسلافنا ليحلموا بها. نتعلم أمورًا عن الذرات التي صنعت منها المادة جميعًا، ونبني مستودعات للقوى الذرية لاستخدام الطاقة المكنونة داخل هذه الجزيئات غير المرئية.

ونتعلم عن حشدٍ متألق من النجوم يبعد عن الأرض بعدًا سحيقًا إلى حد أن الضوء الذي يبعثه يستغرق مدى الملايين من أعوامنا في الوصول إلينا. ونتتبع تواريخ كل الكائنات الحية ونكشف وحوش الأعماق ونستعيد صور حيوانات غريبة انقضت قبل وصول الآدميين إلى سطح الأرض.

نحن مخلوقات لا تقوى على العيش إلا في نطاق درجات قليلة من الحرارة والبرودة. ولكننا مع هذا، نقيس القوى التي تحفظ الأجرام السماوية في أماكنها العتيقة.

وإن علماءنا ليتتبعون خطى الإغريق، وكوبرنيكوس وجاليليو، وفاساليوس، وكبلر، وهارفي، ونيوتن، ولافوازييه، ودالتون، وداروِن، وكلارك ماكسويل، وأينشتين، ورذرفورد، وسائر الآخرين الذين ضحوا بوقتهم وبنبوغهم.

إنهم يمدوننا بأخبار استكشافاتهم. وحيث يسبقون هم، يجدّ في أثرهم المهندس والمخترع والفني، يستخدمون ما استكشفوه لنا لكي يجعلوا حياتنا أكثر رحبًا، ولكي يمدونا بسلطان على ما يحيط بنا أكثر فعالية، وليقدموا كل جديد من الآلات والمواد وعقاقير الاستشفاء والمعارف والمصنوعات لجلب المسرة وللاستعمال العادي.

والعلم والقوة مطلوبان. وفي الاستطاعة استخدامهما -كما عرف الناس دائمًا- في الخير وفي الشر.

أخبار من لا مكان:

أطلق الشاعر وليم موريس على حكايته في صدد شعب كامل في أرض كاملة «أخبار من لا مكان» وهذا عنوان مناسب. وقد درج الناس دائمًا على أن يرحبوا بحكايات الجزر السعيدة الحظ، أو أساطير عصر ذهبي، أو الوعد بجنة باكرة. وكان الناس يصْبون -على مر قرون الأسى والكد- إلى شيء هو أعز عليهم من المعرفة. لقد صبَوا إلى انتصار الخير على الشر، والحق على الباطل، والحب على البغض.

وكان الإغريق قد أطالوا التأمل في أمر مدنية مثالية. ووصف أفلاطون واحدة في حواره عن «الجمهورية» فقال، وهو الإغريقي الحكيم: «لن تتخلص، أبدًا، المدنُ من شرورها حتى يصبح الفلاسفة ملوكًا أو حتى تتأتى لملوك هذه الدنيا روح الفلسفة». وقد تولدت تلك الحقيقة من مصاير المدن الإغريقية أثينا، وكورنثا، وسركوزة، وغيرها – تلك التي كسرتها وحطمتها شرور الحرب الأهلية.

وبعد ذلك بأجيال بدا أن سقوط روما واختفاء قصورها ومعابدها وسلامها وقوانينها، قد قضى على كل أمل.

وقد وجّه إحياء العلوم الإغريقية أذهانَ الناس إلى الأرض مرة أخرى. وتخيل البعض أخيلةً جديدة عن مدينة مثالية يعيش الناس فيها بتوجيه من أوصياء فلاسفة. وقد أطلق السير توماس مور على كتابه اسم «دنيا المثال» (أو المدينة الفاضلة)

ومعناه «لا مكان». ولكنه راودته شكوك كما راودت أفلاطون فقال: «ليس في مقدور كل الأشياء أن تكون طيبة ما لم يكن كل الناس طيبين، وما أظن أن يحدث هذا قبل انقضاء سنوات عديدة طويلة». وأتى فرانسيس بيكون، في كتابه «الأطلنطيد الجديد» على وصف نوع علمي من الدولة في جزيرة.

وبمرور الوقت أخذ الناس يتطلعون إلى سلام يشمل الشعوب جميعًا، يصاحبه العدل لجميع الناس؛ غنيهم وفقيرهم. وقد خطط لهذا كهان إسبانيون، ومشرعون هولنديون، وصاحبيون إنجليز. ثم ظهرت تدريجيًّا، في عالم الوجود، مجموعة القوانين الدولية، وأوفد السفراء إلى الخارج ليساعدوا على التفاهم الدولي. وقد نادى صناع الجمهورية الأمريكية قائلين: «خلق الناس جميعًا متساوين». وكان شعار رجال الثورة الفرنسية في زحفهم «حرية، مساواة، إخاء» وتمت فكرة أن الناس في مقدورهم، ومن واجبهم، أن يعيدوا جعل دنياهم مكان سرور وسلام لكل إنسان. وقد اعتقد بعض المفكرين، في القرن الثامن عشر، أن الفهم الصائب والتعقل كفيلان بأن يحفزا الناس إلى مثل هذا التصرف. فإذا سيطر التعقل على أفئدتهم لم يجعلوا مكانًا للحرب ولا للجريمة ولا للقسوة ولا للفقر. «سوف يكون حكم العقل حكم السلام».

على أن الحسد والحقد والصرامة عيوب متأصلة. ونحن ما زلنا جادين في إدخال السكينة والرضى على قلوب الأمم المبلوّة. وما عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وما الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية غير محاولتين تحوّلان مطمع «لا مكان» إلى حقيقة. وهذا أمل كل الناس الطيبين وحلم كل رجال السياسة المخلصين. ومع أن الخوف قد يكون باعثًا سيئًا فإن خوف التخريب في الحروب المستقبلة يقوم بدوره في الإهابة بالناس بأن ينشدوا السلام والتعاون.

الماضي الحي:

إنما نحن ما نحن عليه بسبب الماضي. فالسنون المنصرمة تعيش فينا، ولا ينصبّ هذا على الحديثة منها فحسب، بل ينصب كذلك على الأعوام السحيقة. ذلك أنه لا يوجد في أي مكان في سجل الجنس البشري -في أسلافنا أو أسَرنا- نهاية تامة وبدء جديد.

فنحن جزء من تاريخ طويل، نحن جزء من نسيج كبير دائم النمو لحيوات لا تحصى. والحاضر على حاله الآن حدث بسبب كل ما جرى قبل الآن: بسبب أن إمبراطوريات ارتفعت وسقطت في قديم الزمان، وبسبب أن رجالًا مجهولين عجبوا لسماوات بابل القديمة، وبسبب أن إغريقيين مجهولين أطاعوا القائد الإغريقي الذي هزم الفرس، وبسبب أن الرومان دمروا قرطاجنة، وبسبب أن أنطونيوس وقع في حب كليوباترا، وبسبب أن كولومبوس استكشف أمريكا، وأن لوثر بشر ضد البابا، وأن نابليون دهم أوروبا. ومن الممكن المضيّ في هذه القائمة إلى الأبد.

كل هذا صحيح، عرفنا الحقيقة أو لم نعرفها. ولكننا، في سجلاتنا المطبوعة، نحافظ على مؤلفات الرجال العظماء الذائعي الصيت، من أمثال أفلاطون وهومر ودانتي وشكسبير وباخ وموتسارت وجموع غير هؤلاء. لقد ماتوا، ولكن مؤلفاتهم لا تزال تتحدث إلينا.

وكل سجل تاريخي يلتزم، في أغلب الحالات، أن يكون حكاية عظماء وقُواد ومفكرين وفنانين؛ إذ إن مدنيتنا ميراث صنعه وحفظه الملايين من الصناع المجهولين الذين قدموا أعمالًا ممتازة، وهكذا يكون قد صنعته النيات الحسنة ومظاهر الوفاء الصادرة عن ملايين القلوب المجهولة.

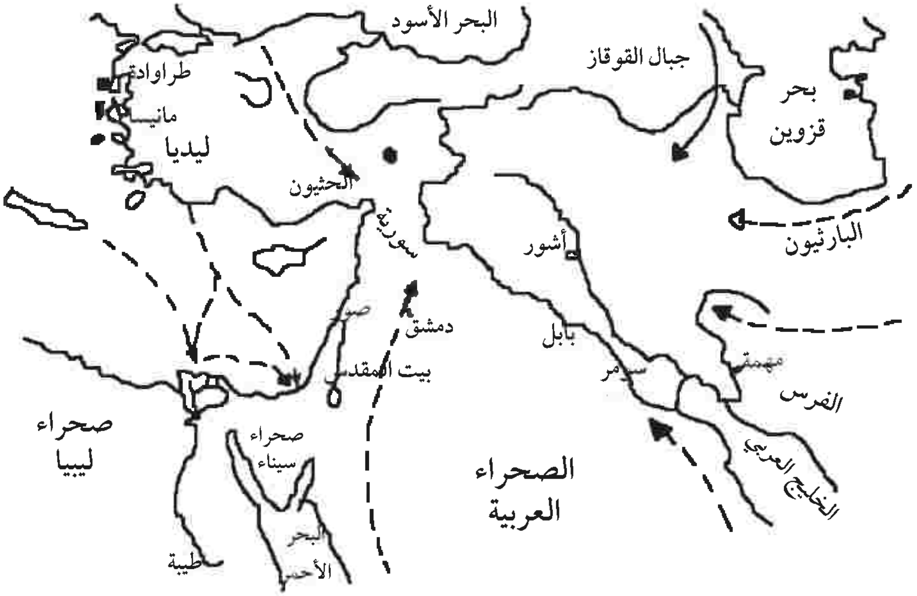

شكل رقم (١)

الشرق القديم

(خريطة تبين أودية الأنهار، في المساحة التي تقع بين البحار والجبال والصحارى)

شكل رقم (٢)

إمبراطورية الإسكندر الإغريقية

(إمبراطورية الفرس ثم اليونان ومقدونيا وتراقيا)

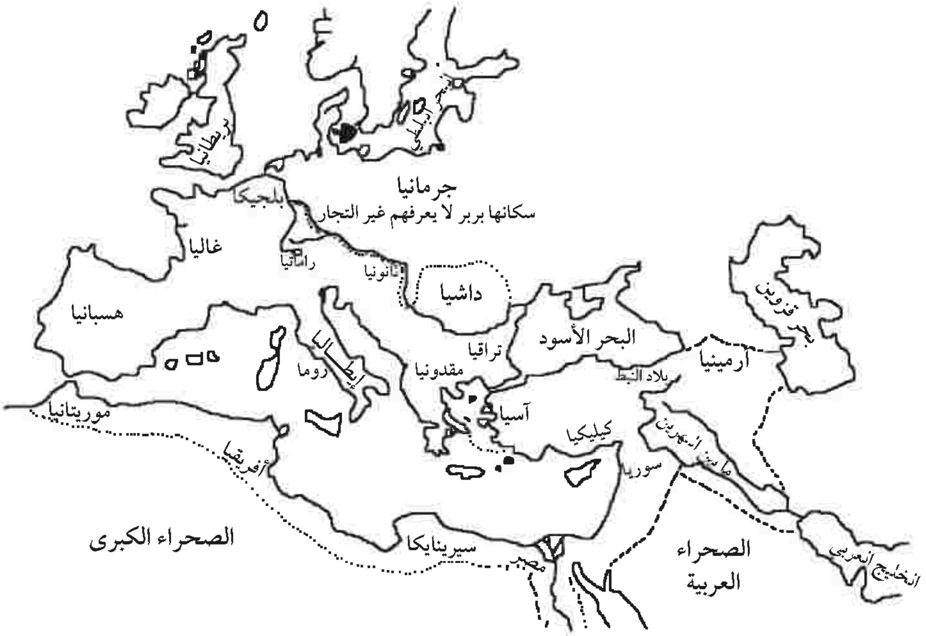

شكل رقم (٣)

الإمبراطورية الرومانية في أوسع مدى لها

شكل رقم (٤)

غزو البربر للإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس

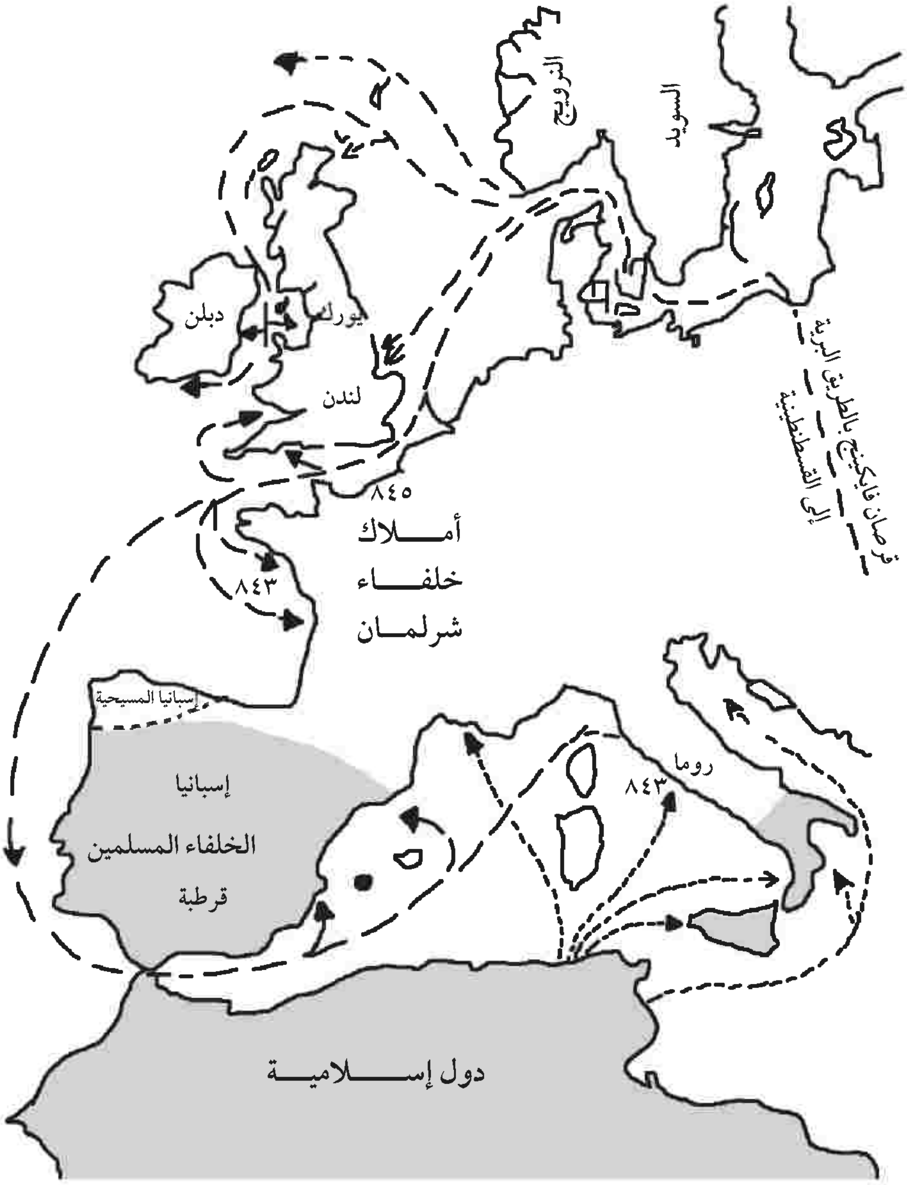

شكل رقم (٥)

متاعب أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر

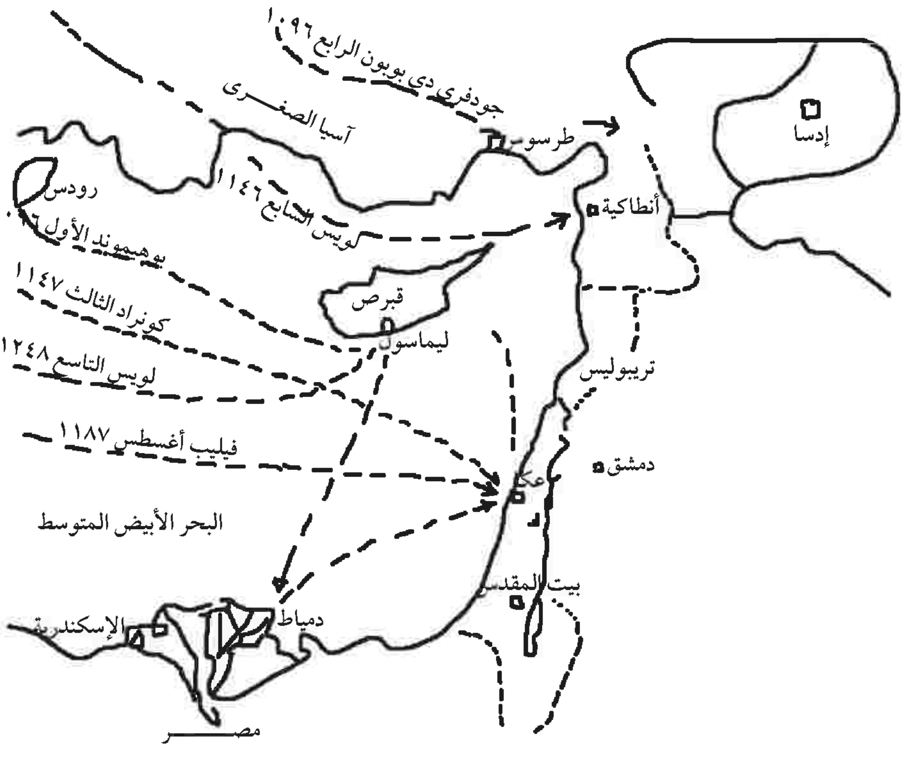

شكل رقم (٦)

الولايات اللاتينية الصليبية

ولاية إديسا: ١٠٩٨ -١١٤٤ إمارة إنطاكية: ١٠٩٨ -١٢٦٨

ولاية طرابلس: ١١٠٠ -١٢٨٩ مملكة بيت المقدس: ١٠٩٩ -١١٨٧

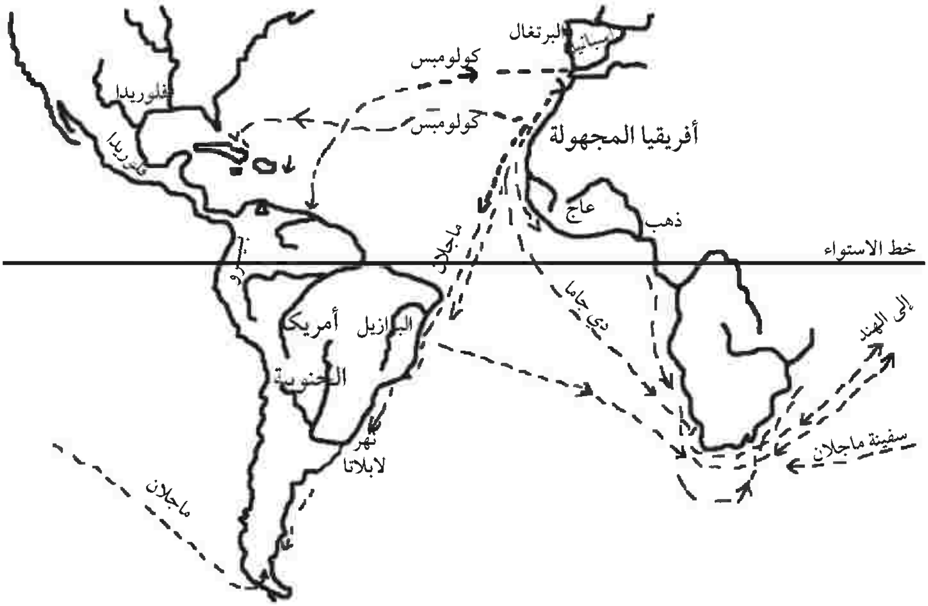

شكل رقم (٧)

مخارج جنوبية من الأطلنطي

(الإسبان والبرتغاليون يستكشفون الطرق الملاحية
الجنوبية الخارجة من المحيط الأطلنطي)

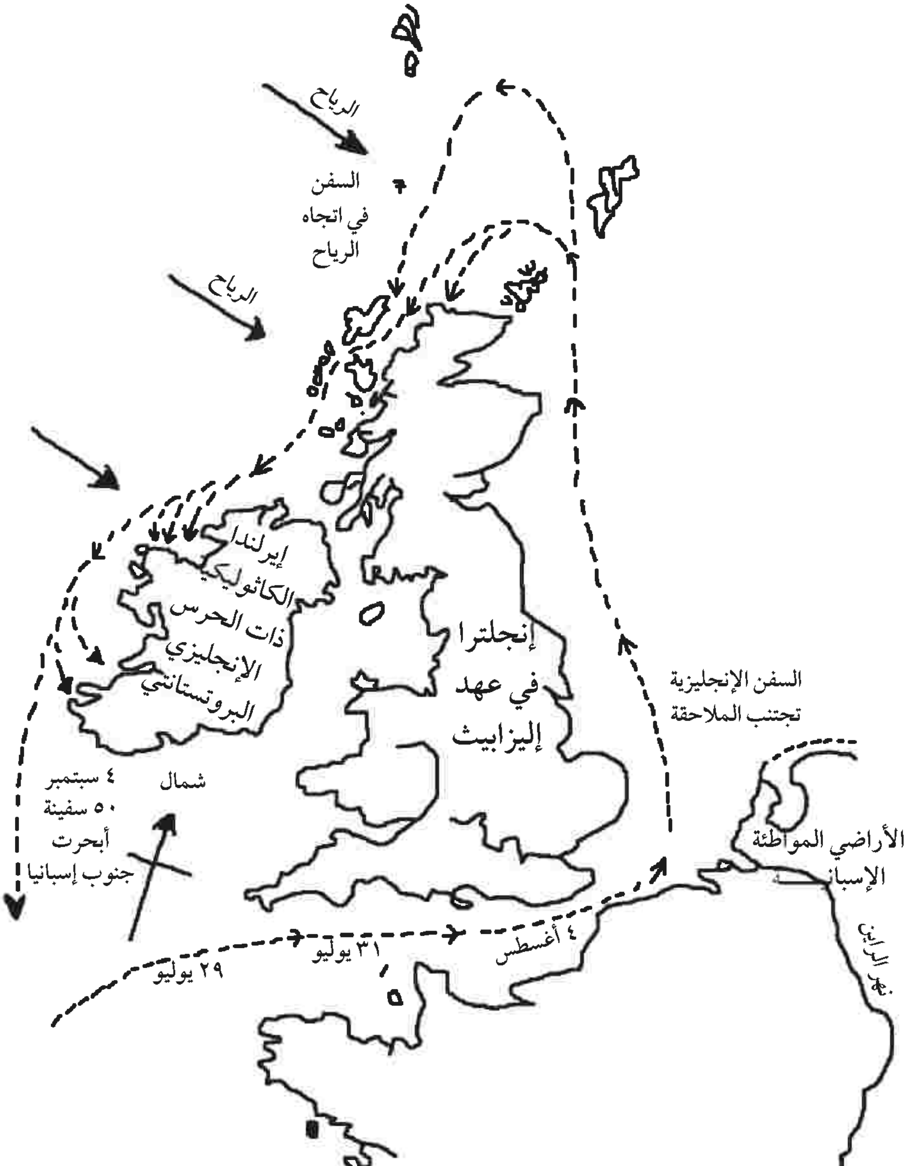

شكل رقم (٨)

المحاولة الإسبانية لغزو إنجلترا ١٥٨٨

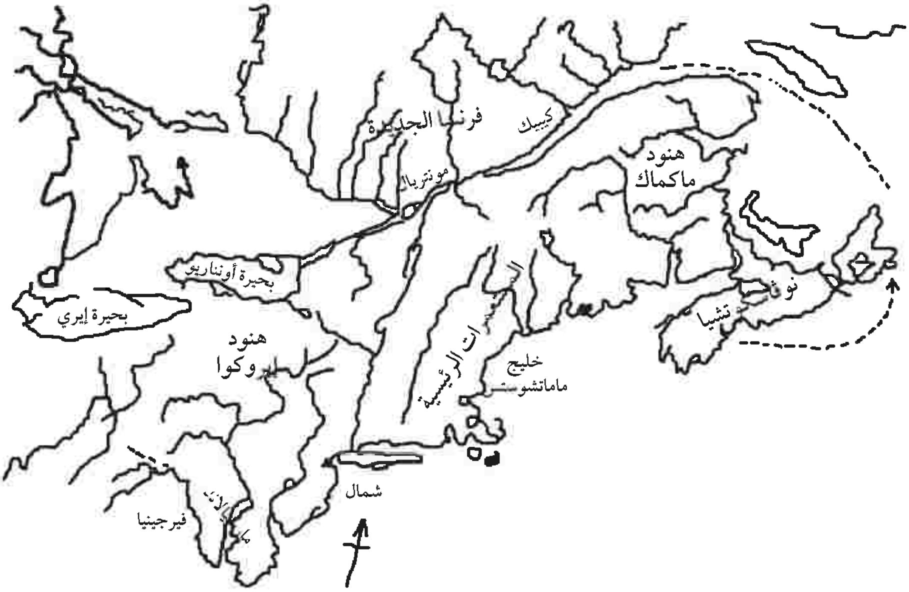

شكل رقم (٩)

إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة

(صراع من أجل قارة ١٧٥٥ -١٧٦٣)

شكل رقم (١٠)

شبح إمبراطورية نابليون الحربية على أوروبا عام ١٨١٠

شكل رقم (١١)

توحيد إيطاليا

(تحت حكم آل سافوي ملوك سردينيا وبيدمونت)

شكل رقم (١٢)

توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب

أَ- أشانتي
إِ- إيريتريا (إيطالية)
جَ - جامبيا
ل- ليبيريا
ص- الصومال
س. ل- سيراليون
ط- طوجو لاند
غ. ب - غينيا البرتغالية
غ. إ- غينيا الإسبانية
أ. ح- أورانج الحرة

لبريطانيا

شكل رقم (١٣)

الاحتلال الأوروبي لإفريقيا

(الحال في عام ١٩١٤)

شكل رقم (١٤)

ممالك ودوقيات إمبراطورية آل هابسبورج

(النمسا والمجر عام ١٩١٤)

شكل رقم (١٥)

تفتيت شرق أوروبا

(حدود الإمبراطوريات القديمة: ألمانيا، النمسا، روسيا، تركيا)